

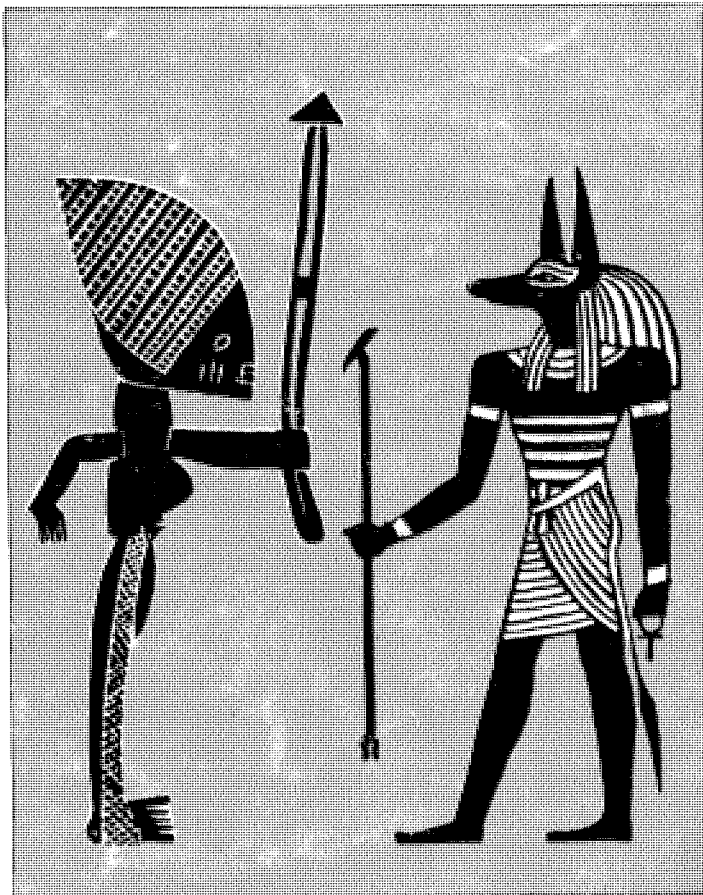
وَقَفَّيْنَا لِأَمْرِ الْعِزِّ الْقَوِي

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT



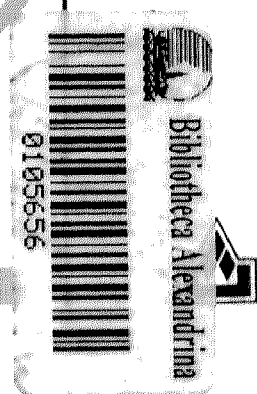
شيخ أنتا ديوب

ترجمة: حلیم طوسون



مكتبة محمد بن أحمد

الأصول الزنجية
للأخا رة المصرية



<http://arab-rationalists.com>

<http://arab-rationalists.com>

الأصول الزنجمية
للحضارة المصرية

الأصول الزنجية للحضارة المصرية
الطبعة الأولى
١٩٩٥

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار العالم الثالث
٣٢ ش صبرى أبو علم / القاهرة
تليفون وفاكس / ٣٩٢٢٨٠

هذه ترجمة لكتاب:

NATIONS NÈGRES ET CULTURE

تأليف:

CHEIKH ANTA DIOP

ملحوظة للناشر

استبعدنا من النصوص الواردة فى أصول هذا المؤلف الفصول المتعلقة بقضايا تطوير اللغات القومية الزنجية ونماذج الترجمات لمختلف النصوص العلمية (الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وقوانين النسبية) من الفرنسية إلى لغة الولوف، وكذلك الدراسة المقارنة بين لغتى الولوف والسيرير، وترجمات النصوص الأدبية الفرنسية إلى لغة الولوف.

شيخ انتا ديوب

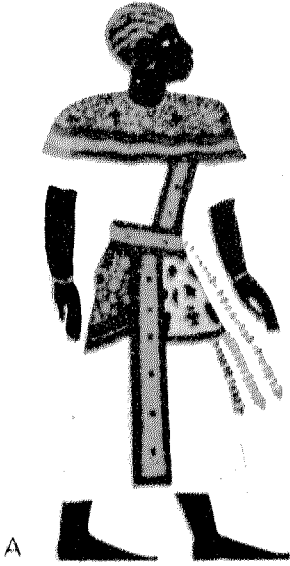
الأصول الزنجية للحضارة المصرية

ترجمة : حلیم طوسون

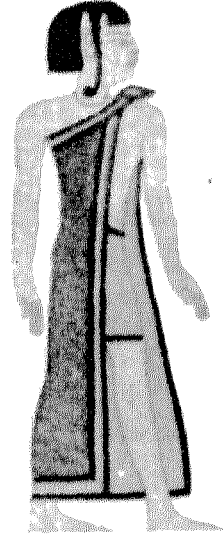
دار العالم الثالث

صدر لنفس المؤلف :

- Le Laboratoire du radiocarbone de l'IFAN, Dakar, IFAN, 1968.*
L'Unité culturelle de l'Afrique Noire, Paris, Présence Africaine, 1960.
L'Afrique Noire Précoloniale, Paris, Présence Africaine, 1960.
Antériorité des civilisations nègre : Mythe ou vérité historique ?, Paris, Présence Africaine, 1967.
Les fondements économiques et culturels d'un Etat fédéral d'Afrique Noire, éd. revue et corrigée, Paris, Présence Africaine, 1974.
The African Origin of Civilisation : myth or Reality, New York Westport, Lawrence Hill 7 Company, 1974.
Physique nucléaire et chronologie absolue, Dakar, IFAN-NEA, 1974.
L'Antiquité africaine par l'image, Dakar, IFAN-NEA, numéro spécial de *Notes Africaines*, 1975.
Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues négro-africaines, Dakar, IFAN-NEA, 1977.



A



B



C



D

- الأجناس البشرية كما صورها المصريون القدماء في اللوحات الجدارية بديره
رسميس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٨ ق.م). وهي تجسد بكل وضوح:
- صلات القرى بين المصري (A) أو الريموتو (أى خير البشر)، والنوبى (C) أو النحاسو.
 - وتميز جنسهما بجلاء عن الهندو-أوروبى (B) والليبيى أو التيمهر من جهة، والسامى (D) أو الامو من جهة أخرى.
- (نقلا عن ملحق كتاب آثار «DENKMÄLER» لكارل ليهيسوس، اللوحة رقم ٤٨).



مقدمة

الطبعة الشعبية الصادرة في عام ١٩٧٩

يتضح ، بعد مرور خمس وعشرين سنة، أن الأفكار الرئيسية التي عرضها كتاب الأهم الزنجية والثقافة لم يتقدم عليها الزمن، بل أصبحت جميعا الآن من المسائل المألوفة، بينما بدت في الفترة التي ظهرت فيها هذه الأفكار، ثورية إلى الحد الذي كان يدفع عددا ضئيلا من المثقفين الأفارقة إلى التجاسر والقبول بها. ويتعين علينا أن نحیی هنا شجاعة الشاعر العبقري إيميه سيزير ونظرته الثاقبة وأمانته؛ فقد تردد على كافة الأوساط التقدمية الباريسية آنذاك، بعد أن قرأ طوال ليلة واحدة كل الجزء الأول من المؤلف بحثا عن اختصاصيين مستعدين للدفاع معه عن هذا الكتاب الجديد ولكن بلا جدوى! فقد أحاط به الفراغ من كل جانب.

واليكم المواضيع الرئيسية التي تناولها هذا المؤلف والتي لم تعد تثير الرفض لدى المثقفين الأفارقة:

- استقلال إفريقيا،
- قيام دولة اتحادية على صعيد القارة الإفريقية،
- الأصل الإفريقي والزنجي للبشرية والحضارة،
- الأصل الزنجي للحضارة المصرية - النوبية،
- إسهام هذه الحضارة، وبالتالي الفكر الزنجي، في الحضارة الغربية في مجالات العلوم والآداب والفنون،
- تحديد تيارات الهجرة الكبرى وتكوين العروق الإفريقية،
- التقارب اللغوي بين مصر وإفريقيا السوداء،
- الأصل الحقيقي للعالم السامي،
- تحديد المجال الثقافي للعالم الأسود، الممتد حتى آسيا الغربية في وادي نهر السند،
- تحديد السمات المميزة للبنىات السياسية والاجتماعية الإفريقية،
- قيام الدول الإفريقية في كافة أرجاء القارة بعد أفول نجم مصر، وتواصل العلاقة التاريخية - الثقافية حتى فجر الأزمنة الحديثة،
- وصف عالم الفن الإفريقي ومشاكله (النحت، التصوير، الموسيقى، العمارة، الأدب.. الخ)،

- التدليل على قدرة لغاتنا على استيعاب الفكر العلمى والفلسفى، وبناء عليه أول تدوين إفريقى لا يعتمد على التصنيف العرقى لتلك اللغات، .. الخ.

بل إنه من المعروف أن اليونسكو تهنت منذ أكثر من عشر سنوات جانها كهيروا من تلك الأفكار المتعلقة بالتاريخ الإفريقى وتتطور لغاتنا القومية.

وقد بدا لنا أنه ليس من المفيد أن نُدخل تحسينات على هذا الكتاب الذى كان بداية تلك الانطلاقة، وذلك بمناسبة صدور طبعاته المتتالية. ويتعين أن يظل على ما كان عليه كشاهد دائم على جهودنا الأولى لتحديد القضايا الإفريقية ومعالجتها والتطورات التى طرأت على هذه الأطروحات. والتحسينات المختلفة موجودة فى مؤلفات جاءت بعد ذلك ومنها: أسبقية الحضارات الزنجية: أهى أسطورة أم حقيقة تاريخية؟^(*) [Antériorité des civilisations nègres: mythe ou vérité historique?]

وعلاقة القرى المتوارثة بين اللغة المصرية الفرعونية واللغات الإفريقية الزنجية - [Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues négro-africaines].

وانى لأرجو أن يجد الشباب الذى سيقراً هذا الكتاب دواعى للأمل، وهو يعيش المسافة التى قطعت منذ أن تمت كتابته.

شيخ انتاديوب

(*) مطبوعات Présence Africaine ، باريس ، ١٩٦٧

مقدمة

طبعة عام ١٩٥٤

أصبح من المعتاد في أيامنا هذه أن نطرح على أنفسنا كافة أنواع الأسئلة؛ ولذا يتعين أن نتساءل هل كانت دراسة القضايا التي يعالجها هذا الكتاب ضرورية؟ إن النظرة السطحية للأوضاع الثقافية في إفريقيا السوداء، تكفي وحدها لتبرير مثل هذه الدراسة. ولو أننا سلمنا بما تقوله الدراسات الغربية، لكان من العبث أن نتوغل في أعماق الغابات المدارية للبحث عن حضارة واحدة قد تكون في نهاية المطاف من صنع الزنوج. فعلى الرغم من الشهادات القاطعة التي قدمتها الحضارات القديمة؛ حضارات إفه [IFÉ] وبنين وحوض التشاد، وغانا، وكافة الحضارات المسماة الحضارات السودانية الجديدة (مالي، جاو. الخ) والزامبيز (مونوموتابا) والكونغو في أغوار خط الاستواء، فإن الحضارتين الاثيوبيية والمصرية كانتا، حسب مزاعم بعض العلماء الغربيين، من صنع أناس بيض، أسطوريين، اختفوا من الوجود وتركوا بعد ذلك المجال للزنوج لمواصله الأشكال والتنظيمات والتقنيات .. الخ، التي ابتكرها هؤلاء البيض.

ولن يكون تفسير تواجد حضارة إفريقية منطقيا ومقبولا، وجادا، وموضوعيا، وعلميا - في زعمهم - إلا إذا توصلنا، عن أى طريق كان، إلى ذلك الأبيض الأسطوري الذي لم يهتم أحد إطلاقا بتبرير قدومه واستقراره في تلك المناطق. وبوسعنا أن ندرك بكل يسر كيف اقتضى الأمر من العلماء أن يتوصلوا في نهاية استدلالاتهم واستنباطاتهم المنطقية والجدلية إلى فكرة «البيض ذوى البشرة السوداء» (*) الرائجة على نطاق واسع في أوساط المتخصصين بأوروبا. وهذا النوع من النظريات لن يكتب له البقاء بالطبع لأنه يفتقر تماما الى أى أساس حقيقى. ولا يمكن تفسيره إلا من خلال التحيز المستأثر بأصحابه، وإن تظاهر بالموضوعية والتفكير المتروى.

على أن جميع هذه النظريات «العلمية» المتعلقة بالماضى الإفريقى حققت غرضها تماما؛ فهي نفعية وعملية. فالحقيقة تتمثل فيما يكون مفيدا. والمفيد هنا والهدف بالنسبة للمستعمر هو دفع الزنجى الى الاعتقاد، تحت ستار العلم، بأنه لم يكن في يوم من الأيام مسئولاً عن أى شئ ذى بال، ولا حتى عما يوجد لديه. وهكذا يصبح التخلى والعدول عن أى طموح قومى أمرا يسيرا لدى المترددين، ويتم تمييز ردود الفعل الدافعة الى الخضوع لدى من عانوا من قبل من الاغتراب. ولذا يوجد العديد من المنظرين في خدمة الاستعمار، برعوا جميعا في الترويج لأفكارهم وتدريسها على نطاق الشعب، أولا بأول.

(*) انظر صحتى ١٥٣ - ١٥٤.

واستخدام التبعية الثقافية كأداة للسيطرة قديم قدم العالم ذاته: فقد لجأ إليه كل شعب، في كل مرة غزا فيها أراضي شعب آخر. ومن الجدير التنويه بأن أحفاد الغاليين الذين استخدم يوليوس قيصر هذا السلاح ضدهم هم الذين يوجهونه اليوم ضدنا.

وقد كتب يوليوس قيصر يقول: «في مواجهة المآثر الفريدة لقواتنا، لجأ الغاليون إلى اختراعات من كل نوع، فهم ماهرون وحاذقون للغاية في محاكاة وصنع كل ما يتم إطلاعهم عليه». (قيصر، حرب الغال، الكتاب الثالث، الفقرة ٢٢).

ومن الواضح هنا أن الغازي الروماني كان ينكر على الغاليين المتحدين أي قدرة على الإبداع، وهو أرفع قيمة بالنسبة للإنسان، ولا يعترف لهم إلا بالقدرة على المحاكاة التي تعتبر من الصفات الدنيا.

ونحن نواجه في الوقت الراهن وضعاً مماثلاً في إفريقيا وفي كافة البلدان المستعمرة. ويتضح من ذلك مدى خطورة تعرفنا على ماضيها ومجتمعنا وأفكارنا من خلال المؤلفات الغربية وبلا عقلية نقدية.

وفي مواجهة هذا الموقف العام من جانب الغزاة، كان من المتوقع أن يحدث رد فعل طبيعي للدفاع عن النفس من جانب الشعب الإفريقي، يرمى بالطبع إلى وضع حد للإساءات اليومية التي تتعرض لها من جراء تلك الأسلحة الثقافية الماضية التي يستخدمها المحتل. ولم تكن هناك طريقتان للتعامل معها: فبناء على ما جاء من قبل، فإن هذه النظريات زائفة أصلاً لأنها لا تسعى للتوصل إلى الحقيقة. ولو حرصت إحدى هذه النظريات على ذلك لحرمتها التربية الغربية الزائفة منذ أجيال متعاقبة من القوة اللازمة للتوصل إلى الحقيقة.

وعليه يصبح من الضروري أن يعكف الأنارقة على دراسة تاريخهم وحضارتهم لكي يتعرفوا على أنفسهم على نحو أفضل، ويتوصلوا من خلال الدراية الحقيقية بماضيهم إلى جعل تلك الأسلحة بالية ومثيرة للسخرية، وغير فعالة بالتالي. غير أن هذه الفكرة التي كان من المفترض أن تكون مسألة دارجة وشائعة لاتزال أبعد عن أن تكون مسألة مفروغا منها بالنسبة لكافة الأنارقة، وهناك عدة اتجاهات في هذا الصدد يمكن التمييز بينها:

أولاً: الكوزموبوليتيون أدعياء العلم ودعاة الحداثة: يضم هذا الفريق كل الأنارقة الذين يفكرون على النحو التالي: إن التنقيب في أطلال الماضي للتوصل إلى حضارة إفريقية ليس سوى مضيعة للوقت إزاء الطابع الملح للمشاكل القائمة، وهو موقف عفا عليه الزمن. وعلاينا أن نقطع صلتنا بكل هذا الماضي المشوش والهمجي واللاحق بالعالم الحديث الذي تندفع تقنياته بسرعة الالكترونات. والعالم في طريقه إلى التوحد، وعلاينا أن نكون في طليعة التقدم. وسيحل العلم في

القريب العاجل كافة المشاكل الكبرى بحيث تصبح تلك المشاغل المحلية والثانوية غير ذات موضوع. ولا مجال لأن تكون هناك لغات تعبير عن ثقافة ما سوى لغات أوروبا التي أُنبتت أصلا قدرتها على ذلك، مما يعنى أنها قادرة على نقل الفكر العلمى الحديث وأنها عالمية فعلا.

وهذا الفريق الذى يشمل أقطابا مختلفة هو الأجدر بالتحليل لأنه يضم الأفراد الذين يعانون أكثر من غيرهم من الانسلاخ الثقافى. ومن الواضح أن الاندماج هو المخرج الوحيد فى رأيهم. ويرجع موقفهم - عندما يكونون مخلصين - إلى قصر نظر ثقافى أو الى العجز عن اقتراح حلول ملموسة وصالحة للمشاكل التى يتعين حلها لكى يكف الاندماج عن أن يكون ضرورة ظاهرة؛ إنهم ينكرون وجود تلك المشاكل وطابعها الموضوعى، مما يذكرنا بموقف النعامة. والواقع أن هذا الموقف ليس فى صميمه سوى «مهلك سر» خطير لأنه يوهم بالتقدم بخطوات عملاقة، ويخفى الميل إلى التقليل من قيمة كل ما هو نابع منا. وهذا السم الثقافى الذى يجرى تسريبه إلى العقول منذ نعومة الأظافر بكل مهارة، أصبح جزأ لا يتجزأ من جوهرنا، وهو يتجلى فى كافة الأحكام التى تصدر عنا.

وربما كان هؤلاء الأشخاص منطقيين مع أنفسهم، ولتوفرت لديهم حجة قوية فى صالح موقفهم لو أنهم تبنوا موقفا مشابها لموقفهم لدى المتحضرين للغاية الذين أصبحوا بمثابة القبلة بالنسبة لهم، أى لو أنهم وجدوا لدى الأوروبيين الغربيين ذلك الازدراء والإنكار لقيمهم الغابرة لكى يصبحوا من أنصار الحداثة. ولكن الأمر على عكس ذلك تماما، إذ أن هؤلاء المتحضرين للغاية أحرص الناس، أيا كانت توجهاتهم السياسية أو الفلسفية، على الحفاظ على ثقافتهم القومية. وهكذا يتبين لنا أن «الحداثة» ليست مرادفا لقطع الصلة مع منابع الماضى الحية. وعلى العكس فإن «الحداثة» تعنى «إدماج عناصر جديدة» لبلوغ نفس مستوى الشعوب الأخرى. ولكن «إدماج عناصر جديدة» يفترض تواجد وسط يتقبل هذا الإدماج، أى مجتمع مستند إلى الماضى، لا إلى أجزائه التى ذهبت ولكن الى الجزء الحى والقوى من الماضى الذى تتم دراسته بما فيه الكفاية لكى يتمكن أى شعب من التعرف على نفسه من خلاله. فتجميد الروح القومية لشعب ما فى حدود ماضٍ خلاب لاخطورة منه - لأنه مزور بما فيه الكفاية - يشكل أحد الأساليب الكلاسيكية للسيطرة. ولكن اذا كان الغرض الذهاب إلى مدى أبعد، وإذا كان المطلوب محو شعب ما للحلول محله فى غضون عدة عقود، فيجب التوصل إلى تفتيت مجتمعه، أى دفع النخبة - أو من تعتبرهم الجماهير من أفرادها - إلى المشاركة بطريقة إجرامية أو بريئة فى تفتيت المجتمع وسحق النصيب الحى من الماضى وترك القيم الأساسية التى كانت بمثابة لحمة المجتمع (التاريخ، اللغات .. الخ) نهبا للهلاك. ولذا يحرص الماركسيون الواعون على الحفاظ بالكامل على هذه العوامل وعلى تعزيزها باستمرار، حتى وهم فى خضم المعركة المريرة من أجل ضرورات الحياة الأساسية ومن أجل تولى السلطة السياسية لأنهم يدركون أن نضالهم سيمتد فعايلته لو أنهم لم يعملوا على حماية الثقافة الوطنية التى تؤمن بقاء المجتمع الذى يكافحون من أجله.

ويوسع أى منتتم الى هذا الفريق، لكن يقتنع بذلك، أن يلجأ الى الاستدلال التالى، وهو ليس استدلالاً باهراً، إلا أنه يتميز بقدرته على الوصول بنا الى حقيقة مؤكدة: «وما أننى أضع كل ثقتى فى هؤلاء المتحضرين للغاية الذين أصبحت أفكارهم فى مجموعها مرجعاً لى، فإن كل فكرة صائبة تدخل فى هذا النطاق تكون كذلك بالنسبة لى أيضاً. ولكنهم يولون العناية بكل دقة لتاريخهم ويجدون كل يوم بينما يذلون كل جهد لتزوير تاريخى بكل دأب. فبوسعى إذن أن أستنتج من موقفهم هذا أن هناك أهمية لا تقدر بثمن لأن يعرف أى شعب تاريخه الحقيقى». يجب إلا تقوم الإنسانية على انزواء البعض لصاح البعض الآخر، فالتنكر مبكراً للثقافة الوطنية ومن طرف واحد، بغية تبنى ثقافة طرف آخر واعتبار ذلك تبسيطاً للعلاقات الدولية وتوجهاً نحو التقدم، معناه الانتحار. فأين هو ذلك الساذج الذى بوسعه أن يعتبر نفسه اليوم «چول ثيرن» وأن يتنبأ، على طريقة رينان بالأوضاع فى عام ألفين وبالتقدم الذى سيحرزه العلم والمجتمع حتى ذلك الحين، وأن يتنبأ بالتالى بالطابع المرحلى لكافة مشاغلنا؟ (*) بيد أنهم ينسون فقط أن الشعب الذى لا يدرك تماماً أن السبيل التاريخى الوحيد المؤدى إلى قمم الكمال هذه، وإلى هذا العهد الإنسانى الذى لا لون له، سيخاطر بأن يضل الطريق ويكون غائباً فى تلك المرحلة عن محفل «الأمم».

وهكذا يتضح لنا أنه لا يمكن أن نشارك هذا الفريق فى موقفه الذى ينفى فعاليته وجدوى النضال ضد الاستلاخ الثقافى، أى إنكار وجود تلك الثقافة بينما يتوقف عليها ثلاثة أرباع مسلكنا. ولا غرابة فى ألا تتكون أغلبية هذا الفريق من العلماء. ويتعين بالطبع على إفريقيا أن تستوعب الفكر العلمى الحديث بأسرع ما يمكن؛ بل يجب أن نتوقع منها أكثر من ذلك، فالتغلب فى هذا المجال على التأخر الذى تراكم منذ عدة قرون يتطلب منها أن تخوض مسرح التهارى الدولى وأن تسهم فى تقدم العلوم الصحيحة فى كافة الفروع بمشاركة أبنائها أنفسهم. بيد أنه يجب ألا نكون واهمين؛ فهذا التطور لن يتحقق بالكامل إلا فى اليوم الذى ستصبح فيه إفريقيا مستقلة تماماً. فالسماح بتدريب كوادر تقنية معدلات فعالة فى بلداننا التابعة سيكون بمثابة انتحار بالنسبة للنظام الاستعمارى. وفى هذا الصدد يتم تمديد تنفيذ البرامج لفترة تكفى لكى يكون قد تم فى الوقت نفسه تغيير الوسط والنسبة بين عدد المستوطنين وأهالى البلدان الأصليين بحيث لا تعود إفريقيا ملكاً للأفارقة. وفى كل مرة يدعوننا فيها المستعمرون إلى التعاون معهم من أجل التقدم المشترك لشعبينا، يكون قصدهم الخفى التمكن من الحلول محلنا. ولذا فإن جل ما يقدمونه ليس سوى سراب واسع النطاق يضلل شعباً بأسره بتواطؤ البعض معهم. ونشهد، على أقصى تقدير، بزوغ بعض الشخصيات اللامعة؛ غير أن أندريه سيجفريد سيسارع بالقول بأنه لا يمكن الحكم على شعب بناء على إنجازات بعض الأفراد، متناسياً بذلك إلى حد ما الأسس النظرية للفردية البرجوازية الغربية التى تنسب تقدم البشرية إلى بعض المبقرات.

(*) لا يبنى ذلك بالطبع أننا نقتل من شأن رينان وچول ثيرن أو نعتبرهما من السلاج.

وهكذا يصبح من الجلى أن قيام دول افريقية مستقلة متحدة فى إطار حكومة مركزية ديمقراطية، تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الليبية حتى رأس الرجاء الصالح، ومن المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى، هو وحده الذى سيتيح للأفارقة إمكانية الازدهار تماما وإثبات قدراتهم فى مختلف مجالات الإبداع، وفرض احترامهم - بل وحبهم - والقضاء على كافة أشكال الرعاية الأبوية وطى صفحة من صفحات الفلسفة، والأسهام فى تقدم البشرية بإتاحة الفرصة للتآخى بين الشعوب الذى سيكون أيسر خاصة لأنه سيكون تأخياً بين دول مستقلة بنفس الدرجة لا بين مسيطرين ومقهورين.

ولذا فإن أنصار التقدم والحداثة بشكل مجرد الذين يتحاشون إثارة القضية على هذا النحو والإشارة الى أن التقدم الذى يبدو أنهم ينشئون له ليس ممكناً فى ظل النظام الاستعمارى الذى يعيشون فيه، لا يمكنهم أن يتفاوضوا عن أبعاد هذا الموقف الخطير الذى يتخذونه.

ثانها: المثقف الذى أهمل تحسين دراسته للماركسية أو الذى درس الماركسية بسرعة وبشكل مجرد دون أن يفكر أبداً فى تطبيقها على الحالة الخاصة المتمثلة فى الواقع الاجتماعى لبلده. وتنتعت عناصر ذلك الاتجاه، موقفنا بأنه إما رجعى أو برجوازى أو عنصرى، أو نازى... والواقع أنهم يعتقدون أن النتائج التى تم التوصل إليها تفتقر إلى الواقعية ويجدون مشقة فى الاعتراف بها.

ويتعين أن نعيد هنا الى الأذهان ما كُتِب مؤخرًا حول ضرورة أن يعرف أى شعب تاريخه وأن يحافظ على ثقافته القومية. وإذا كانت هذه الدراسة لم تتم بعد فمن الواجب القيام بها. ولا يعنى ذلك ان نختلق جملة وتفصيلاً تاريخاً أجمل من تاريخ الشعوب الأخرى كى نخدر الشعب معنويًا خلال مرحلة النضال من أجل الاستقلال الوطنى، ولكن أن ننطلق من تلك الفكرة البهيمية، ألا وهى أن لكل شعب تاريخاً. فما لا غنى عنه لشعب ما لكى يوجه تطوره، أن يكون على دراية بأصوله، أبا كانت. ولو تصادف أن كان تاريخنا أجمل مما كنا نتوقع، فلن يكون ذلك سوى تفاصيل مفرحة يجب ألا نشعرنا بالمرج مادمننا نقدم أدلة موضوعية تساند ذلك، وهو ما لن نتأخر عن القيام به هنا. ومع أن الأدلة الواهية التى ساقها منظرو النازية لا تصمد أمام أبسط التحليلات الموضوعية للوقائع، إلا أن العديد من الإخصائين سيتصدون للوقائع المقدمة بحجج مراوغة لن تفى بالمتطلبات الفكرية لأى هاو غير متخصص.

وبوسعنا أيضاً أن نستشهد بليتين لكى يقتنع بذلك من يخشون اتخاذ موقف برجوازى:

«غير أنكم ترتكبون خطأ إذا استنتجتم من ذلك أنه بوسع المرء أن يصبح شيوعياً دون أن يتمثل حصيلة المعارف الإنسانية. فمن الخطأ الاعتقاد بأنه يكفى استيعاب الشعارات الشيوعية واستنتاجات العلم الشيوعى دون استيعاب مجموع المعارف التى تشكل الشيوعية ذاتها أحد نتائجها...»

«إن الثقافة البروليتارية لا تنطلق بأكملها من حيث لا ندرى، إنها ليست من ابتكار رجال يعتبرون أنفسهم إخصائيين في هذا المجال، هذا عبث صرف لأن الثقافة البروليتارية يجب أن تظهر كتطور طبيعي لحصيلة المعارف التي توصلت إليها البشرية» (٢ أكتوبر ١٩٢٠).

وهذه الأفكار العامة حول الثقافة البروليتارية تنطبق على الحالة الخاصة بكل شعب.

ولنا أن نتساءل حول رأى مثقفينا فيما يتعلق بموقف الصين الشيوعية التي تلفظ فكرة إحلال الحروف الفينيقية العالمية محل كتابتها المعتمدة على الرموز، حرصا منها على ثقافتها القومية.

ويقدر ما يتعلق الأمر برفض أفكار مثل : الحضارة المصرية من أصل أبيض أو أسوي أو أوروبي، كان يتعين - لتحاشي أى التباس حول مضمون الكلمات - أن نلجأ إلى جمل مثل : لا إنها (أى الحضارة المصرية) تنحدر من أصل زنجي إفريقي. فلو أننا اكتفين بتعبير «شعب إفريقي» لافتقرنا إلى الدقة؛ ولذا يجب ألا يجد القارئ فى استخدام كلمة «زنجي» نية عنصرية؛ ولير فيها فقط حرصا من جانب المؤلف على التوضيح. فالعنصريون الواعون أو غير الواعين، هم أولئك الذين يجبروننا على دحض كتاباتهم باستخدام مثل هذه العبارات.

ثالثا: اللاكوميون الشكليون: إنهم أولئك الذين قد يسوهم عنوان الكتاب «الأمم الزنجية والحضارة». والعنوان الأول الذى تبادر الى ذهننا - وأصبح عنوانا فرعيا نظرا لطوله فكان «من التاريخ الزنجي - المصرى القديم إلى القضايا الثقافية فى إفريقيا السوداء اليوم» - ليس مرضيا بالطبع بقدر أكبر.

وسرعان ما ينعفس البعض فى صفصطة اقتصادية ليثبتوا - أو بالأحرى ليلاحظوا - أنه من العبث التحدث عن الاستقلال القومى فى هذا العصر المتميز بالاعتماد المتبادل فى الاقتصاد. ولو كان هؤلاء مخلصين صادقين لبينوا بذلك أنهم لا يرون بوضوح طبيعة ذلك بالاعتماد المتبادل. لقد انقضى بالطبع عهد الاقتصاديات القومية الصغيرة المنغلقة على نفسها، ومن الملاحظ أيضا أنه توجد سوق دولية تتوفر فيها منتجات من كافة القارات بفضل اكتساب السرعة التى ضيقت المسافات، وتلك أفكار دارجة تتردد كل يوم.

ما هى المشكلة الاقتصادية التى يتعين أن تعالجها دولة إفريقية قوية تنبسط أطرافها لتشمل كل القارة تقريبا وتمتد حدودها من الشواطئ الليبية للبحر الابيض المتوسط حتى رأس الرجاء الصالح، ومن المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى؟ سيتعين عليها أن تبيع فى السوق الدولية منتجاتها الفائضة وأن تشتري منها ما تفتقر إليه إلى حد كبير مع تحاشي الوقوع تحت ضغط أى غول اقتصادى. ونظرا لمدى القوة التى ستكتسبها هذه الدولة فإنها لن تكون تابعة اقتصاديا للدول الأخرى بقدر ما لن تكون تلك الدول تابعة لها. وهذا هو مفهوم الاعتماد المتبادل الذى يجب أن نتمسك به: أن

نتحاشى، مهما كان الثمن، أن نكون أتباعاً لآخرين بقدر ما لا يكونون تابعين لنا، لأن التبعية ستؤدى آلياً الى علاقات استعمار واستغلال من جانب واحد. وهكذا تكون فكرة قيام اتحاد فيدرالى يضم كافة الدول السوداء فى القارة مسألة ضرورية للغاية.

ومن السهل أن نسترسل لكى نثبت أن استقلال مستعمرة السنغال الصغيرة، وكوت ديفوار، وتوجو، وداهومى.. الخ، لن يكون إلا وهماً لأنه سيتعين على هذه المستعمرات أن تخضع فوراً لكافة أشكال الضغوط الخارجية وستدور آلياً، بفعل القوى الاقتصادية، فى فلك إحدى الدول الكبرى. والحل الفيدرالى يقضى على مثل هذا الوضع.

ويجرى التساؤل أحياناً حول ما يمكن أن نتصوره كأهم فى إفريقيا. من السهل تطبيق تعريف ستالين للأمة على الاثيوبيين، والهامبارا، والوكوف، والزولو، واليوروبا.. الخ. وتوجد فى السودان، وكوت ديفوار، وتوجو، والسنغال، وغينيا، والنيجر، وكينيا، وجنوب إفريقيا، والسودان المسمى «الانجلو - مصرى» تويات لأمم ستتميز من خلال نضالها من أجل الاستقلال. ومن العبث أن نحاول اليوم تحديد ماهى بالضبط حدود هذه الأمم، وإن كان من الممكن أن ننتبأ من الآن لكل واحدة من تلك المناطق باللغات التى ستفرض نفسها - مع احتمال ضئيل فى الوقوع فى الخطأ - بينما لا يوجد مجال للشك فى وحدة الثقافة والتاريخ والطابع النفسى، وإن كان الوسط الجغرافى يمثل قدراً من الوحدة. وستحل المشكلة كما يتم ذلك الآن فى الهند: أى أن الحدود الراهنة التى رسمت من أجل تيسير الاستغلال الاستعمارى، أو حسب المصادفات، ليست بالضرورة غير قابلة للتعديل وعلينا أن نهيئ أذهاننا لكى تكون مستعدة لقبول التغير فى المستقبل.

والواقع أن الشكليين يخشون بكل بساطة ألا يكونوا مسافرين للأحداث، وبمن موقفهم هذا عن نوع من التعالى الفكرى؛ ولو كان موقفهم متسقاً باتجاه مصلحة الشعب لقادهم إلى التقدمية، ولكن الوضع أبعد من أن يكون كذلك.

وتشن الأوساط الاستعمارية حملة منسقة ضد القومية فى البلدان الخاضعة وتسمى مقدماً لإجهاضها فى كل مكان، لأن الروح القومية، حتى وإن كانت شوقينية للغاية، لها عواقب خطيرة بالنسبة لتلك الأوساط: فهى تقضى على امتيازاتها وتأتى على سيطرتها كالسيل الجارف.

ولذا، فبوسعنا أن نلاحظ أن من يلقنونا أن القومية قد تم تجاوزها هم:

أ) قوميون بورجوازيون من الدولة المستعمرة ناضلوا فى بلادهم وحققوا تطلعاتهم ولكن القيام بعمل مشابه من جانبنا يقض مضاجعهم. وقد يكون بوسعهم أن يقولوا لنا أيضاً: «ولكن ماذا سيحل بنا لو فعلتم نفس الشيء؟».

ب) قوميون بورجوازيون من الدول المستعمرة يجهلون حقيقة أنفسهم: فهم غير

قادرين على التخلي عن فكرة وجوب احتفاظ الوطن الفرنسي بمستعمراته بطريقة أو أخرى. وهم يتساءلون أيضا عن مصير فرنسا بدون ممتلكاتها: إنهم يتصورون أنه يمكن التوصل إلى شكل للامهاد الفرنسي يكون قادراً على البقاء ويبحثون عن صيغة بديلة. ولكني نظهر على نحو أفضل شذو ذلك الترابط بين دول مستعمرة ومستعمراتها، فلنتصور تعميم ذلك فى إفريقيا: سيكون معنى ذلك أن تظل مفتتة إلى الأبد بين فرنسا، والمجترات، والبرتغال، وإسبانيا، وجنوب إفريقيا تحت قيادة الدكتاتور مالان.. الخ. ولو كُتب النجاح للتستر على هذا التفتت لإفريقيا تحت اسم التقدم والديمقراطية، لتحققت تلك الديمقراطية العالمية على حساب بلادنا، بمعنى أن تظل مقسمة ومستغلة من جانب طرف واحد.

هناك إذن واجب علينا أن نؤديه إزاء أوروبا: علينا أن نساعدنا على التحرر من العادات القديمة التى اكتسبتها من خلال ممارستها للاستعمار، ودفعها إلى إدراك الوجهة الحقيقية لمصالحها التى لم تعد قادرة حتى على تحديدها. فأوروبا وحدها ضعيفة للغاية وفى حاجة الى المساعدة للتوصل إلى ذلك. غير أنها لن تتأخر فى الإقدام على هذا الأمر وعلى أسس ديمقراطية حقا فى اليوم الذى ستقتنع فيه بأنها فقدت إفريقيا نهائياً؛ وعندئذ سيبدو الاتحاد الفيدرالى الأوروبى الحل الوحيد بالنسبة لكل الذين كانوا يتساءلون حتى ذلك الوقت عن مصير بلادهم بدون مستعمرات.

وأخيراً : قد يكون هناك فريق مكون من عناصر تعتقد أن النضال من أجل لقمة الخبز اليومية هو وحده المهم وأن كل ماعدا ذلك ليس سوى هموم مثقفين ويجب أن نتحاشى الانشغال بقضايا زائفة. ووسعنا حينئذ أن نذكر لهم مثال فيبيثنام الذى تعين عليه أن يحل هذه «القضايا الزائفة» فى الأدغال حيث اقتضى الأمر تأسيس تعليم باللغة الدارجة من أجل تدريب الكوادر. ومن جهة أخرى يتضح من كل ما جاء من قبل أن الاهتمام بالقضايا الثقافية هذه ليس إلا من أجل إكساب هذا النضال كل فاعليته وتحويله إلى نضال من أجل الاستقلال الوطنى.

هذا المؤلف ليس «اختراعاً» حول قضايا معينة؛ فكل من أراد استخدام الماركسية كمرشد للتحرك على الساحة الإفريقية سيتوصل بكل تأكيد إلى نفس الاستنتاجات.

ولكن، يجب أن أضع النقاط فوق الحروف: فإنى حريص على أن أوضح أننى لا ألمح إطلاقاً إلى صدق الدين الإسلامى أو الدين المسيحى. وأعتقد أن أى إفريقى جاد يريد أن يكون فعالاً بالنسبة لبلده سيتحاشى اللجوء إلى أى انتقادات دينية. فالدين مسألة شخصية. فنحن هنا فقط بصدد مشاكل ملموسة يتعين حلها حتى يتمكن كل مؤمن من ممارسة طقوس دينه بحرية فى ظل ظروف مادية أفضل. ولذا لن يكون من الأمانة أن يُقرأ هذا الكتاب بنية خفية تريد أن تعثر فيه على أى كلمة تسمح بنهذه مع التصايح بأنه دعوة إلى الكفر.

الفصل الأول

المصريون : ما أصلهم ؟ شهادات الكتاب والفلاسفة القدامى والتوراة وقيمة تلك الشهادات

لم يطرح هذا السؤال أبدا بالنسبة لمعاصري المصريين القدامى الذين تركوا لنا شهاداتهم عن المصريين الذين عرفوهم.

ويجزم كل شهود العيان هؤلاء بأن المصريين كانوا زنجيا.

وقد أكد هيرودوت مرارا على الطابع الزنجي للمصريين؛ بل واستخدم ذلك المتوصل إلى استنتاجات غير مباشرة لإثبات أن فياضانات النيل لا يمكن أن تعود إلى ذوبان الثلوج، فساق لذلك عدة أسباب كان يعتقد أنها صحيحة، ومنها السبب التالي المتعلق بمصر: «والسبب الثالث يعود إلى كون الحرارة تجعل الناس سودا...» (هيرودوت، الكتاب الثانى، الفقرة الثانية، ترجمة لارشير إلى الفرنسية).

كما أن من بين الحجج التى ساقها هيرودوت لإثبات أن وسيطة الوحي الإلهي عند الإغريق أصلها مصرى، قوله: «... وعندما يضيفون أن هذه كانت سوداء، فإنهم يقصدون بذلك أن هذه المرأة كانت مصرية...» (٢-٥٨). والحمامتان المقصودتان ترمزان إلى امرأتين مصريتين يقال إنه تم اختطافهما من طيبة من أجل إقامة الوحي الإلهي فى دودون وليبيا (واحة جوبيتر - آمون).

وقال هيرودوت لكى يثبت أن سكان كورنثيس (شرقى البحر الاسود وجنوب القوقاز) كانوا من أصل مصرى وأنه يتعين اعتبارهم جزءا من جيش سنوسرت استقر فى هذه المنطقة: «ويعتقد المصريون أن هذه الشعوب سليلتة جزء من جيش سنوسرت. وأنا أظن ذلك أيضا على أساس قرينتين: أولهما أنهم سود وشعرهم أكرت...» (٣-١٠٤).

وأخيرا فإن هيرودوت يميز فيما يتعلق بأهالى الهند، بين الهنود الهاديين والهنود الآخرين الذين يصفهم على الوجه التالى: «إنهم جميعا من نفس اللون الذى يقارب إلى حد كبير لون الاثيوبيين..»

فيشرتهم السوداء أشبه ببشرة الأثيوبيين. وهذه الأصناف من الهنود بعيدة للغاية عن الفرس؛ وهم يعيشون في الجنوب ولم يخضعوا أبداً لداريوس» (٣ - ١٠١) (*).

وكتب ديودور الصقلي يقول: «يقول الأثيوبيون إن المصريين من بين جالياتهم التي أقامها أوزيريس في مصر. بل إنهم يزعمون أن هذا البلد لم يكن في بداية العالم سوى بحر، ولكن النيل الذي جرف في فيضاناته كميات كبيرة من غرين اثيوبيا ردمه في نهاية الأمر وجعله جزءاً من القارة ... ويضيفون قائلين إن المصريين أخذوا عنهم وعن مؤلفيهم وأسلافهم جانباً كبيراً من قوانينهم، وإنهم تعلموا منهم تيجيل الملك كآلهة، ودفن موتاهم في احتفال بمثل هذه العظمة؛ وإن النحت والكتابة نشأ عند الأثيوبيين... ويسوق الأثيوبيون أدلة أخرى مزعومة حول أقدميتهم على المصريين، ولكن لا داعي لذكرها هنا» (تاريخ العالم، الكتاب الثالث، ص ٣٤١ ترجمة الأب تيراسون إلى الفرنسية عن اليونانية، باريس ١٧٥٨).

ولو لم يكن المصريون والأثيوبيون من نفس الجنس الأسود لثوّه ديودور باستحالة اعتبار المصريين من جالياتهم، أي أثيوبيين استقروا في مصر فكانوا أسلافاً للمصريين. ويشير سترابون في كتابه الجغرافيا إلى أهمية هجرة الشعوب في التاريخ، وكان يعتقد أن حركة الهجرة هذه تمت في الاتجاه العكسي فقال:

«وقد استقر مصريون في الحبشة وفي كوثنيس» (الكتاب الأول، الفصل الثالث، الفقرة العاشرة).

(*) قد يلتزم البعض أن السواد مستخدم هنا بشكل مخفف للإشارة إلى سحنة المصريين السامية. ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: لماذا خص الإغريق المصريين وحدهم من بين كل الساميين بصفة الزنجية، ولماذا لم يطبقها على العرب، وهم ساميون على الوجه الأكمل؟

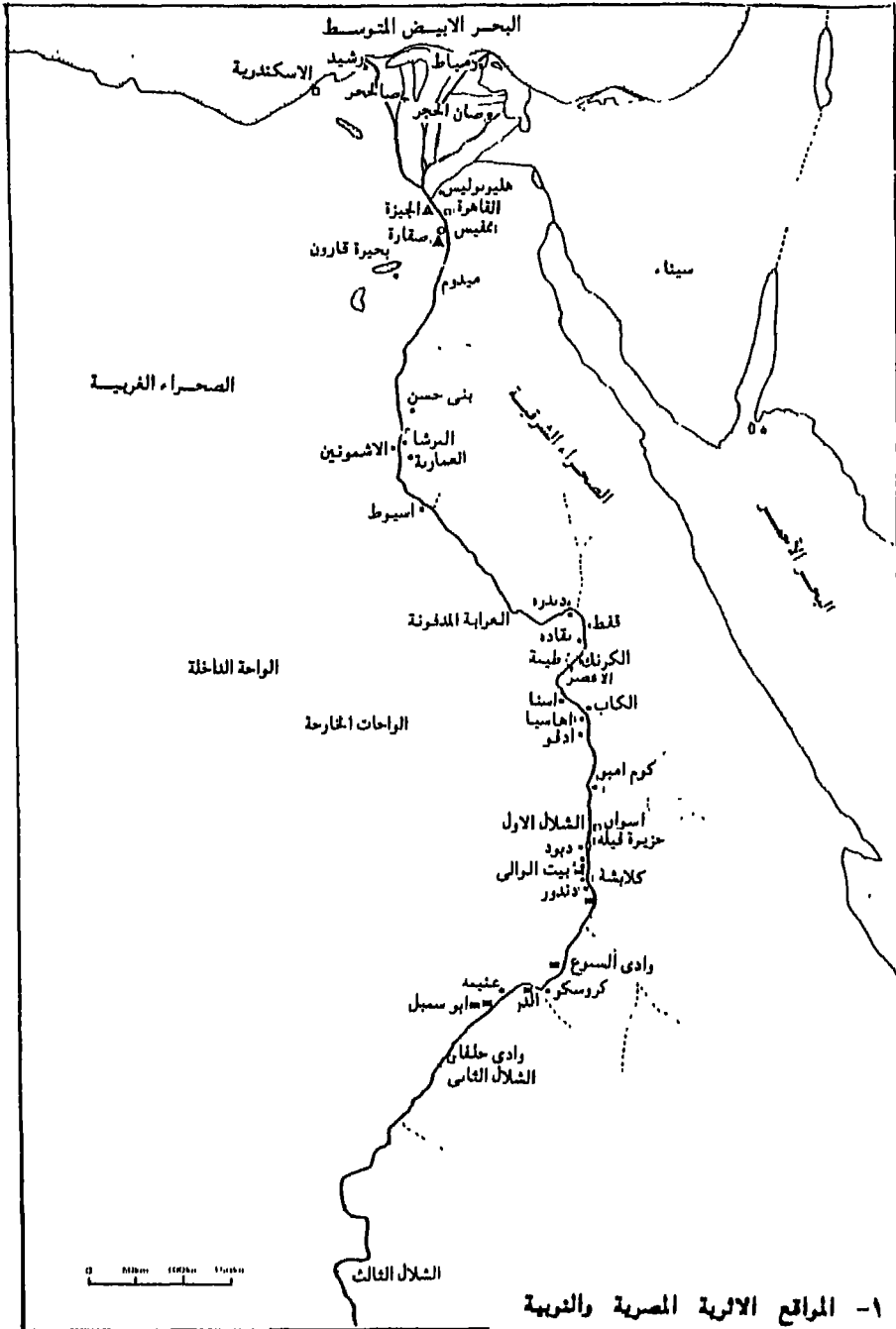
هل كانت للمصريين سمات «سامية» قريبة للغاية من سمات الزنوج، إلى الحد الذي جعل الإغريق يجدون من الطبعي أن يخلطوا بينهم بالانتصار على استخدام نفس الصفة العراقية (ميلاتريس) وهي أقوى كلمة يونانية لوصف الزنجي؟ ويُستخدم أصل هذه الكلمة إلى يومنا هذا. كلما كان المقصد الإشارة بلا لبس إلى الجنس الزنجي، ومثال ذلك:

ميلاتين: الخضب الذي يلون جلد الزنجي
ميلاتونيا: مجموعة من الجزر يسكنها زنوج
الخ، الخ..

والواقع أن الإغريق كانوا حساسين للغاية إزاء تدرجات الألوان وكانوا يميزون بينها حينما حدثت. ففي نفس الفترة كانوا شهرون إلى الكنعانيين، الخلاسيين إلى حد كبير في ذلك الوقت بكلمة لينيقي، وكانت تعني أحمر ويقصد بها شخص من هذا العرق. ويذهب سترابون إلى أبعد من ذلك فقد حاول أن يفسر في كتابه الجغرافيا لماذا كان المصريون أكثر سواداً من الهنود (الجنس الأحمر الداكن المشهور عند الحديثين).

وهكذا يتبين لنا أن التباساً كانوا يميزون تماماً بين الزنوج المصريين والأثيوبيين من جهة، والساميين ولونهم الأحمر الداكن المزعوم ومن الواضح بناء على ذلك أن أي تفسير علمي للتفجيرات لا يتيح الفرصة هنا للإلتفات من الحقيقة بإضفاء الغموض عمداً على ماهر واضح تماماً. فاللجزم إلى مثل تلك البهلوانيات لمحاولة تمحيش القول بالوقائع البسيطة، يجر أصحابها مصاعب لا يمكن التغلب عليها.

واخيراً فإن الساميين أنفسهم (عرباً ويهوداً) كانوا يعتبرون المصريين من الزنوج.



١- المواقع الأثرية المصرية والنوبية
 في الشلال الثالث حتى البحر الابيض المتوسط

ومرة أخرى نجد أن إغريقيا يفيدنا، رغم أنه كان شديد التعصب، بأن المصريين والأثيوبيين والكلخييين ينتمون إلى نفس الجنس، مؤكداً بذلك ملاحظة هيرودوت حول الكولخييين^(*).

وقد لخص ماسبيرو على نحو ما رأى كل المؤلفين القدامى حول الجنس المصرى (التاريخ القديم لشعوب الشرق، ص ١٥):

«وحسب الشهادة شبه الاجتماعية للمؤرخين القدامى فإنهم «ينتمون إلى جنس إفريقي» بمعنى أنهم تزوج استقروا أولاً في اثيوبيا، على شواطئ النيل الأوسط، ثم نزحوا تدريجياً نحو البحر بمتابعة مجرى النهر... ومن جهة أخرى تؤكد التوراة أن مصرايم، ابن حام وشقيق كوش الاثيوبي وكنعان، جاء من بلاد ما بين النهرين واستقر مع ابنائه على شاطئ النيل».

وحسب ماجاء في التوراة، كانت ذرية حام سلف الزوج القدامى تسكن مصر: «وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان، وبنو كوش: سبا وحويله وسبته ورعمه وسبتكا .. وكوش ولد ثمود الذى ابتدأ يكون جبارة في الارض... ومصرايم ولد لوديم وعنماميم ولهايم وفتوحيم وفتروسيم وكسلوحييم ... وكنعان ولد صيدون بكثرة وحشا...» (سفر التكوين، الإصحاح العاشر)

واسم مصرايم يشير أيضاً إلى مصر بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط، كما يشير اسم كنعان (الشام) الى كل ساحل فلسطين وفينيقيا، أما شنعار (سمنار) التي كانت نقطة انطلاق ثمود نحو آسيا الغربية فلا تزال تشير إلى مملكة النوبة (انظر خريطة إفريقيا لثوجوندى، ١٧٩٥).

ماهى قيمة تلك الشهادات؟ لا يمكن أن تكون هى أو غيرها زائفة لأنها شهادات شهيد عيان. ولا يمكن أن يكون هيرودوت مخطئاً عندما ينقل لنا عادات هذا الشعب أو ذاك، وعندما يقدم استدلالاً قطنياً إلى حد ما ليفسر لنا ظاهرة كانت غير مفهومة فى عهده، ولكن بوسعنا أن نقر على الأقل بأنه كان قادراً على ملاحظة لون بشرة الناس الذين عاشوا فى بلد زاره فعلاً. وفضلاً عن ذلك لم يكن هيرودوت المؤرخ الذى يصدق كل ما وصل الى علمه ويسجله بلا تدقيق. فهو قادر على التمييز بين الأمور، ويحرص دائماً، عندما يورد رأياً يوافق عليه، على أن ينوه بذلك. وعلى سبيل المثال فقد كتب يقول بخصوص عادات السكوتيين [SCYTHES] والنور [NEURES]:

«يقال إن هذه الشعوب مكونة من سحرة. ولو صدق المرء مايقوله السكوتيون والإغريق المستقرين فى سكوتيا فإن كل نورى يتحول مرة كل سنة إلى ذئب لبضعة أيام ثم يستعيد شكله الأول بعد ذلك. ومهما قال السكوتيون فإنهم لن يدفعننى إلى تصديق تلك الحكايات الخرافية، حتى وإن أكدوها وأقسموا على ذلك» (٤ - ١٠٥).

(*) كان السكوتيون يشكلون مجرعة من الزواج وسط الشعوب البيضاء بالقرب من البحر الأسود، ولذا كانت مسألة أصلهم معار لمرسل علماء المهرد اللدنية.

وهو يشير دائما بكل عناية الى الفارق بين ما رآه بنفسه وما سمعه. وهكذا فقد كتب يقول بعد أن زار قصر التيه في مصر:

«والأجنحة مزدوجة، فهناك ألف وخمسمئة منها تحت الأرض وألف وخمسمئة فوقها، أي ثلاثة آلاف في مجموعها. وقد زرت الأجنحة العليا وطلت بها، ولذا أحدثت عنها عن يقين كشاهد عيان. أما الأجنحة الموجودة تحت الأرض فلا أعرف عنها إلا ما قيل لي بخصوصها. ولم يسمح لي إطلاقا المصريون القائمون على قصر التيه بأن أتفرج عليها لأنها تستخدم حسب قولهم كمدافن للتماسيح المقدسة وللملوك الذين أمروا بإقامة هذا الصرح. ولذا فأنا لا أتكلم عن الأجنحة الموجودة تحت الأرض إلا نقلا عن آخرين، أما الأجنحة العليا فقد رأيتها وأعتبر أنها من أضخم ما صنعه البشر». (٢) - (١٤٨).

وهل كان هيرودوت مؤرخا يفتقد المنطق وغير قادر على محاولة تفهّم الظواهر المعقدة؟ إن تفسيره لفيضانات النيل يدل على العكس على تفكير حريص على استخدام العقل، يبحث عن تفسيرات علمية للظواهر الطبيعية. وهكذا، فقد قال:

«ولكن بعد أن استبعدت الآراء السابقة، يتعين أن أفصح عما أعتقد بخصوص هذه الأشياء الخفية، ويبدو لي أن النيل يفيض في الصيف لأن الصيف في الشتاء من مسارها القديم بسبب قسوة الموسم، تطوف حينذاك بمنطقة السماء المظلة على الجزء العلوي من ليبيا. وهذا باختصار سبب ذلك الفيضان، لأنه من المحتمل أنه كلما مال هذا الإله واقترب أكثر فأكثر من بلد، كلما زاد من جفافه ومن نضوب أنهاره.

«ولكن يجب تفسير ذلك بمزيد من التوسع: فالهواء صاف دائما في ليبيا العليا^(*). والجو حار فيها دائما ولا تهب عليها رياح باردة أبدا. وعندما تطوف الشمس فوق هذا البلد فإنها تنتج نفس التأثير الذي تحدثه عادة في الصيف عندما تمر بوسط السماء فتجذب الأبخرة نحوها ثم تدفعها بعد ذلك نحو الجهات العليا حيث تشتتها الرياح التي تستقبلها وتذيبها. ويبدو أن هذا هو السبب في أن الرياح التي تهب على هذا البلد، شأنه شأن الجنوب والجنوب الغربي، أكثر إدراارا للأمطار. ومع ذلك أعتقد أن الشمس لا تعيد كل ماء النيل الذي تجتذبه سنويا وإنما تحتفظ بقسط منه».

وتدل تلك الأمثلة الثلاثة على أن هيرودوت لم يكن مجرد ناقل سلبي لحكايات لا تصدق أو لثرهات، بل كان على العكس مدققا للغاية وموضوعياً وعلمياً بالنسبة لعهدده. فلماذا تجرى محاولات للنيل من سمعة هذا المؤرخ وتصويره على أنه كان ساذجاً؟ لماذا «يعاد صنع» التاريخ على الرغم من شهاداته القاطعة؟

(*) كانت ليبيا تعنى بالنسبة للإغريق إفريقيا مع استبعاد مصر وأثيوبيا.

يتحتم علينا أن نلاحظ أن السبب الحقيقي الذي يدفع إلى التصرف على هذا النحو، يعود إلى أن هيرودوت أفادنا كشاهد عيان، بأن المصريين كانوا زنوجاً، ثم أثبت بعد ذلك بنزاحة نادرة (إذا ما علمنا أنه كان إغريقياً) أن اليونان أخذت من مصر كافة عناصر حضارتها، بما في ذلك عبادات الآلهة وأن مصر هي التي كانت مهد الحضارة.

وعلى أى حال فإن الكشوف الأثرية تبين كل يوم أن هيرودوت كان محققاً في مواجهة مناوئية. فقد كتبت كريستيان ديروش نوبلكور تقول بخصوص أعمال التنقيب الأخيرة في تانيس (صان الحجر): «لقد رأى هيرودوت المبانى الخارجية لتلك المدافن وترك وصفا لها (تقصد بذلك قصر التيه الذي أشرنا إليه آنفاً). وأثبت لنا بيير مونتيه مرة أخرى أن أبا التاريخ لم يكذب» (العلوم والمستقبل، العدد ٥٦، أكتوبر ١٩٥٨).

وقد يعترض البعض قائلاً إن هيرودوت زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، بعد انقضاء أكثر من عشرة آلاف سنة على ظهور الحضارة المصرية، وأن الجنس الذي أقام هذه الحضارة لم يكن بالضرورة الجنس الزنجي الذي وجد هيرودوت.

غير أن تاريخ مصر بأسره يدل - كما سنرى فيما بعد - على أن اختلاط السكان الأصليين مع عناصر بدوية بيضاء، من الغزاة أو التجار، كان يتزايد أكثر فأكثر كلما اقتربنا من نهاية التاريخ المصري القديم. ووفقاً لم.دى پاو كانت مصر مشبعة في العصر المتأخر بجاليات أجنبية من الأجناس البيضاء: العرب في قفط، والليبيون في الموقع الذي أصبح فيما بعد الاسكندرية، واليهود على مقربة من مدينة هراكليس (افاريس؟)، والبابليون (أو الفرس) في شمال ممفيس، ودهالوا واديون الفارون» في منطقة المهاجر الكبرى الواقعة شرقي النيل، والكاريون، والأيونيون عند فرع دلتا النيل الشرقي. ودفع پسامتيك (نهاية القرن السابع ق.م) هذا الغزو السلمى إلى أقصى مدها بتكليف مرتزقة إغريق بالدفاع عن البلاد. «وارتكب الفرعون پسامتيك خطأ جسيماً بأن عهد بأمر الدفاع عن مصر إلى فرق أجنبية وأدخل مختلف الجاليات المكونة من حثالات الأمم». (أبحاث فلسفية حول المصريين والصينيين، بقلم م.دى پاو، المجلد الثاني، ١٧٧٣، برلين، ص ٣٣٧).

«وفى عهد الأسرة الصاوية الأخيرة، استقر الإغريق رسمياً في نوكراتيس (كوم الجلف)، الميناء الوحيد الذي كان يحق فيه للأجانب ممارسة التجارة». (هيرودوت، ٢-١٧٩).

وعلى أثر فتح الإسكندر لمصر، اتسع مدى انصهار اليونانيين البيض مع المصريين الزنوج ليتخذ شكل سياسة استيعاب في ظل البطالسة.

«ولم يدلل ديونيزوس أبداً إلى هذا الحد، ولم يحظ بطقوس كلها تزلف واسراف بقدر ما تمتع بذلك في عهد البطالسة الذين وجدوا في عبادته وسيلة فعالة على نحو خاص لاستيعاب اليونانيين الغزاة

ودمجهم مع المصريين، سكان البلاد الأصليين» (ج.ج.باشوفن: صفحات من اختيار ادريان تورل «من العهد الأموي الى العهد الأيوبي» مكتبة ف. الكان، باريس، ١٩٣٨، ص ٨٩).

وفيما يتعلق بشهادة التوراة، يتعين تقديم بعض التوضيحات:

ماهى قيمة شهادة التوراة؟

للإجابة على هذا السؤال يتعين أن نتدارس تكوين الشعب اليهودى. فمن هو الشعب اليهودى، كيف نشأ، وكيف أنشأ ذلك الأدب المتمثل فى التوراة، والذي جاء فيه أن اللعنة حلت بذرية حام، سلف الزوج والمصريين؟ وماهو الأصل التاريخى لتلك اللعنة؟

لقد دخل مصر أولئك الذين كانوا سيصبحون يهودا، وكان عددهم سبعين راعيا، جهلة جزعين، طردتهم المجاعة من فلسطين واجتذبتهم تلك الجنة الدنيوية المتمثلة فى وادى النيل.

ومع أن المصريين كانوا يبغضون بشكل خاص الحياة البدوية والرعاة، إلا أنهم احسنوا استقبالهم فى أول الأمر وذلك بفضل يوسف. وقد استقروا وفقا للتوراة فى أرض جاسان وأصبحوا رعاة قطعان فرعون... وبعد موت يوسف والفرعون الذى حماهم، وإزاء تزايد أعداد اليهود نشأت لدى المصريين ردود فعل سلبية، وذلك فى ظروف غير محددة المعالم. وأصبحت أحوال اليهود قاسية أكثر فأكثر؛ وقد سخرهم المصريون، حسب ماجاء فى التوراة، للقيام بالأعمال الشاقة واستخدموهم كأيد عاملة لبناء مدينة رمسيس. ويقال إن المصريين اتخذوا إجراءات للحد من عدد مواليدهم والتخلص من أبنائهم من الذكور خوفا من أن تنمو تلك الأقلية العرقية وتصبح خطرا قوميا فى حالة نشوب حرب، بأن تنضم إلى صفوف الأعداء.

«وأما بنو إسرائيل فأتيمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلات الأرض منهم. ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلّوهم بأنقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيشوم ورعسيس. ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا فاخترشوا من بنى اسرائيل. فاستعبد المصريون بنى اسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا. وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات... وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكرسى، إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. (سفر الخروج، الإصحاح الأول).

وهكذا بدأت الاضطهادات الأولى التي وسمت حياة الشعب اليهودى طوال تاريخه، فظلت الأقلية اليهودية منظوية على نفسها منذ ذلك الحين وأصبحت تتوق إلى الخلاص لما عانته من آلام وإذلال. وهيات هذه الخلفية المعنوية المتمثلة فى اليأس والأمل لنشأة أو نمو المشاعر الدينية. ومما جعل هذه الظروف مواتية تماما أن هذا الشعب المكون من رعاة بلا صناعة أو تنظيم اجتماعى (كانت الخلية الاجتماعية الوحيدة متمثلة فى الأسرة الأبوية)، والسلم فى أحسن الحالات بعضى، ما كان يستشرف أى رد فعل إيجابى إزاء تفوق الشعب المصرى تقنيا.

وقد ظهر فى تلك الظروف موسى، أول الأنبياء اليهود، الذى كتب تاريخ الشعب العبرى منذ أصوله الأولى وقدمه لنا من زاوية دينية.

كان موسى يعيش فى عهد تل العمارنة، حيث كان امنحوتب الرابع (اخناتون، حوالى عام ١٤٠٠ ق.م) يحاول تجديد الديانة المصرية الأولى الوحودية، التى كانت تندثر تحت وطأة المؤسسة الكهنونية وفساد ذمة الكهنة.

ويبدو أن اخناتون حاول تعزيز المركزية السياسية فى تلك الامبراطورية الشاسعة الأطراف التى كانت قد تأسست منذ عهد قريب، من خلال مركزية دينية. ولذا كانت الامبراطورية فى حاجة الى ديانة عالمية.

وقد تأثر موسى على ما يبدو بهذا الإصلاح الدينى. وأصبح من ذلك الوقت بطل الدعوة للتوحيد بين اليهود.

كان التوحيد، بشكله المجرد تماما، موجودا من قبل فى مصر التى أخذته عن الحضارة المروية السودانية، أى أثيوبيا القديما.

«مع أن آمون، الذى يعنى اسمه السر والعبادة، كان الإله الأكبر وفقا لأنقى التصورات الوحودية باعتباره... خالق تولد من نفسه منذ البداية وصنع كل شئ ولم يُصنع»... «إلا أنه أصبح ذات يوم مصحوبا بالشمس رع أو متحولا إلى أوزيريس أو حورس». (د.ب.دى پدرال، آثار افريقية السودان، مطبوعات بايو، ١٩٥٠، ص٣٧).

وفى ظل مناخ افتقاد الأمن الذى كان يواجهه الشعب اليهودى فى مصر، كان الإله الواعد بمستقبل آمن سندا معنويا لا غنى عنه. ومع أن هذا الشعب لم يكن يعرف، على ما يبدو، التوحيد حتى ذلك الوقت، على عكس أولئك الذين يريدون أن يجعلوه مبتكره، فقد طوره إلى حد كبير، بعد التحفظات التى أهداها فى بداية الأمر.

وقد قاد موسى الشعب العبرى خارج مصر مستعينا فى ذلك بالإيمان، غير أن هذا الشعب سرعان

ما ملّ هذه العقيدة ولم يعد بعد ذلك إلى التوحيد إلا تدريجياً. (العجل الذهبي لأخيه هارون عند جبل سيناء).

لقد دخل الشعب اليهودي مصر وهو مكون من سبعين راعياً منظمين فر، اثنتى عشرة أسرة أبوية، يدوين بلا صناعة ولا ثقافة، وخرج منها بعد أربعمئة سنة وقد بلغ تعداده ستمئة الف نسمة، بعد أن نهل منها كافة عناصر تقاليد في المستقبل، ومنها بالأخص التوحيد.

وإذا كان الشعب المصري قد ساء الشعب اليهودي سوء العذاب كما ورد في التوراة، وإذا كان الشعب المصري مكوناً من زنوج من ذرية حام كما جاء في التوراة أيضاً، فإننا لا يمكن أن نتجاهل الأسباب التاريخية للجنة التي حلت بحام كما جاء في الأدبيات اليهودية في مرحلة متأخرة تماماً بعد مرحلة الاضطهاد هذه.

ولذا فقد أسند موسى إلى الحمى القيوم، في سفر التكوين، الكلمات التالية التي وجهها لأبرام في حلمه (إبراهيم فيما بعد كما جاء في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين):

«اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم، فيذلونهم أربع مئة سنة، ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملك جزيلة» (سفر التكوين، الإصحاح الخامس عشر) (*).

ونحن هنا بصدد الأصل التاريخي للجنة التي حلت بحام.

فليس من باب المصادفة أن لعنة حام، والد مصريم وفوط وكوش وكنعان لم تصب سوى كنعان وحده المستقر في البلد الذي اشتهاه اليهود طوال تاريخهم.

من أين جاء اسم حام هذا، ومن أين استخلصه موسى؟ من مصر ذاتها حيث ولد وترعرع وهريم حتى الخروج. والواقع أننا نعلم أن المصريين كانوا يسمون بلادهم كيميت، ومعناها أسود بلغتهم. والتفسير الذي يقول إن كلمة «كيميت» التي تشير إلى أرض مصر الطينية، لا اللون الأسود، وبلاستطراد الجنس الأسود وبلاد السود، ناجم عن تخيل متعسف لمفكرين يعون ما سبترت على التفسير الصحيح لهذه العبارة. ولذا فمن الطبيعي أن نجد أن كلمة «حام» بالعبرية تعني: «حرارة أو أسود أو محروق» (**).

(* استناداً إلى ماجا، في التوراة كيف يمكن أن يكون الشعب اليهودي خالصاً من أي دم زنجي. لقد تحول في غضون أربعمئة سنة من ٧٠ فرداً إلى حوالي ستمئة ألف وسط أمة زنجية عاشت تحت سيطرتها طوال تلك الفترة. وإذا كانت السمات الزنجية لليهود غير ما هي عليه اليوم، فهذا يرجع على الأرجح إلى اختلاطهم مع العناصر الأوروبية منذ تشتتهم. وقد أصبح شبه مؤكد حالياً بأن موسى كان مصرياً، وبالتالي زنجياً - انظر موسى والرحلانية للزويد.

(**) بدوال، نقلاً عن موريه، ص ٢٧ من كتابه: آثار أفريقيا السوداء، مطبوعات بايو، باريس، ١٩٥٠.

وعليه، تتبدد كافة التناقضات الظاهرية ويظهر منطق الوقائع على حقيقته بكل وضوح. فأهالي مصر الذين يرمز اليهم باللون الأسود، كعبت = حام في التوراة، صُبت عليهم اللعنة في أدبيات الشعب الذي اضطهدوه. وهكذا يتبين لنا أن نقمة التوراة على ذرية حام لها أصل مختلف تماما عن ذلك الذي يعزى إليها اليوم جهارا نهارا، بلا أى أساس تاريخي. أما المسألة التي لا يمكن فهمها، فهي على العكس، كيف أصبحت كلمة كيمييت التي تعنى حامى، وأسود، وأبنوس .. الخ (باللغة المصرية القديمة ذاتها) تشير إلى جنس أبيض.

وهكذا نجد أن حام يصبح ملعونا وملطخا بالسواد وسلفا للزنوج عندما يكون ذلك فى خدمة الغرض المقصود، وهذا ما يحدث كلما جرى الحديث عن العلاقات الاجتماعية المعاصرة.

ولكن حام هذا يصبح أبيض كلما جرى البحث عن أصل الحضارة، لأنه متواجد فى هذا البلد الذى كان أول بلد متحضر فى العالم. وهكذا تم ابتكار فكرة الحاميين الشرقيين والغربيين التى لا تعدو أن تكون سوى اختراع موات لحرمان الزنوج من الكسب المعنوى للحضارة المصرية وللحضارات الإفريقية الأخرى كما سنرى. والصورة رقم ٢ (ص ٢٧) تمكننا من إدراك الطابع المفرض الذى تتسم به تلك النظريات.

ومهما بذلت الجهود لمحاولة فهم مفهوم الحامية كما ورد فى الكتب المدرسية الرسمية، إلا أن هناك استحالة لجعلها متفقة مع أبسط الحقائق التاريخية والجغرافية واللغوية والعرقية. ولا يوجد متخصص واحد قادر على تحديد المهدي الأول للحاميين (بالمفهوم العلمى) واللغة التى كانوا يتحدثون بها والطريق التى سلكوها والبلاد التى استقروا فيها ونوع الحضارة التى خلفوها وراعمهم. وعلى العكس يجمع المتخصصون على الاعتراف بأن هذه الكلمة لا تتفق مع أى مفهوم جاد، ولكن الكل لا يكف عن استخدامها كمبرر لتفسير أى ظاهرة من ظواهر الحضارة الإفريقية.



٢- نموذج جميل للحامى الشرقى

(سيجلمان: العروق فى افريقيا، الناشر بايو، ١٩٣٥) نقلا عن نيلى يوتشيموم- RICERCHE ANTROPOM-
"ETRICHE SUI SOMALI" ارشيفات الانترنتربولوجيا، ١٩١١.

الفصل الثانى

منشأ خرافة الزنجى

كانت مصر قد فقدت استقلالها منذ قرن من الزمن عندما زارها هيرودوت. فقد احتلها الفرس فى عام ٥٢٥ ق.م. وظلت منذ ذلك العهد تحت سيطرة الأجانب: فقد جاء بعد الفرس المقدونيون تحت قيادة الإسكندر، والرومان تحت قيادة يوليوس قيصر (٥٠ ق.م)، والعرب فى القرن السابع، والأتراك فى القرن السادس عشر، والفرنسيون بقيادة نابليون، ثم الانجليز فى أواخر القرن التاسع عشر.

كانت مصر مهد الحضارة طوال عشرة آلاف سنة بينما كانت بقية العالم غارقة فى ظلمات الوحشية. ومع أنها لم تعد تقوم بهذا الدور بعد أن دمرتها عمليات الاحتلال المتتالية إلا أنها ظلت مع ذلك تلقن لأمد طويل شعوب البحر الأبيض المتوسط، الفتية (الإغريق والرومان وغيرهم) التنوير الحضارى. وقد ظلت طوال التاريخ القديم الأرض الكلاسيكية التى تنحج إليها شعوب البحر الأبيض المتوسط لتنهل من منابع المعرفة العلمية والدينية والأخلاقية والاجتماعية.. الخ، التى كانت أقدم ما اكتسب البشر من معارف فى تلك المجالات.

وهكذا قامت على التوالى حول كافة شواطئ البحر الأبيض المتوسط حضارات جديدة استفادت من إسهامات عديدة هيأها لها الموقع الجغرافى للبحر الأبيض المتوسط الذى كان ملتقى حقيقتيا فى خير موضع فى العالم. وقد تطورت تلك الحضارات ماديا وتقنيا بفضل العبقرية المادية للهندو- اوروبيين: الإغريق والرومان.

وفى القرن الرابع تقريبا نفذت الشحنة الوثنية التى كانت تدفع تلك الحضارة الإغريقية - الرومانية: وتدخل عنصران جديدان: المسيحية وغازوات البرابرة فى أنحاء أوروبا فتولدت عنهما حضارة جديدة، هى ذات الحضارة التى تعترىها اليوم، بدورها، أعراض الإنهاك. وقد ورثت هذه الحضارة كافة ضروب التقدم التقنى التى توصلت إليها البشرية وأصبحت مجهزة تقنيا بما فيه الكفاية فى القرن الخامس عشر للاتطلاع نحو استكشاف العالم وقتحه.

وهكذا وصل البرتغاليون الى إفريقيا منذ القرن الخامس عشر عن طريق المحيط الأطلسى، فأقاموا أول اتصالات حديثة للقارة مع الغرب، لم تتوقف منذ ذلك العهد.

ماذا وجدوا في هذا الطرف الآخر من إفريقيا؟ وماهى الشعوب التى التقوا بها: أكانت هناك منذ العهود القديمة أم كانت قد هاجرت حديثا؟ وكيف كان مستواها الثقافى ودرجة تنظيمها الاجتماعى والسياسى، أى باختصار ماهى الدرجة التى كانت حضارتها قد بلغت؟ ماهى الانطباعات التى كان بوسعهم استخلاصها من احتكاكهم بتلك الشعوب؟ وماهى الفكرة التى كان بوسعهم التوصل إليها بخصوص قدراتها الذهنية واستعداداتها التقنية؟ وماهى طبيعة العلاقات الاجتماعية التى نشأت على أثر ذلك بين أوروبا وإفريقيا؟ وفى أى اتجاه تطورت هذه العلاقات باستمرار؟

سيوفر الرد على مختلف هذه الأسئلة التفسير الكامل للأسطورة الراهنة حول الزنجى البدائى.

وتستلزم بالطبع الإجابة على هذه الأسئلة الرجوع إلى مصر فى الفترة التى وقعت فيها تحت نير الأجانب.

وقد شهد على الأرجح انتشار الزنوج فى القارة الإفريقية مرحلتين رئيسيتين:

فمن المعترف به عموما أن الجفاف الذى أصاب الصحراء انتهى قبل الميلاد بـ ٧٠٠٠ سنة تقريبا. وكانت إفريقيا الإستوائية لاتزال على الأرجح منطقة غابات كثيفة للغاية بحيث لم تكن يجتذب البشر. ولذا فإن الزنوج الذين كانوا آخر من عاشوا فى الصحراء هجروها متجهين نحو أعالى النيل، فيما عدا بضع بقع ربما ظلت تائهة فى بقية أنحاء القارة لأنها اتجهت نحو الجنوب أو صعدت نحو الشمال^(*). وربما وجد الأولون فى أعالى النيل سكانا زنوجا كانوا مقيمين هناك أصلا. وعلى أى حال فقد تولدت أقدم ظاهرة تحضر عرفها العالم من خلال التأقلم التدريجى مع ظروف الحياة الجديدة التى فرضتها الطبيعة على مختلف السكان الزنوج. وقد تطورت هذه الحضارة التى تسمى مصرية فى عهدنا، تطورت على مدى طويل فى مهدها الأول ثم انحدرت ببطء مع امتداد وادى النيل لينتشر إشعاعها حول حوض البحر الأبيض المتوسط. واستغرقت دورة الحضارة هذه، وهى أطول الدورات فى

(*) ويتبين مما تم العثور عليه فى الصحراء أن سكانها كانوا من الزنوج...

«فاجسام النساء ذوات عجزات مكنتزة، كما يقول الانثولوجيون، أو على حد قول جان تيمبرال «ذوات الأدبار المختلفة واللحمية» (ث. مونرد، المهارة: استكشاف فى الصحراء الحقيقية، مطبوعات [JE SERS]، باريس، ١٩٣٧، ص ١٠٨) «فلاحون، وربما فلاحون زنوج، وأعداد غفيرة من الأبقار وحقل دُخن، وأوان من الفخار ومياه جارية وصيد وفهر وريف، تكسوه الحضرة وقرارب محكمة، كان كل ذلك جميلا ولكنه لم يدم، كانت المرحلة الرطبة قد سبقتها فترة متصحرة، وقد راحت تترك مكانها ببطء ليحل محلها جفاف جديد. لقد استعادت (الصحراء) مملكتها من جديد فامتصت البحيرات وحققت النجمل وأزالت الريف. وماذا عن أهالى الريف؟ كان الأمر سيئا بالنسبة لهم، فجرت بخصرعه مناقشات حادة فى برلمانهم: هل يتعين عليهم أن ينفوا فى مكانهم أو يهاجروا أو يتأقلموا. لم يناد أحد بالانتحار ولم يحصل التأقلم على صوت واحد وقت المرافقة على الخروج برفع الأيدي» (ث. مونرد-المرجع السابق، ص ١٢٨).

إن الهياكل البشرية التى تعود الى ما قبل التاريخ والتى وجدت فى الصحراء من النوع الزنجى؛ إنه إنسان اسيلار، فى جنوب الصحراء.

التاريخ، حوالى عشرة آلاف سنة، وهو متوسط بين التقدير الزمنى الطويل (هيرودوت ومانيبتون اعتماداً على بيانات الكهنة المصريين، الذين يرجعون تلك الحضارة الى ١٧ الف سنة)، والتقدير القصير للحديثين الذين تعين عليهم الاعتراف بأن المصريين كانوا قد اخترعوا التقويم فى عام ٤٢٤٥ ق.م.، مما يفترض آلاف السنوات من التطور للتوصل إلى مثل هذه التصورات.

ويوسع المرء أن يدرك ببساطة أن الزنوج انتشروا من جديد تدريجياً داخل القارة وشكلوا تَوَاتٍ أصبحت فيما بعد مراكز حضارات قارية (يتناولها بالدراسة الفصل الخامس).

وظلت تلك الحضارات الإفريقية معزولة أكثر فأكثر عن بقية العالم، ومالت الى التوقع نتيجة للمسافة الشاسعة التى تفصلها عن سهل الوصول الى البحر الأبيض المتوسط. وعندما فقدت مصر استقلالها، كان انعزال تلك الحضارات تاماً.

ولما كان الزواج قد أصبحوا على أثر ذلك منفصلين عن وطنهم الأم الذى اجتاحه الأجانب، وانغلقتوا على أنفسهم فى إطار جغرافى يحتاج إلى جهد أقل للتأقلم، وحظوا بطروف اقتصادية مواتية، فقد اتجهوا نحو تطوير تنظيمهم الاجتماعى والسياسى والمعنوى، أكثر من اتجاهم نحو البحث العلمى النظرى الذى ما كانت البيئة تبرره، بل وتجعله مستحيلاً. ولما كان التأقلم فى الشريط الضيق لوادى النيل المخصب يتطلب تقنية علمية فى الرى وإقامة السدود، وحسابات دقيقة للتنبؤ بفيضانات النيل، واستخلاص العواقب الاقتصادية والاجتماعية لذلك، فقد أصبح اختراع علم الهندسة ضرورة مادية لتحديد الملكيات بعد فيضانات النيل التى كانت تزيل الحدود، كما تطلبت شرائح الأرض المسطحة تحويل المعزقة التى تعود إلى العصر الحجري - الزنجي الجديد إلى محراث قام الإنسان بهجره ثم أحل محله البهائم. ويقدر ما كان كل ذلك أمراً لا غنى عنه بالنسبة للزنجي المستقر فى وادى النيل، بقدر ما كان لا يلزم فى ظل ظروف الحياة الجديدة داخل القارة.

ولما كان التاريخ قد أخل بتوازن الزنجي فيما مضى مع البيئة، فقد توصل إلى توازن جديد مختلف عن الأول من حيث غياب التقنية التى لم تعد ذات أهمية حيوية، على عكس التنظيم الاجتماعى والسياسى والمعنوى.

كما أن الزنجي تخلى تدريجياً عن اهتمامه بالتقدم المادى نظراً لأن الموارد الاقتصادية كانت مؤمنة من خلال وسائل لا تستدعى اختراعات متواصلة.

وقد تم الالتقاء مع أوروبا فى ظل ذلك الوضع الحضارى الجديد. فعندما بدأ البحارة التجار الأوائل البرتغاليون والهولنديون، والإنجليز، والفرنسيون، والداثاريون، والبراندنبورجوازيون فى إقامة وكالات تجارية على الساحل الغربى لأفريقيا فى القرن الخامس عشر، كان التنظيم السياسى للدول الإفريقية مساوياً فى مستواه للتنظيم السياسى لدول هؤلاء البحارة التجار، بل وأرقى منه فى كثير

من الأحوال. كانت النظم الملكية دستورية وتشمل مجلسا للشعب تمثل فيه مختلف الفئات الاجتماعية، ولم يكن الملك الزنجي كما لم يصبح أبدا طاغية يتمتع بسلطات لا حدود لها، على عكس ما أشاعته الأساطير. وكان الشعب يتولى تنصيبه في بعض الحالات، من خلال رئيس وزراء يمثل الرجال الأحرار. وكانت مهمته تتمثل في خدمة الشعب بحكمة وكانت سلطته تتوقف على مدى احترامه للدستور القائم (انظر الفصل الخامس).

وكان النظام الاجتماعي والأخلاقي على نفس المستوى من الكمال. ولم تسد في أي مكان العقلية السابقة على المنطق بالمعنى الذي قصده ليفي - برول، ولا توجد حاجة هنا للرد على هذه الأطروحة التي تقرأ منها صاحبها قبل وفاته... وعلى العكس كان التطور التقني أقل تقدما مما كان عليه في أوروبا للأسباب المذكورة آنفا. ومع أن الزنجي كان أول من اكتشف الحديد، إلا أنه لم يصنع المدفع، وكان سرّ البارود معروفا لدى الكهنة المصريين الذين كانوا لا يستخدمونه إلا للأغراض الدينية أثناء الطقوس الدينية الخاصة بأوزيريس (انظر: أبحاث فلسفية حول المصريين والصينيين، بقلم م.دي باو. وبناء على ذلك كان من السهل التغلب على إفريقيا من وجهة النظر التقنية، فأصبحت بذلك فريسة مغرية بالنسبة للغرب المزود بأسلحة نارية وسفن قادرة على قطع مسافات طويلة.

وعليه، فقد شجع ازدهار أوروبا الاقتصادي في عهد النهضة على غزو إفريقيا الذي تحقق بسرعة. وتم الانتقال من مرحلة الوكالات الساحلية إلى مرحلة الاستيلاء عن طريق اتفاقيات دولية بين الدول الغربية، أعقبها غزو الداخل بواسطة السلاح، تحت اسم إخماد الفتن وإقرار السلام.

وكان قد تم اكتشاف أمريكا في بداية هذه المرحلة على يد كريستوف كولومبوس فانصب فائض القارة الأوروبية القديمة في القارة الجديدة. واحتاجت زراعة الأراضي البكر إلى أيد عاملة رخيصة. وبدأت إفريقيا المجردة من وسائل الدفاع، خير مستودع بشري ملتم يتعين اغتراق تلك الأيدي العاملة منه بأقل التكاليف والمخاطر. وهكذا أصبحت النخاسة الحديثة المقصورة على العبيد من الزنوج، ضرورة اقتصادية قبل ظهور الآلة البخارية، وظلت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وأدى ذلك الانقلاب في الأدوار، الناجم عن العلاقات التقنية الجديدة، إلى علاقات قائمة، على الصعيد الاجتماعي، بين السيد الأبيض والعبء الزنجي. وكانت ذكرى مصر الزنجية التي أنشأت الحضارة في العالم قد اندثرت منذ العصور الوسطى، نتيجة لسيان التقاليد القديمة التي تم إخفاؤها في المكتبات أو دُفنت تحت الأطلال. وقد تلاشت تلك الذكرى أكثر فأكثر على مدى الترون الأربعة التي استغرقتها تلك العبودية.

ولما كان الأوروبيون مغرمين بتفوقهم التقني الحديث، فقد نظروا منذ البداية بأزدراء لكل العالم الزنجي الذي ماكانوا يفضلون إلا بوضع أيديهم على ثرواته. وتوفرت عوامل عديدة لتهيئة الذهن

الأوروبي تماما لتشويه شخصية الزنجي المعنوية واستعداداته الفكرية، ومنها الجهل بالتاريخ القديم للزنج، واختلاف العادات والتقاليد، والأحكام المسبقة المتفشية بين الجنسين لتصورها أنهما يتواجهان للمرة الأولى، وهذا علاوة على الضروريات الاقتصادية للاستغلال.

وهكذا أصبح «الزنجي» مرادفاً «للكائن البدائي الأدنى ذى العقلية السابقة على المنطق». ولما كان الكائن البشرى حريصاً دائماً على تبرير مسلكه، فقد ذهب إلى مدى أبعد من ذلك لإضفاء الشرعية على الاستعمار والنخاسة - لتسويغ وضع الزنجي الاجتماعي في العالم الحديث - فأنشأ أدبيات كاملة لوصف السمات الدنيا المزعومة التي يتميز بها الزنجي. وهكذا تم تدريجياً إفساد عقول عدة أجيال أوروبية. وتبلور الرأي العام الغربي فأصبح يقبل بشكل غريزي أن «الزنجي = إنسان أدنى» كما لو كان ذلك مسألة مفزوغاً منها^(*).

وبلغت الوقاحة قمتها بتصوير الاستعمار كواجب إنساني بالتذرع بالرسالة الحضارية التي يقع على عاتق الغرب الاضطلاع بها لرفع الإفريقي إلى مستوى البشر الآخرين. وهكذا أصبحت الرأسمالية مطلقة لليدن لممارسة أشنع أشكال الاستغلال تحت ستار مبررات أخلاقية.

وسيتم الاعتراف في أحسن الأحوال بمواهب الزنجي الفنية المرتبطة بحساسيته كحيوان أدنى، وذلك هو رأى الفرنسي جوبينو ، سلف الفيلسفة النازية الذي قرر في كتابه الشهير المعنون حول عدم التساوي بين الأجناس البشرية ، أن الإحساس بالفن يسرى في عروق الزنج، ولكنه يعتبر في الوقت نفسه أن الفن مظهر أدنى للطبيعة البشرية، وبالأخص حاسة الإيقاع المرتبطة بالاستعدادات الانفعالية لدى الزنجي.

وفي نهاية الأمر أثر مناخ الاغتراب هذا بعمق في شخصية الزنجي، وخاصة الزنجي المتعلم الذي أتاحت له فرصة إدراك فكرة بقية العالم عنه وعن شعبه. وكثيراً ما يفقد المثقف الزنجي ثقته في إمكاناته الذاتية وفي إمكانات جنسه، حتى أنه لن يكون من الغريب على الرغم من الإثباتات المطروحة في هذه الدراسة، أن يجد بعضنا مشقة في التسليم بأننا اضطلعنا حقاً بالدور الأول في حضارة العالم.

و كثيراً ما يظل زنج ذوو مستوى ثقافى رفيع ضحاًها لهذا الاغتراب إلى حد محاولة تقنين - بحسن نية - تلك الأفكار النازية المتعلقة بالأزدواجية المزعومة بين الزنجي الحساس والانفعالي

(*) جاء في قاموس لاوس الحديث المصدر (صفحة ٥١٦ - طبعة ١٩٠٥) التعريف التالي: «زنجي، زنجية (عن اللاتينية نيجر؛ أسود) رجل، امرأة أسود الجلد. وهو الاسم الذي يطلق بالأخص على سكان بعض بلدان أفريقيا الذين يشكلون جنساً أسود أدنى ذكاء من الجنس الأبيض المسمى الجنس القوقازي.

والخالق للفن، والأبيض المعتمد بالأخص على التفكير الرشيد^(*). وهكذا، فقد عبر شاعر افريقى زنجي بحسن نية عن ذلك في بيت شعر رائع الجمال:

«العاطفة زنجية والعقل إغريقى».

(ليوبولد سيذار سنجور)

وقد نشأ بذلك، شيئا فشيئا أدب زنجي «استكمالي» أراد أن يكون طفليا وسادجا وسليبا ومستسلما وكاء. وهكذا أيضا تشكل الأعمال الفنية الزنجية الخلاقة الراهنة في مجموعها، والتي تلقى تقديرا كبيرا من جانب الغربيين، تشكل مع ذلك مرآة تتيح لهؤلاء فرصة التطلع لأنفسهم بفخر لإيمانهم بتفوقهم، مع الاستسلام في الوقت نفسه لأحاسيسهم الأبوية. غير أن ردود الفعل ستكون مختلفة تماما لو أن نفس هؤلاء المحكمين وجدوا أنفسهم بصدد عمل فني زنجي ناجح تماما، لكنه خارج ذلك الإطار ومتحرر من الإحساس بالتهبية وعقد النقص، ويضع نفسه بالطبع في مستوى المساواة.

(*) «ولرسلنا مع الإغريق وأكثنا للمحكيين في هذا المجال بأن الانطلاق والحساس هما حياة العبقرة الفنية، وأن هذه العبقرة تسرق، عندما تكون كاملة، إلى الجنون، فإننا لن نسمى إلى البحث عن سبب هذا الخلق في أي شعور منظم وحكيم وفقا لطبيعتنا، ولكن من حلال عمق تأجيج الأحاسيس بالندفاعات طموحة ترمي إلى الجمع بين الذهن والمظاهر بغية استخلاص شيء مرض أكثر من الواقع... وبناء على ذلك يتمثل أماننا ذلك الاستنتاج الدقيق للعابة، وهو أن المنبع الذي تدفقت منه الفنون غرب على الفرائز الحضارية. إنه كامن في دم الزنوج... وقد يقال إنني أضع بذلك تاجا جميلا على رأس الزنجي المشرقة، وإنه لشرف عظيم حقا نسبته عليه بأن يجمع حوله جرقة عرائس الشعر المتناغمة إنه ليس شرفا عظيما. فأننا لم أقل إن كافة ربات الفنون اجتمعت هنا معا لقباح أنبها المعتمدة على التفكير والتي تفضل الجمال على العاطفة... فلر ترجمت له أشعار الأودسة والأخص اللقاء بين اوليس وثوسيكما وهو آية الإلهام المعقل، لقلبه النوم. فلكي ينطلق التعاطف لدى كافة الكائنات يتمين قبل ذلك أن يكون الذهن قد فهم، وذلك هو الأمر الصعب بالنسبة للزنجي... فالإحساس الفني لدى هذا الكائن، وهو أقرى من كل تعبير، سيظل إذن قاصرا بالضرورة على أبأس الاستخدمات... ولذا يحتل الموسيقى لدى المخلوق الأسره المركز الأول بين كافة الفنون، وهو يفضلها لأنها تداعب أذنه عن طريق تتابع الحركات ولا تطالب الجزء المنكر من مخه بأي شيء. والزنجي يحبها إلى حد كبير ويلتذ بها بإفراط، ولكنه ينظر مع ذلك غربا عن تلك الترافقات الرقيقة التي تعلم الجبال الأوربية من خلالها كيف يهذب أحاسيسه!

«لقد جعلنا نحن من الفن، بحكم عاداتنا المهذبة، شيئا مرتبطا بكل ماهر رفيع في تأملات الروح وإيماءات العبد، حتى أنه يغدو بوسننا أن نمد هذا الفن إلى الرقص من خلال التجريد وبذل بعض الجهد. وعلى النقيض من ذلك فإن الرقص بالنسبة للزنجي، هو والموسيقى، مجال لا ينفصت لا يقرى على مقاومتها، وذلك لأن الحس هو كل شيء تقريباً، إن لم يكن كل شيء، في الرقص.»

«وهكذا يمتلك الزنجي إلى أقصى حد القدرة الحسية التي لا يوجد بدونها فن ممكن، وتعرزه في التراث نفسه الاستمدادات الذهنية، مما يجعله عاجزا تماما عن تسمية الفن بل وحتى عن تقدير ما يمكن أن ينتجه تطبيق ذكاء البشر من أعمال رائعة. ويتطلب تهذيب قدراته أن يمتزج مع جنس ذي مواهب مختلفة...»

«والعبقريّة الفنية، الغربية أيضا بالنسبة للأجناس الثلاثة الكبرى، لم تتفجر إلا بتزاوج البيض مع السود». الكونت دي جوينود: دراسة حول عدم التمازج بين الأجناس البشرية، المجلد الثاني الفصل السابع، الطبعة الأولى ١٨٥٣ - ١٨٥٥.

وسيببدو مثل هذا العمل الفنى على الأرجح وكأنه غرور، يشير على الأقل غيظ البعض ويرى البعض الآخر أنه أمر لا يطاق.

إن ذكرى العبودية الحديثة، التى تعرض لها الجنس الزنجى ويرعوا فى المحافظة عليها فى أذهان الناس وبالأخص الزوج، كثيرا ما تؤثر فى وعى هؤلاء بشكل سلبي. وعلى أساس تلك العبودية الحديثة العهد جرت المحاولات، رغم كل حقيقة تاريخية بالطبع، لبناء الأسطورة التى تزعم أن الزنجى كان على الدوام مستعبدا من جانب الجنس الأبيض الأرقى، أينما عاش معه، مما يتيح له الفرصة لتبرير تواجد الزوج فى مصر أو فى أراضى ما بين النهرين أو الجزيرة العربية منذ أقدم العصور، وبالحكم بأنهم كانوا من العبيد. وهكذا كتب شاعر آخر زنجى كبير، لعله أكبر شاعر فى عصرنا، وهو أييه سيزير قصيدة عنوانها:

«منذ أكاد، منذ عيلام، منذ سومر

«ياسيد الطرق الثلاثة، أمامك رجل سار طويلا

«ياسيد الطرق الثلاثة، أمامك رجل سار على اليدين، على القدمين، على البطن، وعلى العجز

«منذ أكاد، منذ عيلام، منذ سومر».

وكتب فى قصيدة أخرى يقول:

«الذين لم يخترعوا لا البارد ولا البوصلة

«الذين لم يستأنسوا لا البخار ولا الكهرباء

«الذين لم يستكشفوا لا البحار ولا السماء...» (*).

وعبر تلك التحولات فى علاقات الزنجى مع بقية العالم، أصبح من الصعب يوما بعد يوم، بل وحتى من الأمور التى لا يمكن قبولها بالنسبة لمن يجهلون عظمتها السابقة - وبالنسبة للزوج أنفسهم - أن هؤلاء كانوا أصل أول حضارة ازدهرت على سطح الأرض، تدين لها البشرية بأساس تقدمها.

ومع أن الأدلة ستتراكم أمام أعين الإخصائيين إلا أنهم لن يبصروها إلا من خلال تلك الغمامة ولن يقدموا فى كل الأحوال سوى تفسيرات خاطئة. وستحاك نظريات لا يمكن تصديقها أبدا، ولكنها ستبدو لهم على أى حال أكثر منطقية من الحقيقة الواردة فى أهم وثيقة تاريخية تثبت الدور الحضارى الأول للزوج. وقهل التعرض لمناقشة التناقضات الجارية فى العصر الحديث والناجمة عن محاولات ترمى بأى ثمن إلى إثبات أن المصريين كانوا من أصل أبيض، فلنذكر مدى الدهشة التى اعترت قلوبى، العالم حسن النية الذى كان مشعبا بالأفكار المسبقة التى تعرضنا لها من قبل

(* لا يقلل ذلك أبدا من إعجابى الشديد بالشاعر.

بخصوص الزنوج، عندما زار مصر بين عامي ١٧٨٣ و١٧٨٥- أي في أوج عهد العبودية الزنجية -
أذ أهدى الملاحظات التالية بخصوص الجنس المصري الذي انحدر من الفراعنة، ألا وهم الأقباط.

«... وجوههم جميعا منتفخة والعيون جاحظة والأنوف فُطس والشفاه غليظة: إنهم بعبارة واحدة
صورة للخلاسى الحقيقي. كنت أميل إلى أن أنسب ذلك إلى المناخ، حتى زرت أبا الهول، فأفادني
مظهره بكلمة السرّ. فعندما شاهدت هذا الرأس الزنجي في كافة سماته، تذكرت تلك الفقرة الجديرة
بالملاحظة والتي أوردها هيرودوت: «وفي رأيي أن الكولخيين جالية من المصريين لأن بشرتهم سوداء
وشعرهم مجعد مثلهم؛ أي أن قدماء المصريين كانوا زنوجا حقيقيين من النوع السائد بين أهل افريقيا؛
وبناء على ذلك يفسر فقدان دمائهم لكثافة لونها الأول بامتزاجهم منذ عدة قرون بدماء الرومان
والأغريق، مع احتفاظهم مع ذلك بسمات القالب الأصلي. بل ومن الممكن تصميم هذه الملاحظة على
نطاق واسع والإقرار مبدئيا بأن التقاطيع نوع من البناء المتميز في العديد من الأحوال، لإقرار أو
توضيح شهادات التاريخ حول الجذور الأصلية للشعوب...».

وقد قدم قولني نموذجاً لفكرته هذه من خلال حالة النورمانديين الذين لا يزالون يشبهون
الداغاركيين حتى الآن بعد تسعمئة سنة من غزو نورمانديا، ثم استطرده قائلاً:

«ولكن لنعدّ إلى مصر، فما تقدمه للتاريخ يهيئ للعديد من الأفكار الفلسفية. إنه لأمر يستحق
التأمل، عندما نرى الهمجية والجهل الراهنين للأقباط الذين انحدروا من امتزاج عبقرية المصريين
العميقة مع فكر الإغريق اللامع، ونتذكر أن هذا الجنس من السود الذي أصبح اليوم عبداً لنا وموضع
ازدراءنا، هو نفسه الذي ندين له بفنوننا وعلومنا بل وحتى استخدام الكلمة، وتتصور أخيراً أنه تم
فرض أكثر النظم العبودية بربرية وطرحت قضية ما إذا كان السود يتوفر لديهم ذكاء من النوع الذي
يتميز به البيض، وذلك على يد شعوب تزعم أنها المحبة للحرية والإنسانية! أسفار في سوريا ومصر،
بقلم م.س.ش. قولني، باريس، ١٧٨٧، المجلد الأول، من ص ٧٤ إلى ٧٧.»

الفصل الثالث

التزوير الحديث للتاريخ

إن ما أقدم عليه فولنى يشكل خير طرح لقضية أشجع عملية تزوير لتاريخ البشرية على أيدي المؤرخين الحديثين. وليس بوسع أحد أن يرد خيراً منه الاعتبار للجنس الأسود باعتباره بدوره كأقدم مرشد للبشرية فى طريق الحضارة، بالمعنى الكامل لتلك الكلمة. وكان من المتوقع أن تفرض استنتاجات فولنى استحالة اختراع جنس فرعونى أبيض فيما بعد، يُزعم أنه استورد الحضارة المصرية من آسيا فى بداية المرحلة التاريخية. والواقع أن هذا الافتراض لا يتلام مع حقيقة أبى الهول هذا ذى الرأس الزنجى، المصور لفرعون، والذى يفرض نفسه على أنظار الكل ويصعب استبعاده باعتباره وثيقة غير نموذجية أو إقاربه فى مخازن متحف لإبعاده عن التأملات الخطيرة لمن قد يكونون على استعداد لقبول الوقائع الجلية.

وجاء بعد فولنى مسافر آخر فى بداية القرن التاسع عشر، وهو رينزى، الذى توصل إلى استنتاجات حول نفس الجنس المصرى، تلتقى تقريبا مع استنتاجات فولنى.

«والحق أن الجنس الأحمر - الداكن الهندى أو المصرى سيطر من خلال الحضارة على الجنسين الأصفر والأسود، بل وحتى على الجنس الأبيض، أى جنسنا الذى كان مستقرا فى أقدم العهود فى آسيا الغربية، وهو جنس كان آنذاك متوحشا إلى حد أو آخر، كما رأيت مصورا فى مقبرة أوسرع الأول فى وادى بيبان الملوك بطيبة، مدينة الآلهة». (اوقميانوسيا، سلسلة الكون، المجلد الأول، ١٨٣٦).

وفيما يتعلق بالجنس الأحمر - الداكن سنرى أنه بكل بساطة فرع من الجنس الزنجى كما جرى تصويره فى آثار ذلك الزمن. فلا يوجد فى الواقع جنس أحمر - داكن لأن هناك فقط ثلاثة أجناس متميزة عن بعضها بكل وضوح: الجنس الأبيض والأسود والأصفر، أما الجنس الوسيط المزعوم فليس

إلا نتاج التزاوج بين تلك الأجناس الثلاثة الأولى (*).

والتمثال المصور هنا بالأبيض والأسود (اللوحة رقم ٣) يوضح أن لون بشرة المصريين المسمى أحمر - داكنا ليس سوى اللون الطبيعي للزنجي.

وإذا كان رينزي يتكلم عن جنس أحمر - داكن فذلك لأنه كان لا يستطيع أن يتخلص تماما من الأفكار المسبقة السائدة في عهده. وعلى أي حال فإن الملاحظة التي أهداها بخصوص الجنس الأبيض المتوحش والذي يلجأ إلى الوشم، بينما كانت الأجناس الحمراء - الداكنة متحضرة من قبل، كان يجب أن تجعل كل محاولة لتفسير أصل الحضارة المصرية من خلال الجنس الأبيض، أمرا مستحيلا. وقد أسهب شامبليون بكل تواضع في تناول ذلك الوضع المتخلف للجنس الأبيض بينما كانت الحضارة المصرية قد امتد عهدها آلاف وآلاف السنوات.

ففي عام ١٧٩٩ قاد بونابرت حملته إلى مصر. وفي عام ١٨٢٢ تمكن شامبليون من فك رموز الهيروغليفية. وقد توفي في عام ١٨٣٢ تاركا «كبطاقة زيارة» قواعد اللغة المصرية وسلسلة من (*) هناك افتراض بأن الجنس الأصفر ذاته ناتج عن تزاوج بهيم مع سرد ولكن في عهود قديمة للغاية من تاريخ البشرية. والواقع أن الحضاب الخاص بالصفر مماثل لحضاب الخلاسين حتى أن التحليل الكيمائي الجبري المتأخر لا يكشف عن اختلاف كبير في كمية الميلانين (الصبغة السوداء للون).

ولم تتم بعد دراسة منظمة لمجموعات دماء الخلاسين، وقد نتيج عقد مقارنة جذرية بالاهتمام مع مجموعات دماء الصفر. فالقسمات العرقية للصفر: الشفاء، الأنف، بروز الفك، شبيهة بقسمات الخلاسين ومظهر سحتهم (الأوداج البارزة والجفون المنتفخة والغضون المنعوية والعيون المائلة وبداية الأنف المنخسة) قد لا تكون سوى نتاج تأثير المناخ على مدى آلاف وآلاف السنوات على الوجه من جراء الرياح الباردة.

فانقباض الوجه تحت تأثير الرياح قد يكتفى لتفسير بروز الأوداج وانتفاخ الجفون، إذ انهما سمعان عرقيتان مترابطتان. والرياح التي تصفح الوجه عندما يكون الجو باردا لا تستطيع أن تفلت من طرف العين إلا كمحصلة مائلة وصاعدة نتيجة لسفونة جزئيات الهواء. وقد تسببت تلك القوة الميكانيكية على المدى الطويل في تشويه العين في نفس الاتجاه. ويكون تأثير هذا المناخ أشد على الأجسام البالغة كما هو الحال بالنسبة للأطفال. ويفترض هذا التفسير بالطبع تراوت الصفات المكتسبة.

ومن المعروف من جهة أخرى أن القسمات المسماة قسما متفرقة تتراجع من شمال آسيا إلى جنوبها وفقا لتطور المناخ. ومن الملاحظ أنه أينما يكون هناك صفر، تتواجد أيضا مجموعات صغيرة من السود والبيض يبدو أنها وواسب العناصر الأساسية التي نشأ عنها ذلك الجنس. وينطبق ذلك على كافة أنحاء جنوب شرق آسيا؛ الرئيس في جبال فييتنام حيث نجد بشكل مستمر الانتباه أسماء كا، وثاي، ونام، وكذلك النجيتوس والأينو في اليابان... الخ.

ويقول مثل باباتي: ولكن يكون السامرواي شجاعا، يجب أن نجري في عروقه بعض الدماء السوداء. ووفقا لكتاب الحوليات الصينيين، كانت هناك امبراطورية زنجية في جنوب الصين في فجر تاريخ ذلك البلد.

هل نتج الجنس الأصفر عن الآيين الأوائل المختلطين بزنج جنوب الهند (الذرافيديين) ؟



٣- تمثال لونه «أحمر داكن» أو «قاتم».

إنه اللون الذي تناولته الأقلام باستفاضة، وهو «لازمة» في كل الدراسات حول الجنس المصري. وبوسع كل شخص أن يحكم بأنه لون لا يختلف عن لون كافة الزوج الأفارقة. ويتعين الرجوع الى هذه الصورة في الكثير من الأحوال للحكم على الكتابات المغرضة للمؤلفين الذين يتخذون من ذلك حجة لتلك السممة العرقية (صورة منقولة عن المتحف البريطاني) - (انظر ص ٣٧).

الخطابات الموجهة الى أخيه شامبوليون - فيچاك، أثناء زيارته لمصر (١٨٢٨-١٨٢٩). وقد نشر شامبوليون - فيچاك هذه الرسائل فى عام ١٨٣٣. وهكذا سقط جدار الصمت الذى كان يغلف الهرم وغلغليفة فكشف عن ثروات مدهشة بكل تفاصيلها الدقيقة.

وقد ذُهل علماء الآثار المصرية لفرط إعجابهم بذلك الماضى العظيم والرائع الذى اكتشفوه، واعترفوا شيئا فشيئا بأنه ماضى الحضارة الأقدم عهدا التى تولدت منها كافة الحضارات الأخرى.

وإساعده الامبريالية أضحى من الأمور «التي لا يمكن قبولها» أكثر فأكثر مواصلة الإقرار بالأطروحة التى كانت واضحة تماما حتى ذلك الوقت، وهى أن مصر زنجية.

وهكذا تميز علم الآثار المصرية منذ نشأته بضرورة أن تهدم بأى ثمن وأن تُزال تماما من كل الأذهان، ذكرى مصر الزنجية. ومنذ ذلك الوقت أصبح القاسم المشترك فى أطروحات علماء المصرات يتلخص فى محاولة يائسة لإنكار أطروحة مصر الزنجية. ويجمع مقدا كل علماء الآثار المصرية تقريبا على رفض أطروحة مصر الزنجية. وتتخذ كافة محاولات هذا الإنكار الشكل التالى:

لما كان العثور على أى تناقض فى شهادات القدامى القاطعة من خلال المواجهة الموضوعية بكل الواقع المصرى، أمرا غير ممكن، وبالتالي لا يمكن إنكاره، يتم على هذا الأساس إسدال ستار الصمت على تلك الحقائق أو رفضها بغضب وجمود، مع إبداء الأسف لأن أناسا عقلاء مثل القدامى أخطأوا إلى هذا الحد وأثاروا بذلك مصاعب ومشاكل عويصة للإخصائين الحديثين.

وبعد ذلك تبتذل جهود غير مجدبة للعثور على أصل أبيض للحضارة المصرية، فتنتقل على أثر ذلك التفسيرات الذاتية للوقائع والوثائق التاريخية. وينتهى الأمر بالتخبط فى التناقضات الناشئة عن ذلك، بالتفاضى عن مصاعب المشكلة بعد العديد من الهلوانيات الذهنية المعقدة وغير المجدية فى الوقت نفسه، وبالعودة إلى تكرار العقيدة الجامدة الأصلية، باعتبار أنه قد تم أمام أعين جميع الشرفاء إثبات الأصل الأبيض للحضارة المصرية.

وفى نيتى عرض مجموع تلك الأطروحات على التوالى، ولكننى مضطر، حرصا على التحلى بالموضوعية، أن أعرض كل وجهة نظر بالكامل حتى أكون أمينا فى موقفى إزاء أصحابها وأتبع الفرصة للتعرف بشكل مباشر على التناقضات وغيرها من الوقائع التى قد أشير إليها.

ولنبدأ بأقدم تلك الأطروحات التى عرضها شامبوليون فى خطابه الثالث عشر الموجه إلى أخيه. وهى تتعلق بنقوش مقبرة أوسرع الأول التى زارها أيضا رينزى. وهى ترجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد (الأسرة الثامنة عشرة) وتصور الأجناس البشرية التى عرفها المصريون. ويعتبر هذا الأثر أقدم وثيقة كاملة وصلت إلينا بخصوص علم الأجناس البشرية. واليك ما قاله شامبوليون:

« فى الوادى المسمى وادى الملوك، أعجبنا، شأننا شأن كافة المسافرين الذين جاؤوا قبلنا، بنضارة التصوير العجيبة، ورقة النحت فى عدد كبير من المقابر. وقد كلفت البعض برسم سلسلة الشعوب المصورة فى النقوش. واعتقدت فى أول الأمر، على أساس نسخ تلك النقوش المنشورة فى إنجلترا، أن هذه الشعوب المختلفة الأجناس التى يقودها الإله حورس وهو ممسك بعصا الرعوية، كانت أما خاضعة لصولجان الفراعنة، ولكن دراسة النصوص المصاحبة أفادتني بأن هذه اللوحة لها مغزى أكثر عمومية. فهي تتعلق بالساعة الثالثة من اليوم، حيث تبدأ الشمس فى نشر حرارة أشعتها وتدفئة كافة البلدان المأهولة فى نصف كرتنا الأرضية. وكان المقصود، وفقا لما جاء فى النص ذاته، تصوير أهالى مصر وسكان البلدان الأجنبية. ولذا نجد أمامنا هنا صورة لمختلف الأجناس البشرية التى عرفها المصريون، وتعرف فى الوقت نفسه على التقسيمات الجغرافية أو العرقية الكبرى التى تحدت فى ذلك العهد البعيد. فالرجال الذين يقودهم راعى الشعوب حورس ينتمون الى أربع عائلات متميزة، تماما كل منها عن الأخرى.. فالرجل الأول (رقم ١ فى لوحتنا) وأقربهم الى الإله لونه أحمر داكن وقوامه متناسق تماما ووجهه رقيق وأنفه معقوف بقدر ضئيل، وشعره طويل ومضفر ويرتدى إزارا أبيض، ويشير النص الى هذا الجنس تحت اسم روت - ان - نى - روم، الجنس البشرى، أحسن الأجناس، أى المصريين.

«وليس هناك أى شك فيما يتعلق بجنس الرجل الذى يعقبه (الثانى فى لوحتنا) فهو من جنس الزنوج المطلق عليهم عموما اسم تاحاس. ويمثل الثالث مظهرًا مختلفًا بكل وضوح (رقم ٣ فى اللوحة) فبشرته بلون اللحم وتميل إلى الصفار أو اللون الأسمر، والأنف معقوف للغاية واللحية سوداء وغزيرة، مديبة فى نهايتها والرداء قصير ومتنوع الألوان. ويسمى هؤلاء نامو.

«وأما الأخير (السادس فى اللوحة) فلون بشرته هو ما نطلق عليه لون اللحم، أو لون البشرة الأبيض فى أرق تدرجاته، والأنف مستقيم أو مقوس قليلا والعيون زرقاء واللحية شقراء أو مائلة إلى الحمرة، والقامة طويلة وهو متدثر بجلد بقرة لا يزال محتفظا بفرائه، وهو متوحش حقيقى، وهناك وشم على مختلف أجزاء جسمه. ويسمى هؤلاء تامهو.

«وقد سارعت بالبحث عن نظير تلك اللوحة فى المقابر الملكية الأخرى، فوجدتها بالفعل فى عدد منها، واقتنعتنى تماما التنوعات التى لاحظتها فيها أن الهدف كان تصوير سكان نواحي المعمورة الأربع وفقا للنظام المصرى القديم: أولا أهالى مصر التى تشكل وحدها جزءا كاملا من العالم وفقا لتقاليد الشعوب القديمة المفرطة فى التواضع، ثانيا - سكان افريقيا ذاتها: الزوج، ثالثا - الاسيويون، رابعا- وأخيرا (وهو الأمر الذى أخطئ لقلوبه، لأن جنسنا يمثل آخر السلسلة وهو أشدها توحشا) الأوروبيون الذين لا يقدمون فى هذا العهد صورة طيبة للعالم، لكى نكون عادلين فى حكمنا. ويجب أن نعى بذلك هنا كافة الشعوب الشقراء وذات اللون الأبيض التى لا تسكن أوروبا وحدها، ولكن آسيا أيضا التى انطلقت منها تلك الشعوب. وهذه الطريقة فى النظر إلى تلك اللوحات صادقة للغاية

لأن نفس أسماء الأجناس موجودة في المقابر الأخرى وبنفس الترتيب. ونجد فيها أيضا أن المصريين والزنج مصورون بنفس الطريقة^(*)، لأنه ما كان يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك: أما النامور (الآسيويون) والتامور (الأجناس الأوروبية) فتقدم لنا تنوعات شديدة مثيرة للانتباه.

«وبدلا من العربى أو اليهودى (رقم ٣) الذى يرتدى ملابس بسيطة كما هو مصور فى إحدى المقابر، يمثل آسيا فى مقابر أخرى (مقبرة رعمسيس- ميامون. الخ) ثلاثة أفراد لونهم أسمرهم أيضا أنوفهم معقوفة، وعيونهم سوداء، ولحاهم غزيرة، ولكنهم يرتدون ملابس فخمة للغاية. ويمثل أحدهم بشكل واضح تماما الآشوريين: فملابسهم تشبه تماما فى أدق تفاصيلها ملابس الأشخاص الذين نحتت صورهم على الأسطوانات الآشورية، ويمثل الآخر شعوب الميديين أو السكان الأولين فى بعض أنحاء فارس، ونجد سحناتهم وملابسهم بكل تفاصيلها على الآثار المنسوبة الى مدينة پارسا (رقم ٤ فى اللوحة). لقد كانوا يمثلون آسيا إذن بأى من شعوبها، بلا تمييز. وينطبق نفس الأمر على أسلافنا القدامى الحقيقيين، التامور (رقم ٦ فى اللوحة)، وملابسهم مختلفة أحيانا وشعرهم غزير إلى حد أو آخر وزاخر بمختلف الحلى، ولباسهم الهمجى قد يختلف قليلا فى شكله، ولكن لونهم الأبيض وعيونهم ولحاهم تحتفظ بكافة السمات المميزة لجنس واحد. وقد عهدت إلى البعض بنسخ وتلوين سلسلة الأجناس هذه العجيبة. وبالطبع لم أكن أتوقع عندما زرت وادى الملوك أن أعثر على نقوش تصلح لأن تكون سجلا مصورا لتاريخ سكان أوروبا البدائيين، حتى مهما أوتى المرء من الشجاعة للإقدام على ذلك. بيد أن منظرهم يوحى بقدر من الرضا والعزاء إذ أنه يدعوننا إلى تسمين الطريق الذى قطعناه منذ ذلك الوقت»^(**) (شامبوليون فيچاك: مصر القديمة، سلسلة الكون، ١٨٣٩، ص ٣٠ و٣١).

لقد اخترت بالأحرى هذا المقتطف، كما نشره شامبوليون - فيچاك، بدلا من اقتباسه من «الطبعة الجديدة» لتلك الرسائل التى أعدها شيرونيه - شامبوليون، أين شامبوليون فى عام ١٨٦٧، وذلك لسبب بسيط، وهو أن أصول هذه الخطابات كانت موجهة إليه بالفعل.

(*) التنويه بذلك من جانب المؤلف.

(**) يتبين لنا من كافة الأثار المصرية التى تصور جميع أجناس العالم - ومنها على سبيل المثال نقوش بهمان الملوك، أن الجنس الوحيد الذى كان يستخدم الرسم فى تلك العهود القديمة، وهو الجنس الذى يسمى حاليا الجنس الشمالى. فما كان الزنج المصريون ولا الزبور الأفارقة يلمجون إلى الرسم حسب كالة الرثائق المصرية المعروفة. ولم يكن هناك معنى أصلا لرسم إلا على البشرة البيضاء نظرا لإختلاف اللون. وقد وصل إلى إفريقيا مع اللهبين البيض، ولم يحاكمه الزنج إلا فى عهد متأخر للغاية؛ ولما كان من المستحيل تحقيق التباين بين الأبيض والأزرق أو غيره على البشرة السوداء فقد تم اللجوء إلى التشریط. ولم تمكن للأسف من نشر صورة لتلك النقوش التى تناولها شامبوليون فى رسالته.

ماهى قيمة هذه الوثيقة لمعرفة الجنس المصرى؟ إنها تقدم بحكم قدمها، شهادة أساسية كان يتعين أن نبحثها كافة التخمينات التى جرت بخصوصه. فمنذ ذلك العهد القديم للغاية (الأسرة الثامنة عشرة التى حكمت فى فترة وقعت بين عهدى إبراهيم وموسى)، كان المصريون قد اعتادوا تصوير مجموعتى جنسهم: الزوج المتحضرين فى الوادى وزنوج بعض المناطق داخل أفريقيا، بشكل لا يسمح بأى خلط بينهم وبين الجنسين الأبيض والأصفر فى آسيا وأوروبا. والترتيب الثابت لتلك الأجناس الأربعة بالنسبة لحورس، يؤكد ذلك التدرج فى المركز الاجتماعى. ويستبعد أيضا ذلك الترتيب، كما اعترف بذلك شامبوليون فى نهاية الأمر، أى فكرة تتعلق بتقليد مصطلح عليه فى التصوير يخلط بين مستويين متميزين، ويضع بذلك حورس فى نفس مستوى الأشخاص بينما كان فى الواقع فى مواجهتهم جميعا.

وإذا كان المصريون قد صوروا أنفسهم بلون يسمى رسميا «أحمر - داكن» فتلك حقيقة لها مغزاها. فلا يوجد فى الواقع جنس أحمر - داكن بالمفهوم العلمى. ولم يطلق ذلك الوصف إلا للتشويش على الأذهان. ولا يوجد لون أسود بالمعنى الصحيح للكلمة. فلون الزنجى يبيل فى الواقع إلى البنى دون أن يكون من الممكن تطبيق نعت صحيح، خاصة وأنه تعرض لتدرجات وفقا للمناطق. فقد لوحظ أن لون الزوج الذين يعيشون فى مناطق جيرية داكن بقدر أقل من لون الذين يعيشون فى مناطق أخرى.

كما أنه يصعب نقل لون الزنجى فى التصوير ويتم الاكتفاء بتدرجات أقرب إلى هذا اللون. ولون الرجلين اللذين يتبعان حورس ليس سوى تعبير عن تدرجين للون الزوج. ولو صور حاليا أحد الكوف شخصاً من البامبارا أو الموصى أو اليوروبا أو التوكولور أو الفانج أو المانجيتو أو الباوله، لاستخدم تدرجات فى اللون شبيهة بتدرجات اللون فى النقوش إن لم تكن تدرجات أكثر تباينا. ولكن هل يعنى ذلك أن كلا من الكوف والبامبارا والموصى واليوروبا والتوكولور والفانج والمانجيتو والباوله ليسوا جميعاً زنجياً؟ تلك هى الطريقة المشروعة لإدراك فارق اللون بين الرجلين الأولين فى تلك النقوش. ولا يوجد فى كافة النقوش المصرية تصوير واحد عرض فيه المصريون أنفسهم بلون مختلف عن لون شعوب زنجية مثل البامبارا والآنى واليوروبا والموصى والفانج والباتوتسى والتوكولور.. الخ .. الخ.

ولو كان المصريون من البيض لكنت كل تلك الشعوب الزنجية وغيرها التى تدفقت على إفريقيا بيضاء - هى أيضا؛ وهكذا نصل إلى استنتاج عيشى وهو أن الزوج هم فى صميمهم من البيض.

ووفقا لتلك النقوش العديدة نجد أن كافة النماذج من الجنس الأبيض فى ظل الأسرة الثامنة عشرة كانت تلى الزوج فى الترتيب؛ وبالأخص «البهيمة الشقراء» التى ذكرها جوينو والنازى، أى ذلك

الهمجي المرشم المتدثر بفراء حيوان، أبعد عن أن يكون أصل الحضارة بل كان لا يزال يتجنبها أساسا ويحتل الدرك الأخير من البشرية. وهذا ما لم تفت ملاحظته على شامبوليون في النص المنشور آنفا بتعجب وتواضع، ولم يجد أى عزاء آخر سوى تقدير الطريق الذى قطعه هذا الجنس منذ ذلك العهد.

واستنتاج شامبوليون فى هذا الصدد له مغزاه، إذ أنه بعد أن قال إن تلك النقوش يمكن أن تستخدم كلوحة مصورة لتاريخ سكان أوروبا الهذائين، استطراد قائلا: «إذا كانت لدى المرء الشجاعة للإقدام على ذلك». وفى نهاية المطاف، وبعد تلك الملاحظات أدلى شامبوليون برأيه الإيجابى حول الجنس المصرى بالعبارات التالية:

«لقد جاءت القبائل الأولى التى استقرت فى مصر، أى وادى النيل ما بين شلال أسوان والبحر، من الحبشة أوسنار. وكان قدماء المصريين ينتمون إلى جنس بشرى مشابه تماما للكينو والبراهه الذين يعيشون حاليا فى النوبة. ولا توجد لدى أقباط مصر أى من القسمات المميزة لأهالى مصر القديمة. فالأقباط نتاج خليط غير واضح المعالم مع كافة الأمم التى سيطرت على مصر على التوالى. ومن الخطأ محاولة العثور لديهم على القسمات الرئيسية للجنس القديم» (شامبوليون - فيچاك، ص ٢٧).

ونشهد هنا أولى محاولات ربط المصريين بأصل آخر غير الأقباط الذى أكدته ملاحظات فولنى. فالأصل الجديد الذى اعتقد شامبوليون أنه اكتشفه ليس موقفاً هو أيضا. فالعيب واحد من الجانبين، إذ يتم الابتعاد عن أصل زنجى (الأقباط) للوقوع فى أصل آخر زنجى هو أيضا (النوبيون والأحباش).

والواقع أن السمات الزنجية للجنس الأثيوبى، أى الأحباش، قد حددها بما فيه الكفاية هيرودوت وكافة القدماء، حتى أنه ليس هناك ما يدعو إلى المراجعة. والنوبيون هم أسلاف أغلب زوج إفريقيا، حتى أن كلمتى «نوبى» و«زنجى» مترادفتان؛ والأثيوبيون والأقباط كل منهما من أصل زنجى اختلط فيما بعد بعناصر بيضاء مختلفة فى ظل أحوال مناخية متباينة. فقد امتزج زنج الدلتا تدريجيا مع كافة العناصر البيضاء بحوض البحر الأبيض المتوسط التى تسلت إلى مصر فى كافة العهود، مما أنتج الفرع القبطى المكون فى أغلب الأحوال من عناصر ربعة، عاشت فى منطقة عامرة بالمستنقعات. وقد تطعم الأساس الزنجى الأثيوبى بعنصر أبيض جاء من آسيا الغربية. وهو ما سنتعرض له فيما بعد. ونتج عن ذلك جنس ذو بنية أقوى نظرا لإقامته فى منطقة هضبية.

وعلى الرغم من تلك التهجينات المتواصلة والقديمة للغاية، فإن كلا منها لم يفقد القسمات الزنجية الخاصة بالجنس المصرى الأول: فلون البشرة لا يزال أسود بكل وضوح، وهو أبعد بكثير عن لون المهجن الذى تصل نسبة الدم الأبيض لديه إلى خمسين فى المئة. وفى أغلب الأحوال يكشف لون المصريين عما

يبلغ بالكاد عشرة في المئة من الدم الأبيض وكثيرا ما لا يختلف عن لون الزوج الآخرين في إفريقيا. وهكذا ندرك أن الأقباط، والأثيوبيين بالأخص، كثيرا ما تبتعد قسماتهم إلى حد بسيط عن قسامات الزوج الذين لم يمتزجوا أبدا بأجناس بيضاء. وهناك شعورهم بالأخص التي قد تكون مجعدة بقدر أقل. ومع أنهم ظلوا أساسا بارزى الأسنان مع استتالة الفك إلا أن المحاولات جرت لاعتبار بعضهم من أجناس بيضاء مزعومة اعتمادا على رقة قساماتهم النسبية. فهم من جنس أبيض مزعوم عندما يكونون معاصرين لنا وتحول حقيقة عروقهم دون اعتبارهم بيضا حقيقيين، ولكن هياكل أسلافهم التي تم العثور عليها في المقابر لا بد أن يكون أصحابها بيضا وفقا لمقاييس الانتروبولوجيين. وسنرى في صفحة ١٤٩ وما يليها كيف أن تلك المقاييس العلمية المزعومة تؤدي إلى عدم التمييز بين هيكل أثيوبي، أي زنجي، وهيكل جرمانى، وإذا أخذنا في الاعتبار الاختلاف الذى يفصل بين الجنسين فى الواقع، يتضح لنا مدى الطابع الاعتباطى لتلك المقاييس واللبس الذى يشوبها.

وقد جاء رأى شامبوليون هذا حول الجنس المصرى فى مذكرة موجهة إلى محمد على باشا، حاكم مصر، سلمها له فى عام ١٨٢٩.

ولتر الآن ما إذا كانت أبحاث فيچاك شقيق شامبوليون، ابى علم المصرىات، قد حققت تقدما حول القضية، إذ أنه قدم لها بما يلى:

«الرأى القائل بأن سكان مصر القدامى كانوا ينتمون إلى الجنس الزنجي رأى خاطئ جرى تنبيه لمدى طويل باعتباره حقيقة. وكان المسافرون إلى الشرق منذ نهضة الآداب غير قادرين على إبداء تقييم صحيح للمعلومات التى كانت الآثار المصرية توفرها حول تلك القضية الهامة، فساهموا بذلك فى نشر هذه الفكرة الخاطئة التى عكف الجغرافيون على نقلها حتى وقتنا هذا. وقد أعلنت حجة كبيرة موافقتها على ذلك الرأى فروجت لهذا الخطأ. وترتب ذلك على مانشره فولنى الشهير حول مختلف الأجناس البشرية التى لاحظها فى مصر. وهو يقول فى كتابه السفر الموجود فى كافة المكتبات إن الأقباط منحدرين من قدماء المصريين؛ وأن وجوه الأقباط منتفخة وعبرنهم جاحظة وأنوفهم فطس وشفاهم غليظة مثل الخلاسين؛ وأنهم يشبهون أبا الهول المجاور للأهرامات، ذا الرأس الزنجي الواضح تماما، فاستنتج من ذلك أن قدماء المصريين كانوا زوجا حقيقيين على غرار كافة أهالى إفريقيا. ويستشهد فولنى لتدعيم رأيه هذا برأى هيروودوت الذى ذكر فى معرض كلامه عن أهالى كورنيس، أن بشرة المصريين سوداء وشعرهم مجعد. غير أن هاتين الخاصيتين الجسديتين لا تكفيان لتحديد سمات الجنس الزنجي، وبالطبع فإن استنتاج فولنى حول أصل سكان مصر القدامى مقحم وغير مقبول». (شامبوليون - فيچاك، مصر القديمة، سلسلة الكون، الناشر ديدو، باريس ١٨٣٩، ص ٢٦ - ٢٧).

وبعد أن أبدى شامبوليون - فيجاك أسنه إلى حد ما لتواجد كتاب ثولنى فى كافة المكتبات، رأى أن الحجمة الحاسمة لرفض أطروحة ذلك العالم - وكافة أسلاقه، أن «هاتين الخاصيتين الجسديتين»، أى البشرة السوداء والشعر المجعد - «لاتكفيان لتحديد مميزات الجنس الزنجى».

من الواضح إذن أن «تبيض» الجنس المصرى ما كان يمكن التوصل إليه إلا من خلال مثل تلك التعديلات فى التعريفات الأساسية.

وهكذا لم يعد يكفى أن يكون الشخص أسود من قمة رأسه حتى أخص قدميه ومجعد الشعر لكى يكون زنجيا! فكاننا أصبحنا فى عالم انقلبت فيه قوانين الطبيعة، وبتنا على أى حال بعيدين تماما عن الفكر التحليلى الديكارتى.

بيد أن هذه التعريفات والتعديلات للمعطيات الأولى أصبحت فيما بعد الأساس الذى سيبنى عليه «علم المصرات».

وهكذا دُمغ علم المصرات الذى نشأ عن التعمق فى الدراسة العلمية، بعمليات تزوير فجوة وواعية لمسناها بأنفسنا. وهذا هو السبب فى تحاشى علماء المصرات شيئا فشيئا وبكل عناية الخوض فى أصل الجنس المصرى. ولذا فإن معالجة قضية الجنس المصرى حاليا اضطررتنا إلى التنقيب لاستخراج نصوص قديمة لمؤلفين مشهورين فى زمنهم، ولكنهم أصبحوا غير معروفين تقريبا.

ويواصل شامبوليون - فيجاك قائلا:

«والواقع أنه أصبح من المعترف به الآن أن سكان إفريقيا ينتمون إلى ثلاثة أجناس ظلت دائما متميزة كل منها عن الأخرى: أولا، الزوج بمعنى الكلمة فى وسط القارة وغربها؛ ثانيا، الكافر على الساحل الشرقى وزاوية الوجه لديهم أقل انفراجا من زاوية وجه الزوج؛ وثالثا، المور (ومنهم جاء اسم موريتانيا) الذين يشبهون خير الأمم القائمة فى أوروبا وآسيا الغربية من حيث القامة والقسمات والشعور، ولايختلفون عنهم إلا فى بشرتهم السمراء من جراء المناخ. وينتمى أهالى مصر القدماء إلى ذلك الجنس الأخير، أى إلى الجنس الأبيض. وكفى للاقتناع بذلك فحص الوجوه البشرية التى قتل المصريين على الآثار وبالأخص العدد الكبير من المومياءات التى تم كشفها. فهم نفس أناس أوروبا وآسيا الغربية مع اختلاف لون البشرة إلى حد ما من جراء حرارة المناخ؛ والشعر المجعد والصوفى سمتان حقيقتان مميزتان للجنس الزنجى، غير أن المصريين شعورهم طويلة ومن نفس نوع شعور الجنس الأبيض فى الغرب» (نفس المرجع، ص ٢٧).

ولنسترجع تأكيدات شامبوليون - فيجاك الواحدة تلو الأخرى. فالكافر لا يشكلون جنسا، على عكس ما كان يعتقد؛ فهذه الكلمة أصلها عربى ومعناها وثنى، على عكس المسلم. فعندما دخل

العرب إفريقيا الغربية عن طريق زنجبار، استخدموا تلك الكلمة للإشارة إلى السكان الموجودين في المنطقة والذين كانوا يعتقدون مختلف الديانات. أما المور (الموروس عند الاسبان) فهم السلالة المباشرة المنحدرة عن الفاتحين العرب، بعد ظهور الإسلام، والذين انطلقوا من الجزيرة العربية في القرنين السابع حتى الخامس عشر، ففتحوا مصر وإفريقيا الشمالية وإسبانيا التي انسحبوا منها فيما بعد نحو إفريقيا. ويعنى ذلك أن المور هم بالأساس عرب مسلمون استقروا في إفريقيا منذ عهد قريب للغاية. والمخطوطات العديدة التي تحتفظ بها عائلات المور الرئيسية في موريتانيا القائمة حاليا، والتي سجلت فيها بكل عناية وبشكل متواصل شجرات النسب منذ خروجهم من اليمن، تؤكد ذلك الأصل.

وعليه فإن المور فرع من تم الاصطلاح على تسميتهم الساميين. ولكن كل ما قيل عن هؤلاء الساميين (انظر صفحة ١٢١ والصفحات التالية) يقضى على أى إمكانية لاعتبارهم المؤسسين للحضارة المصرية؛ هذا عدا أن المور لم يبالوا بفن النحت شأنهم شأن البربر بينما كرس الحضارة المصرية حيزا كبيرا لذلك التعبير الفنى. وسيتم فى نفس الفصل إبراز الطابع الخلاسى للساميين، الذى يرجع إليه لون المور أكثر من رجوعه إلى المناخ. وعلاوة على ذلك فلا توجد أى مقارنة ممكنة بين بشرة المور حتى وإن عاد سمارها إلى المناخ، وبين البشرة الزنجبية السوداء المميزة للمصريين سواء كانوا من الأحياء أو الموميوات.

بيد أن شامبوليون يدعونا، لاقناعنا بفكرته، إلى فحص الوجوه البشرية المثلة للمصريين على الآثار. إن حقيقة الفن المصرى بكاملها تناقض بكل بساطة ما يقوله شامبوليون - فيچاك. ويبدو أنه لا يضع فى اعتباره ملاحظات ثولنى حول أبى الهول، مع أنه أشار إليها. وعلى نقيض شامبوليون - فيچاك، يستحيل، اعتمادا على نفس تلك النقوش التى تحدث عنها بصفة عامة، بمتابعتها منذ مينا حتى نهاية الامبراطورية المصرية، وابتداء من عامة الشعب حتى فرعون، مروراً بوجهاء البلاط وكبار موظفى الدولة، يستحيل أن نجد شخصا من الجنس الأبيض أو السامى. فلن نجد سوى زنوج من نفس نوع أهالى إفريقيا (اللوحات رقم ٤ حتى ٣٥). وقد أوردنا لهذا الغرض سلسلة من الآثار المثلة لمصريين من مختلف الطبقات الاجتماعية بما فى ذلك الفراعنة بالأخص، كما أدخلنا على تلك السلسلة نماذج من الجنس الأسود والجنس الأبيض لكى نبرز التقارب أو الاختلاف العرقى فيما بينهم. والجدير بالملاحظة هنا، من خلال المقارنة بين سلسلة الوجوه هذه، أن الفن المصرى كثيرا ما كان أكثر زنجبية من الفن الزنجبى ذاته.

وبفحص تلك الصور والمقارنة بينها، لا يسع المرء إلا أن يتساءل وهو مشدود حقا كيف أمكنهم التوصل إلى فكرة الجنس الأبيض من خلال تلك التصويرات.

وأخيرا، فبعد أن قال شامبوليون - فيچاك إن البشرة السوداء والشعر الأكرت لا يكتنيان لتحديد

الجنس الزنجي، ناقض نفسه بعد ذلك بستة وثلاثين سطرا فكتب يقول: «إن تجعد الشعر وصفيته صفتان حقيقتان مميزتان للجنس الزنجي» (*).

ويصل به الأمر إلى حد القول بأن شعور المصريين كانت طويلة، وأنهم كانوا بالتالي من الجنس الأبيض. وهكذا يعنى ذلك النص أن المصريين بيض بشرتهم سوداء وشعرهم طويل. ومع أنه لا يوجد أحد يعلم بوجود مثل هؤلاء البيض، إلا أننا سنحاول أن نرى كيف، تمكن المؤلف من الوصول إلى مثل هذا الاستنتاج. وما قبل عن الأثيوبيين والأقباط يدل على أن شعرهم كان يمكن أن يكون أكثر بدرجة أقل من غيرهم من الزواج. وهناك من جهة أخرى جنس أسود تماما شعره طويل: إنه الجنس الدرافيدي الذي يعتبر زنجيا في الهند ويريدون تبيضه في أفريقيا.

وقد صور المصريون أنفسهم في آثارهم وقد وضعوا فوق رؤوسهم شعورا مستعارة شبيهة بتلك التي توضع فوق الرأس في كل أنحاء إفريقيا. وستعرض لها عند تحليلنا للمشاهد المنقوشة على لوحة نارمر (صفحة ١٠٤ والصفحات التالية).

ويؤكد المؤلف في نهاية المطاف بأن شعور المصريين كانت من نفس نوع شعور البيض في الغرب. ولا مجال أيضا للتوقف أمام تلك الملاحظة نظرا لأن شعر المصريين عندما يكون أكثر بدرجة أقل من شعر الزواج الآخرين، يظل سميكاً وأسود بحيث يستبعد أى إمكانية لمقارنته بشعر الغربيين الرفيع والخفيف. وأخيراً، فإن مما يدعو للتعجب أن يدور الحديث عن مصريين «شعورهم طويلة» بينما نعلم أن هيرودوت قال عنهم إن شعرهم كان أكثر، وإن زنوجا وبيضا وصفرا كانوا يعيشون في طيبة منذ أيام الأسرة الحادية عشرة، كما يعيش الأجانب الآن في باريس.

«عندما يرغب المواطن الطيبى فى أن توضع موميأؤه فى تابوت فاخر، فإنه يتخذ من جذع شجرة شكل إنسان، ويمثل غطاء التابوت وجه المتوفى ويغضى الوجه بلون أصفر أو أبيض أو أسود. ويدل اختيار اللون على أنه كان يعيش فى طيبة فى ظل الأسرة الحادية عشرة أناس صفر وبيض وسود، صرّح لهم بالحياة فيها كمواطنين ودفنوا بعد موتهم فى المقابر المصرية». (فوتتان، المصريون، صفحة ١٦٩).

وبوسعنا أن نتساءل إذن لماذا لم تبق سوى الموميאות ذات الشعر الطويل وحدها، وما هى الأسباب التى تدعو إلى عدم إظهار الموميאות الزنجية التى تحدث عنها فوتتان، أو عدم الإشارة إليها... ما هو مصيرها؟ إن شهادات هيرودوت لا تسمح بالشك فى وجودها. هل اعتبروها موميאות أجنبية غير مهمة بالنسبة لتاريخ مصر، وبالتالي تم التخلص منها أو إيداعها فى مخازن المتاحف؟

حقاً إنها لقضية جد خطيرة.

(*) كان ليجالك يجهل أن كل شعر مجمد صولى التركيب. فالكبريتين، العنصر الكيمائى الذى يدخل فى تركيب الصوف هو الذى يجعل الشعر مجمداً. وعليه فإن هذه الحججة لا تقم على أى أساس.



٤ - العاهل تيرا نعر

شخصية زنجية الجنس من الأنو، السكان الأوائل لمصر عند نهاية عصر ما قبل التاريخ

(بتري، صنع مصر القديمة) انظر سلسلة الصور من ٤ إلى ٣٥

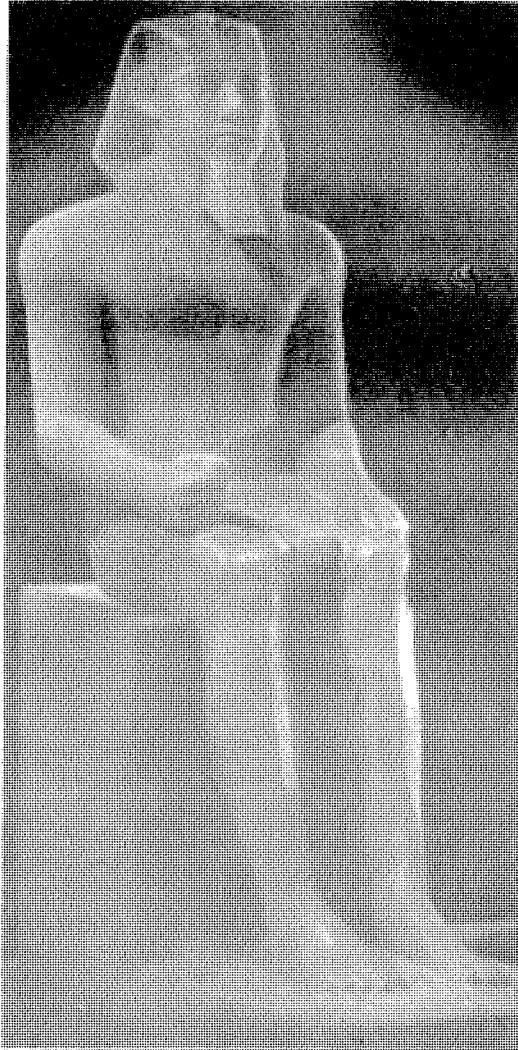


٥ - نهرمر (أو مينتا)

نموذج للزنجي يمثل أول فراعنة مصر الذي وجد الصهيد والوجه البحري لأول مرة في تاريخ مصر.
ومن الواضح بكل تأكيد أنه ليس آريا أو هندو - أوروبيا، أو ساميا، بل أسود بلا جدال.



٦ - تمثال إلهة أوزيريس
(متحف متروبوليتان للفنون - مجموعة روجر)



٧ - خفرع

فرعون من الأسرة الرابعة (الدولة القديمة)، بنى هرم الجيزة الثاني. والتماثيل من حجر الديوريت الأسود).



٨ - متوجع الأول

زنجي أصيل، مؤسس الأسرة الحادية عشرة (الدولة الوسطى، حوالي عام ٢١٠٠ ق.م.).



٩ - توت عنخ آمون

(الدولة الحديثة، الأسرة الثامنة عشرة)

أحد تماثيل بالحجم الطبيعي كان يحرسان مدخل قاعة المدفن. وقد طليت بشرته بورنيش من الراتنج الأسود، بينما كل ما عليه وفي يده مذهب.



١١ - نحتمس الثالث

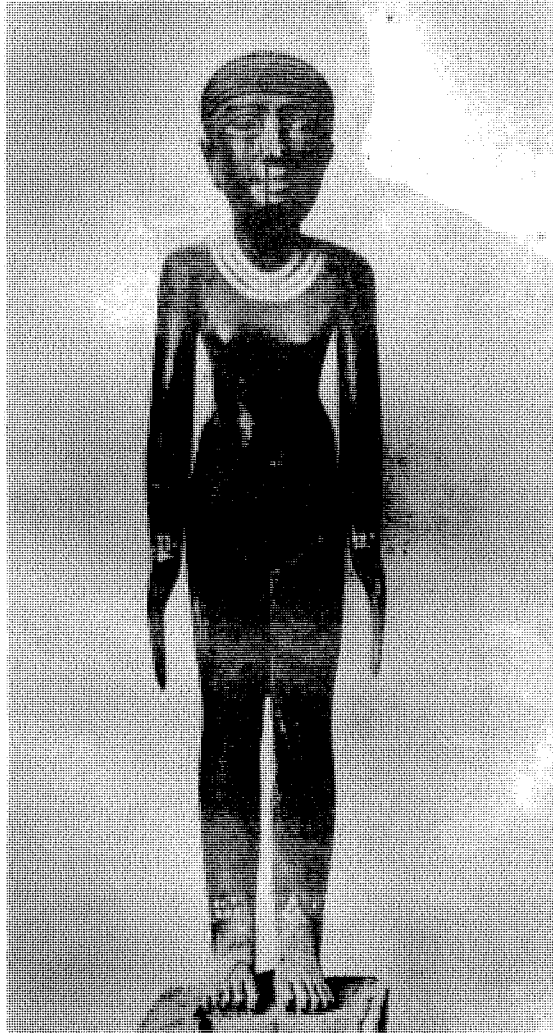
والدته سودانية، أسس الأسرة الثامنة عشرة واستهل عهد الفتحاح المصرية. وهو يسمى أحياناً
«ناهلون العصور القديمة»



١٢ - رأس رمسيس الثاني
الدوائر الصغيرة فوق الخوذة تمثل الشعر الأكثر
(ملحوظة دينيز كاپار في REFLET DU MONDE ، ١٩٥٦)



١٣ - الفرعون السوداني طهرقا

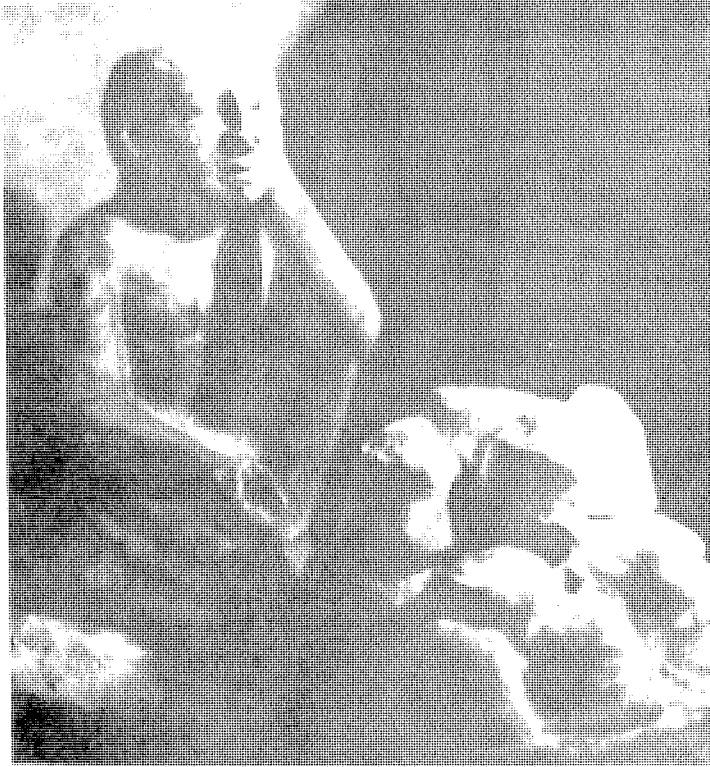


١٥ - امرأة مصرية
السيدة ذات الإبهامين



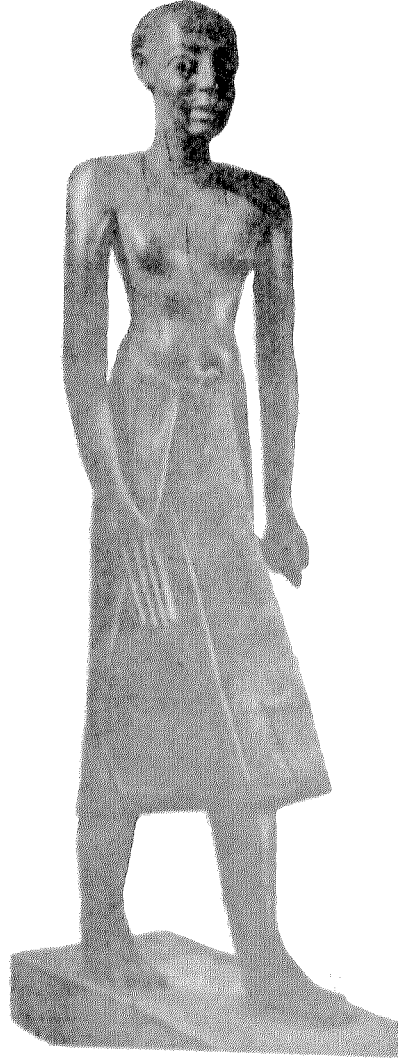
١٦ - تمثال للتصاب

من عهد الأسرة الخامسة، وجسمه مقلد بلون بني ضارب إلى الإحمرار ويرتدى متزوا أبيض



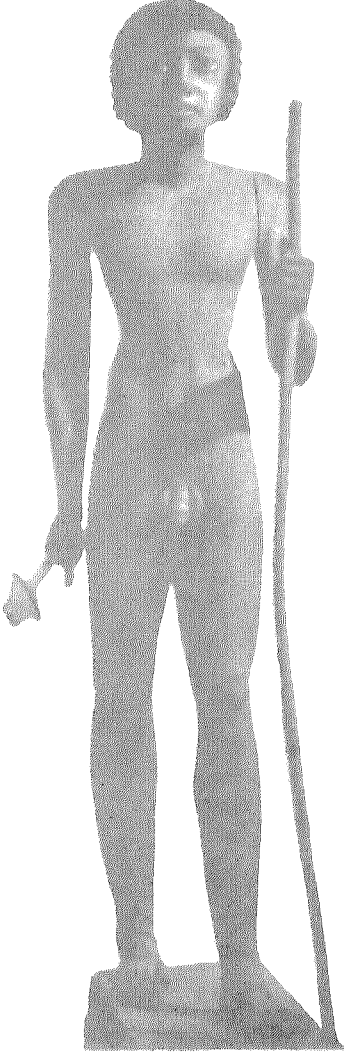
١٧ - تمثال لطاء

من عهد الأسرة الخامسة، وجسمه بنى ضارب إلى الإحمرار



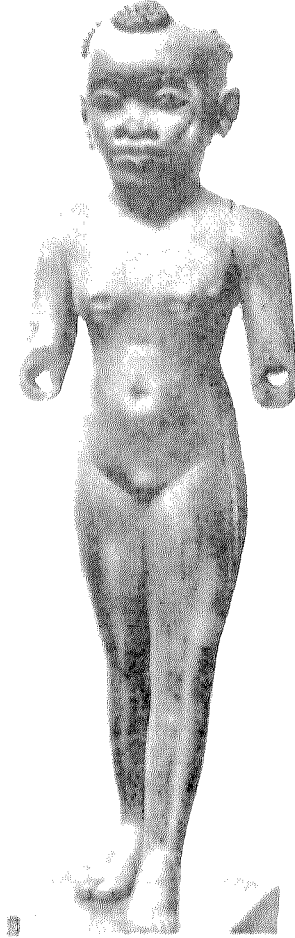
١٨ - موظف مصري

من عهد الأسرة السادسة - يوضح ذلك لماذا تنطبق كلمة ثور و بلغة الكوف - ومعناها ارتداء متزود -
تنطبق على كل من الرجل والمرأة



١٩ - مصرى

(تمثال من الأهنوس يعود إلى عهد الأسرة)
السادسة لساعدان طويلان بالنسبة للذراع، والمجزء
الأسفل من الحنصر حتى القدم طويل بالنسبة للجذع،
والوجه مستطيل، والكتفان عريضان، والحوض ضيق.
تلك هي المعايير التي تتيح التمييز بلا خطأ بين زنجي
وأبيض. وهي المعايير الأكثر موضوعية وعلمية
المتوفرة لدينا، وبفضلها أمكن التأكيد بأن إنسان
جرم الذي زنجوى. ولكن من هو العالم الذي يتجاسر
على تطبيق تلك المعايير على هذا التمثال أو على
مومياء مصرية حتى من العصر المتأخر وأن يستخلص
تلك الاستنتاجات علناً؟ لقد فعل ذلك ليبسيوس من
قبل (انظر ص ٨٧).



٢. - تمثال من الخشب لفتاة مصرية

يدل تصنيف شعر هذه الفتاة على أن المصريين كانوا طوطميين. وهذا التصنيف متبع من جانب كل القشتيات في السنغال حتى سن البلوغ، من الواضح أن الشعر أكرت (پتري، الفنون والمهن في مصر القديمة، ١٩١٥).



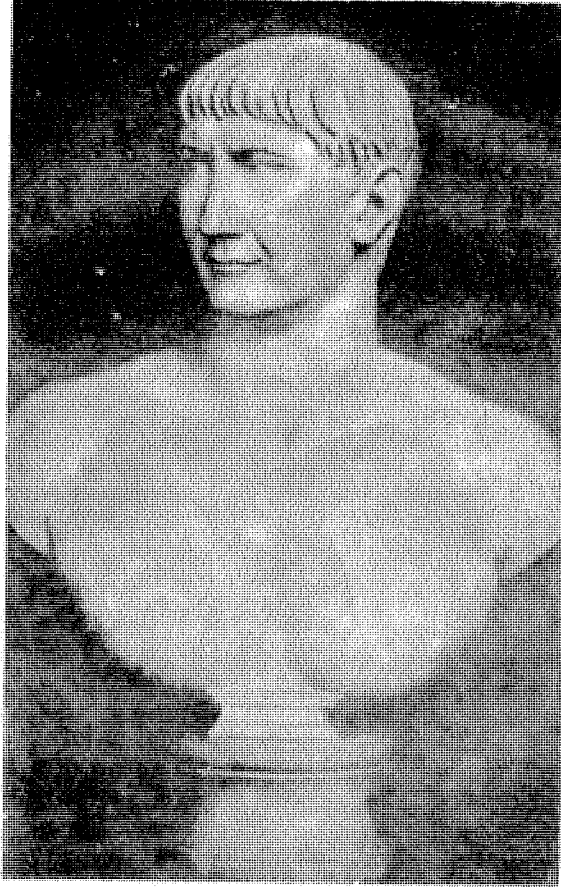
٢١ - تمثال رجل مصري
(المتحف البريطاني)



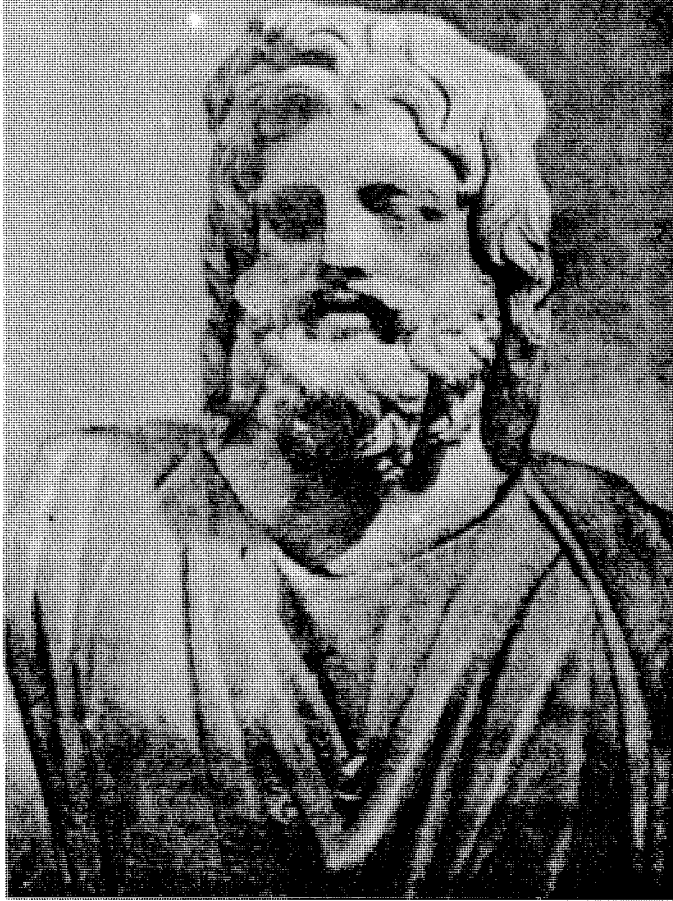
٢٣- رُلَس مَصِيَّة مِّنَ السُّورَةِ الرَّسْمِيَّةِ (١١)
وَقَدْ سَمِيَتْ دَرُوسُ ذَاتِ طَلِيحٍ أُخْتِي، لِأَنَّ مَلَامِحَهَا زَنْجِيرِيَّةٌ إِلَى حُدِّ كَبِيرٍ



٢٤ - رسم لجنایبجل
«ملك أثيوبيا ومصر الكبرى»



٢٥ - تمثال نصفي للأمبراطور الروماني تراچان
للمتارنة بين الصور السابقة للنماذج المصرية والإفريقية مع النموذج الأروبي
الذي تمثله هذه الصورة وصورة زيوس - سيرابيس



٢٦ - تمثال لسيرابيس (زيوس)
تصوير للنموذج الاوروبي في الفن المصري في العهد الإغريقي - الروماني



٢٧ - رأس هرونزي من بتين
شخصية من البلاط (تمثال من أصل نيجيري مصبوب في المتحف البريطاني.
إهداء من المتحف الامريكى للتاريخ الطبيعي



٢٨ - قناع بونجورى
نموذج للفن الزيجى الواقعى



٢٩ - قناع بونجوري
من الجابون ، ويتميز بتصنيف خاص للشعر والطلاء الأبيض للبشرة.



٣. - تمثال صغير من الجولا
من زنجبي واقمى من إفريقيا الوسطى



٣١ - فن ابغه

للمقارنة بين : غطاء الرأس (والشعبان الذي يتوج رأس فرعون مصر (متحف لاجوس).



٣٢ - فن ايفه

مدرسة ايفه التي تولدت عنها مدرسة بنين مشهورة بالتحف المصنوعة من الأجر والحجارة والبرونز.
والصورة هنا لتمثال من الأجر.

ولكن شامبوليون - فيجاك يستطرد قاتلا في مؤلفه:

«لقد أجرى الدكتور لارى أبحاثا شيقة حول تلك القضية في مصر ذاتها ففحص عددا كبيرا من الموميوات ودرس جماجمها وتعرف على سماتها الرئيسية، وسعى إلى العثور عليها من بين الأجناس المختلفة التي تعيش في مصر ونجح في ذلك: وقد بدا له أن الأحباش يجمعون بين كل تلك السمات فيما عدا الجنس الزنجي بالأخص. فعينا الحشى متسعتان ونظرته لطيفة والزاوية الداخلية لتلك النظرة مائلة، والأوداج بارزة وهى تشكل مع زاويتي الفك والقم مثلثا منتظما، والشفاة غليظة دون أن تكون ناتئة كما هو الحال عند الزنجي، والأسنان جميلة وقليلة البروز، وأخيرا فإن لون البشرة وحده هو النحاسي فقط: أولئك هم الأحباش الذين رأهم السيد لارى والمعروفون عموما باسم البهرير أو البرابرة الذين يعيشون حاليا في النوبة» (نفس المرجع، صفحة ٢٧).

ويضيف شامبوليون قاتلا إن السيد كايو الذى رأى البرابرة قال فى وصفهم «إنهم رجال مجتهدون، قانعون، مزاجهم جاف ... وشعرهم نصف أكرت، قصير ومجدد أو مضفر على غرار قدماء المصريين، ويكون عادة مضمخا بالزيت».

وهذا الوصف، لايبعدنا مرة أخرى عن المميزات العرقية للجنس الزنجي. فالشفاة الغليظة والأسنان الناتئة إلى حد ما والشعر نصف الأكرت والبشرة النحاسية من السمات الجسدية الأساسية المميزة للجنس الزنجي.

ومما يسترعى الانتباه أن شامبوليون - فيجاك يتحدث عن لون بشرة الأحباش «النحاسي هو وحده فقط»، ولكنه يكتب بعد ذلك بصفتين فى نفس الفصل، بخصوص تعدد درجات لون بشرة الزوج:

«كانت حروب طويلة الأمد قد جعلت مصر على اتصال بداخل إفريقيا؛ ولذا نجد على جدران الآثار المصرية عدة أصناف من الزوج يختلف بعضها عن بعض فى القسمات الرئيسية، وهو ما أشار إليه أيضا المسافرون الحديثون، كضروب من عدم التشابه، سواء فيما يتعلق بلون البشرة الذى يجعل الزوج سودا أو نحاسيين، أو فيما يتعلق بنواحي أخرى أقل تمايزا». (نفس المرجع ص ٢٩ - ٣٠).

وهذا التناقض الجديد الذى أورده نفس المؤلف يؤكد ما قلناه بخصوص الرجلين اللذين جاءا فى أعقاب الإله حورس مباشرة، أى المصرى والزنجي. فالرجلان ينتميان إلى نفس الجنس ولا يوجد فارق بينهما فى اللون، شأنهما فى ذلك شأن الفارق بين فرد من البامبارا وآخر من الوكوف، وكلاهما زنجي. فكل من اللون «الأحمر - الداكن» الخاص بالأول، كما يقولون، واللون «النحاسي فتقط» الخاص بالحشى، واللون «النحاسي» الخاص بالزنجي ليس سوى درجات لنفس اللون.

ويجدر بنا أن ننوه بأن وصف الكاتب يتطرق إلى تفاصيل ليست ذات مغزى مثل «المنظرة اللطيفة».. الخ.

ويتعين أن نشير إلى الخلط السائد حول تسمية البربر. فهذا النعت مستخدم في غير محله بالنسبة لأهالي وادي النيل الذين لا يوجد أي شيء مشترك بينهم وبين من أصطلح على تسميتهم البربر أو الطوارق. فلا يوجد بربر في مصر، بينما نعلم، على العكس أن شمال إفريقيا كان يشار إليه تحت اسم «بلاد البربر»، لأنه المنطقة الوحيدة التي كان يسكنها هؤلاء. وقد استخدم هذا النعت فيما بعد، وفي غير محله، لتسمية سكان آخرين. وهذه الكلمة التي يرجع استخدامها إلى المصور القديمة من أصل زنجي بالأحمرى، لا هندو - أوروبي. فهي تتفق في الواقع مع تكرار الجذر «بر». وهذا النوع من التكرار للجذر عام في كافة اللغات الزنجية وبالأخص في اللغة المصرية القديمة.

ومن جهة أخرى فإن الجذر بار بلغة الوكوف يعني «التحدث بسرعة» وقد تشير بذلك كلمة باربار إلى شعب يتحدث لغة غير معروفة، أي شعب غريب. وفي لغة الوكوف بالأخص تتشكل لغويا الصفة القومية من تكرار الجذر، ومثال ذلك أن الدجولوف - دجولوف، هم أهالي دجولوف.

وعندما نقل شامبوليون - فيجاك نقوش وادي الملوك عن رسم شامبوليون، لم يحترم ألوان الأصل. فقد ظلل جسم الزنجي لكي يشير إلى لونه في النقوش ولكنه نحاشى ذلك فيما يتعلق بالمصري وتركه أبيض تماما. وتلك طريقة لتبيض المصري وإن كانت لا تتفق مع الوثيقة.

وقد استخدم شيروبيني، مرافق شامبوليون في رحلته، نفس وثيقة وادي الملوك في تحديد سمات الجنس المصري. وأكد قبل ذلك على أسبقية الحياة في أثيوبيا بالنسبة لمصر وأشار في هذا الصدد إلى إجماع القدامى على أن مصر ليست سوى مستوطنة أثيوبية، أي سودانية - مصرية. بل لقد كان من المعتاد في العهد القديم أن الإنسانية نشأت في السودان المروي فأورد بهذا الصدد الأسباب التالية :

«كان يتعين أن تُعتبر نشأة الجنس البشري تلقائية وأن مولدها كان في المناطق العليا من أثيوبيا حيث امتزج إلى أقصى حد مبدأ الحياة: الحرارة والرطوبة. وفي هذه المنطقة أيضا بدلنا البصيص الأول للتاريخ على منيع المجتمعات والبؤرة الأولى للحضارة، فقد ظهر منذ العهد الغابرة التي سبقت المساهبات الاعتيادية للتقدم التاريخي، تنظيم اجتماعي منظم تماما، له ديانتته وقوانينه ومؤسساته. وكان الأثيوبيون يتفخرون بكرنهم أول من مارسوا طقوس عبادة الآلهة وتقديم القرابين. ويقال أيضا إن شعلة العلم والفنون أوقدت هناك، وأنه يتعين أن ينسب إلى هذا الشعب اختراع النحت واستخدام حروف الكتابة وأخيرا أصل كافة التطورات التي تقوم عليها الحضارة المتقدمة». (شيروبيني، النوبة، سلسلة الكون، ص ٢ و٣، باريس ١٨٤٧).

«وكانوا يتفاخرون بأنهم الشعب الذي سبق الشعوب الأخرى في التواجد على الأرض، ويبدو أن تفوق حضارتهم الحقيقية أو النسبية، بالمقارنة مع أغلب المجتمعات التي كانت في طور الطفولة، يبرر ادعائهم. ولا توجد على أي حال شهادة تنسب مصدرا آخر لهداية الأسرة الأثيوبية، وعلى العكس من ذلك، توفرت وقائع هامة للغاية دعت مبكرا إلى إسناد أصل محلي بحت لها (*)...»

«كانت أثيوبيا تعتبر قطرا على حدة، فمن هذا المنبع السماوي بطريقة ما، ظهر على ما يبدو لهم مبدأ الحياة وأصل الكائنات...»

(*) يستند شيرويني هنا إلى النص التالي لديودور الصقلي:

«يقول الأثيوبيون إنهم الأول بين كل البشر ويسرقون لذلك أدلة يعتقدون أنها جلية. ومن الأمور المطلق عليها عموما أنهم نشأوا في هذا البلد ولم يأتوا أبدا من جهة أخرى، وعليه يجب أن يحتسبوا من السكان الأصليين، ويبدو أنهم قد خرجوا من الأرض قبل بقية البشر نظرا لموقعهم المباشر تحت مسار الشمس. فيما أن حرارة الشمس بانضمامها إلى رطوبة الأرض تفتح الأشجار لونها من الحياة. فإن المراتع الأكثر اقترابا من خط الاستواء، يتعين أن تنتج كائنات حية قبل المراتع الأخرى. ويقول الأثيوبيون أيضا إنهم أسسوا عبادة الآلهة والأعياد والاجتماعات العامة والقرابين، أي باختصار كل الممارسات التي تمجد بها الألهة. ولذا فإنهم معتبرون أكثر الناس تدبنا، ويعتقدون أن قرابينهم أحسنها قبولاً لدى الآلهة، ويشهد لهم على ذلك أحد أقدم شعراء الأغريق وأكثرهم تمتعا بالتقدير، عندما أشار إلى الإلهة إلى انتقال جريبتير والآلهة الآخرين إلى أثيوبيا لحضور الاحتفالات والقرابين السنوية التي كانت تعد لهم جميعا عند الأثيوبيين:

«جربيتير اليوم، ولما رفقتك كل الآلهة،

«يتقبل القرابين من الأثيوبيين».

(الإلهة، ١، ٤٢٢)

«ويقرولون إن الآلهة كانوا هم على تقراهم بامتيازات عظيمة مثل عدم سقوطهم أبدا تحت سيطرة أمير أجنبي. والواقع أنهم حافظوا دائما على حرمتهم بفضل الوحدة العظيمة التي سادت دائما بينهم؛ وقد نشئت محاولات عدة أمراء شديدي اليأس لإخضاعهم. وجاء تسييز لهاجتهم بفرق كثيرة، فهلك جيشه بالكامل وتعرضت حياته هو نفسه للخطر. والملكة سيمراميس المشهورة بذكائها وصأقرها، شعرت بمجرد دخولها أثيوبيا أن مرماها لن يتحقق إطلاقا. وصال رجالها باكوس وهرقل في كافة أنحاء العالم ولكنهما امتنعا عن محاربة الأثيوبيين وحدهم، إما خوفا من قوتهم أو لتبجيلهما لتقراهم.

«ويقرول الأثيوبيون إن المصريين يشكلون إحدى جالياتهم التي جاء بها أوزيريس إلى مصر. بل إنهم يذهبون أن هذا البلد لم يكن في بداية العالم سوى بحر وأن النيل الذي يذبح بفيضاناته كميات كبيرة من غرين أثيوبيا، ردمه في نهاية الأمر وحمله إلى جزء من القارة.. وهم يضيفون قائلين إن المصريين أدخلوا عنهم وعن كتابهم وأسلانهم الجانب الأكبر من قوانينهم، وإنهم تعلموا منهم تمجيد الملوك كآلهة ودفن مراتهم في احتفالات مهيبه، وأن النحت والكتابة نشأ عند الأثيوبيين...»

« ويسبق الأثيوبيون أدلة أخرى لإلهات أسبقية وجددهم على المصريين؛ ولكن ليس هناك ما يدعو إلى ذكرها هنا.»

(تاريخ الكون، الكتاب الثالث، ص ٣٣٧-٣٤١، ترجمة الأب تيراسون، باريس، ١٧٥٨).

«وبالأسس، ومن أجل زيارة أثيوبيا المقدسة،

أنتقل جريبتير إلى شواطئ المحيط.»

هوميروس (الإلهة، ١، ٤٢٣).

وذلك باعتبار أن هوميروس هو الذي ألف الإلهة.

«وباستثناء بعض المعلومات التي أوردها أبو التاريخ حول تاريخ الأثيوبيين، الذين كانوا يُسمون المعمرين، كان من المعروف بشكل مشوش أن أثيوبيا كانت مصدرا لرجال يتفوقون على بقية الجنس البشري بارتفاع قامتهم وجمال تقاطيعهم وامتداد أعمارهم. بيد أنه كان من المعترف به آنذاك أن هناك قوميتين رئيسيتين من أصل إفريقي، وهما الليبيين والأثيوبيون. وكانت تندرج تحت التسمية الأخيرة الشعوب الجنوبية أو السوداء العرق، وهي تتميز عن الليبيين الذين كانوا مستقرين في شمال إفريقيا فكانوا بالتالي أقل تأثرا بحرارة الشمس. تلك هي المعلومات العامة التي تركها لنا القدامى». (نفس المرجع، ص ٢٨ و ٢٩).

«وهناك ما يدعو إلى الافتراض، ودعما التحلي بجساسة مفرطة، بأنه لا يوجد موقع آخر في العالم صادفنا فيه حضارة بدت لنا مسيرتها مؤكدة ومحاطة بمعالم الأسبقية التي لا نزاع فيها، لأن معاصريها أفادونا حتى ومحاولاتها الأولى وتطورها ونضوجها، بينما بدت متقدمة إلى حد كبير عن أغلب الأمم في سلوكها الاجتماعي. فمن المعروف في الواقع أن لمحات التاريخ الأولى كانت تضيئ بالكاد بدايات أقوى امبراطوريات آسيا عندما كان هناك تنظيم ناضج ومستقر تماما ومزدهر منذ أمد طويل على ضفاف النيل حيث تعاقبت الأمم لتنهل من المعارف التي كانت ثمرة خبرة طويلة، ولتستعير المؤسسات ودروس الحكمة التي كرستها تجارب الزمن.

«والكتابات العلمية والفلسفية القديمة المتفقة مع ما سجلته الآثار الأصلية تؤكد حقا تلك الأسبقية، وربما لا يوجد في تاريخ المجتمعات البدائية واقع بهذه البهامة المعتمدة على إجماع أكثر اكتمالا وحسما». (نفس المرجع، ص ٧٣).

وهكذا يذكرنا مرة أخرى أحد الحديثين بأن القدامى الذين نقلوا إلينا الحضارة الراهنة، يعترفون جميعا - سواء كانوا من العلماء أو الفلاسفة، بدءا بهيرودوت حتى ديودور الصقلي، أي بعبارة أخرى منذ عهد الإغريق حتى عهد الرومان - يعترفون بأنهم أخذوا هذه الحضارة عن زنوج ضفاف النيل سواء تعلق ذلك بالأثيوبيين أو المصريين.

ويتضح من هذا النص أن القدامى لم ينازعوا الزوج أبدا في دورهم كأول من بادر بإقامة الحضارة. بيد أن شيرويني ينسر مع ذلك الوقائع بطريقته. فعندما اعتمد على نقوش بيهان الملوك، بعد شامبوليون وشامبوليون - فيچاك، لم يقدم لنا أي عنصر جديد متعلق بالجنس المصري سوى التفسير الخاطي للألوان.

فهو يقول إنه إذا كان الروت - ان - نى - روم (أرقى البشر) يصور نفسه بلون بني يميل إلى الاحمرار (١) فذلك لكى يميز نفسه عن بقية البشر، أى أنه مجرد اصطلاح بحت:

«ويتبين لنا من ترتيب الناس في الأزمنة القديمة الذي تركوه هم أنفسهم لنا، أن السكان الأفارقة في وادي النيل، يشكلون هم وحدهم أحد التقسيمات الأربعة للكائن البشري ويحتلون المركز الأول بعد الإله، وفقا لترتيب لا يتغير جاء في عدة أماكن أخرى ولا يبدو أنه جاء بمحض الصدفة ...

«ولكى يجعلوا المسافة التي تفصلهم عن بقية البشر ملموسة، فقد خصوا أنفسهم وكذلك الإله المجسد في شكل إنسان، بلون للبشرة بنى يميل إلى الأحمر ربما مع بعض المبالغة أو كنوع من الاصطلاح، دون أن يترك ذلك أى مجال للشك في أصل جنسهم. وكانوا يصورونه على أى حال في كافة آثار حضارتهم القديمة بتسمات متميزة تنم عن أصل أفريقي مؤكد» (نفس المرجع، ص ٣٠).

واللون المشار إليه هنا بأنه «بنى يميل إلى الاحمرار» والذي سماه شامبوليون «الأحمر الداكن» هو بكل بسطة لون الزنجي، ولا يمكن أن يكون لونا مصطلحا عليه كما أراد شيروبيني. والواقع أنه سيكون بذلك اللون الوحيد الاصطلاحى في هذه النقوش لأن كافة الألوان الأخرى فيه طبيعية: فلا يوجد أى شك حول حقيقة لون الملابس البيضاء التي يرتديها الرجل الأول، ولا حول «لون البشرة المائل إلى الصفرة» الخاص بالرجل الثالث، ولا حول حقيقة «لون البشرة الأبيض في أرق درجاته» واللحية الشقراء والعيون الزرقاء فيما يتعلق بالرابع. وليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا اللون وحده من بين كافة الألوان الطبيعية، لون اصطلاحى، كما أنه لا يوجد ما يدعو بالأحرى إلى الاعتقاد بأنه لون زنجي مختلف عن ألوان الزنوج الآخرين، خاصة وأنه وفقا لما جاء في كتاب شيروبيني نفسه:

«لقد ذهبوا (أى المصريون) بنظامهم الوصفى، أو بعبارة أفضل، بالتهاوى بمحتدهم، إلى حد وضع فروق قاطعة بينهم وبين سكان إفريقيا الآخرين المجاورين لهم، ومن بينهم من كانوا من أصل زنجي، إذ حرصوا على عدم الخلط بينهم وبين أولئك وأفردوا لهم تصنيفا على حدة». (نفس المرجع، ص ٣٠).

بل إن المصريين ذهبوا إلى أبعد من ذلك وصوروا إلههم بلون الزنوج، أى على صورتهم هم: الأسود الفاحم. وعليه فإن فكرة اللون الاصطلاحى هذه يجب أن تستبعد بكل بساطة.

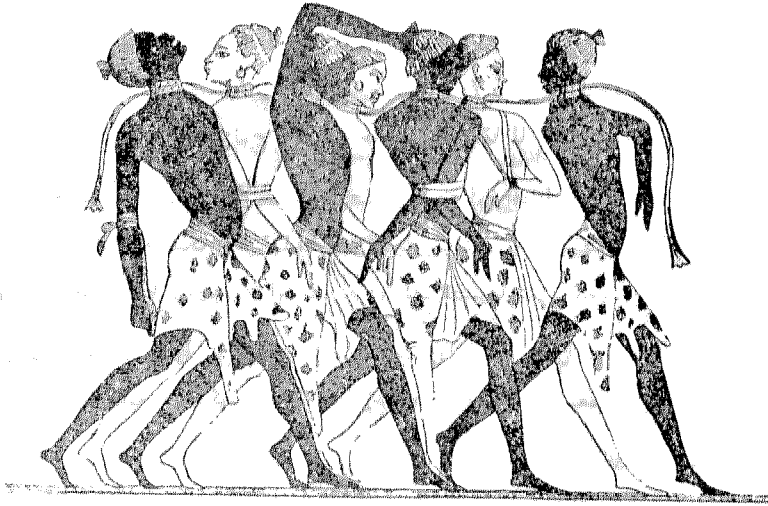
وهكذا يرى شيروبيني نقوش وادى الملوك، بعد شامبوليون - فيچاك، من خلال غمامة. ونعيد هنا إلى الأذهان ما قلناه آنفا، وهو أن الإخصائيين يتعرون في شرك اللامعقول وفي تناقضات لا مخرج منها، هربا من الأصل الزنجي الجلى تماما.

وهذا النوع من الزينغ هو وحده الذى يفسر لنا موقف شيروبيني الذى وجد أنه من المعقول اللجوء إلى مثل ذلك الاصطلاح التصويرى مع أنه يتعين ألا يكون مقبولا لدى المصريين، وفقا للفكرة التى كونها هو نفسه عنهم.

ويلجأ المؤلف إلى نقوش معبد ايسامبول (النوبة السفلى) التى تمثل الأسرى الذين أمسك بهم

سنوسرت بعد حملته في الجنوب لكي يحاول إثبات أن المصريين والزنوج كانوا ينتمون إلى جنسين مختلفين. فقد كتب يقول:

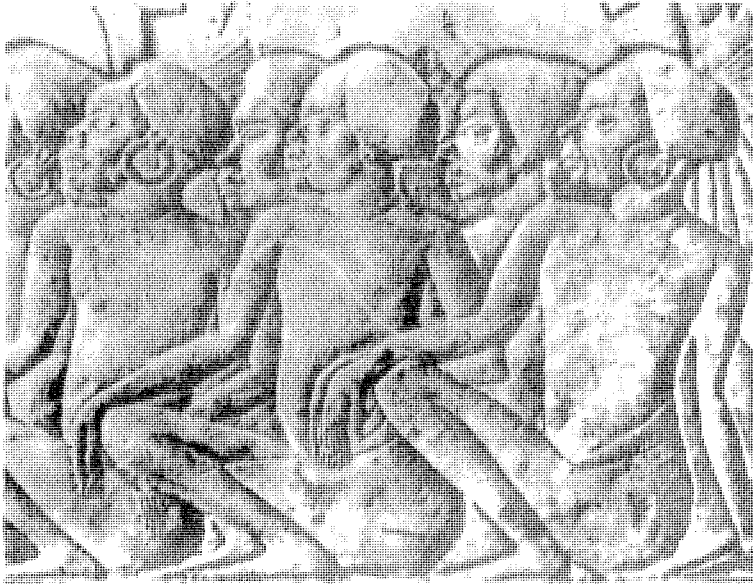
«نرى الملك سنوسرت عائدا من حملة ضد الجنوبيين؛ ويتقدم عجلته عدد من الأسرى. وعلى مسافة أبعد، يقدم العاهل للألهة المحليين مجموعتين من الأسرى المنتمين بالطبع إلى أحد هذه الشعوب المتوحشة: إنهم القرايين المخصصة لحماة الحضارة الأشداء الذين باركوا إنزال العقاب بإعدائه... وهؤلاء الرجال المقيدون بحبل واحد وشبه العراة تماما، باستثناء جلد فهد يلتف حول الخصر، يتميزون بلون بشرتهم الأسود تماما عند البعض، ويلون بني داكن متدرج عند البعض الآخر؛ وزاوية الوجه مستقيمة والجزء الأعلى من الرأس منخفض بشدة، والتسمات المفرطة في خشونتها مع البنية الضعيفة عموما من الصفات المميزة لنوع على حدة؛ جنس من أدنى درجات الكائنات البشرية



٣٢- يتبين من لون الأسرى المصورين في خلفية نقوش أبو سمبل أن المصريين لم يكونوا يصورون أنفسهم بلون مختلف عن لون الزنوج الآخرين، على عكس ما يشاع. ومن بين المناظر الواردة في نقوش أبو سمبل هناك نقش يستحيل أن نتبين فيه أي فارق بين لون بشرة فرعون ولون بشرة «الزنوج». وعلى العكس، لا مجال للمقارنة بين لون بشرة فرعون ولون نماذج الأجناس الأخرى البيضاء المصورة، فالأمر يتعلق بنفس المشهد الذي يسك فيه فرعون مجموعة من الأسرى من شعورهم.



٣٤- لقال نوك من الأجر (تمجهرها)
الزنجى كما بصور نفسه. ويتشابه هذا الرجل مع التماثيل المصرية، فله نفس السمات الجسدية التى
تتعارض مع سمات الفلاحين الأسرى فى الصورة رقم ٣٥. ويعود ذلك لا إلى اختلاف فى الجنس ولكن فى
الطبقة الاجتماعية.



٣٥- فلاهون سود أسرى فى صهيرة حورصحب

الأختلاف واضح مع نموذج ساكن المدينة فى الصورة رقم ٣٤. ولم يظهر هذا النموذج الرئيسى فى المراكز الإفريقية إلا بعد انتقال عناصر ريفية تبدو على وجوهها الآثار التى تتركها ظروف حياة الفلاحين الصعبة. ولذا فقد جانبهم التوفيق عندما اعتبروا أن الأمر يتملق بفرق عرقى مع أنه ليس إلا اختلاف فى الوضع الطبقي بين أرستقراطية المدن والفلاحين ذوى الوجه المتفضلن والأيدى الحثثنة، علما بأن ظروف العمل فى الزراعة لم تكن قاسية بقدر ما كانت فى النوبة.

(الصورة رقم ٣٣). وتكشف التكتشيرات البشعة والتشنجات التى تقلص وجه وأطراف هؤلاء الرجال عن عادات همجية؛ وعن غرابة أطوار هذ الجنس، الذى يبدو أن أخلاقه فى بداية نموها. وهى تدفع إلى وضعهم فى خانة وسيطة بين الإنسان والحيوان. ويبرز كل ذلك بكل وضوح بتباينه مع المظهر النبيل والجاد للمصريين.

«وهذا التباين الصارخ للغاية يثبت بما فيه الكفاية أن سكان ضفاف النيل بعيدون عن جنس الأفارقة الجنوبيين، كبعدهم عن الشعوب الآسيوية. وهو يقضى على النظم التى حاولت حتى الآن إثبات أن أصلهم زنجى بحت». (نفس المرجع، ص ٣٢).

وبصرف النظر عن أوصاف التحقير التى استخدمها شيروينى، فلنبحث عن الاختلافات العرقية بين الأسرى الذين يصفهم وبين المصرى. ولنلاحظ بادئ ذى بدء أن الوصف الذى أورده لا يتضمن أى مصطلح علمى يمكن أن يلفت النظر. وعلى العكس فإن اللجوء المفرط للسباب الذى يشكل الجانب الأساسى فى ذلك الوصف، من جانب رجل ينتمى إلى الشعب الذى يعتبر الاعتدال من الفضائل القومية، إنما يدل على مدى حنق شخص عاجز عن إثبات ما يريد.

وقد بلغ به الأمر حدّ نسيان الترتيب الموضوعى للوحة وادى الملوك التى توسع فى معالجتها.

وإذا كان الجنس الزنجى يحتل «أدنى درجات الكائنات البشرية». فهو يسبق على أى حال «البهيمة الشقراء» حسب رأى جوينو، فى ذلك الترتيب المتكرر بانتظام فى كافة الآثار، مما يدعونا بالطبع الى التساؤل حول مركز هذه البهيمة.

وقد أوردنا هنا الرسم الذى تحدث عنه شيروينى. فما هى تلك الملامح التى تنم عن الانحطاط الأخلاقى؟ وما هى المظاهر التى تميز قسما وجوههم عن قسما وجوه المصريين؟ (انظر الصورتين ٣٤ و ٣٥).

ويقول لنا شيروينى نفسه إن لون البشرة «بنى داكن متدرج»، أى أنه نفس لون البشرة (البنى المائل إلى الاحمرار) الذى أقر به للمصريين فى آثارهم. وبناء على ذلك فإن السمة العرقية الوحيدة التى لها قيمتها والتى تفضل بتقديمها لنا سمة مشتركة بين الجنسين.

ويدل لون بشرة أسرى ايسامبول على أن القول بأن المصريين لم يكتشفوا الزواج إلا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وأنهم صوروهم بلون متميز عن لونهم، لا يعتمد على الوثائق بل على الخيال. وهذه الأجسام أبعد عن أن تكون ضعيفة البنية بل هى على العكس رياضية أساسا وهذه «التقلصات» و«التكتشيرات» التى بدت على وجوه الأفراد فى الصف الأول وذلك الاستسلام المصحوب بالازدراء لمن احتلوا الصف الخلفى، ألا يدل بالأحرى على إدراك رفيع للكرامة لا الوضاعة الأخلاقية، بالنسبة لمن يتحلى بالقدرة على تفسيرها بشكل موضوعى؟

وقد حاولوا التلميح أيضا بأنه إذا كان سنوسرت - والفراعنة بوجه عام - قد حاربوا الزواج فى جنوب أثيوبيا فذلك لأنهم لم يكونوا من نفس الجنس الأسود. فكأننا نقول إنه بما أن قيصر شن حملات على بلاد الغال، فإن الرومان والغالين لم يكونوا من نفس الجنس الأبيض، وإنه إذا كان الرومان بيضا فذلك لأن الغالين كانوا صفرا أو سودا ...

كان الزواج المستقرون داخل القارة الافريقية يميلون أحيانا بشدة إلى خوض الحروب وكثيرا ما كانوا يشنون غارات على الأرض المصرية، فكانوا يشكلون بذلك تهديدا مستمرا فى الجنوب ويتعرضون لحملات عقابية. (لوحة جزيرة فيله).

والحملة التى قادها سنوسرت والمسجلة على نقوش ايسامبول تدخل فى نطاق عمليات القمع هذه. وعلى أى حال فإن هذه الحملة تعود إلى المرحلة الأخيرة من الدولة الوسطى (الأسرة الثانية عشرة).

وهكذا دعت الأحوال أبناء حام إلى تطبيق تعبير «ابن كوش البغيض» على أشقائهم الذين استقروا بعيدا فى الجنوب^(*).

غير أن المصريين كانوا يكرهون قبل كل شئ الرعاة الآسيويين بكافة أنواعهم، ابتداء من «الساميين» حتى الهندو-أوروبيين؛ وكانت لا تعوزهم النعوت المهينة للإشارة إليهم. فكانوا يسمونهم «الآسيويين الحسيسين» (نقلا عن مانيتون)⁽¹⁾ وأطلقوا على الغزاة اسم هيكسوس المشتق من هيك (ملك باللغة المقدسة) وسوس (راعى باللغة الشعبية). وكانوا يسيرون إليهم أيضا بعبارات «الملعونين»، و«المبوئين»، و«المجدومين»، و«النهابين»، و«اللصوص» ومنها كلمة ساتى = رماة السهام...^(**)، والكلمة تعنى بلغة الكوف: سارق. وكانوا يسمون السكوتيين أيضا «آفة شيتو» (شيروينى، النوبة، ص ٣٤).

والنقوش التى تركها لنا المصريون والتى سجلت حملات الفراعنة ضد هؤلاء القوم فى آسيا، تصور على العكس أشخاصا يتضح من الوهلة الأولى وبلا منازع، أنهم مختلفون عرقيا عن المصريين. وقد نقلنا هنا (الصورة رقم ٣٦) رسوم الأسرى الآسيويين والأوروبيين المنحوتة على صخور سيناء وفى معهد مدينة هاهو لكى نوضح التعارض الصارخ بين السمات السامية والآرية والأجنبية لأعداء مصر هؤلاء، وبين وحدة سمات المصريين وأسرى ايسامبول.

وعليه، فإن شيروينى أبعد عن أن يكون قد قضى على «المنظم التى حاولت حتى الآن إهبات» أن أصل المصريين زنجيى بحت.

(*) ناحاس؛ صملوك بلغة الكوف وجمعها ناحاس - فى : الصماليك.

(**) نقلا عن ماريس فورتان؛ الأمصار (من ٥٠٠ إلى ٧١٥ قبل الميلاد) مطبوعات لومبير، ص ٢١٩.

ويعالج ماريوس فونتان نفس القضية في كتاب الأمصار [LES EGYPTES] الذى صدر حوالى عام ١٨٨٠ فيقول:

«صنع المصريون أنفسهم دائما على آثارهم باللون الأحمر، مما وفر لأنصار «الأصل الجنوى» عددا كبيرا من الخصائص المتميزة التى يمكن أن تمهد للإعداد لحل مشكلة الأصل العرقى المثارة. ففى أعالى النيل يوجد حاليا وسط الغوليه ذوى اللون الأصفر المميز؛ البشارية الذين يعتبرهم معاصروهم من ذوى الأصل العرقى النقى. ولون هؤلاء البشارية هو بالضبط لون الطوب الاحمر الوارد فى الآثار المصرية. ويرى بعض علماء الأجناس أن هؤلاء «الرجال الحمر» أثيوبيون تغير لونهم مع الزمن بفعل المناخ، أى أنهم زنوج وصلوا إلى نصف الفترة اللازمة لى يصبح لون بشرة الزنجى أبيض؛ وقد لوحظ أن الزنجى فى البلاد «ذات التكوين الحجرى» أقل سوادا من الزنجى فى «البلاد الجرانيتية أو ذات الصخور البركانية» بل إن بعضهم يعتقد أنه لاحظ أن درجة لون البشرة تتغير حسب الموسم. وفى هذه الحالة يكون النوبيون زنوجا قدامى، فيما يتعلق باللون فقط، أما تكويتهم العظمى فيظل زنجويا صرفاً.

«والزنوج المثلون فى التصوير الفرعونى والذين حددهم النحاتون بكل دقة، وتطلق عليهم الهيروغليفية اسم ناحاسو أو ناحاسيو، لا توجد أى نواحي تشابه بينهم وبين الاثيوبيين الذين كانوا أول من نزح إلى مصر. فهل كان هؤلاء زنوجا أقل زنجية، أى نوبيين؟ فوفقا للقواعد المعروفة باسم مقاييس ليسيوس، التى تحدد بالتريعات نسب جسم المصرى الصرف، فإن ساعديه قصيران، فهو زنجى أو زنجوى. ومن وجهة نظر علم أصل الجنس البشرى، يأتى المصريون بعد البوليزيين والمغول والأوروبيين، ويليههم مباشرة زنوج إفريقيا والتزمانيون. وهناك على أى حال اتجاه علمى يرى أنه لا يوجد فى الواقع فى إفريقيا سوى زنوج أو زنجاويين يتفاوت لون بشرتهم، وذلك بالطبع بعد استبعاد التأثيرات الأجنبية الممتدة من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى رأس الرجاء الصالح، ومن المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى. وعليه فإن المصريين كانوا على الأرجح زنوجا، ولكنهم زنوج من الدرجة الأخيرة.» (نفس المرجع، ص ٤٤ و ٤٥).

وجهة نظر فونتان هذه، التى لا تحتاج إلى أى تعليق، تؤكد مرة أخرى، استحالة التنصل من الأصل الزنجى لمصر، إذا ما قبل المرء التمسك بالواقع وحده: وهكذا توصل ليسيوس، بمجرد الاعتماد على مقاييس موضوعية، إلى استنتاج قاطع، وهو أن المصرى الصرف زنجوى. ويعنى ذلك أن تكوين هيكله العظمى زنجوى وأن هذا هو السبب الذى دفع كتابات علماء أصل الجنس البشرى إلى التزام الصمت فيما يتعلق بالتركيب العظمى المصرى.

ويستعرض فونتان بعد ذلك الأطروحة التى تقول إن تحضّر المصريين تم على يد البربر أو الليبيين القادمين من أوروبا عن طريق الغرب.



أسير من جنس أبيض آرى (نقوش جدران معبد مدينة هابو)
إلى اليمين نموذج للبيى أو شعب الشمال

نموذجان لأسرى ساميين
(نقوش على صخور سيناء)



٣٦- هذه الرسوم منقولة عن كتاب لينومان عن مصر. وكانت جميع تلك الشعوب من الرُّحل. وهكذا يفتضح أمر الغربيين الذين يمشدون فى الكثير من الأحوال بحياة الرُّحل دون أن يكون هناك سبب ظاهر لذلك (منهم على سبيل المثال توينبى) انظر ص ٨٦.

«ولو تمت البرهنة على أن الحضارة جرت من الشمال إلى الجنوب، من البحر الأبيض المتوسط إلى أثيوبيا على التوالي، لما ترتب على ذلك أن تلك الحضارة آسيوية الأصل، ومن الممكن أن تكون أيضا إفريقية، جاءت من الغرب بدلا من الجنوب. وفي هذه الحالة يكون البربر بربر شمال إفريقيا هم الذين «أدخلوا الحضارة» في مصر.

«وهناك من بين البربر الحاليين عدد كبير ذو تركيب عظمى مصرى أساسا. وكان البربر القدامى سمر اللون على الأرجح ويمكن أن ينسب وصف التاماهو، لبيى الأسرة التاسعة عشر «ذوى الوجه الشاحب، الأبيض أو الأصهب، والعيون الزرقاء» إلى تأثير الجنس الأوروبى وهجرة «أهالى الشمال». فهؤلاء البيض الذين ألحقهم الفراعنة بخدمتهم كمرتزقة، ساهموا إلى حد كبير فى تهجين المصريين والليبيين أيضا. ولذا يجب غض النظر عن ذلك، والعودة إلى الليبى ذى البشرة السمراء، أى البربرى الحقيقى، للعثور على الشعب الذى يقال عنه إنه كان أول من أدخل الحضارة إلى مصر. وتلك مهمة ضخمة، لأن البربر الأفارقة يتلاثون شيئا فشيئا فى إفريقيا، ولا يوجد النموذج البربرى فى مصر إلا مختلطا إلى حد كبير. ووفقا لتلك النظرية، يكون البربر الأفارقة القادمون من الغرب والليبيون ذوى البشرة السمراء قد استقروا فى وادى النيل الجديد، ولكن غزو الأوروبين الذى حدث فى نفس الوقت تقريبا أو بعد ذلك بقليل هجن ذلك الليبى القادم من شمال إفريقيا «ذا البشرة البيضاء والعيون الزرقاء» الذى غير المصرى البدائى. وهكذا فإن هذا المصرى الذى جاء دمه من أوروبا يكون منتسبا إلى الجنس الهندو-أوروبى ومنتميا إلى الآرية؟» (ص ٤٧، ٤٨).

وتعتبر تلك الأطروحة آية للتفسيرات المعتمدة على الخيال الصرف، أى أنها لا تستند إلا إلى المشاعر الوجدانية. وأنا لم أذكرها إلا لتفننها ومأربها، ألا وهو التوصل بأى ثمن إلى إثبات أن المصريين كانت تجرى فى عروقهم بطريقة أو أخرى، دماء آرية ...
والآرية هى الكلمة التى كان يتعين الوصول إليها...

وقد ذكرتها لأنها صريحة، على عكس الأطروحات السابقة. فهى نتاج تفسيرات لا تقوم على أى أساس، ساقها متخصصون مقتنعون تماما بأن كل ما له قيمة فى الوجود لا يمكن إلا أن يكون صادرا عن جنسهم، وأن أى بحث جاد يؤدى لا محالة إلى إثبات ذلك.

وعليه فإن أى تفسير لا يمكن أن يكون مكتملا إلا إذا حقق ذلك الهدف. ولذا لا يهم أن تكون البرهنة مدعومة بالوقائع، فهى مكتملة بذلك لأن الأدلة التى تسوقها جزء من هدفها.

وقد تمت الإشارة من قبل إلى البهيلة التى تشوب الأفكار المتعلقة بمفهوم البربر، ولذا فليس هناك ما يدعو إلى الرجوع إليها. فوجود الليبى ذى البشرة السمراء البربرى حقا، والمعتبر نموذجا أصليا لجنس أبيض، لا يضاهيه سوى وجود عرائس البحر. ومن جهة أخرى فإن الاعتماد بكل دقة على

الوثائق التي وفرتها الحفريات تؤكد أن شمال إفريقيا لم يكن في يوم من الأيام نقطة انطلاق للحضارة. ولم يصبح له شأن في التاريخ إلا مع قيام مستوطنة قرطاجنة الفينيقية، أي عندما كانت الحضارة المصرية قد أمضت عدة آلاف من السنوات. ولو كان أهالي مصر قد قدموا من جنوب أوروبا، كما يفترض ذلك ماسبيرو، ولو كانوا «قد انحدروا نحو الوادي من الغرب أو الجنوب الغربي» (التاريخ القديم لشعوب الشرق، ص ١٩) ليجلبوا لها عناصر الحضارة (*) ولكان عدم تركهم لأي آثار في مهدهم أو طريقهم إلى الوادي أمراً لا يمكن تفسيره. ومن العسير أن نتصور أن هذا الجنس الأبيض الناضر للحضارة قد هاجر من أوروبا، ذلك المهد المواتي تماما لنمو تلك الحضارة، دون أن يقيم فيها تلك الحضارة، وأن يكون قد مرَّ عبر السهول الغنية المحاذية للبحر الأبيض المتوسط واجتاز المسافة الهائلة التي تفصل شمال إفريقيا عن مصر - والتي لم تكن صحراوية آنذاك - وشق الوجه البحري لمصر الذي كان آنذاك منطقة عامرة بالمستنقعات والأرنية، ومرَّ بصحراء النوبة، وتسلك هضاب أثيوبيا المرتفعة، فقطع بذلك آلاف وآلاف من الكيلومترات لكي يقيم، لنزوة غير مفهومة، حضارة في منطقة قاصية إلى هذا الحد، ولكي يهبط بعد ذلك تدريجياً مع مجرى النيل.

وحتى لو افترضنا أن الأمور صارت على ذلك النحو، فكيف يمكن أن يفسر المرء أن فريق هذا الجنس الذي مكث في مكانه، في بيئة مواتية لتفتح الحضارة، ظل خشناً حتى العقبة التي سبقت العهد المسيحي؟

وعلى نقيض الافتراضات التي تزعم أن إفريقيا كان يسكنها جنس أبيض طوال العهود القديمة، يمكن الاستناد إلى وثائق أثرية وتاريخية تؤكد بالإجماع أن هذه المنطقة كانت دائماً مرطناً لزنج. ويقول فورون إنه تم العثور في خمسة مواقع بإقليم القسطنطينية على هياكل متحجرة لأشخاص عاشوا في نهاية العصر الحجري القديم «كان من بينهم بعض الزوج الذين يشبهون نوبيي صعيد مصر» (موجز لآثار ما قبل التاريخ، ١٩٤٣ ص ١٧٨).

وتثبت الوثائق اللاتينية هي أيضاً، في العهد المؤرخ، أن الزوج كانوا متواجدين في كافة أنحاء شمال إفريقيا:

«لقد ترك المؤرخون اللاتينيون لنا بيانات حول الشعوب ولكنها في الكثير من الأحوال أسماء لا تعنى الكثير بالنسبة لنا.

«وبعد أننا نستطيع أن نستخلص منها على الأقل أنه كان هناك عدد كبير من السكان الزوج،

(*) يلاحظ ماسبيرو أن ذلك الافتراض تناه بعض علماء الطبيعة وعلماء أصل الجنس البشري، ومنهم: هارتان، ومررتون، وهامس، وسورجي.

الآثيوبيين الذين تكلم عنهم هيرودوت، يتمثل خلفهم فى حراتى جبال الأطلس العليا المغربية» (فورون، المرجع السابق، ص ٣٧١).

ويثبت هذا التنويه أنه يوجد حتى الآن زنوج فى تلك المنطقة.

والحضارة الوحيدة فيما قبل التاريخ التى تألفت من هناك حتى وصلت إلى مصر، تعود إلى

زنوج:

«فى ذلك العهد انتشر الزنوج الأورينياسيون بشكل مباشر فى إفريقيا والشرق، فى حضارة تسمى الحضارة الكاسبية (أشبه بالحضارة المجدلية) فى تونس على الأرجح. وقد تقدمت من جهة، نحو شمال إفريقيا واسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا، فنازعت بذلك القوقازيين والموغول حول حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن جهة أخرى نحو ليبيا ومصر وفلسطين. ويبدو أنها أخضعت جزئياً لنفوذها الصحراء والسودان ووسط إفريقيا وحتى جنوب أفريقيا.

«وقد نتج عن تلك الحضارة الكاسبية ازدهار فنى يشبه برسومه على الصخور تلك التى وصلت إليها أوروبا فى العهد المجدلى.

«غير أن الفن الكاسبى يميل إلى التجريد وإلى الإيجاز المبسط للأشكال الذى أصبح على ما يبدو أصل الكتابة.

«والواقع أنه لا يوجد اتفاق كامل حول تاريخ تلك الرسوم التى تم العثور عليها فى العديد من مواقع الصحراء حتى جبال الأحجار. فالبعض يرى أنها تعبر عن حضارة كاسبية، بينما ينسبها البعض الآخر إلى مرحلة متأخرة، ألا وهى العهد الحجري الجديد». (فورون، نفس المرجع، ص ١٤ و ١٥).

«وظهور الكبش الذى يحمل بين قرنيه أسطوانة أو كرة قد يربط تلك الحضارة الصحراوية بالطقوس الدينية المصرية فى مرحلة ما قبل عهد الأسرات. وهكذا نجد أن آمون، الإله - الكبش قد نشأ فى تلك الصحراء التى كان يسكنها آنذاك رعاة يسوقون خرافهم ويقرهم للرعى، حيثما لا توجد هناك اليوم سوى صحراء قاحلة». (نفس المرجع، ص ١٥).

وعليه، يثبت فحص الوثائق قيام حضارة زنجبية، منذ ما قبل التاريخ، فى نفس الموقع الذى يريدون أن يكون المنطلق الأصلي للحضارة المصرية.

ولما كانت تلك الأحداث قد سبقت المرحلتين الكاسبية والمجدلية، فهى تكشف بالأحرى عن غزو زنجبى جاء من القارة الآسيوية وامتدادها الأوروبى، واجتاحت بذلك العالم.

ولذا فقد كتب ديمولان دى لاهلات، وهو يشير إلى بداية العصر الحجري القديم :

«وقد انطلقت آنذاك هجرة زنجية من الأصل الهوتانتو، من جنوب القارة الإفريقية ووسطها فاجتاحت شمال إفريقيا: الجزائر وتونس ومصر، وجلبت بالقوة حضارة جديدة، الحضارة الأورينياسية، لمناطق أوروبا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. وهؤلاء البوشمان هم أول من سجل على الصخر رسوما خشنة ونحت قماثيل حجرية لنساء حوامل ضخام البنية ومترهلات. فهل تعود عبادة الخصوية والرية - الأم في حوض البحر الأبيض المتوسط الى أولئك الأفارقة؟

«غير أن افتراض غزو زنوج أفارقة لضفتي البحر الأبيض المتوسط يصطدم ببعض الاعتراضات. لماذا عمد هؤلاء القوم إلى الهرب من حرارة الشمس وجاؤوا يسعون الى البرودة؟ وقد يكون من المقبول أن نجد في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا أدوات ترجع إلى المرحلة الأورينيسية، في حالة افتراض قدوم هجرة من إفريقيا. ولكن العثور على هذا النوع من الأدوات في بوهيميا وألمانيا وبولندا يجعل هذا الافتراض هشاً بقدر أكبر. وأخيراً فقد تم العثور على أدوات أورينياسية في جاوه وكذلك في سيبيريا والصين؛ فإما أن الزنوج اجتاحوا العالم أو أننا يجب أن نفترض قيام «تبادلات ثقافية» بين مختلف شعوب الكرة الأرضية» (التاريخ العام المتزامن، باريس، ١٩٤٧، ص ١٣).

ويتبنى فورون، إزاء نفس تلك الأدلة الأثرية، فكرة عبادة الخصوية لكي لا يتوصل إلى نفس الاستنتاجات:

« ولما كانت جميع تلك التماثيل الصغيرة تبدو «عائلية»، فإنه يتعين التسليم بفكرة عبادة الخصوية، لأنه لا يعقل أن يكون أناس من هذا الجنس الزنجي ذى النساء المفرطات الهدانة قد استقروا جميعاً في فرنسا وإيطاليا وسيبيريا». (فورون، موجز لآثار ما قبل التاريخ، ص ١٥٦).

والواقع أن التسليم بعبادة الخصوية يعنى القبول بفرضية الغزو الزنجي، الذى تؤكد فضلًا عن ذلك الجماجم أورينياسية والهياكل البشرية للجنس الجرمانى.

ويقر عدد متزايد باستمرار من العلماء بدور إفريقيا الحضارى، حتى منذ مرحلة ما قبل التاريخ. «ومن جهة أخرى، يبدو من المحتمل أكثر فأكثر أن إفريقيا عرفت منذ مئات الآلاف من السنين فى عهد الحجر المقصوب، مراحل محضر بدائية يمكن أن تقارن بشبهتها فى أوروبا وآسيا، وأنها كانت أيضاً متبع عديد من تلك الحضارات التى امتدت شمالاً فى تلك البلاد الكلاسيكية». (الأب بروس «جنوب إفريقيا، هل هى مهد الإنسان؟ - مجلة الاخبار الادبية، عدد ١٩٥١/٤/٥).

ويلهب رأى هذا العالم الكبير إلى أبعد من ذلك. ويتضح أكثر فأكثر أن البشرية نشأت فى إفريقيا. فقد تم العثور حتى الآن فى جنوب إفريقيا على أكبر مخزون من العظام البشرية. ومع أن هذا البلد لم يحظ بأكبر قدر من الحفريات، إلا أنه الموقع الوحيد فى العالم الذى تتيح فيه العظام التى تم العثور عليها رسم سلالة الإنسانية منذ أصولها حتى يومنا هذا، بلا انقطاع.

«ومع أن الأمر لا يخص مجال علم الأثریات، إلا أنني سأحدث أولاً عن قضية أصل الجنس البشري التي تقدمت خطوات كبيرة في هذا البلد بفضل اكتشافات الدكتور دارت في تونجيز وماكاهان، واكتشافات الدكتور بروم في ستركفونتین، وكرومدای، وشوارتكرانز. فقد تواجد هناك، قبل الإنسان، قرود أشبه بالإنسان تسير على قدمين، ذات أشكال عديدة متنوعة، ولكنها تتضمن صفات بشرية مبكرة، مما يدفع المرء إلى البدء بالاعتقاد بأن النموذج البشري نشأ هنا. ويشهد أكثر فأكثر اهتمام المتخصصين بتلك الاكتشافات الرائعة التي تتزايد كل شهر تقريباً». (نفس المرجع السابق).

وهناك تقريباً اتفاق على أنه لم يكن هناك سوى خشماويات زنجوية حتى العصر الجليدي الرابع. وقد أعلن مؤخرًا عالم من جنوب إفريقيا أن الإنسان الأول كان أسود، شديد التخضب وفقاً للأدلة التي توجد في متناول يده. ولم يطرأ التمايز بين ذلك الجنس الزنجوي وتفرعه إلى أجناس متميزة إلا خلال ذلك العصر الجليدي الرابع الذي دام مئة ألف عام، وذلك على أثر تأقلم القسم الذي ظل متعزلاً أسير الجليد مع بيئته، فغدت فتحات أنفه أضيق، وقلَّ خضاب بشرته، وحدقة عينه ...

هناك إذن واقعة واحدة تؤكدنا الوثائق في الأطروحة «الليبية» (الآرية التي ذكرها فونتان)، وهي استخدام الفراعنة الزواج لهؤلاء البيض الشرق، ذوى العيون الزرقاء والموشومين كمرتزقة. وتلك القبائل التي يقال عنها إنها ليبية، كانت تشكل جماعات هجينة في المنطقة الغربية في الدلتا، حيث لم يتم الاعتراف تاريخياً بوجودها إلا في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

وقد اعتبر المصريون القدامى دائماً دائماً الليبيين همجاً حقيقيين، تحضّرهم مستعص. وكانوا حريصين على ألا يختلطوا معهم، ويتفضلون على أقصى تقدير بقبولهم كمرتزقة. كما أنهم لم يكفوا أبداً عن إبعادهم عن حدودهم عن طريق الحملات الدائمة، ولم ينتشر الليبيون النصف مستأنسين في مصر تدريجياً إلا في العصور المتأخرة حيث استقروا في منطقة الدلتا.

ويدلنا الوصف الذي قدمه هيرودوت عن الليبيين حتى نهاية التاريخ المصري القديم على أنهم ظلوا في المرتبة الأخيرة من الحضارة وأن تعبير التحضر - أيما كان المعنى العريض الذي يمكن أن يضمني عليه - ما كان يمكن تطبيقه بخصوصهم. وقد كتب أبو التاريخ يقول بخصوص قبيلة الادريماشيد الليبية: «ويطوق نساؤهم كل ساق بحلقة من النحاس، ويتركن شعورهن تسترسل، وإذا قرضتهن قملة فإنهن يأخذنها ويقضمنها بدورهن ثم يلقين بها بعد ذلك».

ولا يسع المرء إذن إلا أن يهدى دهشته إزاء المحاولات التي تبذل لإسناد الحضارة المصرية إلى الليبيين.

وقد حاولوا، بناء على ذلك الافتراض، عقد تقارب بين اللغة البربرية واللغة المصرية بدعوى أن البربر من سلالة الليبيين. بيد أن اللغة البربرية عجيبة الشأن إذ يمكن إبداع تقارب بينها وبين كافة أنواع اللغات:

« فمن جهة، لوحظت بعض الصلات بين لغة البربر ولغات الغال والكلتيين والكيمريس. ولكن البربر يستخدمون نفس القدر من الكلمات المصرية والأفريقية، ولذا فإنها تصبح لغة هندو-أوروبية أو آسيوية أو إفريقية حسب وجهة النظر التي يتم تبنيتها. والواقع أن اللغات الليبية إفريقية المنشأ، وقد أتى الليجور والسيكول، الذين قدموا إلى أوروبا من شمال إفريقيا، أتوا على الأرجح بلسان إفريقي تمثله لغة الهاسك، من بين لغات أخرى». (فونتان، المرجع المذكور آنفا، ص ٦١، ٦٠).

وينطبق نفس الأمر على قواعد اللغة البربرية. ويتجنب المتخصصون في هذه اللغة تأييد القرابة بين لغة البربر ولغة المصريين.

وذلك هو موقف الأستاذ باسيه الذي يود أن تُقدم وقائع قاطعة لكي تكون الفرضية الحامية - السامية (وبالأخص القرابة بين اللغتين البربرية والمصرية) مقبولة.

ومن المعروف أن كلا من اللغتين تعبر عن المؤنث بإضافة حرف التاء إلى الاسم.

ولكن من المعروف أيضا أن الأمر ينطبق كذلك على اللغة العربية. وبناء على ما نعرف عن العرب والبربر، فإن بوسعنا أن نتساءل مع اميلينو، لماذا لا يتعلق الأمر بتأثير عكسي، نظرا لأنه يتفق مع العلاقة التاريخية بين هاتين الأمتين.

وليس ذلك كل ما في الأمر، إذ يتضح من البحث أن الاسماء المؤنثة في اللغة الألمانية تنتهي أساسا بحرف التاء أو حرفي السين والتاء. فهل يعني ذلك أن البربر تأثروا بالجرمان أو العكس بالعكس؟ وهذا الافتراض معقول مقدما إلى حد ما لأنه من المعروف أن القبائل الجرمانية تدفقت في القرن الخامس (سنة ٤٢٩) على شمال إفريقيا عن طريق إسبانيا وأقامت امبراطورية حكمتها طوال ٤٠٠ سنة. (چنسريك: انظر هاردي، تاريخ إفريقيا، ص ٢٨ و ٢٩).

ومنذ هذا الغزو، امتزج الغانдал، الذين استقروا في شمال إفريقيا، بأهاليها، وحاول قسم منهم فقط فتح روما بقيادة چنسريك عن طريق صقلية ولكنهم فشلوا في ذلك.

وفضلا عن ذلك فإن صيغة جمع ٥٠٪ من الأسماء البربرية يتم بإضافة إن [en]، كما هو الحال بالنسبة للأسماء المؤنثة باللغة الألمانية، بينما تنتهي صيغة جمع ٤٠٪ من الأسماء بـ آ [a] على غرار الأسماء المحايدة باللاتينية (*).

ولما كان من المعروف أن الغانдал استولوا على شمال إفريقيا من الرومان، لماذا لم ينتج التفكير إذن نحو البحث عن واقع البربر من هذه الزاوية، سواء فيما يتعلق باللغة أو التركيب الجسدي لهؤلاء السكان: الشعر الأشقر، والعيون الزرقاء ... الخ؟

(*) هلان الشكلان للجمع (إن وآ) كانا مرجعين في اللغة الجرمانية الشمالية.

ولكن ذلك لم يحدث قط: فقد قرر المؤرخون أن القانдал لم يكن لهم أى تأثير رغم كل تلك الحقائق، وأن احتلالهم لبلاد البربر ليس مبررا لتفسير أى شئ فيها.

وعلى الرغم من أن القانдал كانوا همجا وأن إدارتهم لم تكن على مايرام، فإن تعنادهم ومركزهم كفضاة لا يمكن أن يدفع إلى الاعتقاد بأنهم تخلوا تلقائيا عن لغتهم ليتبنوا لغة البلاد، ولا يوجد أى نص لاتينى يؤكد ذلك. وعادة ما تكون العلاقات الاجتماعية معقدة أكثر من ذلك، فينعكس التعقد فى المجال اللغوى. وهكذا فإن اللغة التى تختفى تؤثر على اللغة المنتصرة بإدخال تحولات فيها بحيث لا تعود أبدا كما كانت من قبل (*).

وعليه، يتعذر على المرء أن يتخيل أن البربر الحاليين معصومون من أى تأثير قنذالى، كما أنه يتعذر إلى حد أكبر أن نتصور أن البربر الحاليين ليسوا من سلالة القانдал، خاصة عندما تكون عيونهم زرقاء وشعورهم شقراء.

والنصوص التى جاءت فى مقدمة ابن خلدون حول البربر لا يمكن إلا أن تكون حجة فى هذا الخصوص (**).

وبما قد يؤكد افتراض الأصل القانذالى، أن البربر لم يكن لهم أى وجود فى مصر، وأن عددهم ضئيل فى تونس كما كان يتزايد مع الاتجاه من الشرق نحو الغرب ليبلغ أوجه فى المغرب.

ولا تلتفت كافة تلك الوقائع نظر المؤرخين لأنه يتعين مقدما أن يكون البربر من اللديم بما يكفى لتبرير الحضارة المصرية. بيد أن الجمل العشرين حول البربر التى جاءت فى النصوص العربية لا ترجع

(*) كان جنسريك قد احتل شمال إفريقيا، بما فى ذلك الجزائر وطرابلس، وكان أسطوره يسيطر على كافة أرجاء البحر الأبيض المتوسط الغربية كما كان يهدد شواطئ اليونان وصقلية وإيطاليا. وقد حطم الأساطيل المتحالفة لأمبراطورى الشرق والغرب بالقرب من رأس آذار فى تونس وضم إلى مملكته المعتدة الأطراف أصلا، جزيرتى سردينيا وكورسيكا وجزر البليار. ورأى امبراطور القسطنطينية، زينون، أن من الحكمة أن يحقد الصلح معه ويعترف بكافة فترحاته. واتخذ جنسريك كافة الإجراءات اللازمة لتسهيل عمليات تعزيز وتنظيم إدارة الأمبراطورية لخلقه. (لويس هالدن، البرابرة، مطبوعات الكان، ١٩٣٠، ص ٣٧، ٣٨).

ومن الصعب أن نتصور إذن أن القانдал لم يتركوا أى أثر لهم فى شمال إفريقيا.

(**) يقدم لنا كتاب «طريق السردان» لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن امير السعدى معلومات لها أهميتها فيما يتعلق بأصل الطوارق فيقول إنهم المسلمون وينسبون أنفسهم الى الصنهاجة الذين يرجعون أصلهم إلى بنى حنيفة كما جاء فى كتاب الحلال الرشيقة فى ذكر اخبار المراقشية، وهم بنو رحل يتوغلون فى الصحارى ولا يستقرون أبدا فى موقع واحد وليست لديهم أى مدن بلجوتون بها، وقد مسهروا فى الصحراء حتى شهرين بين بلاد السود وبلاد المسلمين.

وقد قدم الصنهاجة من اليمن ووصلوا إلى الصحراء، وطنهم الحالى فى المغرب. وهم ينتقلون من بلد إلى بلد طوال مدة إقام، ويصلون إلى المغرب الأقصى، بلد البربر، حيث يحطرون رجالهم كما لو كانوا فى وطن جديد. وقد تقاربت لغتهم مع لغة البربر بعد أن عاشوا وسطهم وارتبطوا بهم عن طريق التزاوج.

إلى أبعد من القرن الثاني عشر، بينما يبدو أن الكتابة التيفينغ [TIFINAGH] والحروف المسماة «الليبية» والتي لم يتم بعد حل رموزها، ترجع إلى تأثير الجالية الفينيقية الزنجية في قرطاج، نقلا عن العناصر الأصلية في البلاد التي تواجدت قبل مجيء القانдал. وعليه فإن ترتيب سكان شمال إفريقيا منذ ما قبل التاريخ حتى أيامنا هذه يكون على الوجه التالي:

- زنج كرو- مانيون (جنس زال منذ عشرة آلاف سنة).
- زنج من العصر الكابسي.
- زنج من العهد الفينيقي.
- هندو- أوروبيون ابتداء من ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، اختلطوا مع الزنج.
- زنج في عهد الرومان، ومن بينهم قسم كبير من المولدين.
- قانдал.
- عرب.

ألا يكون من الطبيعي والحال هكذا، أن تنتمي تباعا مفردات لغة البربر إلى اللغات الهندو-أوروبية والسامية والأفريقية حسب وجهة النظر المتخذة؟ ويقودنا علم الأثرية المصرية إلى ماسبيرو الذي تناول أصل المصريين على الوجه التالي في الفصل الأول من كتابه التاريخ القديم لشعوب الشرق:

«يبدو أن المصريين فقدوا مكرما ذكرى أصولهم. هل جاؤوا من وسط إفريقيا أو من داخل آسيا؟ ووفقا لشهادات المؤرخين القدامى شبه الإجماعية، فإنهم ينتمون إلى جنس إفريقي، استقر في أول الأمر في أثيوبيا على ضفاف النيل الأوسط، ثم نزحوا تدريجيا بالمجاه البحر مع مجرى النهر. ويستند التديل على ذلك إلى أوجه التشابه الواضحة بين عادات وديانة المملكة المروية وعادات وديانة المصريين. ومن المعروف اليوم بشكل قاطع أن أثيوبيا التي عرفها الإغريق لم تستعمر مصر في بداية التاريخ، بل إن مصر استعمرتها ابتداء من أيام الأسرة الثانية عشرة، وأنها ظلت لعدة قرون ضمن مملكة الفراعنة». (طبعة هاشيت، ١٩١٧، ص ١٥، وتعود الطبعة الأولى إلى عام ١٨٩٧).

ولنلاحظ قبل أن نواصل عرض أطروحة ماسبيرو، ما يبدو أنه قد تم تشويهه في تلك الجمل الأولى القليلة.

يبدو أنه من غير المقبول أن المصريين نسوا أصلهم. ويظهر أن ماسبيرو خلط بين مفهومي الأصل مختلفين تماما: المهد الأول الذي انطلق منه شعب ما، والأصل العرقي المتعلق بلون الجنس.

والواقع أن المصريين لم ينسوا أبداً ذلك المفهوم الأخير، شأنه في ذلك شأن المفهوم الأول (*). وقد عبروا عن ذلك في كافة فنونهم وآدابهم ومناسباتهم الثقافية وتقاليدهم ولغتهم حتى أن بلدهم يشار إليه بالنسبة للونهم هم لا بالنسبة للون الأرض، وذلك بكلمة كيميت التي تختلط بكلمة حام، أبو الزوج وفقاً للتوراة.

والقول بأن كيميت تشير إلى لون أرض مصر، لا إلى البلد قياساً إلى لون بشرة الجنس، يقابله تعبيراً: «إفريقيا السوداء» و«إفريقيا البيضاء»...

وذكرنا ماسبيرو بشهادة المؤرخين القدامى الإجماعية فيما يتعلق بجنس المصريين، ولكنه يخفي عن عمد نقطة محددة. فنحن نعلم من شهادة القدماء أنهم لم يستخدموا كلمة «جنس إفريقي» الفضفاضة، بل حددوا بدقة في كل مرة تناولوا فيها الشعب المصري، بأنه من جنس زنجي، وذلك ابتداءً من هيروdot حتى ديودور.

ويتوالى هنا تطور ذلك التشويه التدريجي للحقائق كما عبرت عنه الكتب التي تتم عن طريقها صياغة الرأي العام المدرسي والجامعي. وتتفاقم خطورة ذلك التشويه نتيجة لضخامة المعارف التي يتعين تحصيلها في العالم الحديث، حتى أن الأجيال الشابة - فيما عدا المحترفين - لا تجد الوقت لكي ترجع إلى المصادر الأولى وتدرج الفارق بين الحقيقة وما لئن لها بل إن الميل إلى حد ما إلى الكسل يدفع إلى الاكتفاء بما جاء في الكتب المدرسية واستخلاص أفكار منمطة منها باعتبارها «مراجع لا يأتياها الباطل».

ولو طهقنا منطق ماسبيرو لرفض آراء ديودور المتعلقة بأسبقية اثيوبيا، لدفعنا ذلك إلى الاستنتاج التالي، وهو أن روما لم تنقل الحضارة أبداً إلى الغال نظراً لأن نابليون فتح إيطاليا وضمها إلى فرنسا في القرن التاسع عشر، وهو بالطبع خطأ واضح تماماً.

ومن جهة أخرى، جاء في التوراة، أن مصرًايم، ابن حام «وأخو كوش الحبشي وكنعان جاء من بلاد ما بين النهرين ليستقر هو وأبناؤه على شاطئ النيل». (المرجع السابق، ص ١٦).

ولا يذكر ماسبيرو في هذا الصدد أن «حام» ومصرًايم وكنعان وكوش جميعهم زواج حسب ما جاء في التوراة، ومعنى ذلك مرة أخرى أن مصر (حام ومصرًايم) والحبشة (كوش) وفلسطين وفينيقيا قبل اليهود والسوريين (كنعان) والجزيرة قبل العرب (قوط، حويلة، سبا) كان يسكنها جميعاً زواج أقاموا حضارات امتدت آلاف السنوات في تلك المناطق، وظلت على صلة قرابة فيما بينها.

(*) يقول اميلينو إن المصريين كانوا يطلقون على قلب إفريقيا كلمة /اماني التي تعني بلد الأجداد. ولفظ ماسبي معناه الأجداد بلغة الركول.

ويواصل ماسبيرو قائلا: «ويمثل لوديم (الابن الهكر لمصرام) المصريين بمعنى الكلمة، وهم الروتو والروميتو كما جاء في النقوش الهيروغليفية. وعناميم (الابن الثاني لمصرام) يمثل جيدا قبيلة عانو الكبيرة التي أسست مدينتي أون الشمالية (هليوبوليس) وأون الجنوبية (هرمونتيس) في الأزمنة السابقة على التاريخ.

«ولهاييم (الابن الثالث لمصرام) يمثل شعب اللببيين الذين عاشوا غرب النيل، واستقر نفتحويم (نو - بتاح، الابن الرابع) في دلتا النيل، شمال ممفيس، وأخيرا، أقام فتروسيم (باتوروزي، أرض الجنوب) في الصعيد الحالي، بين ممفيس والشلال الأول.

«وهذه الأخبار التي جاءت بالمصريين من آسيا عن طريق مضيق السويس، كانت معروفة لدى المؤلفين الكلاسيكيين، إذ أن بلين القديم ينسب إلى بعض العرب تأسيس هليوبوليس، غير أن هذا الرأي لم يحظ أبدا بالرواج الذي تمتع به الرأي القائل بأنهم نزحوا من الهضاب العليا الاثيوبية» (المرجع السابق، ص ١٦).

وهذه المعلومات التي استقاها ماسبيرو في مؤلف روجيه: أبحاث حول الآثار التي يمكن أن تنسب إلى الأسرات الست الأولى لمانيتون، اعتبارية إلى حد ما. وهي تتناقض مع تشخيص اللببيين الذين قيل عنهم إن عيونهم زرقاء وشعورهم شقراء، وهم سلالة لهاييم، ابن مصرام، وكلاهما من الزوج.

أما التناقض الآخر فيرجع إلى إيلاء ماسبيرو، على ما يبدو، أهمية لأطروحة الأصل الآسيوي للمصريين، وإشارته بهذا الخصوص إلى رأي بلين القديم الذي نسب تأسيس هليوبوليس إلى بعض العرب، علما بأنه نسب إقامتها من قبل إلى قبيلة عانو التي قال عنها إنها سلالة عناميم، ابن مصرام الزنجي. غير أن احتمال قيام العرب بتأسيس هليوبوليس مستبعد تماما، خاصة وأن ذلك تم، كما يقول المؤلف في نفس النص، في الأزمنة «السابقة على التاريخ».

ويوضح لنا ذلك لماذا لم تحظ وجهة نظر بلين بالرواج الذي كان ماسبيرو يرجوه. ولذا فهو يستطرد قائلا:

«أصبح أصل السكان وخصائصهم المتجانسة مجالا لمناقشات مستفيضة في أيامنا هذه. فقد خدع مظهر بعض الأقباط المهجنين رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر، فأكدوا أن أسلافهم في العهود الفرعونية كانت وجوههم منتفحة، وعيونهم في أعلى الرأس، وأنوفهم فطساء، وشفاهم غليظة، وأن العديد من ملامحهم تعود إلى أصل زنجي. وقد تلاشى هذا الخطأ الدارج بلا رجعة في بداية هذا القرن، منذ أن نشرت اللجنة الفرنسية مؤلفها الكبير». (المرجع السابق، ص ١٦ و ١٧).

ولو قرأ أحد ما قاله ماسبيرو دون أن يكون على دراية بشهادة قولتي وشرحه المتعلق بتأثيرات المناخ التي يمكن أن تشكل وجه مختلف الأجناس، ودون أن يدرك الحرص الشديد من جانب هذا العالم

على تقديم التفسير العلمى والموضوعى ومدى دقة ملاحظاته، لئال هذا القارئ إلى الاعتقاد بكل يسر بأن رحالة القرون المنصرمة قد انساقوا وراء المظاهر ووقعوا فى الخطأ، لو أنه اتكل على مزاعم ماسبيرو.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما تم شرحه حول تغلغل عناصر بيضاء فى مصر تدريجيا - خاصة فى العصر المتأخر وفى الدلتا - فلا يمكن أن يكون ذلك إلا باتجاه البياض لا السواد، بحيث يجعل معالم البيض القدامى ضائعة بالنسبة لمراقبين غير منحازين لوجهة نظر مسبقة. ولتر كيف تلاشى بلا رجعة ذلك «الخطأ الدارج»، كما يقول ماسبيرو وفقا لما جاء فى «المؤلف الكبير» الذى نشرته «اللجنة الفرنسية» :

«يفحص صور التماثيل والنقوش العديدة التى يحتويها هذا المؤلف، تم الاعتراف بأن الشعب المصور على جدران الآثار، لا يقدم خصائص الزنجى أو مظهره العام، بل يشبه إلى حد كبير الأجناس البيضاء الجميلة فى أوروبا وآسيا الغربية. واليوم، وبعد قرن من البحوث وأعمال التنقيب لم تعد لدينا أية مصاعب فى التطرق، لا إلى معاصرى بسامتيك أو سنوسرت فقط، بل وإلى معاصرى خوفو الذين ساهموا فى بناء الأهرامات. ويكفى لذلك أن يزور المرء متحفا ويفحص التماثيل القديمة الطراز المودعة فيه، إذ يشعر من الوهلة الأولى أن الفنان حرص فى تجسيده للرأس والأطراف أن تكون مشابهة تماما للشخص المائل أمامه. وبعد أن يستبعد المرء الفروق الخاصة بكل فرد، فإنه يستخلص بلا عناء السمات العامة لكل جنس ومميزاته الرئيسية. فأحدهم ربة بطن الحركة، ويتفق بذلك مع الخواص الغالبة لدى الفلاحين الحاليين. والآخر، الذى كان يميز أعضاء الطبقة العليا، بصور لنا رجلا فارح القامة ونحيفا له أكتاف عريضة، وصدرة بارزة، وساعده القوى ينتهى بيد رشيقة، وأردافه غير مكتنزة، وساقه متينة والتفاصيل التشريحية للركبة وعضلات سمانة الساق واضحة التكوين، كما هو الحال بالنسبة لأغلب الشعوب المعتمدة على المشى، والأقدام طويلة ورقيقة ومفلطحة فى طرفها نتيجة للاعتياد على السير بلا حذاء، والرأس أقوى فى الكثير من الأحوال من الجسد، ويعبر عادة عن الرقة والحزن الفطرى. والجبين مربع ومنخفض نوعا والأنف قصير ولحيم والعينان واسعتان، والوجنتان مستديرتان والشفاة غليظة دون أن تكون متدلّية، والغم العريض إلى حد ما ترتسم عليه ابتسامة مستسلمة تكاد تعبر عن الألم. وهذه السمات المشتركة بين أغلب تماثيل الدولتين القديمة والوسطى، تتواصل فى كل العهود. وأثار الأسرة الثامنة عشرة والتماثيل الصاوية واليونانية، الأقل جمالا بالمقارنة مع تماثيل الأسر القديمة، تنقل الطراز البدائى بلا تغيير ملحوظ. وعلى الرغم من التغيير الذى طرأ اليوم على وجوه الطبقات العليا نتيجة للتزاوج المستمر مع الأجانب إلا أن الفلاحين البسطاء احتفظوا فى كل مكان تقريبا بمظهر أسلافهم. والفلاح الذى يتأمل وهو مندهش تماثيل خفرع أو سنوسرت، له سحنة تشبه بعد أكثر من أربع آلاف سنة، سحنة هؤلاء الفراعنة القدامى». (نفس المرجع، ص ١٧ و ١٨).

ذلك هو المحور الذي يركز عليه ما أراد ماسبيرو أن يثبت. ونحن لم نستبعد أى كلمة منه.

ماذا يؤكد لنا هذا الإثبات؟

وماذا علمنا «المؤلف الكبير»؟

أفادنا المؤلف بأن علم المصريين أصبح علما قديما للغاية، فقد نقب المتخصصون وبحثوا وأصبح نموذج سكان مصر القدامى معروفا لنا الآن بأدق تفاصيله العرقية. فقد جسده الفنان بحيث يكون «مشابها تماما للشخص المائل أمامه». ووسعنا أن نتصور تماما أفراد الطبقة العليا بفضل ذلك الفنان. ووفقا للملاحظات ماسبيرو ذاته كان لكل منهم «أنف قصير ولحيم»، و«الفم عريض إلى حد ما»، و«الشفاه غليظة»، و«الوجنتان مستديرتان»، و«الجبين منخفض نوعا»، و«الأكتاف عريضة»، و«اليد رشيقة»، و«أردافه غير مكتنزة» و«ساقه متينة». وهذه السمات المشتركة التى استمرت طوال الدولتين القديمة والوسطى «لا تقدم خصائص الزنجى أو مظهره العام، بل تشبه إلى حد كبير الأجناس البيضاء الجميلة فى أوروبا وآسيا الغربية».

ولا يحتاج هذا الاستنتاج إلى تعليق.

فبعد التأكيد العلى لأطروحة الأصل الزنجى على يد مؤلف كان برهانه يستهدف بالذات دحض هذه الأطروحة، نرى مرة أخرى أن إثبات عكس الحقيقة مستحيل.

وماسبيرو عالم عكف على ترجمة عدة نصوص مصرية، فكانت لديه إذن المعرفة التقنية لتحديد كل ما يمكن إثباته. وفشله، رغم علمه، وفشل العلماء الذين سبقوه وجاؤوا بعده، بخصوص نفس المشكلة، يقدم على نحو ما الدليل السلبى الراسخ تماما حول الأصل الزنجى.

وهنا اتطرق الى أطروحة اميلينو، وهو عالم مصريات كبير، قلما تجرى الإشارة إليه.

فقد قام بأعمال تنقيب فى أم القباب، على مقربة من أبيدوس (العرابة المدفونة) واكتشف مدافن ملكية أمكنه التعرف فيها على أسماء ستة عشر ملكا حكموا البلاد قبل نعرمر. وقد عشر بالأخص على قبور أربعة ملوك هم: كا، و دن والملك الثعبان دجت (الوحة متحف اللوفر)، ولم يتم فك رموز اسم ملك آخر.

وقد جرت محاولات لضم هؤلاء الملوك إلى المرحلة التاريخية، وأفادنا اميلينو بأن :

«السيد ماسبيرو أراد أن ينسب هؤلاء الملوك إلى الأسرة الثانية عشرة، وذلك فى جلسة أكاديمية المسجلات والأداب ... ثم ... نسبهم إلى الأسرة الثامنة عشرة... ثم الخامسة ... ثم الرابعة ...».
(حفريات جديدة فى أبيدوس، باريس، الناشر ليرو، ١٨٩٩، ص ٢٤٨).

وقد استنتج اميلينو، بعد أن فند مرة أخرى وجهة نظر مناوئية أن:

«وتلك أسباب يبدو لى أنه لا يصح الاستخفاف بها، بل تتراعى لى جديرة، على العكس، بأن توضع فى عين الاعتبار بكل جدية من جانب كافة العلماء الصادقى النبى، لأن الآخرين لا يعنونى». (المرجع السابق، ص ٢٧١).

ويعود إلى اميلينو أكتشاف مقبرة أوزيريس فى العرابة المدفونة، وهو الاكتشاف الذى تبين منه أن أوزيريس لم يكن بطلا خرافيا بل شخصية تاريخية وسلفا أول للفراعنة، وهو سلف زنجي، هو وشقيقته ايزيس.

وهكذا يمكننا أن نفهم لماذا صور المصريون آلهتهم دائما بالأسود الفاحم وفقا لجنسهم. منذ بداية تاريخهم حتى نهايته. إنها لمفارقة لا يمكن أن نفهمها أبدا، وهى ألا يلجأ شعب من جنس أبيض إلى تصوير آلهته باللون الأبيض، وأن يختار، على العكس، لون الزنوج لتصوير أقدس الكائنات لديه، وهو لون ايزيس وأوزيريس على الآثار المصرية. وتكشف هذه الحقيقة عن أحد تناقضات الحديثين عندما راحوا يفرضون عقيدة لا تقبل المناقشة مفادها أن الحضارة المصرية من صنع جنس أبيض، وأن جنسا آخر زنجيا كان يعيش إلى جواره مستعبدا. أما أن يتم اختيار لون العبيد لتصوير الآلهة، بدلا من لون الأسياد ومؤسسى الحضارة، فهذا ما لا يمكن قبوله، وهو يتعارض مع أى تفكير منطقى حريص على الموضوعية.

وعلى العكس، فإن الوقائع فى مجموعها - بدءا بأهمها وحتى أبسطها - تشهد بلا أى تناقض لصالح أطروحة مصر الزنجية التى أنشأت الحضارة فى العالم، هذا إذا لم تفسر تلك الوقائع جزئيا. وهكذا توصل اميلينو بعد حفرياته الواسعة النطاق ودراساته المتعمقة حول المجتمع المصرى، إلى الاستنتاجات التالية الهامة للغاية بالنسبة لتاريخ البشرية:

«وقد أمكننى أن استخلص من مختلف الأساطير المصرية أن السكان المستقرين فى وادى النيل كانوا من الجنس الزنجي، إذ قيل إن الربة ايزيس ولدت فى شكل امرأة حمراء وسوداء، أى كما شرحت من قبل، بلون القهوة المزوجة بالحليب التى نجدتها عند بعض الأفراد من الجنس الزنجي، والذين يبدو أن بشرتهم بها لمعة «معدنية نحاسية». (تمهيلات لدراسة الديانة المصرية، الجزء الثانى، الناشر ليرى، ١٩١٦، ص ١٢٤).

ويشير اميلينو إلى الجنس الزنجي الأول الذى سكن مصر تحت اسم آنو، ويبين أنه راح ينحدر تدريجيا مع النيل فأسس مدن اسنا وارمنت وقوص وهليوبوليس(اون)، وهو يقول بهذا الصدد:

«تحمل كافة تلك المدن العلامة المميزة التى تستخدم لكتابة اسم الأنو، وهى تمثل سهما مزدودا فى طرفه الأسفل بريشتين. كما أن صفة آنو المنسوبة إلى أوزيريس يجب أن تفسر بمغزاها العرقى. ففى مقدمة تمهد للأناشيد الموجهة إلى رع وتتضمن الفصل الخامس عشر من كتاب الموتى، جاء فيما يتعلق

بأوزيريس: «سلام عليك يا رب آنو فى بلاد أنتن الجبلية، أيها الإله العظيم، ياصقر الجبل الشمسى المزدوج».

«وإذا كان أوزيريس من أصل نوبى، رغم أنه ولد فى طيبة، لكان من السهل أن نفهم لماذا دار الصراع بين حورس وست فى النوبة، وعلى أية حال فإن ما يلفت النظر حقا أن الربة ايزيس كان لونها حسب الأسطورة نفس لون بشرة النوبيين حتى الآن، وأن النعت المنسوب إلى الإله أوزيريس يبدو نعتا عرقيا يشير إلى أصله النوبى، وهى ملاحظة يبدو لى أنها لم ترد من قبل». (نفس المرجع، ص ١٢٤ و ١٢٥).

وهؤلاء الأتو الذين أراد ماسبيرو أن يجعلهم عربا لأنهم أسسوا مدينة اون - هليوبوليس باليونانية - مدينة آنو فى الشمال، يبدون إذن بالأساس، زونجا لو أننا استشهدنا فى ذلك بما دونوه بأنفسهم فى كتاب الموتى، وغيره من النصوص...

وتأييدا لأطروحة اميلينو، بوسعنا أن نشير الى أن كلمة آن تعنى إنسانا بلغة الديولا (لغة نيجرو-كونغولية يستخدمها فى السنغال وجامبيا حوالى ٢٠٠ الف من الديولا). وهكذا فإن آنو قد تعنى أصلا وبكل بساطة:الناس.

ويمكننا أن نورد أيضا التوافقات التالية:

- آنى، اسم شعب فى كوت ديفوار (يحمل ملوكة لقب آمون).

- أونى، لقب ملك نيجيريا.

- آنى أو أونى نعت أوزيريس، إله المصريين.

ووفقا لأميلينو، فإن هذا الجنس الزنجى الأتو هو الذى أوجد منذ عهود ما قبل التاريخ كافة عناصر الحضارة المصرية التى ظلت بلا تغييرات هامة حتى نهاية تلك الحضارة. فهؤلاء الزوج كانوا على ما يبدو الأوتل الذين مارسوا الزراعة وقاموا برى وادى النيل وأقاموا السدود و اخترعوا العلوم والفنون والكتابة والتقويم. وهم الذين توصلوا إلى نظرية نشأة الكون كما أوردوها فى كتاب الموتى الذى تؤكد نصوصه، بلا أى مجال للشك، الطابع الزنجى للجنس الذى جاء بأفكار ذلك الكتاب.

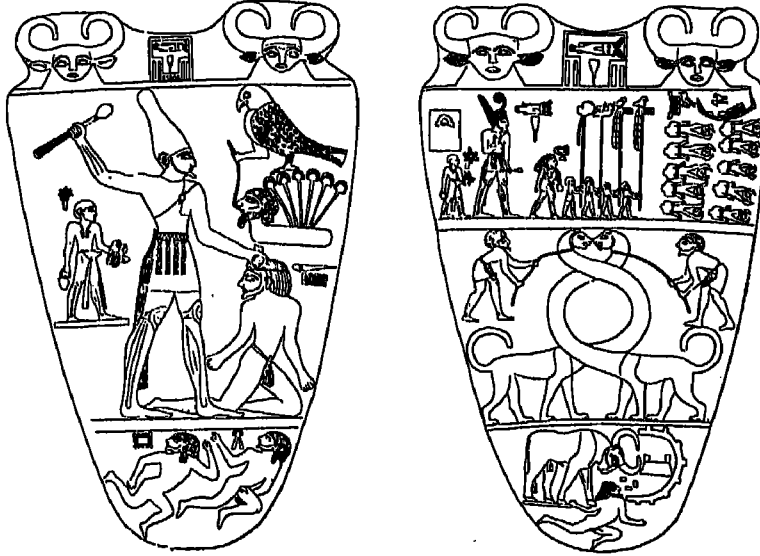
«لقد بينت لنا لوحات القاهرة أن هؤلاء الأتو كانوا شعبا زراعيا، يمارس تربية المواشى على نطاق واسع على امتداد النيل، فى المدن المحصنة التى كان يعتصم فيها للدفاع عن نفسه.. ويمكن أن ننسب إلى هذا الشعب، بلا خوف من الوقوع فى خطأ، أقدم الكتب فى مصر: كتاب الموتى وموتون

الأهرامات، وبالتالي كافة الأساطير والتعاليم الدينية، بل وأقول أيضا كل النظم الفلسفية تقريبا التي كانت معروفة ولا تزال تسمى فلسفات مصرية. وكانوا يعرفون بالطبع الحرف التي لا غنى عنها لكل حضارة وبالتالي الأدوات اللازمة لها، وعليه فقد عالجوا المعادن، وعلى الأقل المعادن الأولية. وقاموا بأولى المحاولات للكتابة، لأن كافة الروايات المصرية تنسب هذا الفن إلى تحوت (هرميس المثلث العظّمات عند الاغريق) وهو أيضا أتو على غرار أوزيريس، وقد لُقب بالأوتى (نسبة إلى أون) في الفصل الخامس عشر من كتاب الموتى وفي متون الأهرامات. فمن المؤكد إذن أن هذا الشعب كان يعرف الفنون الرئيسية وترك الدليل على ذلك في الهندسة المعمارية لمقابر ابيدوس، ومنها بالأخص مقبرة أوزيريس. وقد تم العثور في هذه المقابر على أدوات تحمل علامات لا يمكن أن تنطمس بخصوص أصلها، مثل العاج المنحوت، ومنها ذلك الرأس الصغير لنوبية، وقد تم العثور عليه في مقبرة مجاورة لمقبرة أوزيريس، والأوتى الصغيرة المنحوتة في الخشب أو العاج على شكل رأس قط، وجميعها وثائق نُشرت في المجلد الأول من مؤلفي حول حفريات ابيدوس». (المرجع السابق ص ٢٥٧ و ٢٥٨).

ويستطرد اميلينو قائلا:

" أن الاستنتاج الذي برز من تلك الاعتبارات هو أن شعب الآتو الذي خضع للغزو كان هو نفسه الذي أُرشد الذين غزوه على الأقل إلى جانب من دروب الحضارة والفن. وكما سيتضح بكل يسر، فإن ما تم استخلاصه هنا يعتبر أهم الاستنتاجات بالنسبة لتاريخ الحضارة الإنسانية، وبالتالي بالنسبة للدين. فالحضارة المصرية، كما يتجلى ذلك بكل وضوح مما جاء آنفا، ليست من أصل أسبوي، بل من أصل إفريقي وزنجي، حتى وإن بدأ هذا الزعم مخالفا لما هو شائع. فليس من المعتاد في الواقع أن يُنسب إلى الجنس الزنجي والأجناس المقاربة له قدر كبير من الذكاء، بل قدر كاف من الذكاء للتوصل إلى الاكتشافات الأولى اللازمة للحضارة. ومع ذلك لا توجد قبيلة واحدة داخل إفريقيا لم تمتلك في الماضي، ولا تزال تمتلك حتى الآن، أحد تلك الاكتشافات الأولى ! ... » (نفس المرجع، ص ٣٣٠).

ويفترض اميلينو أن مصر الزنجية التي عرفت الحضارة على يد الآتو تعرضت لغزو جنس أبيض خشن الطباع جاء من داخل إفريقيا وغزا الوادي تدريجيا حتى الوجه البحرى. ويبدو أن هذا الجنس الأبيض عديم الثقافة عرف الحضارة على يد جنس الآتو الزنجي مع أنه قضى عليه إلى حد كبير. ويعتمد المؤلف في ذلك على تحليل المشاهد الواردة في لوحة نعرمر التي اكتشفها كيبيل في هيراكوبوليس (الكاب) (الرسم رقم ٣٧ والصورتان ٣٨ ا و ٣٨ ب). وهناك إجماع اليوم على أن



٣٧- لوحة نعرمر

يشير اختراع الكتابة وبداية استخدامها الى الخط الفاصل بين ما قبل التاريخ وانتقال البشرية الى العصور التاريخية. وتتضمن لوحة نعرمر رموزا مسجلة سيكون من المفيد للغاية التوصل الى تحديدها تاريخيا بدقة.

الأسرى ذوى الأنف المعقوف المصورين على لوحة نعرمر هم غزاة آسيويون هزمهم وعاقبهم الفرعون، الذى كانت عاصمته فى ذلك العهد السحيق فى صعيد مصر.

ومما يؤكد هذا التصور أن الأفراد السائرين أمام فرعون والذين يشكلون جزءا من جيشه المنتصر هم من النوبيين، شأنهم شأن شعارى ابن آوى والباشق اللذين يمثلان على ما نعتقد طوطم النوبة... ومن جهة أخرى فإن النتائج التى توصلت إليها الحفريات لا تسمح بالتمسك بفرضية تواجد جنس أبيض فى قلب إفريقيا.

أما ذيل الثور الذى يمتنطقه الفرعون نعرمر فى لوحته وتمسك به دائما فراعنة مصر وكهنتها، فلا يزال يرتديه حتى الآن فى نيجيريا الزعماء الدينيون فى مثل تلك المناسبات الرسمية. وينطبق نفس الأمر على المنزر الذى يرتديه الفرعون وكذلك على التيممة المعلقة على صدره التى لن تختفى أبدا طوال تاريخ مصر. وهى نفسها التى نجدها على صدر أى زعيم زنجي يتولى مسئوليات، وتسمى بالوكوف داك.

ويحمل الخادم فى يده نعل فرعون المائل للفرجانتى عند الزواج. وهو يسير خلف الملك حاملا إناء، متخذًا الوضع الحالى المميز للخادم الزنجي أو البك - نج (للمقارنة مع الباك، أى الخادم باللغة المصرية القديمة).

ويوحى لنا لجوء الملك الى خلق نعليه بأنه على وشك تقديم القرابين في محراب مقدس، وأنه يتعين عليه أن يتطهر قبل ذلك بالاغتسال بماء الإناء (سَطَّلَا بِالْوَكُوفِ). ومن المعروف أن المصريين اعتادوا التوضؤ قبل ظهور الإسلام بألاف السنين.

وهكذا كانت لوحة نعرمر تمثل مشهدنا طقوسيا لتقديم الأضاحى بعد إحراز النصر.

وكان تقديم القرابين البشرية لا يزال متبعا حتى عهد قريب في إفريقيا السوداء؛ الداهومي (بنين اليوم).

وهناك فوق الضحية مشهد يمثل الصقر حورس حاملا في يده ما يبدو أنه حبل يخترق منخاري رأس مقطوع، مما يرمز إلى استيلاء حورس على روح من قديم له قربانا. وتتفق هذه الفكرة مع المعتقدات الزنجبية التي تؤمن بأن الروح تخرج من المنخارين، حتى أن الحياة والأنف كلمتان مترادفتان في لغة الوركوف، وكثيرا ما نعال الأنف للإشارة إلى الحياة...

إلى أى جنس ينتمى الأشخاص المنحوتون على سطح اللوحة هذا الذى اعتبره أنا وجه اللوحة على الأرجح لا ظهرها كما هو شائع؟

أعتقد أنهم ينتمون جميعا الى نفس الجنس الزنجبي، فشفاه الملك غليظة بل ومتدلية نوعا، ووقفته الجانبية تبرز أنفه اللحيم، وينطبق نفس الأمر على كافة الأشخاص الآخرين على وجه اللوحة، بما فى ذلك المهزومين الهاربين الواردين فى أسفل المشهد. ويضع هؤلاء على رؤوسهم شعورا مستعارة، شأنهم شأن الضحية التى سيتم ذبحها. وهذا الشعر المستعار المتدرج، لا يزال موجودا حتى الآن فى إفريقيا السوداء وتستخدمه الفتيات ويسمى *الديجيمى*. وشكله المعدل قليلا الذى تضعه النساء المتزوجات يسمى *دجيره*، وقد اختفى من السنغال منذ حوالى خمس عشرة سنة. كما زال أيضا ذلك التقليد مؤخرا بين الرجال فى ظل الإسلام. ولم يعد المرء يصادف هذا الغطاء للرأس إلا عند السير من غير المسلمين، حتى يتم ختانهم، ولدى الهول [PEULHS]، وهناك شكل خاص لقطعات الرأس هذه يسمى *الندجورمال*. وشعور الملك والخادم مختلفة تحت قلنسوتيها، ولكن من المعروف أن استخدام هذا الشعر المستعار كان دارجا فى مصر وسط كافة طبقات المجتمع. والقلنسوة التى يضعها الملك على رأسه هى تلك التى يستخدمها جميع المختونين فى السنغال، وإن كان هذا التقليد يميل إلى الزوال تحت تأثير الإسلام. وهذه القلنسوة تتكون من حياكة قطعتين معا من النسيج الأبيض البهياوى الشكل فيما عدا أحد الأطراف لإدخال القلنسوة فى الرأس. وتتم تقوية القلنسوة بهيكل من الخيزران لئلا يتخذ بذلك شكل تاج فرعون صعيد مصر. وعندما يستخدم الرجال الناضجون هذه القلنسوة، لا يكون هناك ذلك الهيكل المصنوع من الخيزران، ويكون الجزء المستطيل أقصر بصفة عامة. وهكذا ظهرت القلنسوة الفريجية التى نقلها الإغريق إلى أوروبا. وقد نشر مارسيل جريبول صورا ضوئية لتلك القلنسوات

التي يستخدمها الدوجون (شعب افريقى أسود يبلغ تعداده حوالى ٢٠٠ الف نسمة ويعيش على منحدرات الصخور المتاخمة لمدينة باندياجارا فى مالى).

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن الملك لا يسك إلا دهبوسا فى يده اليمنى أما يسراه فيقبض بها رأس الضحية. فهوسعنا أن نعتبر إذن الدهبوس شعارا لمملكة الصعيد، شأنه فى ذلك شأن التاج الأبيض. وهذا يعنى أن الملك كان فى بداية فتحه لوادى النيل فى المشهد الأول، فى الفترة التى كان يُخضع فيها أناسا من جنسه لسيطرته.

ويبدأ ظهر اللوحة بمشهد نموذجى: فالمهزوم ينتمى إلى مدينة «المقوتين»، كما يتبين من الخط الهيروغلىفى الذى أشار اليه اميلينو. وهذه المدينة المحصنة كانت قائمة فى الوجه البحرى ويسكنها جنس مختلف بوضوح تام عن الجنس الزنجى الوارد فى وجه اللوحة: إنه جنس أسبوى أبيض. فشعر المهزوم طويل وطبيعى وبلا تدرجات، وأنفه مفرط الطول ومعقوف، وشفاهه منحسرة للغاية. وبعبارة مختصرة، فإن السمات العرقية للجنس الوارد فى ظهر اللوحة مختلف تماما عن الجنس الوارد فى وجهها، ومن الواضح تماما أنه الجنس الوحيد فى هذه اللوحة المتميز بسماته السامية (الرسمان رقم ٣٧ و٤٣٨).

وعلى أثر ذلك النصر الثانى، تم على ما يبدو توحيد وجهى مصر القبلى والبحرى، وهذا ما يرمز إليه المشهد الذى يحتل وسط ظهر اللوحة: إنه التماثل بين الحيوانين السنويين المزود كل منهما برأس أسد ضارب على وشك الاصطدام كل منهما بالآخر، ولكنهما أصبحا عاجزين عن إلحاق الضرر ببعضهما بواسطة الحبال الملتفة حول عنقيهما، والتى يسك بها شخصان متماثلان يرمزان إلى ذلك التوحيد وفقا لتصوير مميز عموما لكل من المصريين والزنوج.

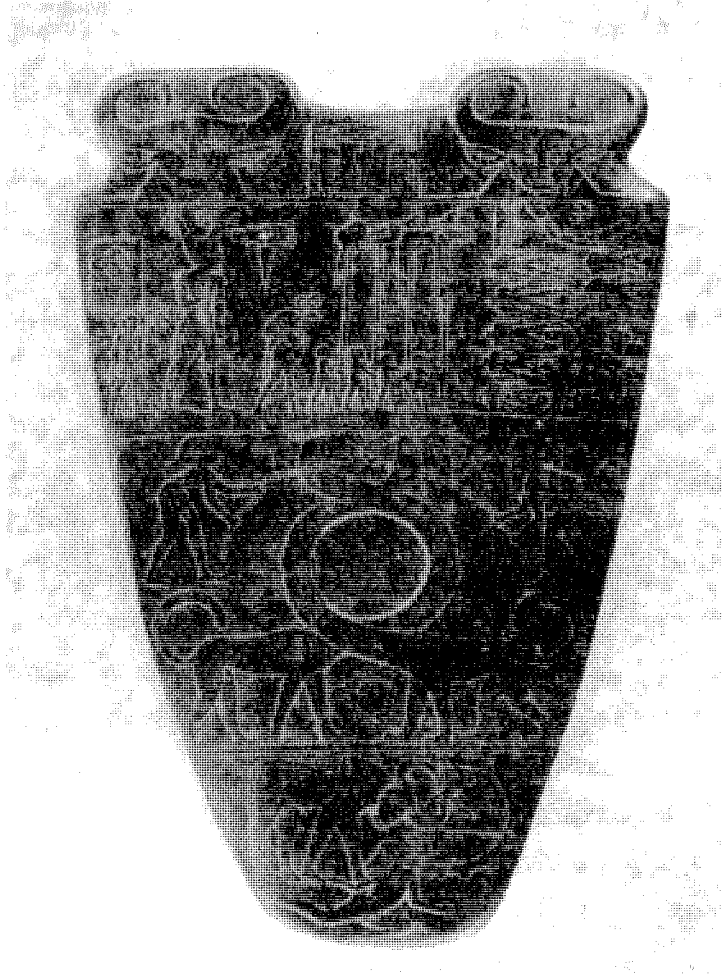
وفى المشهد العلوى يضع الملك على رأسه تاج الوجه البحرى مما يعنى أنه قام بفتحه. فقد أنهى فرعون إذن المرحلة الثانية من فتح وادى النيل، وهو يسك فى يديه ما يمكننا أن نعتبرهما شعارى الوجهين البحرى والقبلى. وهنا أيضا خلع فرعون نعله الذى يحمله الخادم السائر خلفه، كما هو الحال فى مشهد وجه اللوحة، ومعه أيضا نفس الإناء. وعليه هوسعنا الاعتقاد بأننا بصدد مكان مقدس وأنه تم تقديم الضحايا كقرايين وفقا للطقوس، ولم يجر قتلهم.

وهناك أمام الملك خمسة أشخاص، من بينهم أربعة يحملون أعلاما فى أطرافها طواطم. والطواطم الثلاثة الأولى تنتمى بكل وضوح إلى صعيد مصر: الباشق وابن آوى ... والطواطم الأخير لا يمثل حيوانا بل شيئا غير معروف كنهه، وقد يكون على الأرجح رمز الوجه البحرى الذى تم فتحه أخيرا.

وجميع تلك الأسباب مجتمعة تجعل تفسير اميلينو لهذه اللوحة غير مقبول. فوجهه النظر التى تقول إن جميع الأسرى فى اللوحة من الأسبويين تبدو تعميما لم يأخذ فى عين الاعتبار تفاصيل



٣٨ - لوحة نعرمر
صورة لوجه اللوحة (انظر ص ١٠٤ والصفحات التالية)



٣٨ (ب) لوحة نعمر
صورة لظهر اللوحة (انظر ص ١٠٤ والصفحات التالية)

اللوحه، كما أن وجهة نظر اميلينو التي تعتبر كافة المهزومين من النوبيين تبدو هي أيضا خاطئة. وربما انساق اميلينو وراء واقع ما ورد في وجه اللوحه، وهو أن المهزومين هنا نوبيون حقا فلم يلاحظ الفارق العرقي بين هؤلاء والمهزوم الوارد في ظهر اللوحه الذي يسحقه الثور. فوفقا لرسم اميلينو نفسه فإن شعر هذ المهزوم ليس مصفوقا كشعر النوبيين في وجه اللوحه، كما أن هؤلاء ليست لهم الملامح العرقية الأخرى التي تم التنويه بها. ولعل إغفاله تلك التفاصيل - عن حسن نية - هو الذي دفعه إلى الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بغزو جنس أبيض عديم الثقافة جاء من وسط إفريقيا واحتل الوادي الذي كان يسكنه شعب زنجي صرف من الأتو.

والواقع أنه حتى لو كانت قد تمت تغلغات لأسويين أو أوروبيين بدائيين في مرحلة ما قبل التاريخ هذه، فإن زواج مصر كانوا دائما متمكنين من الأوضاع آنذاك، كما يدل على ذلك العديد من التماثيل العمريه الصغيره (نسبة إلى حضارة العمري باسم امين العمري الذي كشف عنها بالاشتراك مع الاب بروفيه لاپيرير) التي تم العثور عليها، فهي تصور جنسا أجنبيا مهزوما. وقد أورد ج. كاپارقيت في كتابه *بدايات الفن في مصر* (الناشر فرومون، ١٩٠٤) صورة لتمثال يمثل أسيرا من الجنس الأبيض راكعا ويداه موثوقتان وراء ظهره، تتدلى على قفاه ضفيرة طويلة.

وقد تم العثور أيضا على ما يشبه الأعمدة المثلثة لأشخاص من الجنس الأبيض المهزوم في شكل سيقان لأثاث. (انظر: *تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*، ص ٤١٣).

وعلى النقيض من ذلك نجد الزوج مصورين كمواطنين يتجولون بكل حرية في بلادهم:

«ونرى أربع نساء يرتدين تنورات طويلة ويشبهن تلك الزنجيات اللاتي ظلت تُصور في مقابر الأسرة الثامنة عشرة، وبالأخص في مقبرة رخمع. فعلى الرغم من مظهرهن المتواضع للغاية إلا أنهم يحملن شيئا رأى البعض فيه أذن بقرة (١). وأنا أميل إلى الاعتقاد بأننا بصدد المظهر الأول للصليب ذي العروة، وهو الرمز الذي سرعان ما دخل علم الدلالات المصري ولم يبرحه بعد ذلك قط. ومن الواضح أن هؤلاء النسوة الزنجيات الأصل لم يكن غريبات وسط حيوانات بلدهن، ولذا يشار مرة أخرى السؤال: كيف كان بإمكان مصري ذلك العصر أن يعرفوا الحيوانات الخاصة بوسط إفريقيا لو كانوا أسويين أو ساميين وصلوا إلى مصر عن طريق مضيق السويس؟ أليس وجود الحيوانات المذكورة أعلاه والزواج على قطع العاج التي وصفتها منذ قليل دليلا مقنعا على أن فاتحى مصر جاؤا من وسط إفريقيا؟» (نفس المرجع، ص ٤٢٥ و ٤٢٦).

يتضح لنا إذن أن أقدم الوثائق التاريخية التي تملكها حول تاريخ مصر والعالم تصور الزواج، على عكس الأفكار الشائعة، كمواطنين أحرار أسياى بلادهم والطبيعة، وتأتى بعدهم بعض النماذج الأولى للجنس الأبيض كما كان معروفا آنذاك، من خلال تسرب عناصر أوروبية بدائية أو آسيوية،

وقد تمثلوا كأسرى، أيديهم مقيدة وراء ظهورهم، أو كأفراد ينتزون تحت ثقل الأثام الذي يرفعهونه (وهم يشكلون بهذه المناسبة الأصل البعيد للأعمدة المثلثة لأشخاص في معهد الإريخثيون في القرن الخامس قبل الميلاد، والتي اقتبسها الإغريق بعد ذلك بالآلاف السنوات).

هل كانت نشأة الحضارة المصرية في الدلتا ممكنة؟

يعرض المتخصصون أربعة افتراضات لتفسير إعمار مصر بالسكان وحضارتها. وتتفق تلك الافتراضات مع الجهات الأربع الأصلية، علما بأن الأصل المحلي لسكانها، الذي قد يبدو طبيعيا، يواجه أشد الاعتراضات. ويمكن تحديد الأصل المحلي في جهتين مختلفتين: الصعيد أو الوجه البحري. وفي الحالة الأخيرة نكون بصد ما يسمى «رجحان كفة الدلتا».

ولنا أن تتساءل عن الدافع الذي يدعو متخصصا في علم المصريات، نصيرا للأصل المحلي، إلى بذل جهود مضيئة لمحاولة إثبات «رجحان كفة الدلتا» على الرغم من عدم توفر أي وثيقة تاريخية، اللهم إلا عن طريق ملتو، لإثبات أن الحضارة المصرية تنتمي أصلا إلى جنس أبيض من حوض البحر الأبيض المتوسط.

وتلك هي وجهة النظر التي يتبناها عموما كل من يعتبرون أن مهد الحضارة المصرية كان في الخارج - إما آسيا أو أوروبا. وهي أيضا وجهة نظر موريه الذي يبدو ظاهريا أنه من أنصار الأصل المحلي، ولكن على أساس أنه أبيض.

والفكرة في حد ذاتها منطقية بالنسبة للفريق الأول، إنها تأكيد يضاف إلى تأكيد آخر، يعوزه هو أيضا الأساس التاريخي، ولكنه حريص على تقديم تفسير منطقي. فلو أن أصحاب هذه الحضارة جاؤا من الخارج - من آسيا أو أوروبا - وإذا كانوا مضطرين من الناحية الجغرافية إلى المرور بالدلتا، فمن المنطقي أن تكون الدلتا قد تحضرت قبل الصعيد، وأن تكون الحضارة قد انتشرت من هذه المنطقة. ولو أن أنصار المصدر الخارجي للحضارة المصرية تمكنوا من إثبات أسبقية الدلتا في طريق التحضر، بالاستناد إلى حجج قوية تؤيد أطروحتهم لاصطفت أفكارهم المتناقضة بما قد يبدو حقيقة. والواقع أن الأمر لا يقتصر فقط على استحالة البرهنة على تلك الأطروحة، بل وأيضا استحالة إضفاء طابع الجدية عليها بتقديم وثائق تاريخية ذات وزن. ولا توجد أي وثيقة تقف في صف تلك الأسبقية. فقد تم العثور في صعيد مصر، منذ العصر الحجري القديم حتى أيامنا هذه، على دلائل مادية للمراحل المتتالية للحضارات: حضارة دير تاسا، والهداري، والعمرية، وحضارات عصر ما قبل الأسرات.

ولا يوجد أى أثر لتطور متواصل فى الدلتا، على تقيض الصعيد. فقد اختلفى مركز مرمره فى نهاية عصر دير تاسا، ولا يوجد أى شئ شمال الهدارى (انظر ف. جوردون تشايلد: الشرق فيما قبل التاريخ، باريس، الناشر بايو، ١٩٣٥، من ص ٨٧ الى ص ٩٨).

والتمائيل العاجية الصغيرة ذات الرأس المثلث، والتي تواجدت فى عصر جرزة (وتسمى الحضارة الوسطى لما قبل الأسرات) تتفق مع تلك التي تواجدت فى جزيرة كريت فى عهد نعرمر. (كاپار، بدايات الفن فى مصر). وهذه التماثيل العاجية الصغيرة لا يمكن أن تكون سابقة على عهد هيراكومبوليس (الكاب) (حضارة العمرى فى رأى كاپار).

لقد قرروا أن حضارة جرزة فى الوجه البحرى تواجدت بين رقى ٣٩ و ٧٩ (*) :

«وأخيرا أصبح الوجه البحرى موطن حضارة أرقى، ذات انتساب آسيوى واضح تماما (بمعنى تعارضها مع التقارب الإفرقى)، وامتدت هذه الحضارة أخيرا إلى صعيد مصر. والواقع أن هذه الحضارة لم تُعرف بشكل مباشر إلا من خلال تلك المنطقة (أى الصعيد)، ولكن يمكن التأكيد بكل ارتياح أنها تواجدت فى الشمال. ففى صعيد مصر لا يوجد انقطاع... بين حضارة العمرى وحضارة جزره... التي تغلفت تدريجيا واختلطت مع العناصر الأقدم، مع السيطرة عليها فى الوقت نفسه...الى حد استعبادها» (جوردون تشايلد، المرجع السابق، ص ٨٧).

«ومن المعترف به عموما أن العناصر الجديدة المميزة لثقافة الصعيد فى المرحلة المتوسطة من عصر ما قبل الأسرات، جاءت من الشمال أو الشمال الشرقى. كما أنه أصبح من المؤكد تقريبا أن أصحاب تلك الابتكارات كانوا على اتصال بالنيل الأعلى طوال فترة كبيرة للغاية سابقة على الرقم ٣٩، لأن الأواني الملونة المعزولة وجدت طريقها نحو الصعيد». (المرجع السابق، ص ٩٨).

وحضارة جرزة هذه، التي يقال عنها إنها ذات طابع آسيوى، وأنها نشأت فى الوجه البحرى، لم تُعرف - وتلك هى قمة المفارقة - إلا من خلال الآثار التي تم العثور عليها فى صعيد مصر (وهى آثار مماثلة لآثار حضارة العمرى التي نشأت هى نفسها من تطور حضارة الهدارى المنحدرة من حضارة ديرتاسا).

وهكذا، فعلى الرغم من عدم العثور على أى أثر لحضارة جرزه فى الشمال، وعلى الرغم من أن هذه الحضارة «لم تُعرف بشكل مباشر» إلا من خلال الصعيد، فإنه «يمكن التأكيد بكل ارتياح أنها

(*) من خلال فحص جبهات ديسبوليس پارفا (الهر - بالقرب من بنى حمادى) رأى سير ولهم يعزى أنه بالإمكان ترتيب الآثار التي وجدت داخلها - وبالأخص الأنية اللخارية - ترتيبا زمنيا، وتقسيمها إلى مراحل متتابعة من التديم إلى الحديث، باستخدام أرقام متتالية من ١ الى ١٠٠، تدخل فى نطاقها كل العصور الحضارية التي عرفت فى مصر.

تواجدت في الشمال، أي في الدلتا. وبعبارة أوضح فإن ذلك يعني أن أقول: «كل ما أعثر عليه هنا (في الصعيد) جاء من حيث لم أعثر على شيء، أو على أي شيء تقريبا (في الوجه البحري)؛ وذلك على الرغم من أنني لا أستطيع إثبات ذلك ولا يوجد لدى أمل في إمكانية إثبات ذلك ذات يوم، وكذلك على الرغم من أنني لم أجد هناك أي شيء تقريبا، إلا أنني أرى أن الأمر جرى على هذا النحو، لأنه لا يمكن أن يكون غير ذلك.

ليس هكذا يكتب للتاريخ.

إنهم يتعلمون بأن الدلتا منطقة رطبة لا تحفظ الوراثة بشكل جيد. ولكن من المستحيل أن يصل سوء الحفظ هذا، إلى حد عدم العثور على أي أثر لها، ولو على كتل مشوهة نتيجة لتحللها الكيميائي بتأثير الرطوبة. والواقع أن أرض الوجه البحري قدمت إلى حد ما كل ما أودع فيها. وتشهد على ذلك الأعمال، حتى الخشبية منها، التي تعود إلى أيام الدولة القديمة ابتداء من الأسرة الثالثة. وإذا كانت هذه الأرض لم تعطنا وراثت أقدم من ذلك فمن المنطقي أن يرجع الأمر إلى عدم تواجدها أصلا.

ولو كانت الدلتا قد قامت حقا بالدور الذي يريدون أن ينسبوه إليها في تاريخ مصر، لكان من الممكن ملاحظة ذلك بطريقة أخرى. ويقال إن تاريخ صعيد مصر يتضمن ثغرات إذا ما عاجلناه بشكل مستقل عن الدلتا. ولكن ذلك ليس صحيحا لأن تاريخ صعيد مصر (أي التاريخ المصري) لا يشير أي مصاعب لا يمكن التغلب عليها. ولا يصبح التفسير التاريخي مستحيلا إلا عندما تبذل جهود مفضية لإسناد دور للدلتا لم تقم به أبدا، وذلك في غياب أي وثيقة تاريخية.

وتلك هي حالة موريه على ما يبدو عندما كتب يقول:

«إننا لا نعلم شيئا عن تاريخ تلك الممالك القديمة. بيد أن الروايات تقول إن ملوك الشمال كانوا مهيمينين على بقية مصر في بداية الأزمنة. ولا يوجد أي نص يتيح تحديد منطقة نفوذهم، ولكن ديانة المرحلة اللاحقة تشير إلى أن هذا النفوذ كان قويا. ويرجع ذلك إلى الخصوبة الخاصة التي تتميز بها الدلتا. فبمجرد تهيئتها للزراعة بالتوسع في إقامة السدود، وشق قنوات الري والصرف، وفرت هذه المنطقة الخصبة التي يجدها باستمرار غرين النيل، مجالا أوسع، وأرضا مجزية بقدر أكبر، ومسكنا مواليا لتطور جنس سريع التكاثر، بالمقارنة مع وادي الصعيد الضيق. وهكذا تحقق ازدهار مادي مهكر، ونمو ذهني أكدته توصل آلهة الدلتا الكبار إلى فرض نفوذهم فيما بعد على بقية أنحاء مصر. وقد قامت عبادة الشمس رع أولا في هليوبوليس؛ وأوزيريس الذي يجسد النيل والزراعة، وإيزيس وهورس هم آلهة بوزيريس ومنديس وبوتو. وانتشار عبادتهم في كل أنحاء الوادي منذ الأزمنة المورغلة في القدم يدل على نفوذ سياسي للدلتا مقابل لذلك». (موريه، من المشائر إلى الامبراطوريات، سلسلة تطور البشرية، مطبوعات نهضة الكتاب، ١٩٢٣، ص ١٥٣ و ١٥٤).

وقد استند موريه في ذلك الى ماسبيرو، ولكنه انفصل عنه فيما يتعلق بالطريق الذي سلكه الشمسو - حور حتى يكون متوافقا تماما مع نظريته حول هيمنة الدلتا.

ففي كتابه: النيل والحضارة المصرية، يؤكد موريه أن "الشمسو- حور واسلافهم... جاؤوا من الدلتا" (ص ١١٨) على عكس ماسبيرو الذي يرى أن الشمسو - حور (أسلاف نمرمر) كانوا حدادين- زونجا فتحوا وادى النيل وأقاموا محارف للحدادة حتى الدلتا.

ويلاحظ المؤلف أن المرحلة التي سبقت نمرمر شهدت تحولا عميقا تميز بظهور النحاس والذهب وبالأخص الكتابة. ولما كان ذلك التحول لم يظهر إلا في مصر فقد طرح موريه السؤال التالي:

«من الذي أثر على صعيد مصر إن لم يكن الوجه البحري الذي تطور طوال آلاف السنوات التي تحسب للأسر الإلهية في الدلتا؟» (المرجع السابق، ص ١٢٠).

ويذكر موريه اختراع التقويم الذي تم التوصل إليه في رأيه عند خط عرض ممفيس. وقد أكد المؤلف من جهة أخرى أن أوزيريس وايزيس وحورس ينتمون أصلا إلى الدلتا. وهو يستخدم هذه الحججة، التي يعتقد أنها صحيحة، لصالح فكرته لجعلها مقنعة إلى حد أكبر:

«وهناك أمر آخر يدعم ذلك التذليل. ففي ظل كل العصور القديمة، كانت أيام النسيب الخمسة المضافة إلى العام المكون من ثلاثين يوم، تحت رعاية الآلهة التي ولدت في أيام النسيب هذه، وبها تبدأ السنة (انظر بلوتارك). وتتفق النصوص المصرية والإغريقية على أن أسماء هؤلاء الآلهة هم أوزيريس، وايزيس، وست، ونفتيس، وحورس. ولما كان رأس السنة يبدأ بظهور سوتيس (نجم الشعرى اليمانية)، ورج، والنيل، فقد تم اختيار اوزيريس، إله النيل والنبات، راعيا - ومن المفترض أنه ولد في اليوم الأول من تلك الأيام الخمسة - ولذا فهو سعتنا أن نستخلص من ذلك أن عبدة أوزيريس كانوا واسعى النفوذ في هليوبوليس، حتى عندما أنشأ فلكيو هذه المدينة التقويم» (*).

(*) يحكى بلوتارك في كتاباته عن «الإيزيس والأوزيريس» (بصيغة الجمع) أن إله اوزيريس ولد في أول الأيام الخمسة، كما كتب موريه، أي في اليوم ال ٣٦١، وهو ما يتفق مع يوم ٢٦ ديسمبر، وفقا للتعديل الذي أجرى على التقويم. وقد حدد الياهو يوليوس الأول (في القرن الرابع الميلادي)، مولد المسيح في ٢٥ ديسمبر، ولكن من المعروف أن المسيح لم يولد في سجلات للبراليد وأن تاريخ ميلاده غير معروف. فما الذي أوحى إلى الياهو باختيار هذا التوقيت الذي لا يحدد سوى يوم واحد عن تاريخ مولد أوزيريس، إذ لم يكن التقليد المصري الذي واصله التقويم الروماني؟ ويصبح ذلك جليا عندما يتم الربط بين مولد المسيح وفكرة شجرة الميلاد؛ فقد يكون كل ذلك ضربا من التعسف لو أننا لم نكن نعلم أن أوزيريس كان أيضا إله النبات بل إنه كان يُصغى أهبانا باللون الأخضر على غرار النبات الذي كان يرمز إلى مجده بعد دفنه في الأرض. وكان يُرمز إلى أوزيريس بشجرة قطعت فروعها، يتم نصبها للفتيش بعودة الحياة النباتية. لقد كان الأمر يتعلق إذن بأحد الطقوس الزراعية المميزة لمجتمع حضري.

كان هذا الرمز النباتي لأوزيريس يسمى دجد باللغة المصرية، وتوجد بلغة اللولف كلمات:

دجد: قائم، منتصب، مغروس رأسيا... دجد - دجد - آرال: قائم تماما (تشديد لكلمة دجد)؛ دجان: رأس؛ دجان: ولد.

ذلك هو إذن الأصل القديم لشجرة عيد الميلاد، ويضخ مرة أخرى، بالتوازي في الزمن، أن العديد من السمات المميزة للحضارة الغربية والتي لم يعد أصلها معروفا، لا يمكن تفسيرها إلا بربطها بأصلها الزيجي - المصري.

«وهكذا فرض الوجه البحرى، مع التقويم، سلطان أوزيريس، ورج، وسيادة النيل والشمس، وفتح «متحضرى الدلتا» صعيد مصر» (موريد، النيل والحضارة المصرية، ص ١٢٢).

وعندما يجد المرء أفكارا مهمة إلى هذا الحد - بل وخطيرة إلى حد ما - صادرة عن حجة، يكون من حقه أن يتصور أنها تعتمد على وثائق دامغة. ولكن هنا لم يحدث من خلال تلك التأكيدات فى مجموعها.

يعتبر المؤلف أن الآلهة المصرية من أصل شمالي، وفقا للرواية المصرية، وبعبارة أخرى أن أوزيريس، وإيزيس، وحموس جميعهم آلهة الدلتا، وقد استخلص على هذا الأساس النتائج الهامة التى أوردتها والمتعلقة باختراع التقويم وبأصل الحضارة المصرية بصفة عامة.

ولكن، ماذا تفيدنا الرواية المصرية الصرفة، بالرجوع إلى أقدم المراحل التى يمكننا بلوغها؟ هذه الرواية، الواردة فى كتاب الموتى، القائم على عقيدة سابقة على كل تاريخ مصر المدون، تفيدنا بأن ايزيس زنجية وأن أوزيريس زنجى، أى أنو، حتى أن اسمه فى أقدم النصوص المصرية، مصحوب بنعت عرقى يفيد بأنه من أصل نوبى. ونحن نعرف ذلك عن طريق اميلينو.

وقد أفادنا اميلينو من جهة أخرى بأنه ليس هناك أى نص مصرى يقول إن أوزيريس وإيزيس نشأ فى الدلتا. وعليه فإن موريد لا يستند إلى أى نص عندما يقول ذلك. بل إنه بوسعنا أن نضيف أن الأسطورة تقول أن مسقط رأس ايزيس وأوزيريس كان فى صعيد مصر؛ فقد ولد أوزيريس فى طيبة وولدت ايزيس فى دندره. كما أن الأسطورة تحدد موقع أول مسرح للصراع بين ست وحموس فى النوبة. ويعتقد اميلينو أن:

«أجزاء الأسطورة المتعلقة بالدلتا أضيفت بشكل واضح إلى الأسطورة الأصلية، فيما عدا زيارة ايزيس لبوتو. والواقع أن الفصل الخاص بإيزيس فى جبيل (ببيلوس بالآغريقية) لا يتوافق مع إقامة الربة فى بوتو. وفى رأى أن الأمر لا يعدو إلا أن يكون تأويلا إغريقيا أو شبه إغريقى لتفسير اعتناق عبادة أوزيريس فى جبيل، أو بالأحرى اعتناق الأساطير المشابهة الخاصة ببعض الآلهة المحليين مثل أدونيس وقموز. وعلى أى حال فإن ذلك من النقاط التى لم تشر إليها الوثائق المصرية إطلاقا، كما أن تاهوت أوزيريس الذى حملته النيل حتى البحر، ومن البحر إلى جبيل، يبدو لى من المستحيلات الجلية وأنه من العسير أن يكون المصريون قد وقعوا فيها... فالوثائق المصرية لم تنسب بهنت شفة فى هذا الخصوص. غير أننا يجب ألا ننسى أن أسطورة أوزيريس نشأت وترسخت فى مصر قبل عهد نمرمر، فيما عدا الأجزاء المتعلقة بالدلتا وآسيا الصغرى، حتى أنه من العسير أن نتصور أن الأسطورة التى يقال إنها نشأت فى الدلتا قد نمت بالكامل خارجها وتوطد مركزها فى الصعيد، ولم يظهر فيها ما يفيد بعلاقتها بالدلتا، إلا فى الإضافات التى جاءت لاحقا بكل وضوح». (تمهيدات لدراسة الديانة المصرية، ص ٢٠٣).

ولو كان أوزيريس وإيزيس قد ولدا في الوجه البحرى لبات من العسير أن نفهم أن الصعيد استأثر بكل مخلفاتهما. فقد حصلت مدن الصعيد على كل عظام أوزيريس ولم يعد هناك أى شئ من نصيب الوجه البحرى. ويستند اميلينو في هذه النقطة إلى القاموس الجغرافى لبروجش، ولكن التنافس بين المدن للحصول على المخلفات تسبب في إثارة الבלبله حتى بدأ من الصعب للوهلة الأولى تحديد المدينة التى تمتلك حقا هذه المخلفات أو تلك، التى تدعى عدة مدن أخرى ملكيتها. ويرى اميلينو أن بوسعه أن يبت في الأمر بصفة عامة لصالح الصعيد كلما كانت الخصومة بين مدن من الوجه البحرى وأخرى من الصعيد.

« انا لا أؤيد هذا الرأى وأعتقد أن هناك واقعة ترجح كفة الصعيد، وهى تتمثل في تخصيص رأس أوزيريس للصعيد ولمدينة ابيدوس». (المرجع السابق، ص ١٠٤).

وما كان يمكن أن تكون هذه الواقعة مهمة، لو أن اميلينو لم يكتشف مقبرة أوزيريس و كذلك رأس السلف المؤله في جرة. وقد تثار الشكوك حول ذلك الكشف ولكن اميلينو يقول:

«لقد عثرت شخصيا على غيرها (جرار تحتوى على مخلفات) أثناء عمليات التنقيب التمهيدية التى أفضت إلى المقبرة الملكية، وقبل أن أصادف الجرة التى تم الاحتفاظ فيها بجمجمة الإله الذى يدلولى أننى وجدتها» (المرجع السابق، ص ١٠٤).

ويستند اميلينو بعد ذلك الى بردية متحف ليد التى ذكرها بروجش، وجاء بها صراحة أن رأس الإله أوزيريس محفوظة في ابيدوس في مكان أشارت اليه البردية تحت كلمة معناها «مقبرة ابيدوس» بالنسبة للمصريين. وقد طلب اميلينو من أ. ريفيللو التصديق على قيمة هذه الوثيقة المكتوبة بالخط الديموطيقى. وقد أبلغ بالتصديق على أنه قد ذكر فعلا أن رأس أوزيريس موجودة في ابيدوس. وحصل اكتشاف اميلينو على تصديق آخر في النص الجغرافى الخاص بإدفو في قاموس بروجش الذى جاء فيه:

«وقد ذكر فيه أن رأس الإله موجود في ذخيرة ابيدوس» (المرجع السابق، ص ١٠٥).
 غير أن اميلينو يلاحظ:

«لقد اختفى النص منذ أن نقله بروجش، على الأقل إذا ما صدقنا على ما نشر عن معبد أدفو في بداية مذكرات بعثة القاهرة ... ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أن نعرف ما إذا كان هنا النص قد اختفى تماما». (المرجع السابق، ص ١٠٦).

واخيرا يورد اميلينو واقعة أخرى هامة، وهى أن عرش أوزيريس وُصف في متون الأهرام، تماما كما تم العثور على السرير الجنائزى الذى كان قد أودع في مقبرته بأبيدوس» (المرجع السابق، ص ١٠٢).

ثم يتساءل اميلينو، وهو محق في ذلك:

« ما الذى دفع مدن صعيد مصر إلى الادعاء بأن أهم أجزاء جسم أوزيريس توجد لديها لو أن أوزيريس كان قد نشأ في الدلتا، وحكمها، ومات فيها، وكان مجرد إله محلي في مقاطعة صغيرة لا أرى سببا يدعو لذلك». (نفس المرجع، ص ١٠٢).

وسواء اكتشف اميلينو فعلا مقبرة أوزيريس ورأسه، أو لم يكتشفهما، فليس ذلك المهم في الأمر هنا، ولكن المسألة الأساسية هي ماورد في النصوص الموجودة في ابيدوس.

إننا نرى إذن أنه على عكس ما يؤكد موريه، أن الرواية المصرية الأصلية التي ترجع إلى الأزمنة الموعلة في القدم والمسجلة في متون الاهرام وكتاب الموتى، تفيدنا بعبارات لا لیس فيها بأن الآلهة المصرية من جنس زنجي وموطنها الأصلي الجنوب. وفضلا عن ذلك توجد في أسطورة أوزيريس وايزيس سمة ثقافية مميزة لأفريقيا الزنجية، تتعلق بعبادة الأسلاف، التي تشكل أساس الحياة الدينية الزنجية، وكانت أيضا أساس الحياة الدينية المصرية، كما يؤكد ذلك اميلينو.

فكل سلف يموت يصبح محلا للعبادة، وأقدم هؤلاء الأسلاف الذين ثبتت فاعلية تعاليمهم في الحياة الاجتماعية، أي في مجال التحضر، يتحولون شيئا فشيئا إلى آلهة حقيقية (الأسلاف الأسطوريون لعالم الاجتماع الفرنسي ليثي - برونل). وهكذا ينفصل هؤلاء تماما عن الصعيد البشرى، وإن كان ذلك لا يعنى أنهم لم يعيشوا من قبل. فهم يصبحون آلهة توجد على صعيد آخر مختلف عن صعيد البطل الإغريقي، وهو الأمر الذى دفع هيرودوت إلى الاعتقاد بأن المصريين لم يكن لديهم أبطال.

والحجة التي يسوقها موريه حول اختراع التقويم عند خط عرض ممفيس لا تصمد أمام فحصها عن قرب. يقول المؤلف إنه لا يمكن متابعة شروق الشعري اليمانية مصحوبا بشروق الشمس إلا عند خط عرض ممفيس. وهو يستخلص من ذلك أن التقويم المصرى الذى يعتمد فى أساسه على دورة هذا النجم (الشعري اليمانية) والذى يتفق شروقه مع شروق الشمس مرة كل ١٤٦١ سنة قد تم اختراعه فى ممفيس (*).

(*) يريد موريه أن يثبت أن التقويم المصرى تم اختراعه فى هليوبوليس، ولكن الوثائق المعروفة تؤكد عكس ذلك. وكان كهنة طيبة مشهورين بتعمقهم فى علم النلك والفلسفة. وقد جاء استخدام تنظيم الوقت عن طريقهم، لا وفقا لدورة القمر ولكن حسب دورة الشمس، فكانوا يضيفون إلى الشهر الاثنى عشر المكون كل منها من ثلاثين يوما خمسة أيام كل سنة. ولما كان يهتق جرم من الهوم لاستكمال مدة السنة، فقد كانوا يحسبون فترة مكونة من عدد كامل من الأيام لكن يتكون من الأجزاء الزائدة يوما كاملاً (سترابون، الكتاب السابع عشر، الفصل الأول، للقرن ٢٢، ص ٨٦٦).
وهذا الجزء من الهوم (ربع الهوم) يؤدى جمعه إلى إضافة يوم كل أربع سنرات وبالتالي عاما كل ١٤٦٠ سنة...ومن هنا نشأت فترة الـ ١٤٦١ سنة التي تبدأ فى نهايتها السنة المدنية مع السنة الشمسية (دورة الشعري اليمانية).

غير أن التقويم كان مستخدماً في عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد، وهو أقدم تاريخ معروف بشكل مؤكد في تاريخ البشرية.

وقد أفادنا هيرودوت، من جهة أخرى، بأن نعرمر أنشأ ممفيس بعد أن غير مجرى النهر وجعل تلك المنطقة الموحلة في الوجه البحري ملائمة للصحة والسكنى:

«وفقاً لما يقوله نفس الكهنة، فقد أنشأ نعرمر، أول الملوك، المدينة المسماة اليوم ممفيس في عين المكان الذي حول فيه مجرى النهر وجعله أرضاً صلبة» (هيرودوت، ٢، ٩٩).

وحسب هذه الشهادة، كانت منطقة ممفيس مغطاة بالمياه قبل نعرمر. وإذا كان حكم نعرمر يعود إلى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، فإن ذلك يعني أنه تم اختراع التقويم بينما لم تكن ممفيس قد تواجدت بعد.

وعلى أي حال فإن ما قد يكون مهما بالنسبة لأنصار أسبتيّة الدلتا هو أن توافق شروق الشعري اليمانية مع شروق الشمس يمكن مراقبته لا عند خط عرض ممفيس بل هليوبوليس، مدينة رع التي يرى هؤلاء المنظرون أنفسهم أن علم الفلك والتنجيم المصريين نشأ فيها.

وحتى لو كان الأمر كذلك، فإنه يبدو أن هليوبوليس أو أون الشمالية، قد تأسست على يد الآثو وحملت اسمهم.

ومن الممكن إبداء ملاحظات مماثلة فيما يتعلق بالهجة التي ترى أن مصر تحضرت على يد غزاة قدموا من الشمال لأن اللغة المصرية القديمة تشير إلى الغرب باليمين وإلى الشرق باليسار، مما يمكن أن نستنتج منه الدليل على مسيرة باتجاه الجنوب.

وهناك عدة طرق للإشارة إلى الشرق والغرب باللغة المصرية القديمة، ولكن يبدو أننا يجب أن نهتم عن تفسير مثل هذه التصورات في التوجه الأوكى للزوجين جب ونوت، وتوجه شو الذي يفصل بينهما. وهذا أمر مشروع لأنه يوجد عند السيرير اتجاه أصلى يسمى بم روج أى بطن الإله.

ومن جهة أخرى، كان الفن التآليهي قد أدى إلى تقسيم السماء إلى مناطق من أجل الرصد. وقد نجم عن ذلك توجه خاص يطابق جهة أصلية ما مع اليمين أو اليسار. وكان ذلك مطبقاً في مصر وفي منطقة بحر إيجه بحوض البحر الأبيض المتوسط التي وقعت تحت النفوذ المصري، وبالأخص إتروريا.

والتفسير الذي قدمه ناغيل له وزن كبير:

«من أي بلد جاء الغزاة؟ يبدو لي أنهم أتوا بلا شك من الجنوب. ولو رجعنا إلى الأسطورة، كما هي محفوظة في سلسلة من اللوحات الكبيرة التي تزين أحد دهاليز معبد ادفو وترجع إلى عهد البطالسة، لوجدنا أن الإله هارمشى كان يحكم النوبة، أي جنوب مصر. وقد انطلق من هناك مع ابنه

حورس، الإله المحارب الذى فتح البلد بأسره حتى مدينة زار، المسماة حاليا القنطرة، وهى قلعة أقيمت على أقصى فرع شرقى للنيل المسمى الفرع البللوزى، وكانت تتصدى لمحاولات الغزو من ناحية شبه جزيرة سيناء وفلسطين. وينظم الفاتحون فى مدن مصر الرئيسية ما يتعلق بالطقوس. وقد أقام رجال حورس هناك وكانوا يسمون الحدادين. وهكذا تم الربط بين بداية معالجة المعدن وأسطورة الفتح ...

«ويبدو لى أن هناك ما يدعو إلى وضع تلك الأسطورة فى عين الاعتبار، فهى تبدو رواية قديمة متداولة تتفق مع ما قاله لنا المؤرخون الإغريق، وهو أن مصر كانت مستوطنة تابعة لاثيوبيا. وهكذا فإن المصريين، أو على الأقل من أصبحوا مصريين فرعونيين، تقدموا بمحاذاة مجرى النهر العظيم. وتؤكد لنا ذلك بعض مميزات الديانة والعادات. فالمصرى يحدد اتجاهه بالتطلع الى الجنوب، ويكون الغرب على يمينه والشرق على يساره. ولا أعتقد أنه يريد أن يقول إنه يتجه نحو الجنوب، فهو يتجه بالأحرى نحو بلده الأصلي، وينظر إلى الاتجاه الذى جاء منه والذي يمكن أن ينتظر منه النجدة. فمن هناك انطلقت القوة الفاتحة، ومن هناك أيضا تأتى مياه النيل الخيرة بالخصوبة والثروة. وإلى جانب ذلك كانت للجنوب الأولوية دائما على الشمال، فكلمة الملك تعنى فى المقام الأول ملك الصعيد، وقبل أن يوحد الملوك نصقى البلد تحت صولجان واحد، كانوا ملوك الجنوب وجزء من مصر الوسطى. ويشير لنا إلههم إلى الطريق الذى سلكوه. والإله الذى يسير فى مقدمتهم يتخذ شكل ابن آوى أو كلب؛ إنه الإله اوبواتو الذى يرشد إلى الطريق، وهو ليس إليها متوطننا، على الأقل فى العهد الموغل فى القدم. إنه إله يسير فى اتجاه الشمال. و هو قادم من الجنوب، ولا يتجه نحو منبع النهر». (ادوار نافيل: الأصل الأمريقى للحضارة المصرية؛ مجلة الاثریات، باريس ١٩١٣).

وأخيرا، يهمنا أن نرد على المحاولات المبدولة لتصوير الدلتا على أنها منطقة أكثر مواتاة من صعيد مصر لظهور الحضارة فيها، بأن نشير إلى ما نعرفه حقا عن الدلتا. فمن المعترف به عالميا أن الدلتا كانت بؤرة لانتشار الطاعون فى الشرق الأوسط.

بل إنه بوسعنا أن نؤكد دوفا قدر كبير من الجسارة أن الدلتا لم تكن موجودة أصلا فى عهد نعرمر، حيث أن ممفيس كانت تشرف على البحر. وكان الوجه البحرى كله غير ملائم للصحة، والإقامة فيه شبه مستحيلة. وكان يتمين على الناس الخوض فى أوحاله، وهو لم يصبح ملائما إلى حد ما للصحة إلا بعد الأعمال التى قام بها نعرمر.

وبوسعنا أن نتساءل كيف كانت الدلتا الغربية قبل نعرمر لأننا نعلم أن مجرى النهر لم يكن على غرار ما هو الآن، وأن هذا القرون الأول هو الذى أعطاه الاتجاه الحالى بأن أمر بإقامة سدود وعمليات ردم. وكان النهر يتدفق قبل ذلك باتجاه الغرب.

«وفقا لأقوال الكهنة فإن نعرمر الذى كان أول ملوك مصر، أمر بإقامة سدود فى ممفيس. وكان النهر يتدفق بالكامل حتى حُكِّم هذا الامير بمحاذاة الجبل الرملى الموجود ناحية ليبيا. ولكنه ردم

المنحنى الذى يتخذ النيل من ناحية الجنوب وأقام سدا على مسافة مئة ستاد (مقياس اشرفى يعادل حوالى ١٨٠ مترا) شمال ممفيس، وجفف مجراه القديم وحول اتجاهه عن طريق قناة جديدة لكى يتدفق على مسافة متساوية من الجبال. وحتى الآن فى ظل سيطرة الفرس يُولى اهتمام خاص بمنحنى النيل هذا الذى تتدفق مياهه المحتجزة عن طريق السدود، فى اتجاه آخر، ويجرى تخصيصه كل سنة. فلو كسر النهر السدود واندفعت مياهه فى الأراضى لتعرضت ممفيس لخطر الفرق تماما». (هيرودوت، ٢ ، ٩٩).

إن غرق ممفيس إذا ما تحطمت السدود دليل على أن موقع هذه المدينة تم اكتسابه حقا من المياه، على غرار الأراضى الخصبة المنخفضة المستصلحة على حساب البحر. وكانت عاصمة الملوك المصريين الأوائل فى طيبة، بجنوب البلاد، ولم تؤسس ممفيس إلا لمتعضيات عسكرية أساسا. فقد كانت موقعا حصينا يشرف على نقطة الالتقاء بين طريق تسلل الرعاة الآسيويين من الشرق وسبل دخول بدو الغرب الذين كان المصريون يسمونهم ريبو، ليبو، ومنها ليببون (الأسرة الثامنة عشرة).

وقد حاول هؤلاء البرابرة أكثر من مرة التغلغل بالقوة فى مصر تحت إغراء الثروات المتراكمة فيها. غير أنه تم إلحاق الهزيمة التامة بهم وطردهم خارج الحدود، فى كل مرة تقريبا، بعد معارك حامية. وإذا كانت تحالفات شعوب الشمال والشرق فى منطقة الدلتا وشراسة المارك التى دارت فيها تهررت تأسيس ممفيس كقلعة متقدمة أقيمت لتأمين سلامة المملكة المصرية، فقد تجنبت بالضرورة أى خلط بين الأجناس التى اصطدمت ببعضها فى المنطقة. وكان الأمر يتعلق بتحالفات حقيقية بين أجناس بيضاء ضد الجنس الزنجى المصرى كما تثبت ذلك الفقرة التالية من مؤلف موريه من العشائر إلى الامبراطوريات:

«فى حوالى ابريل ١٢٢٢، علم مرفتاح فى ممفيس أن مريرى، ملك الليبيين. كان قادما من بلاد تيهينو مع رماة السهام التابعين له وائتلاف من «شعوب الشمال» يضم ساردان وسيكول وأخيين وليسيين واتروسك، يمثلون معا صفوفه محاربى كل بلد، بغية شن هجوم على الحدود الغربية لمصر عند سهول بيرير. وما زاد من شدة خطورة الموقف أن إقليم فلسطين كانت تسوده القلاقل، ويبدو أن الحيشيين شاركوا فى تلك الاضطرابات على الرغم من أن مرفتاح كان قد واصل مساعيه الحصيد معهم فأرسل لهم سفناً محملة بالقمح أثناء مجاعة لمساعدة بلاد خاتى». (ص ٣٨٩).

وبعد معركة حامية ألحق المصريون هزيمة ساحقة بتحالف الجحافل البربرية هذا، إذ تم تشتيته بالكامل. أما من نجوا فقد علقت بأذهانهم ذكريات مروعة تناقلتها الأجيال فيما بعد.

واستمرت المعركة ست ساعات، نظم رماة السهام المصريون خلالها مذبحة فى صفوف البرابرة؛ وقد أطلق مريرى ساقيه للرياح تاركاً وراءه أسلحته وكنوزه وحريره؛ وتضمن السجل ٦٣٥٩ قتيلاً من بين الليبيين و٢٢٢ من السيكل و٧٤٢ من الاتروسك والساردان، وآلآفا من الأخيين، وتم الاستيلاء

على تسعة آلاف سيف ودرع وغنائم كثيرة فى ساحة المعركة. وسجل مرفتاح نشيد انتصار فى معبده الجنائزى فى طيبة وصف فيه ذهول أعدائه؛ فالشباب لدى الليبيين يقولون فيما بينهم بخصوص تلك الانتصارات: لم نحقق أيا منها منذ عهد رع، ويقول الشيخ لاهنه: وا أسفاه على ليبيا المسكينة! لقد هلك التيهنو فى غضون سنة واحدة، وفرضت الطاعة أيضا من جديد على أقاليم مصر الخارجية. ودمرت تيهينو، وأخذت الفتنة فى خاتى، ونهبت هلاذ كنعان، وجردت عسقلان من ثرواتها، وتم الاستيلاء على جاذر وأبيدت يانوعيم، وخربت إسرائيل، ولم تعد لديها بلور وأصبحت خارو أرملة هلا سند من جانب مصر. وتم توحيد كل البلاد وإخضاعها « (المرجع السابق، ص ٣٨٩).

ومن المهم أن نلاحظ عن طريق هذا النص أن الانتصار أحرز فى ممفيس ولكن الاحتفال بذكره جرى فى طيبة، فى المعبد الجنائزى لمرفتاح، مما يؤكد ما قيل أنفا وهو أن الفرعون مرفتاح لم يستقر فى ممفيس إلا لمقتضيات عسكرية، ولكنه دفن فى طيبة شأنه شأن جميع فراعنة مصر تقريبا. وحتى عندما كان فرعون يموت فى ممفيس، فى الوجه البحرى، كان جثمانه ينقل إلى الصعيد لدفنه فى مدنه المقدسة: ابيدوس وطيبة والكرنك. فقد أقام الفراعنة مقابرهم فى مدن الصعيد هذه إلى جانب أسلافهم حيث كانوا يرسلون لهم القرابين حتى وإن أقاموا فى ممفيس.

وبعد الثورة التى سجلت نهاية الدولة القديمة، عندما حصل الشعب على امتياز الموت الأوزيريسى، أى إمكانية التمتع بالخلود فى السماء (بعد المثل أمام محكمة أوزيريس)، كان كل أفراد الشعب يدفنون رمزيا فى منطقة طيبة بإقامة لوحة باسم المتوفى. وهكذا كانت هذه المنطقة مقدسة بالنسبة لكل شعب مصر هلا استثنا. ولو أن الحضارة والتقاليد الدينية المصرية كانت قد نشأت حقا فى الدلتا، لكان ذلك التقديس بمثابة انتهاك للحرمات. ولو كان الأمر كذلك لبتعين أن نجد هناك المدن المقدسة ومدافن الأسلاف وأهم أماكن العبادة والحج .. الخ، وهو ما لم يحدث. وهذا القدر الوفير من الحجج يكفى للحيلولة دون تأييد فكرة الأسبقية المزعومة لقيام الحضارة فى الدلتا، بأى شكل من الأشكال.

وهذا الائتلاف بين شعوب الشمال والشرق فى عهد مرفتاح ليس سوى أحد وقائع التاريخ المصرى القديم، إذ اندلعت حروب مشابهة فى هذه المنطقة طوال ذلك التاريخ، وإن تفاوت مدى أهميتها. وقد تغلب دائما زنج وادى النيل على هؤلاء البرابرة اللهم إلا فى العصر المتأخر. ويشهد على ذلك عدد لا يحصى ولا يعد من النقوش التى تصور أسرى، والتى نجدها ابتداء من صخور سيناء حتى معابد مدينة هابو وطيبة، وعلى لوحة نعرمر، أى منذ عهد ما قبل الأسرات حتى الأسرة التاسعة عشرة. ويعترف الليبيون أنفسهم، إذا ما أمنا بما جاء فى النص المصرى، بأنهم لم يحققوا أبدا أى انتصار منذ بداية الزمن، أى منذ عهد رع. ولا توجد أى واقعة أو شهادة أو نص يكذب ذلك. وقد كتب موريه نفسه يقول:

«وكان هؤلاء الليبيون وسكان الكهوف، يبدون على حدود الحقول الخصبة كجيران جوعى ونهايين، يتحينون الفرصة دائما لشن غزواتهم ضد الفلاحين المصريين المسالمين والعاكفين على زراعة الأرض وتربية الماشية. ولم تكن خطورتهم شديدة أبدا على المصريين لأنه لم تكن توجد لديهم حتى ذلك الوقت بهيمة سريعة قادرة على حمل الأثقال؛ فالحمار، وهو الدابة الوحيدة التي كانت لديهم ليس سريعا ولا يستطيع نقل الأحمال الثقيلة... ولذا فقد اكتفت مصر بمراقبة هؤلاء البدو بكل يقظة، وبعمليات تأديب كانت تستخدم فيها الليبيون أنفسهم؛ فقد عملت في خدمتها عدة قبائل كمرتزقة، ومنها قبيلة المشاوشا، بل إنها جندت قوات ممتازة لدى المازوي. وهكذا وجد الفراعنة وسيلة لتأمين أنفسهم ضد مخاطر السرقة بدفع جعل على شكل مرتب لهؤلاء النهابين الذين كان ترويحهم أمرا مستعصيا. ولم يصبح هؤلاء الليبيون المتجمعين في اتحاد حركة هجرة الشعوب، خطرا محققا بمصر لا تكفي الوسائل المرجحة لدورته إلا في أواخر عهد امبراطورية طيبة»، (المرجع السابق، ص ١٩٧، ١٩٨).

وتلخص شهادة موريه هذه ما لدينا من معلومات ملموسة حول الليبيين. فالتاريخ يقيدنا بأنهم كانوا لصوصا يتضورون جوعا، يعيشون في أرياض مصر، بالمنطقة الغربية من الدلتا، وأنهم خدموا كمرتزقة واستقروا في أنحاء الدلتا في العصر المتأخر، وأنهم كانوا من جنس أبيض، باستثناء التيهينو^(*). وكان تحضرهم أمرا مستعصيا في الوقت الذي كان فيه العالم الزنجي قد تحضّر. وهذا ما تفيدها به الوثائق التاريخية عن الليبيين، هذا عدا توزيعهم الجغرافي على الساحل الشمالي لأفريقيا الذي أفادنا به هيرودوت.

وبوسعنا أن نتساءل عن ماهية ذلك الاختراع الذي يدفع إلى جعل هذه الشعوب المختلفة عن المصريين من كافة الأوجه، منبع حضارتهم، إلى حد اعتبار المصريين أبناء عمومتهم الهمجيين أو الأهل تحضرا، وتلك حقا قمة التناقض. وقد استقر هؤلاء الليبيون في الدلتا، حيث منحهم الفراعنة قطع أرض في العصر المتأخر. وتشبهت مصر عندئذ بأجانب وأدى ذلك التهجين إلى البياض النسبي الذي طرأ على بشرة الأقباط.

وهكذا لم تدخل الدلتا في التاريخ المصري إلا في العصر المتأخر. ولم تكن مصر أبدا دولة بحرية قوية، وربما يرجع ذلك إلى نشأة حضارتها داخل القارة، على عكس الشعوب الأخرى المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

وفقا لما كتب بلوتارك في الإيزيس والأوزيريس (بصيغة الجمع)، كان المصريون يعتبرون البحر «إفرارا فاسدا»، وهو تصور لا يتفق مع فكرة الاستيطان أصلا في الأراضي المطلة على البحار.

(*) باستثناء التيهينو أو اللهب السرد الذين يعتبرون أسلاف اللهب الحاليين في شبه جزيرة الرأس الأخضر، كان السود قد سبقوا التيهينو أو اللهبين البيض (شعب البحر) في هذه المنطقة الغربية من الدلتا. وكان التيهينو، أول سكان سود، سببا في الخلط في تسمية اللهب «البيتي»، وإن كان المقصود في الواقع زنجيا يتميز عن بقية المصريين بمدى تحضره فقط. وقد استخدم في الكتب الدراسية الرسمية للإشارة إلى سلف مفترض للبربر. وتستدعي كلمة تاهامر أو تيهينو، كلمة تاكانو بالروكوف التي تعني المكان الذي يلجأ إليه المرء للبحث عن الملط.

هل يمكن أن تكون الحضارة المصرية من أصل أسبوى ؟

بتعيين هنا أيضا، وعلى غرار ما جاء من قبل، أن نميز بين ما يمكن استنتاجه من الفحص الدقيق للوثائق التاريخية وما يمكن أن نفترضه مع تجاوز الوثائق خلافا لما تشهد به.

فلكى تكون الحضارة المصرية من أصل أسبوى أو أى أصل خارجى آخر، لاهد من إثبات أن مهذا سابقا للحضارة تواجد خارج مصر. ولا حاجة بنا إلى أن نؤكد على أن هذا الشرط الأوكى والضرورى لم يتوفر أبدا.

«لم تيسر الظروف الطبيعية تطور مجتمع بشرى ما بقدر ما يسرت ذلك فى مصر؛ ولذا لا نجد فى أى مكان آخر صناعة تجمع بين الأدوات الحجرية المصقولة والبرونزية بتقنية مشابهة. وعلى أى حال لا يوجد فى سوريا وفى بلاد ما بين النهرين أى أثر للإنسان فيما قبل عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، ماعدا بعض المواقع المنتمية إلى العصر الحجري الجديد فى فلسطين لم يُعرف عهدها بدقة. وفى هذا التاريخ، كان المصريون على وشك الدخول فى العصر التاريخى للحضارة. وعليه يكون من الملائم أن يُنسب تطوره هذا المبكر لعرقية سكان مصر الأوائل وللظروف الاستثنائية التى هبأها وادى النيل. وليس هناك ما يثبت أن ذلك التطور يعود إلى غزو أجانب أكثر تحضرا، بتعيين على أى حال إثبات وجودهم أو على الأقل إثبات وجود حضارتهم». (موريه، من العشائر إلى الامبراطوريات، ص ١٤٠).

ولا يزال يتعذر دحض ملاحظات موريه هذه عموما حتى يومنا هذا. ويشير المؤلف إلى تاريخ ٤٢٤١ قبل الميلاد، حيث كان التقويم مستخدما آنذاك بكل تأكيد فى مصر.

فدورة التقويم المصرى القديم تبلغ ١٤٦١ سنة، وهى الفترة الممتدة بين شروقين للشعرى اليمانية مع شروق الشمس فى نفس اللحظة. وقد أتاحت هذه الواقعة، إلى جانب معرفة استدلالين أحدهما من التاريخ المصرى والآخر من التاريخ الرومانى، إمكانية الرجوع بيقين حسابى أكيد إلى تاريخ ٤٢٤١ أو ٤٢٣٦ ق.م.، بعد إجراء تصحيح بسيط على خطأ طفيف فى الحسابات الأولى.

وكان لاهد من آلاف عمليات الرصد فى ظل حياة مستقرة لاختراع تقويم تبلغ دورته ١٤٦١ سنة. ولو تمسك المرء بالوثائق بكل دقة لظهر لنا بوضوح أنه يستحيل الركون إلى التصرفات الجامدة لمخترعى الحساب الزمنى القصير أو القصير للغاية الذى يُرجع بداية التاريخ المصرى إلى سنة ٣٢٠٠ أو ٢٨٠٠ ق.م. وسنعرض فيما بعد اعتبارات «التضامن» التى دفعت إلى تقديم هذا النوع من الافتراضات.

لقد تم التوصل إذن في مصر إلى أقدم تحديد للتواريخ عرفته البشرية بيقين حسابي.

فماذا نجد في بلاد ما بين النهرين؟

لا شيء يمكن تحديد تاريخه بشكل مؤكد؛ فقد كان البناء يتم في بلاد ما بين النهرين بلبنات نبتة تجففها الشمس وتحولها الأمطار إلى كتل من الطين.

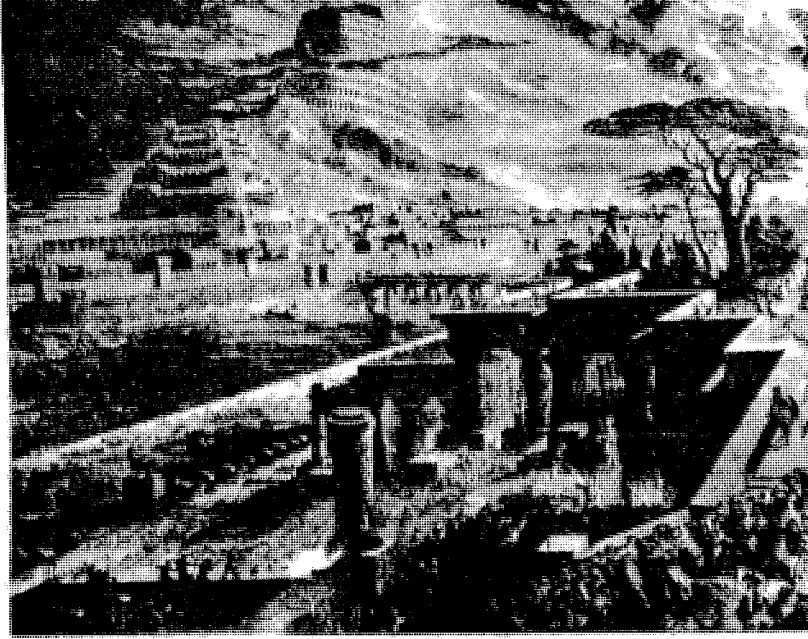
فأهرامات مصر، ومعابدها، ومسلاتها، وغابات أعمدها في الأقصر والكرنك، وطريق كباشها، وقشالا ممنون وغيرهما، وصخورها المنحوتة ومعابدها المحفورة في بطن الأرض وذات الأعمدة المباشرة بالطرز الدوري (الدير البحري)، وكل تلك الحقائق المعمارية الملموسة وتلك الشواهد التاريخية التي لا يمكن أن تخفيها أي عقيدة جامدة، يقابلها في إيران (عيلام) وبلاد ما بين النهرين حتى القرن السابع ق.م. (عهد الاشوريين) ركام من الأجر المدوم الشكل.

وقد قرروا أن ذلك الركام بقايا معابد وأبراج دارسة، تهذب الجهود لإعادة بنائها. وهكذا يقوم العالم الأثري الأمريكي سبتون لويد، بإعادة بناء داخل معبد بابل يُفترض أنه يرجع إلى سنة، القرن أو ثلاثة آلاف ق. م. وقد صوّره بريستيد في كتابه اكتساب الحضارة، (الناشر مايو، ١٩٤٥، ص ١٢٣، الصورة رقم ٥٧). وتعتمد إعادة البناء هذه على الحفائر التي أجراها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو. وهذا النوع من عمليات إعادة البناء، بما في ذلك برج بابل (الصورة رقم ٣٩) خطير للغاية بالنسبة لتاريخ البشرية نظرا للأوهام التي قد يغذيها.

«لقد تحولت بقايا تلك الأبراج البابلية إلى تراب في أغلب الأحوال نظرا لعدم صمود اللبنات المجففة في الشمس، التي استخدمت في بنائها. ولذا لا يتفق علماء الآثار على تفاصيل أشكالها».
(بريستيد، المرجع السابق، ص ١٢٢، الهامش رقم ١).

وفي مصر، تستند دراسة التاريخ على نطاق واسع، إلى وثائق مسجلة مثل مسرد بالرمو، ولوحات أبيدوس الملكية، ويردى تورينو الملكي، وحوليات مانيتون. ويتمين أن يضاف إلى كافة تلك الوثائق الصلية، مجموع ما شهد به كتاب قدامى، بدءاً ببيروودوت حتى ديودور، هذا عدا متون الأهرام، وكتاب الموتى، وآلاف الكتابات المنقوشة على الجدران.

أما في بلاد ما بين النهرين فمن العبث البحث عن شيء مماثل. فاللوحات المكتوبة بالخط المسامري تتعلق عموماً بحسابات تجار؛ ايصالات وفواتير مدونة بشكل مختصر. ولم يتعرض القدامى لحضارة ما بين النهرين المزعومة السابقة على الكلدانيين. وعلى أي حال فقد كان هؤلاء الكلدانيون بالنسبة للقدامى مجرد طائفة من الكهنة الفلكيين المصريين أي زنوج. (ديودور الصقلي، تاريخ الكون، الكتاب الأول، القسم الأول، ص ٥٦ و ٥٧).



٣٩ - برج بابل - نموذج لعمليات إعادة البناء
يظهر البرج في خلفية الصورة، وأمامها حدائق بابل المعلقة

وقد أوضح ديودور أن الكلدانيين كانوا، حسب قول المصريين: «جالية من كهنتهم نقلهم بلوز على نهر الفرات ونظمهم وفقا لنموذج الطائفة الأم، ولا تزال هذه الجالية تواصل تنمية المعارف عن النجوم التي جاءت بها من وطنها». (هيفر: كلد، سلسلة الكون، ١٨٥٢، ص ٣٩٠).

وهكذا أصبح لفظ «الكلدانيين» مصدرا للكلمة اليونانية التي تعنى فلكيا. ويقال إن برج بابل، وهو هرم مدرج على غرار هرم صقارة، الذي عُرف باسم «برس - فرود» و«معبد بعل»، لم يكن إلا مرصدا للكلدانيين.

وهكذا تصبح الأمور منطقية لأن فرود ابن كوش وحفيد حام، سلف الزوج، حسب ما جاء في التوراة، كان رمزا للجبروت. في الدنيا.

«وكوش ولد فرود الذي ابتدأ يكون جبارا في الأرض، الذي كان جبار صيد أمام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكثت في أرض شنعار. ومن تلك الأرض خرج أشور...» (سفر التكوين، الإصحاح العاشر).

أليس من الطبيعي إذن أن نجد هرما مدرجا في صقارة وباهل (مدينة بعل الكوشية) ، وفي ساحل العاج (على شكل مثقال من البرونز)، وفي المكسيك حيث أثبت الكتاب والأثريون المكسيكيون أنفسهم الهجرة الزنجية عن طريق المحيط الأطلسي؟

وحيث أن آسيا الغربية كانت مهدا لحضارة هندو - أوروبية، فلو أن حضارة مزدهرة تواجدت في هذه المنطقة على غرار الحضارة المصرية في فترة سابقة على عهد الكلدانيين، لكانت ذكراها قد بلغتنا ولو بإشارات غير واضحة، عن طريق القدامى الذين كانوا فرعا من الهنود - أوروبيين، علما بأنهم هم أنفسهم الذين أفادونا بالعديد من الشهادات المتطابقة عن الحضارة الزنجية المصرية. ووفقا للترتيب الزمني القصير كانت مصر موحدة في مملكة واحدة على يد نعرمر قبل مولد المسيح بـ ٣٢٠٠ سنة.

ولن نجد شيئا مماثلا في آسيا الغربية؛ فبدلا من مملكة متحدة وقوية نجد مدناً مثل سوز وأور وبلش ومارى وسومر، ودلت عليها أحيانا مقابر أصحابها المجهولى الهوية، وتقرر بلا أى دليل أنها «مقابر ملكية».

وهكذا تم رفع أشخاص لم يكونوا سوى مشايخ قرى أو مدن، إلى مرتبة الملوك، هذا إن لم يكونوا شخصيات وهمية مختلفة. إننا نجد الآن في كل قرية في السنغال أسرة تدعى أنها هي التي أسست تلك القرية، وكثيرا ما يكون عضو هذه الأسرة الأكثر تقدما في السن شيخ القرية، وهو يتمتع بقدر من الاحترام من جانب أهالى القرية. ومع ذلك فسيكون الأمر مضحكا حقا لو أننا منحناه لقبها ملكيا بعد ألفى سنة.

وقد كتب جورج كونتينو يقول بخصوص مغزى مقابر أور التي تقرر أن تكون ملكية: «هوسعنا أن نتساءل بخصوص مقابر الجبانات الملكية، إذا ما كان الأمر يتعلق حقا بملوك وإذا لم يكن من الواجب ربط تلك المقابر بهادة مبدأ الحصوية.

«فما يلفت النظر حقا أن أصحاب هذه المقابر مجهولوا الهوية؛

«ويعتقد السيد س.سميث أن هذه المقابر كانت لا تخص ملوكا حقا ولكن تمثلى الأساءة المقدسة التي كانت تعرض بمناسبة الأعياد، ويتم فيها التضحية ببطل المسرحية الرئيسى...»

«والسبر ل. وولى ... مبتكرها (أى المقابر) ينكر ذلك تماما ..»

«عندما وصفت هذا الكشف المثير للمقابر الملكية، أبدت ملاحظة تتبادر بشكل طبيعى الى الدهن، وهى أن السكوتيين كانوا يمارسون فيما بعد ذلك بمدة طويلة، طقوسا مشابهة.

«وإذا كان الحظ لم يسعدنا بالعشور على مقبرة سليمة في بلاد ما بين النهرين، علاوة على مقابر أور الملكية وإذا كنا لم نصادف أبدا وثائق صريحة حول مواصلة الطقوس الجنائزية التي كشفت عنها حفريات أور، فإن بعض اللوحات الصغيرة تلتقى مع ذلك قليلا من الضوء على استمرار هذه الممارسة على شكل مخفف على الأتل.

«فهناك خطاب من العهد الاشوري في ظل الأسرحونيين يفيدنا بأن ابن حاكم أكد ومواقع أخرى «راح إلى مصيره» وكذلك سيدة القصر، وأنه قد تم دفنهما». (مرجز للأثار الشرقية، المجلد الرابع، ص ١٨٥٠-١٩٥٨، مطبوعات بيكار، ١٩٤٧).

ومن المؤسف أن الوثائق المهمة التي توجد في متناول يدنا تعود إلى عهد متأخر إلى هذا الحد. ومن المؤسف بقدر لا يقل عند ذلك أن المقارنة التي «تتبادر بشكل طبيعي إلى الذهن» تعود بنا إلى عادات السكوتيين التي وصفها هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد. والواقع أنه بالرجوع إلى أوصاف هيرودوت نفسها التي ذكرها الدكتور كورتينو، يتبين لنا أنه لم يكن من الممكن أن يكون الإنسان أكثر توحشا وبربرية من السكوتيين.

ها نحن إذن بعيدين عن تأثيرات حضارة يمكن أن نقرر أنها أم الحضارة المصرية.

وتعبير «مبتكر هذه المقابر» الذي استخدمه المؤلف بخصوص السير ليونارد وولي الذي اكتشفها يثبت لنا بما فيه الكفاية أن إضفاء صفة «الملكية» عليها ليس له مبرر شرعي عدا أنه يمكن أن يكون افتراضا يخضع للفحص.

وعلى العكس فإن أقدم الملوك الذين تم العثور عليهم في عيلام هم بلا منازع من الزوج كما تثبت الآثار التي استخرجها ديولافوا [DIEULAFOY] من باطن الأرض.

«كانت هناك أشياء عديدة مدهشة في طريقها إلى الكشف وكنا ننتقل من مفاجأة إلى أخرى. وقد تم العثور عن طريق هدم حائط ساساني أقيم بمواد أقدم منه تم أخذها في الموقع نفسه، على آثار ترجع إلى العهد العيلامي من تاريخ سوز، أي أنها سابقة على استيلاء اشوربانيبال على تلك القلعة. ولكن يجب أن نترك الكلمة هنا لديولافوا:

«عندما تم رفع مقبرة تعترض حائطا من اللبن يشكل جزءا من تحصينات باب عيلامي، استخرج العمال جرة جنائزية يحيط بها بناء من قرميد مطلي بالمينا. وكانت هذه القراميد مأخوذة عن لوحة تمثل شخصا يرتدى ثوبا أخضر راتعا موسى بزركشات صفراء ووزرقاء وبضياء وبفراء قر، ويحمل عصا أو حربة من الذهب. والأمر الفريد هنا أن هذا الشخص الذي عُثر على أسفل وجهه ولحيته وعنقه ويده، أسود اللون. وشفاهه رقيقة ولحيته غزيرة وزركشات ملابسه العتيقة الطراز، تبدو من صنع عمال بالهيين.

«وقد تم العثور في جدران أخرى بنيت بمواد سبق استخدامها، على قراميد مطلية بالمينا، مثل قديمين ينتعلان حذاء من الذهب، ويدت مرسومة بدقة شديدة، والمعصم تحيط به أساور، والأصابع تقبض على عصا طويلة أصبحت رمزا للجبروت الملكي في ظل الأخمنديين، وقطعة من ثوب موسى بشعار سوز (أى منظر للمدينة على الطريقة الأشورية)، يغطيه جزئيا فراء ثمر. وهناك أخيرا إفرز مُحلَى بالزهور فوق خلفية بنية اللون؛ وكانت الأيدي والأقدام سوداء. بل إنه كان من الواضح أن الزخارف كلها أعدت بحيث تتلام مع لون الوجه الداكن. وكان للعظام وحدهم الحق في حمل عصا طويلة واستخدام الأساور، وكان حاكم الموقع العسكري هو وحده الذى يستطيع أن يرتدى ثوبا مطرزا بصورة الموقع. ومن الواضح أن صاحب العصا، سيد القلعة، أسود؛ ولذا هناك احتمالات كبيرة بأن تكون أسرة سوداء قد حكمت عيلام، وأنها كانت أسرة أثيوبية استنادا إلى سمات الوجه الذى تم اكتشافه. فهل نحن بصدد أحد أثيويى الشرق الذين تحدث عنهم هومبروس؟ وهل كان الناخوتته من سلالة أسرة من الأمراء تنتسب إلى الأجناس السوداء التى حكمت جنوب مصر؟» (النيورمان، تاريخ الفينيقيين القديم، باريس، ليفي، ١٨٩٠، ص ٩٦ الى ٩٨).

وجاءت اكتشافات الدكتور كونتينو بعد ذلك بنصف قرن لتصدق على استنتاجات ديولاغوا حول الدور الذى قام به الجنس الزنجي في غرب آسيا.

ويعيد ذلك إلى الذاكرة رأى كاترفاج وهامى حول الأنماط العرقية المصورة على الآثار الأشورية.

فالسوزى بالأخص «النتاج على الأرجح عن امتزاج كوشيين مع زنوج، بأنفه الأفطس نسبيا، وفتحتى منخاريه المتسعيتين، ووجنتيه البارزتين، وشفتيه الغليظتين، يمثل نمطا من الأجناس معروف تماما ومصور بشكل جيد». (موجز للآثار الشرقية، ١٩٢٧، ص ٩٧).

وقد أورد بعد ذلك الترتيب الذى وضعه هوساي بخصوص السكان المحليين؛ وهم مكونون من ثلاث طبقات، وصف إحداها على الوجه التالى: «آريون - زنوج متوافقون مع السوزيين القدامى الذين كانوا منتيمين إلى حد كبير إلى النجريتو، وهم من جنس أسود، وقامتهم قصيرة، وجمجمتهم صغيرة الحجم. والآريون -الزنوج عريضو-الجمجمة وليسوا مستطيلى الرأس مثل الزنوج الضخام، ويمكننا أن نصادفهم فى اليابان وجزر سندا (اندونيسيا) والفلبين وغينيا الجديدة.

«ومع أن هذا الترتيب قد تدخل عليه بعض التعديلات إلا أن الجانب المخصص لذوى الشكل الزنجي جدير أن يؤخذ بعين الاعتبار. فوجودهم يفسر لنا تواجد محاريين سود لا يتميزون بالسمات العرقية للزنوج من بين رماة السهام الفرس المصورين على اللبئات الملونة. ويبدو، دون المغالاة فى أهمية ذلك العنصر، أنه لا يمكن أن نشكك فى مشاركته فى تكوين عيلام القديمة». (المراجع السابق، ص ٩٨).

ويُلقي الجواهر الزمجي الأولى لعملام القديمة ضوما جديدا على بعض أبيات الشعر فى ملحمة
جيلجامش، القصيدة الهابلية (أى الكوشية) وقصائد أخرى:

يا انليل يا أب، يا سيد البلاد

يا انليل يا أب، ياسيد الكلمة المخلصة

يا انليل يا أب، يا راعى الرؤوس السوداء

(مناحة للإلة انليل، أوودها ش. زيرفوس فى: الفن فى بلاد ما بين النهرين، مطبوعات كراسات
فنية، ١٩٣٥).

وفى ملحمة جيلجامش يحمل الإله الأسمى، أنو، ابو عشتار، اسما زنجيا كان أيضا اسم أوزيريس
فى أون:

«أخذت الربة عشتار الكلمة وهكذا تحدثت إلى الإله أنو، أبيها...» (الأبيات ٩٢ و ٩٣ من
ملحمة جيلجامش، نشرها الدكتور كونتينو، باريس، مطبوعات لارتيزان دى ليشر، ١٩٣٩).

وقد علمنا من قبل، وفقا لأميلينو، أن الأتو كانوا الزوج الأوائل الذين سكنوا مصر، وظل
بعضهم، فى منطقة البطراء خلال التاريخ المصرى القديم. وعليه فإن الأتو الزوج حقيقة تاريخية
وليسوا مجرد تخيل أو فرضية للعمل بها. ولنلاحظ أيضا أنه يوجد حتى أيامنا هذه شعب أنى فى
ساحل العاج الذى يسبق أسماء ملوكه لقب آمون، كما رأينا من قبل.

ومن جهة أخرى فإن الترتيب الزمنى الذى وضعه م. كريستيان، اعتمادا على حسابات كوجلر
الفلكية يحدد بداية أسرة أور الحاكمة من ٢٥٨٠ إلى ٢٦٠٠ قبل الميلاد، وهو تاريخ المقابر المسماة
«ملكبة»، بينما يتراوح التاريخ الرسمى المسلم به بلامبرر واضح، بين ٣٠٠٠ و ٣١٠٠ قبل الميلاد.

والواقع أن اختيار عام ٣٠٠٠ كبداية للمرحلة التاريخية فى بلاد ما بين النهرين لا يعود إلى أى
ضرورة سوى التوصل بأى ثمن إلى توافق بين التسلسل التاريخى المصرى والتسلسل التاريخى فى
بلاد ما بين النهرين. ولما كان التاريخ يبدأ فى مصر فى عام ٣٢٠٠ ق. م. وفقا للتقديرات الأشد
اعتدالا، فقد أصبح من الضرورى «من باب التضامن» إرجاع بداية تاريخ بلاد ما بين النهرين إلى
نفس الفترة حتى وإن كانت كل الأحداث التاريخية المعروفة حتى الآن عن تلك المنطقة يمكن أن تعود
إلى فترة زمنية أقل. وقد كتب الدكتور كونتينو بقول مشيرا إلى الترتيب الزمنى الذى وضعه
م. كريستيان:

«ماهو رأى فى هذه التقديرات الجديدة؟ يبدو أنها تمنح فى حد ذاتها مدة كافية للأحداث
التاريخية». (موجز للآثار الشرقية، باريس ١٩٤٣، المجلد الثالث، ص ١٥٦٣)

غير أن الدكتور كونتينو يتجنب تبنى هذا التسلسل الزمني لسببين:

«الأول أن حساب الظواهر الفلكية المذكورة من قبل والذي من المفترض أن يكون أساسا لا جدال فيه، يخضع لتغييرات؛

«... والسبب الثاني هو أن التسلسل الزمني القصير للغاية لا يضع الحضارات المجاورة في عين الاعتبار؛ فمن الصعب أن نفسر أن الحضارة المصرية التي تبدأ حسب تقديرات علماء الآثار المصرية، الأشد تواضعا في حوالي عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، قد سبقت بداية التاريخ في بلاد ما بين النهرين بـ ٦٠٠ سنة. فالعلاقات القائمة بين آسيا ومصر فيما قبل التاريخ حقيقة قائمة؛ وعندئذ يصبح تفسيرها متعلزا، شأنها في ذلك شأن تقديم تاريخ الحضارة المينوية لو أننا اعتمدنا تلك الأرقام. ويبدو هذا الاقتراح غير مقبول إلى حد ما. ولذا أعتقد أن دراسة م. كريستيان الشيقة للغاية تصل إلى استنتاج لا يمكن القبول به إلا إذا توصلت دراسة موازية إلى تخفيض بداية تاريخ حضارات مصر وإيجيه بنفس القدر». (المرجع السابق، ص ١٥٦٣).

وكتب الدكتور كونتينو يقول في مؤلف آخر له صدر في نفس السنة (١٩٣٤):

«تدفعني جوانب عدم اليقين بخصوص التسلسل التاريخي الشرقي إلى الإدلاء ببعض الملاحظات حول التواريخ التي سترد في هذه الدراسة. إننا نشهد منذ بضع سنوات تصنيفا تدريجيا لتاريخ الأحداث في بلاد ما بين النهرين. فبعد أن حُدثت بداية للمرحلة التاريخية في حوالي ٤٠٠٠ سنة وأكثر قبل الميلاد، حل محلها تقدير يبلغ حوالي ٣٠٠٠ نتيجة لاستبعاد سنوات من حكم بعض الأسر من قائمة الأسر الحاكمة لأنها لم تكن متتالية بل معاصرة لأسر أخرى، وعن طريق تحديد تواريخ كسوف الشمس التي ورد ذكرها بخصوص بعض النظم الحاكمة، وذلك بفضل علماء الفلك الحديثين. ولكن المراجعة الدقيقة للأحداث التاريخية والحسابات الفلكية تميل إلى تخفيض بداية المرحلة التاريخية مرة أخرى. ويقترح م. ف. كريستيان، من فيينا تاريخ ٢٦٢٠ لأول أسرة أور في سومر. ولو كان الأمر يتعلق بحضارة ما بين النهرين وحدها لما كان هناك ما يدعو إلى الاعتراض على ضغط ذلك الترتيب ...

«غير أن هناك تضامنا عاما يجب أن يوضع في عين الاعتبار. فالمرحلة التاريخية تبدأ في نفس التاريخ تقريبا بالنسبة لمصر ولبلاد ما بين النهرين، ولكن علماء الآثار المصريين يرفضون عموما تخفيض تاريخ نعرمر، مؤسس الأسرة الأولى إلى أقل من ٣٢٠٠ قبل الميلاد». (حضارة الميسين والليثانيين، الناشر پايو، باريس، ١٩٣٤، ص ٤٨-٤٩).

ويتبين بوضوح فى هذه النصوص أن تزامن تاريخ مصر وبلاد ما بين النهرين ضرورة قلميها الآراء لا الوقائع. فالفكرة الرئيسية الراهنة تتمثل فى التوصل إلى تفسير حضارة مصر عن طريق بلاد ما بين النهرين، أى غرب آسيا، مهد الهندو - أوروبيين.

ويثبت كل ماجاء من قبل أن الاختصار فقط على الوقائع المؤكدة يجبر على اعتبار بلاد ما بين النهرين وليدا لمصر جاء متأخرا. فالعلاقات فى مرحلة ما قبل التاريخ لا تستتبع بالضرورة تزامن بداية التاريخ فى البلدين.

وبوسعنا أن نذكر فى ختام هذا الفصل تلك الفقرة التى أوردها مارسيل بريون نقلا عن لوثات ديكسون:

« قبل ثلاثين سنة مضت كان اسم سومر لا معنى شيئا بالنسبة للجمهور. وهناك اليوم شئ يسمى المشكلة السومرية التى أصبحت موضع خلافات دائمة ووجهات نظر متباينة بين علماء الآثار» (بعث المدن الدارسة، باريس، الناشر پايو، ١٩٤٨، ص ٦٥).

وقبما يتعلق بالآثار الفارسية يفيدنا ديودور بأن عمالا مصريين اختطفهم قسرا قمييز «المخرب» تولوا بناءهما:

« أشعل قمييز النيران فى كل معاهد مصر، وعندئذ حمل الفرس معهم كل الكنوز إلى آسيا بل واقتادوا معهم عمالا مصريين لبناء القصور الشهيرة فى برسبوليس (پارسا) وسوز وبعض المدن الأخرى فى ميديا». (ديودور، الكتاب الأول، القسم الثانى، ص ١٠٢).

ووفقا لسترابون، فقد أسس سوز زنجى هو تيشون، ملك أيوبيا وأبو ممنون:

«ويزعم فى الواقع أن تيشون، والد ممنون أسس سوز وأن قلعتها كانت تسمى ممنونبوم. ويسمى السوزيون أيضا السيسىين، وتسمى اسكيلوس والدة ممنون سيسىيا. (الكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ٧٢٨).

واسم سيسىيا يذكّر بسيسى، وهو اسم علم إفريقى.

ومن الأسباب التى دفعت الفرس إلى اختيار سوز أنها لم تقم أبدا بدور هام فى التاريخ، وهذا ما تناقضه النظريات الراهنة:

«وعاصمتها (أى سوسيديا) سوز ... فعندما استولى الفرس على ميديا ... جعلوا من سوز عاصمة لامبراطوريتهم نظرا لأهميتها ... ولأنها لم تقم أبدا بنفسها بأى عمل عظيم، إذ كانت خاضعة دائما لشعوب أخرى وكان ينظر إليها كجزء من جسم أضخم، فيما عدا فى الأزمنة الأسطورية على ما يبدو». (نفس المرجع، ص ٧٢٨).

فينيقيا

الإنسان الذي تم اكتشافه في أرض كنعان، فيما قبل التاريخ، والمسمى *الناثومي*، من جنس زنجي.

ويبدو أن الصناعة الكاهسية التي انتشرت في شمال إفريقيا حتى هذه المنطقة من أصل زنجي هي أيضا. ووفقا لما جاء في التوراة، وجدت الأجناس البيضاء عندما وصلت إلى المنطقة جنسا زنجيا: الكنعانيين، ذرية كنعان أخى مصرايم المصرى وكوش الاثيوبي، وكلاهما من أبناء حام سلف الزوج حسب التوراة.

«وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك.

«فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب مع لوط... فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوط ابن أخيه وكل مقتنياتها التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام فى الأرض إلى مكان شكيم الى بلوطة مور، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض» (سفر التكوين، الإصحاح الثانى عشر).

وبعد العديد من الأحداث، انصهر معا الكنعانيون والقبائل من جنس أبيض التى يرمز اليها أبرام وذريته (نسل اسحاق) فكوتوا معا بمرور الزمن الشعب اليهودى.

«فأتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتهما وكلما أهل مدينتهما قاتلين هؤلاء القوم مسالمون لنا فليسكنوا فى الأرض ويتجروا فيها. وهو ذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا». (سفر التكوين، الإصحاح الرابع والثلاثون).

وهذه السطور القليلة التى كانت بداية لخديعة تكشف مع ذلك الاعتبارات الاقتصادية التى كانت تحكم فى هذه الفترة العلاقات بين الغزاة البيض والكنعانيين الزوج.

ولذا فإن تاريخ فينيقيا لا يمكن فهمه إذا لم تؤخذ فى عين الاعتبار إقادات التوراة التى جاء فيها أن الفينيقيين، أى الكنعانيين، هم أصل الزوج المتحضرين الذين امتزجت معهم فيما بعد قبائل رُحُل، عدية الثقافة، من جنس أبيض.

وعليه فإن إطلاق تعبير لوكو - سوريين على بعض الشعوب البيضاء فى هذه المنطقة ليس تناقضا، كما يعتقد هوفر، بل تأكيدا للإقادات الواردة فى التوراة.

«ويدو أن اسم السوريين امتد ابتداء من بابل حتى خليج ايسوس، بل ومن هنا الخليج حتى البحر الأسود. ولا يزال الكابادوسيون، سواء المستقرون فى جبال طورس بالأناضول أو على شواطئ البحر الأسود، لا يزالون يحتفظون حتى الآن باسم اللوكو - سوريين (السوريون البيض)، كما لو أن هناك سوريين سوداً». (هوفر : كلدا وبابل، سلسلة الكون، مطبوعات الإخوة ديدو، ١٨٥٢، ص ١٥٨).

وبهذه الطريقة يمكن تفسير التحالف الأزلي بين المصريين والفينيقيين، وكان بوسع مصر الاعتماد على الفينيقين كما يعتمد المرء على أخيه، حتى في الفترات التي تسودها الاضطرابات الشديدة والمحن القاسية.

«ومن بين الوقائع المنقوشة على جدران المعاهد في مصر والمتعلقة بالتمردات الكبرى التي انفجرت عدة مرات في سوريا خلال هذه القرون الخمسة ضد الهيمنة المصرية وبتهجير من الاشوريين (الروتنر) أو الحيشيين الشماليين (الختيا) والتي أخذها أحمدها تحتمس الثالث وسيتى ورمسيس الثاني ورمسيس الثالث، لا نجد أبدا من بين قائمة المتمردين والمهزومين اسم أهالي صيدا أو عاصمتهم أو أي من مدنها...»

«وهناك بردى ثمين في المتحف البريطاني يتضمن الرواية الخيالية لموظف مصري في نهاية حكم رمسيس الثاني، بعد التوصل إلى سلام نهائي مع الحيشيين ...»

«والمسافر في هذا البلد موجود في أرض مصرية، وهو يتجول بنفس الحرية والأمان كما يفعل في وادي النيل، بل وكان يتمتع بالسلطة بمقتضى وظيفته (لورمان: تاريخ الفينيقين القديم، ص ٤٨٤ إلى ٤٨٦).

وبالطبع لا يجوز أن تقلل من شأن العلاقات الاقتصادية بين مصر وقينيقيا لتفسير ذلك الإخلاص المتبادل الذي يبدو أنه ساد بين البلدين.

ويفسر لنا ذلك أيضا كون المعتقدات الفينيقية إلى حد ما نسخة من معتقدات مصر. وتفصح بعض مقاطع سانشرنياسيون، التي ترجمها فيلون الجبيلي ونقلها عنه أوزيبوس، تفصح عن نظرية نشأة الكون الفينيقية. ووفقا لما جاء في هذه النصوص كانت هناك أصلا مادة لم تُخلق، وفي حالة فوضى واضطراب مستمر (بهو). وكان النَّفس (روح) يحلق فوق الفوضى. وسميت الوحدة بين هذين الجوهرين شيفتس، الرغبة، التي ترجع إليها أصلا الخليفة بأكملها.

والتماثل بين ذلك الثالوث الكوني والثالوث الذي تجده في مصر كما أفادنا به اميلينو في تهديدات لدراسة الديانة المصرية مُلفت للنظر بشكل صارخ.

فوفقا للنظرية المصرية حول نشأة الكون، كانت هناك أصلا مادة لم تُخلق في حالة فوضى. وكانت تلك المادة الأولية تتضمن على هيئة جواهر كافة الكائنات الممكنة - أي المثلث الأصلية التي جاء بها أفلاطون بعد ذلك. كما كانت تتضمن أيضا الجوهر أو إله الصبرورة خيفرو.

و بمجرد أن نشأ خالق الكون رع من حالة الفوضى الأصلية نوم انتهى دور الأخيرة؛ ومنذ ذلك الوقت تتابع النسب بلا انقطاع حتى أوزيريس وايزيس وحورس، أسلاف المصريين. وهكذا امتد الثالوث الأول من صعيد الكون إلى صعيد البشر، كما تم ذلك فيما بعد مع المسيحية.

ومن خلال الأجيال المتتالية في نظرية نشأة الكون الفينيقية، تم التوصل إلى سلف المصريين ميسور الذي أنجب طوط، مخترع الآداب والعلوم (وهو ليس سوى تحوت عند المصريين). ومن خلال نفس نظرية نشأة الكون نصل إلى أوزيريس وكنعان سلف الفينيقين:

«وقد سجّل كل ذلك في الكتب المقدسة الأقطاب السبعة، أبناء صديق وأخيهم الثامن /يشمون تحت رئاسة طوط. أما الذين التقطوا الإرث ونقلوا التعاليم إلى خلفائهم فهم أوزيريس وكنعان سلف الفينيقين» (الينورمان، المرجع السابق، ص ٥٨٣).

وتكشف مرة أخرى نشأة الكون الفينيقية عن صلة القرابة بين المصريين والفينيقين، وكل منهم كوشى، أى زنجى.

وقد تأكدت صلة القرابة هذه بما أفصحت عنه نصوص رأس شعرا التى تُقرر أن مهد أبطال فينقيا القوميين يقع فى الجنوب على الحدود مع مصر:

«كانت نصوص رأس شعرا فرصة لدراسة أصل الفينيقيين من جديد. فبينما تتضمن لوحات الحياة الجارية وجود عناصر أجنبية مختلفة تشارك فى المبادلات اليومية بالمدينة، تشير اللوحات المكرسة للتحقق من الأساطير إلى ماضٍ مختلف تماما. ومع أن الأمر يتعلق بمدينة تقع فى أقصى شمال فينقيا، إلا أنها تعتبر أقصى جنوب النقب، مسرح الأحداث التى تصفها تلك اللوحات. وهى تُقرر أن الأبطال الوطنيين والأسلاف كانوا مستقرين فيما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. وعلى أى حال فقد أكد ذلك هيرودوت (القرن السادس ق.م.) ومن قبله صقنيا (القرن السابع ق.م.)». (كونتينو، موجز الآثار الشرقية، ص ١٧٩١).

ومن الناحية الجغرافية تتمثل أساسا المنطقة الواقعة بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، فى برزخ السويس، أى بطراء العرب، بلد الآثر، الزنوج الذين أسسوا أون الشمالية (هليوبوليس) فى الأزمنة التاريخية.

وفى منتصف السنوات الألف الثانية تقريبا (١٤٥٠ ق.م.)، ونتيجة لاجتياح القبائل البيضاء الجنس التى دفعت الفينيقيين نحو الساحل واحتلت المناطق الداخلية، أسس أهالى صيدا أولى المستوطنات الفينيقية فى بيوثيا (بوسط اليونان) لتقيم فيها الأعداد الزائدة من السكان؛ وهكذا تم تأسيس طيبة^(*) التى يؤكد من جديد اختيار اسمها على صلة القرابة بين المصريين والفينيقين؛ إذ أنه من المعروف أن طيبة كانت المدينة المقدسة لصعيد مصر، حيث أحضر الفينيقيون منها النساء السوداوات اللاتى أقمن محرابى الوحى الإلهى فى دودون باليونان وآمون فى ليبيا^(**).

(*) وكذلك مدينة ابيدوس فى هلسيونتوس (الاسم القديم لمضيق الدروانييل).

(**) أصل كلمة طيبة ليس هندو - أوروبى، وهى تُطلق حسب الإملاء الإغريقى (طايبا). ومن الملاحظ أنه توجد عالما فى الرقبا السوداء، وبالأخص فى السنغال، عدة مدن تحمل اسم طايبا، وللا هناك أساس للاعتقاد بأن أسماء تلك المدن يرجع الى اسم العاصمة المقدسة القديمة فى صعيد مصر.

وفى نفس الفترة (حسب لينورمان) استقر اللببيون (يافت) فى إفريقيا حول بحيرة تريتونس، كما تكشف عن ذلك دراسة الآثار التاريخية الخاصة بسيتى الأول.

ويجسد كادموس الفينيقى مرحلة صيدا والإسهام الفينيقى فى اليونان. ويقول الإغريق إن كادموس هو الذى أدخل الكتابة، كما نقول نحن اليوم إن ماريان (أى الجمهورية الفرنسية) هى التى أدخلت السكك الحديدية فى إفريقيا الغربية المتحدثة باللغة الفرنسية.

ووفقا للروايات الإغريقية، تأسست المستوطنات المصرية فى اليونان فى نفس تلك الفترة تقريبا؛ فقد استقر كيكروبس فى أتيكه، واستقر داناوس، أخو ايجوبتوس فى أرجوليس، حيث علم الإغريق الزراعة والتعدين (الحديد).

وفى المرحلة الصيداوية هذه، انتقلت عناصر الحضارة المصرية الفينيقية إلى اليونان. وكانت الجالية الفينيقية هى المهيمنة فى أول الأمر، ولكن سرعان ما بدأ نضال الإغريق من أجل التحرر من الفينيقيين الذين كانت لهم السيادة على البحار والهيمنة التقنية فى تلك الفترة السابقة على الأرجونوتيين.

ويتمثل رمز فترة النزاع هذه فى صراع كادموس (الفينيقى) ضد الثعبان ابن مارس (اليونانى) الذى استمر ثلاثة قرون.

«هذا الشقاق الذى نشب بين السكان الأصليين والمستوطنين الكنعانيين الذين حلوا على البلاد يمثله فى الملحمة الأسطورية صراع السبارطيين الذين نشأوا فى الأرض بعد مقدم كادموس. وعليه فإن السبارطيين الذين أبقتهم الأسطورة على قيد الحياة بعد هذه المعركة وأصبحوا زملاء كادموس، هم الممثلون للعائلات العرقية الأساسية التى قبلت السيطرة الأجنبية.

«ولا يستمر كادوس طويلا المالك المستريح لأمبراطوريته إذ سرعان ما تم طرده واضطر إلى الانسحاب لدى الأنشيليين. وهكذا تستعيد العناصر الأصلية مركزها؛ فبعد أن كانت قد قبلت بسلطة الفينيقيين، وتلقت منهم نعم الحضارة، ثارت ضدهم وسعت إلى طردهم...»

«وكل ما يمكن تبيينه من هذا الجزء من تلك الروايات المتعلقة بالكادميين، ما كان يستشعره الإغريق الفقراء المتمسكون بالأخلاق من كراهية نحو هؤلاء بوصفهم أجنب، ونحو عباداتهم التى كانت لاتزال تتميز بهمجية وفحش صارخين، مع أن الكادميين كانوا معلمهم. ولذا يوجد فى التراث الإغريقى رعب خرافى مرتبط بذكرى الملوك من أصل كادمى. وقد زود هؤلاء التراجيديا القديمة بأكبر قدر من مواضعها». (لينورمان، المرجع السابق، ص ٤٧٩-٤٩٨).

فالأمر يتعلق إذن بمرحلة فاصلة كان العالم الهندو-أوروبى يتحرر فيها من العالم الأسود المصرى-الفينيقى.

وهذا النضال الاقتصادي والسياسي الشبيه في كل جوانبه بالنضال الذي تخوضه حاليا البلاد المستعمرة ضد الامبريالية الحديثة، كان مصحوبا، كما هو الحال الآن، برد فعل ثقافي يرجع إلى نفس الأسباب. ويتعين أن تُدخِل في إطار ذلك الاضطهاد الثقافي ثلاثية لورستيا الدرامية وقصيدة الإنييد الملحمية (نسبة إلى أمير طرواده انياس) لفرجيليوس لكي تتفههما. وهذان المؤلفان لا يعبران، كما يعتقد باشرفن ومفكرون آخرون من بعده، عن انتقال العالم من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي، بل يسجلان التقاء وتصادم تصورين مختلفين: أحدهما جذوره العميقة في السهوب الأورو - آسيوية والآخر تمتد أصوله في قلب إفريقيا. وفي البداية كان النظام الأمومي مهيمنا وانتشر في كل شواطئ بحر إيجة عن طريق الاستعمار المصري - الفينيقي لشعوب بيضاء أسيانا، والتي كان ضعفها الثقافي لا يسمح لها بأى رد فعل إيجابي في ذلك العهد. وتلك كانت حالة اللوكيين وبعض شعوب إيجة الأخرى. بيد أن الكتاب القدامى يجمعون على أن هذه الأفكار لم تتغلغل أبدا بحق في عالم أوروبا الشمالية الأبيض، وأن هذه الشعوب رفضت هذه الأفكار بمجرد توفر الفرصة لديها لذلك، من خلال سلسلة من ردود الفعل القومية، باعتبارها أفكارا غريبة على مفاهيمها الثقافية الخاصة. وهذا هو مغزى الإنييد. ومع زوال الامبريالية الاقتصادية لم يُكتب البقاء للامبريالية الثقافية المصرية - الفينيقية أبدا في أشكالها الغريبة تماما بالنسبة للعقلية الشمالية (*).

(*) عرفت بعض التباين الجرمانيّة النظام الأمومي، وكان ذلك شيئا استثنائيا لدى البرابرة. وقد حرص تاسيتوس على التنويه بملك قاتلا:

«غير أن الزيجات في هذا البلد عقلية، ولا توجد سات في عاداتهم تستحق مزيدا من الإطراء. فهم الوحيدون تقريبا من بين البرابرة الذين يكتفون بزوجة واحدة، باستثناء عدد كبير من العضاء الذين يتخلون عدة زوجات، لا بدافع من الخلاعة، ولكن لأن العديد من العائلات يطع في مصاهرتهم. فالرجل، لا المرأة هو الذي يقدم المهر...»

«وابن الأخت عزيز على خاله بقدر ما هو عزيز على والده؛ بل إن البعض يعتقد أن أولى تلك الأوصار تكون أقدسها وأوثقها، وعندما يستقبلون رهائن يفضلون أبناء الأخرات باعتبار أنه توجد بينهم روابط أقوى تهم الأسرة لأكثر من مهر. غير أن الأبناء هم الورثة والحلف. (تاسيتوس، عادات الجرمان، الفصلان ١٨ و ٢٠)

ومن المحتمل إلى حد كبير أن تلك السمة الثقافية الزيجية دخلت عند الجرمان الذين كانوا قد أصبحوا نصف مستقرين في نفس الوقت مع أحتاج عبادة إيزيس، التي نوه تاسيتوس بأصلها الأجنبي الأكيد،

«يقدم قسم من السرايين هم أيضا القرابين لإيزيس. ولا أعرف سبب هذه العبادة الأجنبية أو مصدرها. فهناك فقط صورة لسفينة ترمز إلى ذلك، تلهي بأنها جاءت من وراء البحار» (نفس المرجع السابق، الفصل التاسع)

وقد ولد يوليوس قيصر قبل تاسيتوس بـ ١٥٥ سنة وكتب هو أيضا عن عادات الغال والجرمان ولكنه لم يشر أبدا إلى النظام الأمومي ولا إلى وجود كهنة وغير ذلك من الوقائع الدينية التي نوه بها تاسيتوس،

وعادات الجرمان مختلفة تماما لأنه لا يوجد لديهم كهنة لرأسوا عباداتهم ولا يهتمون إطلاقا بتقديم القرابين. ولا يحسمون آلهة إلا من برونهم ويوفرون لهم نِعْمًا ملموسة: الشمس والنار والتمر، بل إنهم لم يسمعوا عن آلهة أخرى. وهم يقضون طوال حياتهم في القنص، وفي التمارين الحربية، ويحرسون منذ الصغر على تحمل المشاق». (يوليوس قيصر: حرب الغال، الكتاب السادس، الفصل الحادي والعشرين).

ويثبت ذلك أن تلك المؤسسات دخلت أوروبا في وقت متأخر، ربما عن طريق بريطانيا، التي كانت مرثا في الطريق لبلب التصدير. «وتعاليمهم (أي تعاليم الكهنة) التي تم اكتشافها على ما يقال في بريطانيا، انتقلت إلى بلاد الغال، وحتى الآن لا يزال يذهب إلى هناك لدراستها من يريدون التحقق في معرفتها» (المرجع السابق، الكتاب السادس، الفصل الثالث عشر).

وسيطل تاريخ البشرية يشوبه الغموض طالما لم يتم التمييز بين مهدين أولين شكلت فيهما الطبيعة الفرائز والطباع والعادات والمفاهيم المعنوية لكتلتى تلك البشرية قبل أن تلتقيا، بعد عزلة ترجع إلى ما قبل التاريخ.

وهذين المهدين، كما سنرى فى الجزء المخصص لإسهام مصر، يتمثل فى وادى النيل ابتداء من البحيرات العظمى حتى الدلتا، مروراً بالسودان. وقد تولد عن كل من وقرة موارد الحياة، والطابع الزراعى المستقر لتلك الحياة، والظروف التى يتميز بها وادى النيل، تولد لدى الانسان، أى لدى الزنجى، طابعا دمثا، ومثاليا، وكرهما، ومسالما، ومشعبا بروح العدالة، ومرحا. وكانت تلك الفضائل ضرورية فى غالبيتها للتعايش اليومى.

وقد نشأت عن مقتضيات الحياة الزراعية مفاهيم، منها النظام الأومومى والطوطمية والتنظيم الاجتماعى المتقدم والديانة التوحيدية. ولججت عن ذلك مفاهيم أخرى: فالختان نابع من التوحيد؛ وفكرة الإله آمون الذى لم يخلق، وخالق كل ما فى الوجود، هى التى قادت فى الواقع إلى فكرة الخنشوية التى تجمع بين الجنسين فى جسد واحد. فيما أن آمون لم يُخلق، وبما أنه أصل الخليفة، فمعنى ذلك أنه كان الوحيد الموجود فى وقت سابق. ولذا كان يتعين، من وجهة نظر عقلية الأقدمين، أن يتضمن فى ذاته عنصرى الذكورة والأنوثة الضرورين لكل إيجاب. وعليه فإن آمون، الإله الأعظم الزنجى فى السودان (بما فى ذلك النوبة) وبقية إفريقيا بأسرها، هو الإله الصفرى المصرى، الذى ظهر فى الميثولوجيا السودانية كخنشى؛ وقد تولد ختان الذكور والإناث لدى العالم الزنجى عن تلك العقيدة الخنشوية فى حد ذاتها. ومن الممكن أن نواصل تفسير كافة السمات الأساسية المميزة للروح الزنجية وحضارتها انطلاقاً من الظروف المادية فى وادى النيل.

وعلى التقيض من ذلك، أرست ضراوة الطبيعة فى السهوب الأورو - آسيوية، وجذب تلك المناطق، ومجموع الظروف المادية فى ذلك المهدي الجغرافى، أرست لدى الإنسان الفرائز الضرورية للتكيف مع البيئة. ولا تتيح الطبيعة هنا أى أوهام حولها: فهى لا ترحم ولا تسمح بأى إهمال؛ وهنا سيحصل الإنسان على خبزه اليومى بهرق جبينه. وسيتعلم الاعتماد، قبل كل شئ، على إمكاناته الذاتية من خلال ذلك التواجد المديد والشاق. وهو لا يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يؤمن بإله يغدق عليه النعم ويمنحه إمكانات وفيرة فى حياته؛ ولذا فإن الحيز الذى يعيش فيه سيولد بالأخص معبودات شريرة وطاغية، غيبورة وحاقدة: زيوس وياهو.. الخ.

وقد ترتبت على هذا النشاط القاسى الذى أملاه الوسط الطبعى على الانسان، المادية والصفات البشرية التى تم إضافها على المعبود وكذلك العلمانية. وهكذا أوجدت الطبيعة شيئا فشيئا تلك الفرائز لدى البشر الذين عاشوا فى تلك المنطقة ولدى الهندو - أوروبين بشكل خاص. فكل شعوب

هذا المهدي، سواء كانت بيضاء أو صفراء، ستدفعها غريزة الغزو لأنها ستتميل إلى الهرب من تلك البيئة المعادية. فوسط هذه الشعوب يطردها ويتعين عليها الرحيل أو الهلاك، وأن تحاول الاستيلاء على مكان آخر تحت الشمس في ظل طبيعة رؤوفة بها. ولذا لن تتوقف موجة الغزو العاتية منذ أن عرفت هذه الشعوب عن طريق أول اتصال مع العالم الزنجي الجنوبي، أن هناك بلادا تتيح حياة أيسر وثروات أوفر وتقنيات مزدهرة. وهكذا، ومنذ عام ١٤٥٠ قبل الميلاد تتواصل تلك الغزوات من الشرق نحو الغرب، ومن الشمال نحو الجنوب حتى عهد هتلر، مروا بالبرابرة في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد وجنيكيز خان والأتراك.

وظل الإنسان في هذه المناطق يعيش حياة الترحل لأمد طويل. وهو قاسى الطباع^(*).

وقد نشأت عبادة النار عن المناخ البارد، وهي لا تزال حية منذ نار ميترتا وشعلة الجندي المجهول تحت قوس النصر وشعلات الألعاب الأولمبية القديمة والحديثة. وتؤكد حرق الأموات عن حياة الترحال: فهكنا يمكن حمل رماد الأسلاف في جرار صغيرة. وقد استمر ذلك التقليد عند الاغريق، وأدخله الآريون في الهند بعد عام ١٤٥٠، ويفسر لنا ذلك حرق جثمان بوليوس قيصر، وغاندى في عهدنا.

(*) وصف بوليوس قيصر وتاسيتوس عادات الجرمان المرمية والهمجية، عندما كانوا رُحَلا أو شبه رُحَلا، ولم يكتسبوا بعد مفهوم الملكية العقارية.

«إنهم لا يمتثلون على زراعة الأرض ويعيشون أساسا على اللبن واللحم. ولا يملك أي منهم قطعة أرض خاصة أو ذات حدود مرسومة. ولكن القضاة أو الزعماء يحددون في كل سنة لمختلف العشائر والأسر المجتمعة المساحات ومواقعها التي يرون أنها مناسبة، ويجبرونها على الانتقال إلى مرقع آخر. وهم يقدمون عدة مبررات لذلك: فهم يخشون أن تدفعهم قوتهم وإغراء العودة إلى الإقلاق عن التعلق بالأسلحة لصالح الزراعة .. ومن أكبر دواعي اللغز بالنسبة لهذه المدن أن تكون محاطة بحدود خربة ومساحات شاسعة موحشة. وهم يعتقدون أن الشجاعة تتمثل في إجبار الشعوب المجاورة على ترك أراضيها وفي ألا يتجاسر أحد على الإقامة على مقربة منهم؛ وهم يعتقدون في الوقت نفسه أنهم سيكفون بذلك آمتين لعدم خوفهم من التعرض لغزو مفاجئ ... والسرقة خارج حدود المدينة ليست مدهاة للخرى، فهي تساعد، كما يقولون، على تدريب الشباب الواحد من الكسل (بوليوس قيصر، المرجع السابق، الكتاب السادس الفصليين الثاني والعشرين والثالث والعشرين).

«ويتمثل أوج العار في تخلى الفرد عن درعه ... وهو يبلغ الأم أو الزوجة بالجروح التي أصابته، ولا تخشى هذه أو تلك عدو الإصابات وتقدير مدى حجمها، وكل منهما تقدم للمحاربين، وهم في المصعة الغلاء ومعرضهم ... وإذا ستمت المدينة التي نشأوا فيها الفراغ نتيجة لتبعية السلم الطويل فإن رؤساء الشباب يسعون إلى محاربة أي شعب أجنبي؛ ذلك أن هذه الأمة تكره الراحة تماما، وهم في حاجة إلى سيادة القوة والسلاح لإعاشة العديد من الرفاق ... ولن تنسكتوا من إقناعهم بحرق الأرض وانتظار المحصول بقدر ما يمكنكم دفعهم إلى تحدى الأعداء والسعى إلى الإجابة بجروح. وإنه لكسل وجبن في نظره أن يحصل المرء بعرقه على ما يمكنه أن يورقه لنفسه بالدم...»

«وهم يتدفرون أيضا بقراء البهائم، وهو قراء أشد خشونة باتجاه نهر الراين وأكثر تأنقا في الداخل، حيث لا توفر التجارة مطلقا أي زينات أخرى. وهم يختارون هناك البهائم ويحملون جلودها بتلطيخها بالألوان ... وتخلر جنازاتهم من أي أبهة، وكل ما في الأمر أنهم يحرصون على حرق جثمان الشخصية الشهيرة بنوع خاص من الحشب». (تاسيتوس، عادات الجرمان، الفصل السادس والسابع والرابع عشر والسابع عشر والسابع والعشرين).

وكما ترى، كان الرجل عماد هذا النوع من الحياة وكان دور المرأة في الحياة الاقتصادية محدودا للغاية بالمقارنة مع دورها في المجتمعات الزراعية الزوجية. ولذا فإن الأسرة الأبوية المترحلة تشكل جنين التنظيم الاجتماعي الأوسع. وقد نظم مبدأ الأسرة الأبوية حياة الهندو-أوروبيين منذ عهده الإغريق والرومان حتى القوانين النابوليونية وأيامنا هذه. ولذا جاءت مشاركة النساء في المسائل العامة متأخرة في المجتمعات الأوروبية بالنسبة للمجتمعات الزوجية^(*). وإذا كنا نجد عكس ذلك ظاهريا في بعض أنحاء إفريقيا السوداء فهو يرجع إلى تأثير التقاليد الإسلامية.

نحن إذن بصدد نوعين من التصورات الاجتماعية التي اصطدمت ببعضها وتراكبت مما في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وكان السبق للتأثير الزوجي بالنسبة للتأثير الهندو - أوروبي طوال العصر الإيجي. وكانت آنذاك كل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط زوجية أو زوجية التقاطيع: المصريين والفينيقيين، وعندما كانت من جنس أبيض كانت تخضع للنفوذ الاقتصادي والثقافي المصري-الفينيقي وتقع تحت التأثير الديني المباشر لمصر: اليونان في عصر البيوثيين؛ وآسيا الصغرى وطرواده؛ والحيشيين، حلفاء مصر؛ والاتروسك في شمال إيطاليا حلفاء الفينيقيين؛ وبلاد الغال التي تمر بها القوافل الفينيقية. وكان هذا النفوذ الزوجي يمتد حتى وصل إلى الجرمان الذين كانت بعض قبائلهم تعبد إيزيس الزوجية.

«ووفقا لما أورده تاسيتوس، كان قسم من السويثيين، وهم شعب جرمانى، يقدم القرابين لإيزيس؛ وقد تم العثور فعلا على نقوش تربط بين إيزيس ومدينة نوريا المؤلمة؛ ونوريا هي الآن نومركت بمقاطعة ستيريا. وهناك (في فرنسا) أكثر من محراب لإيزيس، وأوزيريس، وسيرايس، وأنويس، في فريجوس، ونيم، وآرل، وريز (مقاطعة جبال الالب السفلى)، وباريزت (بمقاطعة أيزير)، وماندويل (مقاطعة الجار) وپولونيا (مقاطعة جرون العليا)، وليون، وزيانسون، ولاجر، وسواسون. وكانت إيزيس تُعبد في مولان، وسيرايس في يورك وپروجام كاسل، وكذلك في بانوتيا ونوريك». (ديانات الكلتيين والجرمان واصقالبة القلماى، بقلم ي.فنديز، سلسلة «مانا» المجلد الثالث، ص ٢٤٤).

(*) ولم يسمح أسلافنا للنساء بالتصرف في أى مسألة، حتى ولو كانت منزلية، بدون إذن خاص. وقد وصلوا إخضاعهن لخدمة آباتهن وإخوتهن وأزواجهن. وبالنسبة لنا، منسمح لهن عما قريب، إذا شئت الأقدار، بالمشاركة في إدارة الشؤون العامة والتردد على المحافل والاستماع إلى الخطب والتدخل في تصرفات المجالس العامة... ومزاها حضورهن. وهو ما يطالبن به اليوم، أقل من تلك التي محرمهن منها تقاليدنا وقوانيننا، وإن كان ذلك لا يروق لهن... وعليكم بإحصاء كافة الترتيبات التشريعية التي حاول بها أسلافنا تقييد استقلالية النساء وإخضاعهن لأزواجهن، وانظروا كم من مشاق نواجهها، ونم كل تلك العراقيل القانونية، لإلزامهن بأجباتهن. فماذا بعد لو تركتم لهن الجهل على الغارب لفصم تلك الروابط الواحدة تلو الأخرى، والتحرر من كل تبعية والتشبه تماما بأزواجهن، فهل تعتقدون أنه سيكون من الممكن حملهن؟ لن يصحمن متساويات معنا، إذ سرعان ما سيسيطرن علينا». (تبت - لفت: تاريخ روما، الكتاب الرابع والثلاثون، خطاب كاتنن تأهيدا للإلقاء على قانون أوبيا المعارض لتحرير النساء، ١٩٥ ق.م.).

ويعود على الأرجح إلى نفس تلك الفترة أصل «العذراوات السوداء» اللاكهي لاتزال تعبد حتى الآن في فرنسا (نوتردام دي سو- تير، وعذراء شارتر السوداء). وكانت هذه العبادة متأصلة إلى حد اضطرت معه الكنيسة إلى تكريسها (*). بل أن اسم عاصمة فرنسا قد تفسره عبادة ايزيس.

«إن اسم باريسى [PARISI] قد يعنى «معبد ايزيس» لأنه كانت توجد على ضفاف النيل مدينة بهذا الإسم، والمقطع اللفظى الهيروغلىفى پير [PER] يتخذ شكل معبد فى مقاطعة «از» پير هوباك: قرطاجنة، الناشر: بلينان، ١٩٥٢، ص. ١٧٠).

ويشير مؤلف هذا الكتاب إلى أن السكان الأوائل للموقع الراهن لمدينة باريس الذين حاربوا يوليوس قيصر كانوا يدعون الباريسيين، دون أن ندرى اليوم لماذا اطلقت عليهم تلك التسمية. ولكن عبادة ايزيس كانت منتشرة على نطاق واسع، كما نرى، فى فرنسا وخاصة فى الحوض الباريسى، وكانت توجد هناك فى كل مكان معابد لإيزيس، وفقا للمصطلحات الغربية، ولكن من الأسلم أن نقول «دور ايزيس» لأن تلك المعابد كانت تسمى باللغة المصرية پير [PER] وهى تعنى بكل دقة باللغة المصرية القديمة وكذلك باللغة الـوگوف الحالية، السياج الذى يحيط ببيت. واسم باريس يعود على الأرجح إلى الجمع بين الكلمتين پير - ايزيس، وهى الكلمة التى تشير فعلا الى مدن فى مصر، كما أورد ذلك هوباك (نقلا عن ماسبيرو).

وهكلما يكون أصل تسمية عاصمة فرنسا مصدره فى واقع الأمر من لغة الـوگوف الراهنة، ويتبين لنا أيضا مدى انقلاب الوضع!

وهناك سمات ثقافية أخرى مشتركة بين أقصى الغرب وإفريقيا السوداء. فكلمة كبير [KER] تعنى بيت باللغات المصرية والـوگوف والبريتانية، ودانج [DANG] تعنى مقام بالـوگوف والـايرلندية، ودون [DUN] تعنى جزيرة بالـوگوف كما تعنى أيضا مكاناً يحيط به سياج، ومعزول، باللغة الكلتية وبالتالى بالإيرلندية أيضا. ومن هنا جاءت أسماء مدن فرنسية مثل فير-دون، وشاتوه - دون، ولوج -دون- (الاسم الأصلى لمدينة ليون) .. الخ.

وهناك تقارب آخر ملفت للنظر بدرجة أكبر ويستحق التمعن فيه. «فالعلاقة بين المفرد والجمع يتم التعبير عنها بشكل غريب فى عدد كبير من أسماء الوصف البريتانية، كما يوجد شئ مماثل إلى حد ما بلغة الغال. فالمفرد فى هاتين اللغتين يتكون على العكس من الجمع مضافا إليه [ENN]. ومثال ذلك: ستيرد (مجموم) ومفردها ستيرد-إن، ودلوز (سمك التروتة) ومفردها دلوز - إن.

«ويتعين أن تبحث عن هذا المعنى المتميز للمقطع المضاف للدلالة على المفرد، فى مغزاه كاسم

(*) لم يسمع تمصّب الكهيسة فى العصور الوسطى وعدم تسامحها بإرجاع تاريخ تلك العبادة إلى ذلك العصر. أما الافتراض بأن هذه العبادة جاءت على أيدي الصليبيين لفتحها أن الذين ذهبوا لمحاربة «الهرطقة» جلبوا معهم بدعة أخرى.

تصغير». (والتر فون فارتبورج: مشاكل ومناهج علم اللسان، المطابع الجامعية الفرنسية، ١٩٤٦، ص ٧٠).

ويتعين أن ننسب إلى نفس ذلك التأثير تواجد معبودات أنى [ANI] لدى الإيرلنديين والأتروسك.

والتأثير المصرى - الفينيقي على الأتروسك واضح تماما، وكذلك على السابيين الذين يشير كل من اسمهم وعاداتهم إلى الحضارات الزنجبية الجنوبية.

والتمييز بين مهدى الحضارة الذى تحدث عنه منذ قليل يتيح تجنب أى خلط أو غموض بخصوص أصل الشعوب التى التقت معا فى شبه الجزيرة الايطالية.

كان السابيون والأتروسك يدفنون الجثث، وكان الأتروسك يعرفون التابوت المصرى ويستخدمونه، كما أن هذه الشعوب كانت زراعية، وكانت حياتهم تجرى على النظام الأمومى. وقد نقل الأتروسك عناصر الحضارة المصرية إلى شبه الجزيرة الايطالية: الزراعة، والفنون، والديانة، وفن التأليه. وقد استوعب الرومان جوهر تلك الحضارة عندما قضاوا على الأتروسك، وتخلصوا فى الوقت نفسه من العناصر الغربية على مفهومهم الأبرى الأوروبى - الآسيوى. وهكذا تم لفظ النظام الأمومى الزنجبى تماما بعد العهد الانتقالى لأسرة تاركان، آخر الملوك الأتروسك. وليست قصيدة الأنبيد الملحمية لفرجيليوس الرومانى، إلا تعبيراً عن إدراك ذلك الخط الفاصل الذى نجد المقابل له فى ثلاثية اوربستيا الدرامية لأخيلوس فى اليونان.

إنها نهاية عالم قديم وبداية عالم جديد، فقد أزيحت الثقافة الزنجبية من الحوض الشمالى للبحر الأبيض المتوسط بجوانبها الغربية إلى أقصى حد عن المفاهيم الأورو - آسيوية، ولن يكون هناك وجود، لدى الشعوب الفتية، لتلك الثقافة التى أتاحت لها التوصل إلى الحضارة إلا على شكل أساسى ظل واسخا مع ذلك حتى أننا نستطيع أن نحدد حالياً مدى حجمه. وبوسعنا أن نضيف إلى ذلك أن اللبوة الرومانية تعيد بالأحرى إلى الأذهان الطوطمية الزنجبية الجنوبية وأن مصدر اسم السابيين هو على الأرجح سبأ.

وهكذا يكون تاريخ البشرية واضح المعالم تماما، إذا أردنا ذلك. فعلى الرغم من أعمال السلب والنهب والتدمير المتكررة، منذ قعبيز والرومان ومسيحيى القرن السادس الميلادى فى مصر، والقانداال.. الخ، يتوفر لدينا قدر كاف من الوثائق لكتابة تاريخ واضح للبشرية. والقرب الحالى يدرك ذلك تماما، ولكن الشجاعة الفكرية والمعنوية تعوزه فنجد أن الكتب المدرسية يشوبها الغموض المتعمد. ولذا يتعين علينا، نحن الأفارقة، أن نعيد كتابة تاريخ البشرية بأسره من أجل استنارتنا نحن واستنارة الآخرين أيضا.

وبوسعنا أن ننسب الى نفس التأثير الزنجي الواقع للغوى الصوتي الذي أفادنا به فون فارتبورج الذي نوه بطابعه العام.

«إن تحويل ال [d] الى dd (وهو صوت ينثنى فيه طرف اللسان ليلمس سقف الحلق، بل وأحيانا الجزء السفلى من اللسان) في سردينيا وصقلية وابولى وكلاهما، لا يمثل تغييرا أقل شأنًا من حيث المبدأ ولا أهمية أقل قدرًا. فوفقًا لمرو [MERLO]، ترجع هذه الطريقة في النطق إلى الشعب المنتمى إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، والذي تواجد في البلاد قبل أن تصبح رومانية. ومع أنه توجد أصوات من هذا النوع أيضا في لغات أخرى، إلا أن التحول في النطق الذي تم هنا على نطاق واسع للغاية وفي مجال يمتد عبر البحار، له طابع قديم بشكل واضح تماما لدرجة أن مفهوم مرلو يبدو حقيقيا فعلا. وهناك بالطبع اعتراض رولفس [ROHLFS] بأن هذا النوع من الأصوات يوجد في جهات أخرى أيضا ولكنها حالات تؤكد بالأحرى وجهة نظر مرلو. فقد كشف بوت [POTT] وبنفي [BENFEY] منذ مدة طويلة أن ذلك النطق الذي أدخلته اللغات الآرية التي كان يتكلمها غزاة الديكان جاءت عن طريق الشعوب الدراييدية الأصل». (فون فارتبورج، المرجع السابق، ص ٤١).

وهكذا نجد أن إدخال تلك الأصوات في اللغات الآرية بالهند، عندما اجتاحت هذا البلد شعوب شمالية جلفة، يعود إلى تأثير الزواج الدراييديين. وبوسعنا أن نتصور أن ذلك كان شأن حوض البحر الأبيض المتوسط أيضا؛ خاصة وأن اللغة المصرية واللغات الزنجية مشبعة بتلك الأصوات.

ومن جهة أخرى، كان الفلاحون يوارون موتاهم التراب في المكسبك قبل وصول كريستوف كولومبس، بينما كانت تحرق جثث المحاربين. ويمكن تفسير ذلك من خلال التمييز المذكور آنفا، بين المهدين الأولين للبشرية. ويبدو أن شعوبا من الجنس الأبيض جاءت من الشمال وزنوجا جاؤا من أفريقيا عن طريق المحيط الأطلسي قد التقوا في القارة الأمريكية، واندمجوا تدريجيا فنشأ عن ذلك علمي الأرجح الجنس المائل للإصفرار.

بيد أنه يتعين أن أقدم هنا توضيحا. فعندما أقول إن العرب واليهود، أي الفرعيتين العرقيين اللذين نعرفهما الآن تحت تسمية الساميين، هم خليط من الزواج والبيض، فإن ذلك يتفق مع حقيقة تاريخية يمكن إثباتها على الرغم من الكتمان الذي أحاطها طويلا. وعندما أقول إن الصُفر هم خليط من السود والبيض، فليس ذلك إلا افتراضا للعمل به، يستحق الاهتمام به للأسباب التي سقتها آنفا.

والافتراض القائل بأن الإنسان تواجد في كل مكان في آن واحد، افتراض جذاب علميا، ولكنه سيظل غير مقبول طالما لم نعثر على حفريات بشرية في القارة الأمريكية التي لم تكن مغمورة بالمياه في العصر الجليدي الرابع الذي ظهر فيه الانسان، وكانت بها كافة المناطق المناخية ابتداءً من القطب الجنوبي حتى القطب الشمالي.

ويؤكد ككل ما سبق أهمية إجراء دراسة منتظمة للمصادر اللغوية التي انتقلت من اللغات الزنجية (المصرية وغيرها) إلى اللغات الهندو-أوروبية طوال فترة الاتصال هذه. ويمكننا أن نسترشد في ذلك بمبدأين: أولاً، أسبوعية الحضارة وأشكال التنظيم الاجتماعي في البلاد الزنجية، مثل مصر؛ ثانياً تكون الكلمات المعبرة عن فكرة تنظيم اجتماعي أو واقع حضاري، مشتركة بين اللغة المصرية واللغة اللاتينية الإغريقية، دون أن يكون لها أثر في اللغات الأخرى المنتمية إلى الأسرة الهندو-أوروبية.

ومن الأمثلة في هذا الصدد:

ماكا : محارب قديم باللغة المصرية (بيبيره).

ماج : كبير، محارب قديم، مهيب بالوكوف

كاي ماج : الكبير، المهيب بالوكوف

كابا ماجان : الكبير، الملك، ... وهو اللفظ الذي كان يستخدم للإشارة إلى امبراطور غانا من القرن الثالث حتى عام ١٢٤٠. وكانت اللغة المستخدمة السراكونه (أو لغة مقاربة لها). وعلى أي حال فمن الواضح أنها كانت مشابهة للوكوف.

مانبوس : كبير باللغة اللاتينية؛ ولم يرد ذكر لاتينيين في التاريخ إلا ٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

كارل مانبوس : شارلمان، شارل الكبير، أول امبراطور في الغرب تم تنويجه في عام ٨٠٠ م.

ميجا : كبير باليونانية.

ولا نجد المصدر مانبوس في مفردات اللغات الانجلو سكسونية والجرمانية اللهم إلا كاستعارة واضحة من اللاتينية.

ماك : اسم علم اسكتلندي يؤكد ما جاء من قبل.

كوروا : آلة موسيقية في إفريقيا الغربية المتكلمة بالفرنسية؛ كور : أغنية (اليونانية).

رع : إله مصري ترمز اليه الشمس، وهو لقب لفرعون.

روج : إله سماوي عند السيرير، يتمثل صوته في الرعد.

ركس : ملك باللاتينية.

ولانجد في اللغات الانجلو - جرمانية إلا كلمتي كينج وكوننج.

وبوسعنا أن ندرس بنفس الطريقة كلمة هيمن (ومعناها الزواج بالفرنسية) التي تعود بالأحرى إلى النظام الأمومي الزنجي وتعيد إلى الذهن كلمة "من" التي تعني الانتساب إلى الأم بالوكوف، وتعني

أيضا الشدى بالمصرية والوكوف، وتشير إلى أول ملوك مصر واسمه المَحْوَر مينا، وهكذا يتضمن هذا الاسم فكرة نقل السلطة السياسية عن طريق الانتساب للأمم. ولذا فليس من باب المصادفة أن الملك السوداني الذي وضع قواعد أول عبادة للشمس في النوبة يحمل اسم من - ثيور. وهو معاصر لمينا أو سابق عليه.

وكذلك كلمة جليب، وتعنى كتلة من الطين باللاتينية، ويجب التي تعنى الأرض بالمصرية. ومن الممكن دراسة مشتقات كلمة تيران (طاغية)، والعديد من الكلمات الأخرى.

والواقع أنه عندما يقول النازيون إن الفرنسيين من سلالة زنوج، فإن ذلك يقوم على أساس تاريخي حقيقي من حيث أنه يشير إلى اتصال الشعوب ببعضها في عصر ايجد، هذا مع استبعاد ما يقصده النازيون من تحقير من شأن الفرنسيين. ولكن الأمر ليس صحيحا بالنسبة للفرنسيين وحدهم، بل هو أكثر من ذلك بالنسبة للاسبان والايطاليين واليونانيين.. الخ أى جميع تلك الشعوب التي يريدون تبرير لونها الأقل بياضا بالمقارنة مع الأوروبيين الآخرين، بسكناها الجنوب. أما الجانب الباطل في نظريات النازي فهو مسألة التفرق العرقي، بيد أنه من المؤكد منذ العصر الجليدي الرابع أن الجنس الشمالي ذا العيون الزرقاء والشعر الأشقر هو الذي كان الأقل تهجينا. بل إن تلك النظريات النازية تثبت ما قلته من قبل حول سوء نوايا المتخصصين. فهي تبين في الواقع أن التأثير الزنجي على منطقة البحر الأبيض المتوسط ليس سرا بالنسبة لأي عالم. وهم يتظاهرون بأنهم يجهلون ذلك، ولكنهم يستخدمونه عند الحاجة.

ووفقا للينورمان، فإن الفلسطينيين [PHILISTINS] وهم يافثيون من جنس أبيض، اجتاحوا شواطئ بلاد كنعان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد ألحق بهم الهزيمة رمسيس الثالث الذي حطم أسطولهم وحال بذلك دون تمكنهم من العودة عن طريق البحر. وهكذا اضطر فرعون إلى إيواء شعب بأسره -على نحو ما- لحرمانه إياه من إمكانية الخروج. وقد أعطاهم أراضى استقروا فيها. وبعد قرنين من التطورات، دمر الفلسطينيون صيدا في القرن الثاني عشر، في نفس الفترة التي تلت فيها طرواده نجدة من ملك مصر مكونة من ١٠ آلاف أثيوبي، وتم تدميرها على يد الإغريق. وأسس الفينيقيون صور التي أوت لاجئ صيدا وتمت.

وأصبحت اسبانيا مرسى في الطريق إلى موربيهان (فرنسا) وجزر سورلنج (المجلترا، أيرلندا) حيث كان الفينيقيون يتوجهون لجلب القصدير الذي كانوا يستخدمونه لصنع البرونز.

وتم استعمار اسبانيا بسرعة، وبلغ التهجين حدا كبيرا حتى أن الاغريق اعتبروا جنس أهالي شبه الجزيرة الايبيرية (طارسيس) من أصل كنعاني. وإذا كان الأسبان الآن أشد الاوروبيين اسمرارا، فإن هذا التهجين يعود بدرجة أكبر إلى ذلك الاختلاط، لا إلى اتصالهم مؤخرا بالعرب - هذا مع استبعاد

التأثيرات العرقية التي كان من الممكن أن تنتج عن تواجدهم الجنس الأسود الجرمالدى فى جنوب أوروبا فى نهاية العصر الحجري الجديد.

«وبعد قرن واحد من تأسيس قاهس، كان سكان صور يسيطرون كسادة لا منازع لهم، على أغنى وأخصب مناطق باتيكا (الأندلس تقريبا فيما بعد)، وكل وادى البيتيس (الوادى الكبير) وعلى التورديتانيين والتوردول وعلى امتداد بلاد الباستول. وقد نقلوا هناك أعدادا كبيرة من الليبيين - الفينيقيين لكى يتوفر لديهم مستوطنون يتولون شؤون الزراعة. وقد امتزج جنسهم مع الأهالى الأصليين إلى درجة أن سكان مدن تورديتانيا فى أيام سترابون، كانوا فى غالبيتهم من أصل كنعانى، حسب قول هذا الجغرافى الإغريقى. أما الذين كانوا يسكنون الشواطئ المجاورة للمقا وأديبر فكانوا لا يزالون يحملون اسم الباستولوفينيقيين أو الليبى - فينيقيين حتى فى ظل سيطرة الرومان، وتقيدنا الأوسمة بأن اللغة الفينيقيية كانت لا تزال تستخدم فى نفس الفترة فى مدن قاهس وملقا وصفاقس وأديبر». (لينورمان، المرجع السابق، ص ٥٠٩ - ٥١٠).

وعليه، فإن الاستيطان الرومانى تغلب على الاستيطان الفينيقيى، فى ايطاليا أولا، حيث تم تدمير كل ما يمكن أن يهتق على ذكرى الأتروسك (الأثار، اللغة ...) ثم فى اسبانيا وإفريقيا بالقضاء على قرطاجنة.

وكانت قرطاجنة إحدى المستوطنات الفينيقيية الأخيرة التى أسستها الملكة اليسار على الشاطئ الإفریقی فى عام ٨٢٢ ق.م. فى عهد ليكورجوس باليونان.

ومنذ ١٤٥٠ ق.م. كان الليبيون البيض، وهم من شعوب البحار، أو الريبو قد اجتاحتوا شمال إفريقيا، غرب مصر. وقد توفر لهم الوقت للانتشار على امتداد الشاطئ باتجاه الغرب، وذلك قبل تأسيس قرطاجنة كما أفادنا بذلك هيرودوت. وكانت المناطق الداخلية مأهولة إذن بزنج من سكان البلاد الأصليين منذ العهود القديمة وبقبائل ليبية من جنس أبيض ومنها قبيلة الماس. وتم التهجين تدريجيا، على غرار اسبانيا، وكان القرطاجنيون زنجويين، سواء كانوا من أبناء الشعب أو منتحين إلى الطبقة الحاكمة. ومن المعروف أن القائد القرطاجنى هانيبال الذى كاد أن يدمر روما، ولا يزال يعتبر من أعظم القادة العسكريين الذين عرفهم العالم، كان من أشباه الزنج. وبوسعنا أن نقول إن هزيمته أذنت بنهاية تفوق العالم الزنجى أو شبه الزنجى. وانتقلت الشعلة منذ ذلك العهد إلى السكان الأوروبيين فى شمال البحر الأبيض المتوسط. وقد انتشرت بعد ذلك حضاره هذا البحر التقنية من شواطئه نحو داخل القارة، على عكس ما جرى فى إفريقيا. وهكذا بدأت سيطرة شمال البحر الأبيض المتوسط على جنوبه، وظلت أوروبا تسيطر منذ ذلك العهد على إفريقيا حتى أيامنا هذه، فيما عدا الفتح الإسلامى، وذلك لأن التغلغل الأوروبى فى إفريقيا والسيطرة التى اكتملت فى نهاية القرن التاسع عشر، بدأ مع انتصار روما على قرطاجنة.

وعندما ندرس الحضارة التي قامت في حوض البحر الأبيض المتوسط يمتين علينا أن نؤكد الدور الأساسي الذي قام به الزوج وأشبه الزوج في فترة كانت فيها الأجناس الأوروبية لاتزال همجية وتكاد توشك أن تصبح أهلا للتحضُّر.

« غير أنهم (الفينيقيين) كانت لديهم في كل مكان تلك الوكالات التي كان لها تأثير هائل على مختلف البلدان التي أقاموها فيها. وقد أصبحت جميعها نواة لمدن كبيرة، ذلك لأن الأهالي الأصليين الذين كانوا لا يزالون من الهمج، راحوا يتجمعون بسرعة حول الصناعات الفينيقية مجتذبهم المزايا التي وجدوها فيها، وإغرامات الحياة المتحضرة. وكانت جميع هذه الوكالات مراكز نشطة لنشر الصناعة والحياة المادية. والشعب الهمجي لا يزال التجارة النشطة على مدى طويل مع شعب متحضر دون أن يستحير شيئا فشيئا بعض ثقافته، خاصة عندما يتعلق الأمر بأجناس ذكية وأهل للتقدم كما كانت أجناس أوروبا. وقد تولدت لديهم احتياجات جديدة، فهم يتطلعون بنهم إلى المنتجات المصنعة التي يحضرونها لهم، ويكتشفون ذلك الترف الذي لم يكن قد تهادر إلى أذهانهم من قبل. وسرعان ما دفعتهم الرغبة في معرفة أسرار تلك الصناعات والإلمام بالفنون التي تنتجها، والعكوف على استخدام الموارد التي توفرها أراضيهم بأنفسهم، بدلا من مواصلة توريدها لهؤلاء الأجناب الذين يجيدون الاستفادة منها.

« وهذا التأثير المباشر للحضارة على البربرية متأصل تماما في الطبيعة البشرية حتى أنه يحدث بطريقة شبه لا واعية على الرغم من الحساسيات والحقد والعداء بل والحروب التي قد تنشب بين التجار والشعوب التي يتعاملون معها. وقد حدث ذلك بين الفينيقيين والإغريق، مع أن العلاقات لم تكن ودية على الأقل في البداية». (النيورمان، المرجع السابق، ص ٥٤٣).

وتعود تجارة الرقيق الأبيض مع العالم الأسود، والتي لا يمكن أن تقلل من دورها في تغير لون بشرة المصريين إلى أفتح، إلى عهد الهيمنة الفينيقية هذه. والنص التالي لا يترك مجالا للشك حول حقيقة تلك التجارة ومداهها، وكذلك على مدى التباين بين لون المصريين السود والبيض في الشواطئ الشمالية:

« والسفن الفينيقية المحملة بسلع واردة من مصر واشور ترسو في ميناء المدينة الإغريقية، وهي تبسط حمولتها على الشاطئ الرملي طوال خمسة أو ستة أيام لإتاحة الوقت للسكان المقيمين داخل الأراضي للحضور والمشاركة والتبضع. وبدافع من الفضول تتقدم نساء البيليونيز بلا ارتياب حتى يقتربن من السفن، ومن بينهن أيو ابنة الملك ايناخوس. ويهجم القراصنة عند الإشارة المصطلح عليها على الإغريقيات الجميلات ويختطفونهن. وترفع السفينة مرساها بلا إبطاء وتقلع إلى مصر؛ وكان على فرعون أن يدفع ثمنا باهظا لقاء تلك الفتيات ذوات البشرة البيضاء والتقاطيع الصافية للغاية

المنافضة تماما لتقاطيع القطيع البشرى الذى كانت تحضره جيوشه من سوريا». (لينورمان، نفس المرجع، ص ٥٤٣).

وبوسعنا أن نذكر أيضا فى إطار هذه الوقائع اختطاف أومايوس، ابنة ستميسوس، وهو من أعيان سيروس، على يد الفينيقيين واختطاف باريس، ابن بريام لهيلينا، الذى جرى على الأرجح فى ظروف مشابهة، إذا ما تذكرنا أن فرعون مصر أرسل عشرة آلاف أثيوبي لإغاثة طروادة التى كان يتولى الدفاع عنها الملك بريام وابنه باريس.

وكان تهجين الكنعانيين أسرع مما كان بين المصريين نظرا لقلّة عددهم نسبيا ولتواجدهم على طريق هروب هذه الشعوب البيضاء التى انتهى بها الأمر إلى غزوهم من كافة الأنحاء. ويبدو أن الشعب اليهودى، أى أول فرع أبيض سُمى الجنس السامى، ابتداء من اسحاق، لم يكن إلا نتاجا لذلك التهجين كما رأينا ذلك آنفا. ولذا فقد كتب مؤرخ لاتينى يقول إن اليهود من أصل زنجي.

أما الروح الفجة والتجارية التى يتسم بهما سفرا التكوين والخروج فى التوراة، فتعكس الظروف التى واجهها الشعب اليهودى منذ البداية.

كما أن الإنتاج الفكرى لليهود منذ أصوله حتى أيامنا هذه تفسره هو أيضا الظروف الدائمة التى عايشوها؛ فقد شكلوا مجموعات صغيرة من عديمى الجنسية وسط الأمم، منذ تشتتهم، وتعرضوا دائما لقلق مزدوج: ضمان وجودهم المادى وسط بيئة معادية فى الكثير من الأحوال، والخوف من التعرض لعمليات الاضطهاد الدورية. ففى الماضى، كانت الظروف الطبيعية فى السهوب الأوروبية - الآسيوية لا تتيح أى أوهام ولا أى خمول، وإذا كان الانسان لم يقم هناك حضارة رائدة فإن الأمر يرجع إلى البيئة المعادية له تماما. أما الآن فإن الظروف السياسية والاجتماعية هى التى تحرم اليهود من أى دعة فكرية. فاليهود لم يصبح لهم ذكر فى التاريخ إلا مع قدوم النبيين داود وسليمان، أى فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد، فى عهد ملكة سبأ. وكانت قد مضت عدة آلاف من السنوات على الحضارة المصرية، ومن باب أولى الحضارة النوبية السودانية.

وقد استولى نابوخذنسر على البلد فيما بعد ونقل السكان اليهود إلى بابل؛ وتلك هى الفترة المسماة مرحلة الأسر.

وقد تفرق اليهود شيئا فشيئا واختفت الدولة اليهودية بسرعة ولم تعد إلى الظهور من جديد إلا مع الصهيونية الراهنة : بن جوريون.

ولقد أثبتت بكل وضوح التنقيبات الأنتروبولوجية القليلة التى تجاسر البعض على القيام بها أن الفينيقيين لم تكن بينهم وبين النموذج السامى الرسمى أى جوانب مشتركة.

ولما كان الفينيقيون قد تنقلوا فى كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد جرى البحث عن هياكلهم فى مختلف أنحاء ذلك الحوض. وهكذا تم العثور على جماجم من المفترض أنها لفينيقيين، فى غرب ميناء سرقوسة بجزيرة صقلية. ولكن هذه الجماجم مستطيلة وبارزة الفكين، أى أنها ذات سمات زنجوية.

« أما جماجم إيطاليا نيكاسترو، فكل ما نعرفه حول هيتها وتكوينها يتلخص فى السطور التالية : كانت الجماجم التى تم فحصها منخفضة الصدغين ولها شكل المعين تقريبا، ومجموعة الأسنان بارزة للغاية وكاملة ومرتبة بشكل جيد ... والشكل المستطيل ذو الفكين التائنين المميز لجماجم الجنس المدفون (جماجم تم العثور عليها فى غرب سرقوسة)». (اوچين پيتار: الأجناس والتاريخ، سلسلة تطور البشرية، نهضة الكتاب، ١٩٢٤، ص ١٠٨).

وقد نقل إلينا أيضا اوچين پيتار وصفا لبرتولون يتعلق بالقرطاجنيين والباسك، وهم فى اعتقاد برتولون فرع من القرطاجنيين. وهذا الوصف هام من حيث أن صاحبه يقدم فى الواقع نموذجاً زنجياً دون أن يدري:

«لقد صور لنا (برتولون) الأشخاص الذين اعتبرهم السلالة الحالية للقرطاجنيين القدامى، على الوجه التالى: كانت بشرة هؤلاء الأفراد سمراء للغاية، ويرتبط ذلك باعتياد الفينيقيين على صبغ تماثيلهم بلون بنى ضارب إلى الاحمرار لكى يعطى ذلك لون البشرة ... والأنف مستقيم ومقور قليلا أحيانا. وهو لحيم فى الكثير من الأحوال، ومنتفخ فى طرفه فى بعضها. والفم متوسط وعريض إلى حد كبير فى بعض الحالات، والشفاة غليظة فى أغلب الأحوال، والوجنتان بارزتان بدرجة قليلة». (پيتار، المرجع السابق، ص ٤٠٩).

ومن الواضح أننا بصدد وصف للزنجى أو على الأقل للزنجوى، وذلك رغم التوريات. وهناك فقرة أخرى لنفس المؤلف تبين أن الأرستقراطية القرطاجنية كانت كلها ذات انتسابات زنجوية. «وهناك عظام أخرى تم العثور عليها فى قرطاجنة، تعود إلى مرحلة صراعها مع روما ومودعة فى متحف لاثيچيرى، وهى لأفراد تم اكتشافهم داخل توابيت متميزة تخص على ما يبدو النخبة القرطاجنية. وكل الجماجم هنا تقريبا مستطيلة ... والوجه قصير إلى حد ما ...» (ص ٤١١).

والجمجمة المستطيلة والوجه القصير يميزان الزنجى. وهناك فقرة أخرى أهم لنفس المؤلف، وهى تثبت أن الطبقة العليا فى المجتمع القرطاجنى كانت زنجوية أو زنجوية.

«إن الذين زاروا، خلال السنوات الأخيرة، متحف لاثيچيرى فى قرطاجنة، يتذكرون ذلك التابوت الفخم لكاهنة تانيت، الذى اكتشفه ب.ديلاتر. وهذا التابوت المحلى بالزخارف أكثر من أى تابوت

آخر، تم اكتشافه هناك، وهو أجملها من الناحية الفنية، وتمثل صورته الخارجية على الأرجح الكاهنة ذاتها، مما يشير إلى أن التابوت كان يخص بالضرورة شخصية دينية رفيعة المقام. وكانت المرأة المودعة داخلة متميزة بسماتها الزنجوية. لقد كانت إفريقية الجنس، (ص ٤١٠).

والاستنتاج الذى يستخلصه المؤلف من هذا النص هو أن عدة أجناس كانت تتعايش معا فى قرطاجنة. ونحن نوافق على ذلك، كما يتضح من كل ما جاء آنفا. ولكن هناك استنتاج آخر يفرض نفسه بدرجة أكبر لم يستخلصه المؤلف، وهو أن من بين تلك الأجناس المتعايشة معا، كان الجنس الذى يحتل أعلى المراتب الاجتماعية ويحظى باحترام أكبر ويتولى القيادة السياسية، وترجع إليه تلك الحضارة، كان زنجويا، حسب الأدلة المادية التى تم العثور عليها، اللهم إلا إذا نبع التفسير من أفكار مسبقة.

فلو افترضنا أن قبيلة ذرية سقطت فوق باريس وتركت المدافن سليمة، فإن الأنتروبولوجيين الذين سيفتحون المقابر لتحديد نوعية الجنس الفرنسى، سيجدون أيضا أن الفرنسيين لم يكونوا الوحيدين المقيمين فى باريس. ومن جهة أخرى لا يمكن أن نتصور أن الجثمان الموجود فى أفخم مقبرة فريدة من نوعها، مثل مقبرة ناهليون فى الائتاليد، يخص عبدا أو شخصا ما مجهول الهوية!

ولذا فمن الممكن تحديد سمات الجنس الفينيقي بدقة أشد لو أرادوا ذلك، وكذلك كل الأجناس الزنجوية الأخرى الشبيهة بها والتى يعود إليها فضل قيام الحضارة.

بل ومن الممكن تحقيق ذلك انطلاقا من اعتبارات أنتروبولوجية بحتة، على الرغم من أن الخبرة تثبت أنه يمكن الدفاع عن كل الأطروحات المتباعدة فى هذا المجال.

إن الملايين تنفق للتحفر فى أراضى صلصالية فى بلاد ما بين النهرين، على أمل العثور على وثائق تثبت بكل تأكيد وحسم أن مهد الحضارة كان فى غرب آسيا.

ومع أن القائمين بذلك يعتقدون آمالا ضئيلة فى بلوغ مراميهم، إلا أنهم يواصلون العمل كما لو كان الروتين قد توصل إلى منعطف نهائى. وعلى العكس من ذلك فإن موقع المقابر الفينيقيّة معروف بدقة وكل ما هو مطلوب هو فتحها للتعرف على جنس الأجداد الموجودة داخلها. ولكن هناك احتمالات كبيرة بأن تكون زنجوية إلى حد يصبح معه من المستحيل إنكار ذلك؛ ولذا فالأفضل ألا يمسه أحد.

«ولكى نتعرف بدقة على الصفات الأنتروبولوجية للفينيقيين القدامى، يتعين أن توجد تحت أيدينا الهياكل المودعة فى مدافن العصر الفينيقي الكبير، على شواطئ صيدا وصور، حيث ازدهرت قوتها بوصفها مدينتين تجاريتين. غير أن هذه الوثائق لم توضع بعد للأسف تحت تصرف الأنتولوجيين. ولاشك أن الثقب سيرفع عنها يوما ما عندما ستجرى عمليات تنقيب منتظمة تؤدى إلى الحفاظ على الموجودات الأثرية والهياكل فى آن واحد». (بيتار، المرجع السابق، ص ٤٠٧).

وهذه الكلمات ترجع الى عام ١٩٧٤، ولم تتم منذ ذلك التاريخ إلا حفريات قليلة فى المنطقة (رأس شمرا، وقد توقفت فى عام ١٩٣٩). وقد تم اكتشاف العديد من الوثائق بمحض الصدفة. وتبين من أقدم المقابر التى تم العثور عليها فى فينيقا، وهى تعود إلى العصر الحجري الحديث، واكتشفها م.ن.دونان فى جبيل، أنها تخص فوجا بشريا اعتبره الدكتور فالوا جنسا أسمر من منطقة البحر الأبيض المتوسط، حسب ترتيب سيرجى. غير أن هذا الجنس الأسمر ليس إلا جنسا زنجيا. ومن جهة أخرى تعرضت بعض تلك الجماجم لتشويه لجهده حتى الآن لدى الزوج المانجبييتو فى الكونغو.

«لقد استنتج الدكتور فالوا من العظام التى فحصها أنها لأفراد ذوى جماجم مستطيلة وصغيرة تخص الجنس «الأسمر المنتمى للبحر الأبيض المتوسط حسب ترتيب سيرجى». وبعض الجماجم بها تشويه متعدد تم تحقيقه بطريقة اصطناعية، يربط الجمجمة، مما أدى إلى استطالتها من الأمام إلى الخلف، على شكل بيضة، بحيث يتم تحقيق التشويه الذى ظهر فى عصر تل العمارنة فى العديد من الآثار، وبالأخص بالنسبة لشخصيات الأسرة المالكة (د.كونتينو، الحضارة الفينيقية، ١٩٤٩، الناشر بايو، ص١٨٧).

مشكلة الجنس المصرى كما رآها وعالجها الأنتروبولوجيون

قد يتصور المرء أن هذه القضية أنتروبولوجية أساسا، وبالتالي فإن استنتاجات الأنتروبولوجيين ستبدد كل الشكوك بإفادتنا بحقائق ثابتة وقاطعة.

والأمر ليس كذلك؛ فالطابع المتعسف للمعايير المستخدمة، مع استبعاد فكرة استنتاج يمكن قبوله بلا انتقاد، يلجأ إلى العديد من «التعقيدات الباردة» حتى أن المرء يتساءل أحيانا .. ألم تكن المشكلة أقرب إلى الحل، لو لم تعالج بتلك الطريقة؟

ومع أن استنتاجات تلك الدراسات الأنتروبولوجية أقل من الحقيقة، إلا أنها تشهد مع ذلك - وبالإجماع - بأن جنسا زنجيا تواجد منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ حتى عهد الأسرات. ويستحيل أن نذكر هنا كافة تلك الاستنتاجات وهى معروضة باختصار فى الفصل العاشر من كتاب ما قبل التاريخ، وما قبل ظهور الكتابة فى مصر، للدكتور اميل ماسولار (معهد الإثنولوجيا، باريس ١٩٤٩). وسنكتفى هنا بذكر بعض تلك الاستنتاجات.

«وترى الأتسة فاوسيت أن جماجم نقادة تشكل مجموعة متجانسة بما فيه الكفاية حتى أنه يمكننا أن نتكلم عن جنس نقادة. فهو جنس أقرب إلى الجرمان من حيث الارتفاع الكلى للجمجمة، وارتفاع

الأذنين، وارتفاع الوجه وعرضه، وارتفاع الأنف، ومعامل الدماغ ومعامل الوجه وارتفاع المحجر وطول سقف الحلق ومعامل الأنف.

« ... وهكذا فإن أهل نقادة في عصور ما قبل الأسرات يشبهون الزنوج بحكم بعض سماتهم والأجناس البيضاء بحكم سمات أخرى». (نفس المرجع، ص ٤٠٢ و ٤٠٣).

والسمات التي تُقرب جنس نقاده المصري في عصور ما قبل الأسرات من الزنوج سمات أساسية، على عكس تلك التي تقربهم من الجرمان. ومن جهة أخرى فإن «معامل الأنف» عند الأثيوبيين والدراويديين يقربهم من الجرمان مع أنهما من الجنس الأسود.

وعمليات القياس هذه التي تدفعنا إلى التردد إزاء هذين النقيضين المتمثلين في الجنس الزنجي والجنس الأبيض تدلنا على مدى مرونة تلك المعايير المستخدمة. ولنذكر هنا أحد تلك المعايير:

«أراد طومسون ورائدال - ماك ايثر أن يحددا مزيد من الدقة مدى أهمية العامل الزنجوي في سلسلة من الجماجم المكتشفة في مرمدة بنى سلامة وابيدوس (العرابة المدفونة) والهولنج (حمادي). وقد قسموها إلى ثلاث مجموعات: أولا الجماجم الزنجوية (وهي التي يقل فيها معامل الوجه عن ٥٤ ويزيد فيها معامل الأنف على ٥٠، أي أن الوجه منخفض وعريض والأنف عريض)؛ ثانيا الجماجم غير الزنجوية (التي يزيد فيها معامل الوجه على ٥٤٪ ومعامل الأنف على ٥٠، والوجه مرتفع وضيق والأنف ضيق)؛ ثالثا الجماجم الوسيطة (التي تنتمي إلى إحدى المجموعتين الأوليين من حيث معامل الوجه وإلى المجموعة الأخرى من حيث معامل الأنف، أي الجماجم التي تتوسط هاتين المجموعتين). وهكذا تكون نسبة الزنجويين في عصر ما قبل الأسرات القديم ٢٤٪ وسط الرجال و١٩٪ وسط النساء، و٢٥ و ٢٨٪ على التوالي في عصر ما قبل الأسرات الحديث».

«وقد اعترض كيث على صلاحية المعيار الذي اختاره طومسون ورائدال - ماك ايثر للتمييز بين الجماجم الزنجوية وغير الزنجوية. وهو يرى أنه لو استخدم هذا المعيار بالنسبة لسلسلة من جماجم الانجليز الحاليين، لوجدنا أن حوالي ٣٠٪ منهم زنجويون». (المرجع السابق، ص ٤٢٠ و ٤٢١).

وهوسنا أن نهدى ملاحظة عكسية للملاحظة كيث، وبأن نقول إنه لو تم فحص زنوج إفريقيا السوداء اليوم البالغ عددهم ١٤٠ مليون نسمة، وفقا لتلك المعايير، لخرج على أقل تقدير مئة مليون من الزنوج «بيضا بغير سوء» حسب تلك المقاييس!

ولنلاحظ من جهة أخرى أن التمييز بين الزنجويين وغير الزنجويين والوسطيين ليس واضحا؛ فغير الزنجوي ليس من جنس أبيض ومن باب أولى فإن «الوسيط» ليس أبيض.

«وقد واصل فالكنبورجر من جديد الدراسة الأنتروبولوجية للمصريين بفحص حديث لـ ١٧٨٧

جمجمة للذكور تعود إلى بداية عصر ما قبل الأسرات القديم حتى أيامنا هذه ، فميز بين أربع مجموعات رئيسية ...» (المرجع السابق، ص ٤٢١).

ويؤدي توزيع الجماجم المنتمة لعصر ما قبل الأسرات بين تلك المجموعات الأربع إلى النتائج التالية:

«٣٦٪ من الزنجويين، و٣٣٪ من البحر الأبيض المتوسط، و١١٪ من الكرو- مانيونيين، و٢٠٪ من أفراد لا ينتمون إلى إحدى تلك المجموعات الثلاث، ولكنهم أقرب إلى الكرو - مانيونيين أو إلى الزنجويين. ونسبة الزنجويين هنا أعلى بكثير من النسبة التي أشار إليها طومسون ورواندال - ماك ابقر، والتي وجدها كيث مع ذلك مرتفعة للغاية.

«هل تتفق أرقام فالكنبورجر مع الراقع؟ إننا لا نملك تقرير ذلك. فإذا كانت صحيحة، فإن السكان في عصر ما قبل الأسرات كانوا لا يمثلون جنسا نقيا كما قال البيوت - سميث، وكانوا يتكونون من ثلاثة عناصر عرقية على أقل تقدير: زنجويين بنسبة تزيد على الثلث، وأهالي من البحر الأبيض المتوسط بنسبة الثلث وعُشر من الكرومانيونيين وخُمس من أفراد مهجنين إلى حد أو آخر». (نفس المرجع، ص ٤٢٢).

ويعتبر علينا أن نستخلص من كافة تلك الاستنتاجات، أن الالتقاء بينها يثبت رغم كل شيء، أن الشعب المصري كان زنجييا بالأساس في عهد ما قبل الأسرات.

وعليه، لا يتفق ذلك مع الفكرة القائلة بأن العنصر الزنجي لم يتسرب إلى مصر إلا في وقت متأخر. فعلى العكس، تؤكد الوقائع أن هذا العنصر كان مهيمنا من بداية التاريخ المصري القديم حتى نهايته، خاصة إذا لاحظنا أن «الانتساب إلى البحر الأبيض المتوسط» ليس مرادفا للجنس الأبيض. فالأمر يتعلق بالأخرى بجنس أسمر أو منتم إلى البحر الأبيض المتوسط» وفقا لإبيوت - سميث :

«يعتبر البيوت - سميث هؤلاء المصريين فرعا «لما يسميه الجنس الأسمر، وهو ليس إلا جنس البحر الأبيض المتوسط أو الجنس الأوروبي الإفريقي حسب تعريف سيرجي». (نفس المرجع، ص ٤١٨).

وصفة الأسمر التي تتعلق بلون البشرة ليست سوى «تورية» تشير إلى الزنجي.

وهكذا يتبين لنا أن الجنس المصري كان كله زنجييا، مع تغلغل بعض العناصر من الرُحَل البيض في ظل حضارة العمري.

وتكشف دراسة پتري حول الجنس المصري عن إمكانيته تصنيف هائلة قد تشير دهشة القارىء.

«غير أن پتري نشر دراسة عن أجناس مصر في عصرى ما قبل الأسرات والأسرات الأولى، لا يقدم فيها سوى تصورات. وهو يميز، علاوة على الجنس المكتنز الإلتيين، ست أنواع مختلفة: ذو

الأنف المعترف المميز للجنس اللببي ذى البشرة البيضاء؛ والنوع ذو اللحية المجدولة المنتمى على ما يبدو لجنس من الغزاة ربما جاء من شواطئ البحر الأحمر؛ والنوع ذو الأنف المدبب الذى جاء بلاشك من الصحراء العربية؛ والنوع ذو الأنف المستقيم، المنتمى أصلا إلى مصر الوسطى؛ والنوع ذو اللحية المندفعة للأمام المنتمى أصلا إلى الوجه البحرى؛ والنوع ذو الحاجز الأنفى المستقيم المنتمى أصلا إلى الصعيد. ووفقا لتلك التصورات كانت توجد فى مصر فى تلك العصور سبعة أنواع مختلفة من الأجناس. وسنرى فى الصفحات القادمة أن دراسة الهياكل لا تسمح أبدا بالتوصل إلى مثل تلك الاستنتاجات». (نفس المرجع، ص ٣٩١).

ويدل هذا التصنيف على مدى عدم جدية المعايير المستخدمة لتحديد الجنس المصرى، وطابعها الاعتبارى.

وكنت أنوى إجراء تحليل ميكروسكوبى لكثافة مسام جلد الموميوات، لكن عددها المحدود لم يكن يسمح باستخلاص أى استنتاج ذى قيمة على صعيد الجنس المصرى.

وعلى أى حال، يتضح لنا أن الأنتروبولوجيا لم تتوصل إلى تواجد جنس مصرى أبيض، بل إنها تميل إلى عكس ذلك.

غير أن المشكلة أصبحت ملغاة من الكتب الدراسية الحالية. ففى أغلب الأحوال يتم القطع بأن المصريين كانوا بيضا. وهكذا يبدو لجميع غير المتخصصين الشرفاء أن هذا الحسم يعتمد بالضرورة على دراسات مدعومة تمت من قبل بينما لم يحدث ذلك، كما يتبين مما جاء آنفا. وهكذا تم صرف أنظار العديد من الأجيال.

«فى جنوب المثلث الكبير للشمال الغربى، كان يعيش كما هو الحال اليوم، العالم الأسود لأفريقيا الوسطى، المعزول عن البيض بالمساحة الصحراوية الشاسعة. وكان وادى النيل السبيل الوحيد المفتوح نحو الشمال بالنسبة لسود الداخل، وكانوا يسلكونه أحيانا للوصول إلى مصر، ولكن فى جماعات صغيرة. ولما كانوا منعزلين عن الحضارة النيلية بسبب ذلك الحاجز الصحراوى، ويعيشون اعتمادا على أنفسهم، فإنهم لم يتأثروا بتلك الحضارة ولم يقدموا لها بالتالى أى إسهام ذى قيمة. وهكذا فإن هذه الحضارة تكون وقفا على الجنس الأبيض». (بريستد : اكتساب الحضارة، مايو، ١٩٤٥، ص ٥٠).

هذا هو نوع التأكيدات الجارية التى نجدها الآن فى الكتب الدراسية، والطابع المطلق لما قرره بريستد لا يعادله سوى عدم اعتماده على أى أساس؛ ولذا لم يحرص هذا المؤلف على التأكد من ذلك عن طريق الوقائع. فالصحراء التى فصلت دائما العالم الأسود عن العالم الأبيض فى وادى النيل ليست سوى فكرة لا تمت للواقع بصلة.

ويتخبط بريستد فى تناقضاته بالزعم من جهة بأن الصحراء فصلت دائما الزوج عن النيل، وبالاقرار من جهة أخرى بأن وادى هذا النهر كان السبيل الوحيد للوصول إلى الشمال. فمجرد إلقاء نظرة على خريطة إفريقيا يبين أنه يمكن الوصول إلى وادى النيل من أى نقطة فى القارة السوداء دون اجتياز الصحراء.

وتتبع أفكار بريستد من مفهوم خاطئ لإعمار القارة الإفريقية. ففى مقابل تواجد السود فى كافة أنحاء القارة، على شكل مجموعات صغيرة خاملة، فى الوقت الذى نمت فيه الحضارة المصرية، هناك كم وفير من الوراق التى تدفع إلى الاعتقاد بأن الشعب الزنجى عاش أولا فى هذا الوادى قبل أن ينتشر فى كافة الاتجاهات بالقارة، فى موجات متتالية.

وهذا ما أكدته المعطيات الأنتروبولوجية المذكورة آنفا والتى تشهد على أن الزوج تواجدوا فى وادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ.

ومن جهة أخرى فإن الطابع الزنجى للحضارة المصرية، كما هو معترف به اليوم، يستبعد أن تكون «وقفا على الجنس الأبيض».

ويحاول العديد من المؤلفين الالتفاف حول المشكلة بالكلام عن البيض ذوى البشرة الحمراء أو السوداء دون أن يصدم ذلك رجاحة تفكيرهم الديكارتى، نظرا لأن هناك فكرة سائدة، وهى أن قيام أى حضارة إنسانية لا يمكن أن يكون قد تم على يد جنس زنجى.

«إفريقيا هى ليبيا، فى مفهوم الإغريق، وهو تعبير فى غير موضعه أصلا لأن هناك شعوبا أخرى كثيرة فى القارة خلافا لليبين الذين يمثلون قسما من البيض فى الطرف الشمالى، أو إذا أردنا المطل على البحر الأبيض المتوسط، ويتميزون بهذه الصفة عن عدد كبير من أقسام البيض ذوى البشرة السمراء (أو الحمراء) (المصريين) ...» (بدرال: آثار إفريقيا السوداء، مايو، ١٩٥٠، ص ٦).

وفى كتاب مدرسى مخصص لتلاميذ الصف الخامس نجد ما يلى:

«لا يتميز الأسود بلون بشرته (لأن هناك بيضا ذوى بشرة سوداء) بقدر ما يتميز بلامحه: الشفاه الغليظة والأنف الأفطس .. الخ». (الجغرافيا للصف الخامس، مطبوعات بايبر وأولاده، ١٩٥٠).

إنهم لم يتمكنوا من تبيض الجنس المصرى إلا عن طريق مثل هذه التعريفات، وفى ذلك دليل قاطع على أنه جنس زنجى.

وموقف بريستد إزاء مسألة الجنس المصرى هو بشكل خاص موقف المتخصصين فى الآثار المصرية الحاليين الذين تنبهوا للمسألة أكثر من أسلافهم فتجنبوا المشكلة بكل بساطة عن طريق بعض التأكيدات التى يقدمونها لغير المتخصصين على أساس أنها تستند إلى معلومات علمية سابقة، وليس ذلك إلا ضربا من الاحتيال الذهنى.

وينتهى هنا القسم النقدى؛ فقد عرضنا فى الفصول السابقة مختلف أنواع الأطروحات المتعلقة بأصل الجنس المصرى.

وجميع الأطروحات التى تتناول تلك القضية تنتمى إلى أحد تلك الأنواع التى عرضت أنفاً. وأنا لم أتعرض لها، كمادتى، تقلاً عن هذه الحجّة أو تلك فى هذا المجال، ولكن حسب ما أورده أصحابها بأكبر قدر من التفاصيل، مما يتيح إبراز التناقضات التى تتضمنها كلها ويستحيل التغلب عليها. وعليه فإن هذا العرض كامل، والفكرة العامة التى نخرج بها هى فشل كافة تلك المحاولات التى لم تصب هدفها، ولا يجب أن تشكل بالنسبة للقارئ أى عنصر فى توجيه قناعته.

ويبقى لنا الآن الانتقال إلى الجانب البناء بعرض مختلف الوقائع التى تثبت الأصل الزنجى للجنس المصرى.

الفصل الرابع

الحجج المؤيدة للأصل الزنجي للجنس المصرى وللحضارة المصرية

الطوطمية

نوه موريه فى مؤلفه من العشائر إلى الامبراطوريات بالطابع الطوطمى الأساسى للمجتمع المصرى. وقد حوريت أطروحته فيما بعد: وقيل إن هناك تخوفا من العواقب الخطيرة التى ستنتج عن ذلك بالضرورة. والواقع أن فريزر كان حاسما فيما يتعلق بأصل الطوطمية، ففى رأيه أننا لا نصادفها إلا لدى الشعوب الملونة .

وبناء على ذلك، أصبح من المستحيل التمسك بتلك الأطروحة إذا كان المطلوب إثبات أن الحضارة المصرية من أصل أبيض.

وهكذا جرت محاولات لإنكار الطوطمية المصرية مع السعى إلى العثور على آثار لها لدى الشعوب المسماة بيضاء، مثل البربر والطوارق. وبدل الحماس فى البحث عنها لدى هؤلاء على أن النجاح فى ذلك سيعنى تهديد أى شكوك حول الطوطمية المصرية. غير أن المحاولة فشلت، إذ لم يتوصل ثمان جنيب إلى استخلاص طوطمية لدى البربر.

وانتهى الأمر بالمناقشات حول الطوطمية إلى التردى فى التجريد الفلسفى. فقد تحولت المعطيات الإثنوجرافية الملموسة إلى ظاهرة تأملية، وإلى قضية منطقية وفكرة خالصة بحيث لا يمكن أن تعرقل بعد ذلك أى وقائع، أو تطورات من خلال عمليات التضمين.

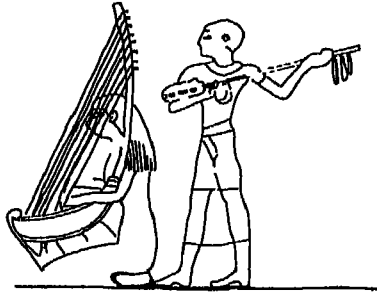
ويستحيل إنكار أن تحريم بعض الحيوانات والنباتات فى مصر (التابو) يتفق مع الطوطمية كما هو الحال فى كافة المناطق - وبالأخص فى إفريقيا السوداء - حيث توجد الطوطمية بشكل لا يتطرق إليه الشك. وعلى العكس كانت هذه المحرمات غريبة على الإغريق وغيرهم من الشعوب الهندو-أوروبية. ولذا كان الإغريق يسخرون من تبجيل المصريين المفرط للحيوانات بل ولنباتات معينة أيضا.

وعلى أساس درجة معينة من التطور الاجتماعى قد تكون أقل من درجة التطور والامتزاج التى بلغها الشعب المصرى، كان الزواج من داخل القبيلة والطوطمية لا يتعارضان، بل يتمايشان معا. وهكذا نجد الآن فى إفريقيا السوداء زوجين يحملان نفس الاسم الطوطمى: نديباى، ديوب، فال .. الخ. ولا يتبادر أبدا إلى الذهن فى الوقت الراهن أن مثل هذه الممارسة كانت محرمة، ومع ذلك فمن الواضح أن الزوجين الذين يحملان نفس الاسم الطوطمى يدركان أن كل منهما مشترك بحياته فى جوهر طوطمه.

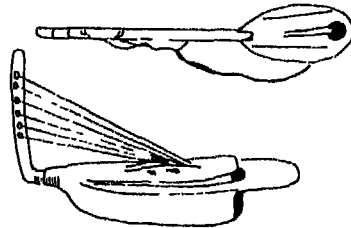
وعليه فإن الزوجين يدركان تماما أنهما يشتركان معا فى نفس الجوهر الحيوانى، ونفس الجوهر الحياتى، كما يدركان أنهما ينتميان أصلا إلى نفس القبيلة حتى أنهما يعلنان ذلك فى الكثير من الأحوال. وعليه فإن فكرة فان جنيب القائلة بأنه تعين ألا يكون المصريون طوطميين لأنهم كثيرا ما كانوا يتزوجون من الأقارب بل ومن شقيقاتهم تجد تكديبا قاطعا لها. فالزواج من الأخوات تابع عن سمة ثقافية أخرى حية فى العالم الزنجى، وهى النظام الأمومى الذى سنتعرض له فى الصفحات ١٦٤ إلى ١٦٨.

فعمدما أصبح الزواج من خارج العشيرة شائعا، انتهى الأمر بقيام قرابة نسبية بين العشائر التى كانت تعقد زيجات فيما بينها (بين عشيرتين، وأيضا بين ثلاث أو أربع .. الخ). وهذه القرابة تفسر اليوم «الكال» فى المجتمع الكورف مثلا، أى القرابة العشائرية المفترضة التى تسمح بتبادل المزاج والتهكم.

وعلى الرغم من الدراسات التى تحاول التوسع فى مفهوم الطوطمية، فإنه بوسعنا أن نقول مع فريزر إنها لا توجد لدى الشعوب من الجنس الأبيض. ولو كان الأمر عكس ذلك لكشفت عنه الجحافل



مصر



أفريقيا

٤٠- آلات موسيقية وثنية.

نقلا عن كتاب سليجمان حول الملكية فى إفريقيا وفى مصر¹ (STUDY IN DIVINE KINGSHIP).

البربرية الأخيرة البيضاء الجنس التي اجتاحت أوروبا في القرن الرابع. وكانت هذه الشعوب في العصر الإثنوجرافي (عشيرة، قبيلة) حيث من المحتم أن تلهم الطوطمية - إن تواجدت - كافة التصرفات ويتضح أثرها في كل مستويات التنظيم الاجتماعي.

على أنه لم يوجد في حياة تلك الجماعات شيء يعكس فكرة القرابة بين الإنسان والحيوان، لا بالمعنى الفردي ولا بالمعنى الجماعي.

وعلى النقيض من ذلك لا يمكن إنكار أن فرعون يشترك في جوهر حيواني (الصقر) بنفس الطريقة الموجودة لدينا اليوم في إفريقيا.

الختان

كان المصريون يمارسون الختان منذ عصور ما قبل التاريخ، وهم الذين نقلوا هذه الممارسة إلى العالم السامي بصفة عامة (اليهود والعرب)، وبالأخص إلى من كان هيرودوت يسميهم السوريين.

ويسوق هيرودوت قرنتين لكي يثبت أن الكوثيين كانوا مصريين:

« ... أولاهما أنهم سود وشعرهم أكرت، وهذا الدليل لا يكفي في حد ذاته لأنهم يشتركون في ذلك مع شعوب أخرى، وثانيهما، وهو الدليل الرئيسي، أن الكوثيين والمصريين هم الوحيدون الذين لجأوا إلى الختان منذ الأزمنة الموعلة في القدم. ويعترف القينيقيون وسوريو فلسطين بأنهم تعلموا الختان من المصريين، ولكن السوريين الذين يعيشون على شواطئ الترمودون وپانينوس، وكذلك جيرانهم الماكرونين، يقرون بأنهم أخذوا ذلك منذ أمد قريب من الكوثيين. وهذه الشعوب هي الوحيدة التي تقارن الختان، ويقال إنهم إنما يحاكون في ذلك المصريين». (٢، ص ١٠٤).

وأنا أزعم أن الزنجي^(*) هو الشخص ذو البشرة السوداء، خاصة عندما يكون شعره أكرت، وأمل أن أكون في ذلك متفقا مع كل ذوى التفكير المنطقي.

وجميع من يقلون هذا التعريف سيترفون، وفقا لما قاله هيرودوت، الذي رأى بعيني رأسه المصريين، كما يرى القارئ الورق المطروح أمامه، بأن الختان من أصل مصري وأثيوبي، وأن هؤلاء ما كانوا إلا زنجيا يقيمون في مناطق مختلفة.

(*) إن احتمال مصادفة أفراد ذوى بشرة سوداء وشعر أكرت ولا تشملهم السمات العرقية الأخرى المرتبطة بالزنج، باطل علميا. وتعريف أمثال هؤلاء بأنهم «بعض ذوى بشرة سوداء» لأن تقاطع وجوههم وقلبة لا يقل سخلا عن تسميتهم «زنجيا ذوى بشرة بيضاء» المطبقة على ثلاثة أرباع الأوروبيين الذين لا يميزون بسمات شمالية. ولذا فإن هذا الموقف ليس سوى زيف علمي حتى ولو ادعى من يبنه أنه يتمسك بالعلم، لأن ذلك يعنى تحريف الاستثناءات الضئيلة للغاية إلى قاعدة عامة.

وبوسعنا أن نستنتج أيضا من كافة التفاصيل الواردة في التوراة حول ختان إبراهيم، اثر زواجه من هاجر الزنجية المصرية، بعد أن بلغ التسعين من عمره، وكذلك موسى ومن بعده اليهود، أن «الساميين» لم يمارسوا الختان إلا بعد اتصالهم بالعالم الأسود، وهو ما يتطابق مع شهادة هيرودوت.

ولا يجد الختان تفسيراً متكاملًا له في إطار مفهوم عام للكون، إلا عند الزوج: وينطبق ذلك بالأخص على مفهوم نشأة الكون عند الدوجون الذي تناوله مارسيل جريبول في كتابه *إله المياه*. فهو يرى أنه لكي يكتسب الختان معناه الكامل فإنه يتعين أن يكون مصحوبا بالبترا، (أى ختان الأنثى)، باعتبار أن العمليتين تهدفان إلى تخليص الرجل من جانبه الأنثوي وتخليص المرأة من علامات الذكورة. وترمى هذه العملية، حسب العقليّة القديمة، إلى تغليب سمات أحد الجنسين عند شخص معين.

ووفقا لمفهوم نشأة الكون عند الدجون (شعب زنجي من افرقيا الغربية، حوالي ٢٠٠ ألف نسمة، يعيشون في مالي، حافظوا بشكل خاص على ثقافتهم وفنونهم وتصورهم للعالم)، فإن الكائن الذي يولد، يكون خنثى إلى حد ما شأنه في ذلك شأن الإله الأول.

«تكون الذكورة والأنوثة بنفس القوة، طالما يحتفظ الكائن بخلفته أو بظفره، وهما دعامتا مبدأ الجنس المضاد للجنس الظاهر. ولذا فمن الخطأ اعتبار الرجل غير المختون امرأة، إنه مثل الفتاة التي لم يبتتر بظفرها، أى أن كلا منهما ذكر وأنثى في آن واحد. ولو استمر عدم الحسم هذا إزاء الجنس وظل على حالة، لما مال الكائن أبدا إلى الإيجاب». (*إله المياه*، ص ١٨٧).

«هناك إذن أسباب مختلفة تفسر الختان والبترا: ضرورة تخليص الوليد من قوة شريرة، وضرورة أن يقدم ضريبة الدم وحسم مسألة جنسة نهائيا». (نفس المرجع ص ١٨٩).

ولكى تكون حجة الختان مقبولة، يتعين أن تتواجد الخنثوية الإلهية في المجتمع المصري، لأنها السبب التقليدي لتلك الممارسة في المجتمع الإفريقي. وفي هذه الحالة وحدها يحق لنا أن نتيين الأسباب الطقوسية للختان لدى المصريين وبقية إفريقيا السوداء.

وقد اطلعنا شامبوليون في خطابه الموجهة إلى أخيه شامبوليون - فيبجك، أثناء مروره بالنوبة في عام ١٨٣٣، على الخنثوية الإلهية لآمون، الرب الأكبر للسودان المروى ومصر، فقال:

«آمون هو نقطة انطلاق وتوحيد كافة الجواهر الإلهية. وما أن أباه.. آمون - رع، الكائن الأعظم والأول، الذي وصف بأنه زوج والدته (موت)، فإن القسط الأنثوي الموجود في جوهره اللاتى ذكوري وأنثوي في آن واحد».

وكان النيل يصور هو أيضا في هيئته شخصية خنثوية. وآمون هو أيضا إله كل إفريقيا السوداء.

ويجدد بنا أن نذكر هنا أن آمون مرتبط بفكرة الرطوبة والماء في كل من السودان المروي وإفريقيا السوداء ومصر. ولذا فهو يظهر في شكل إله كبش يحمل بين قرنيه قرعة (اسطوانة آمون)، كما جاء في كتاب مارسيل جريبول ذي العنوان الذي له مغزاه إله المياه، والذي تعرض فيه أيضا للإله دوجون أما. ففي مفهوم نشأة الكون عند الدوجون (السودان الفرنسي) يهبط آمون من السماء إلى الأرض عن طريق قوس قزح، المبشر بالأمطار والرطوبة.

وإذا كان بعض السود قد أقلعوا عن الختان لأنهم نسوا تقاليدهم أو لأسباب أخرى، وإذا كان هناك اتجاه متزايد في إفريقيا السوداء نحو التخلي عن البتر (ختان البنات)، وإذا كان الختان المصري يختلف من الناحية التقنية عن الختان السامي، فإن كل ذلك لا يغير شيئا من أصل القضية.

غير أنه لكي يكون تحقيق الهوية كاملا، ولكي تكون الحججة الكامنة وراء الختان مقنعة، فإنه يتعين أن يكون ختان الأنثى قد تواجد هو أيضا في مصر. ويفيدنا سترابون بأن الأمر كان فعلا على هذا النحو، إذ يقول:

« يتمسك المصريون بالأخص بالعناية بتربية أولادهم وختان الصبيان بل والبنات أيضا، وهو تقليد يشاركون فيه اليهود، وهم شعب ينتمي أصلا إلى مصر، كما قلنا ذلك من قبل في المكان الذي تناولنا فيه ذلك » (الجغرافيا، الكتاب السابع عشر، الفصل الأول، الفقرة ٢٩).

الملكية

ومن السمات الأساسية الهارزة أيضا، مفهوم الملكية المشترك بصفة عامة بين مصر وبقية إفريقيا السوداء.

ولنترك جانبا المبادئ العامة مثل الطابع شبه المقدس للملكية، ولنبرز سمة أخرى مشتركة تتميز بطابعها الفريد، ألا وهي القتل الطقوسي للملك.

كان يتعين ألا يحكم الملك في مصر إلا إذا كان في أوج قوته. ويبدو أنه كان يُقتل فعلا في بداية الأمر عندما كانت قوته تضمحل. غير أن الملكية سرعان ما لجأت إلى مختلف الحيل. كان الملك يتمسك بامتيازات منصبه - وهذا أمر مفهوم - مع الخضوع بأقل قدر لمغباته. ولذا فقد توصل إلى جعل هذا الاختيار رمزا؛ فلم يعودوا يقتلونه إلا طقوسيا، عندما يتقدم في السن، وذلك في الحفل الذي يستعيد فيه الملك شباها في نظر الشعب وأصبح صالحا للاضطلاع بمهامه.

وهكذا غدا «حفل السد» احتفالا لتجديد شباب الملك، وأصبح موت الملك الطقوسي وتجديد شباها مترادفين، وكانا يتمان في مناسبة واحدة. (انظر دراسة في الملكية الإلهية، سليجمان).

وكان يتعين أن يكون الملك الرجل المتمتع بأوج عنفوانه، نظرا لكونه الكائن المقدس الأعلى. وعندما كان مستوى قوته ينخفض عن حد أدنى معين، كان يحدث انكسار على صعيد قواه ككائن؛ ولو ظل في منصبه لأصبح ذلك خطرا محققا بالشعب.

وهذا المفهوم الحيوى أساس لكل الملكيات الإفريقية التقليدية، وأقصد بذلك كافة الملكيات غير المفتتحة.

ويتجلى ذلك أحيانا بشكل مختلف عما كان في مصر. ففي السنغال مثلا، ما كان الملك يستطيع أن يتولى الحكم إذا ما أصيب بجروح أثناء معركة، وكان يتعين عليه أن يعين من يحل محله حتى شفائه. وخلال مثل هذا الحلول محل الملك، استولى أخو تينى بوال - وهو أخ من ناحية الأب وأمه من عامة الشعب - استولى على السلطة عن طريق حركة انقلابية، باسم لات - سوكابيه، وأسس أسرة الجليديج في عهد اندريه پرو (١٦٩٧).

وهذا التقليد، المتمثل في إقصاء الملك عندما تضمحل قواه الحيوية بشكل ملحوظ، ينبع من نفس المعتقدات الحيوية المنتشرة في كل العالم الأسود.

وفقا لتلك المعتقدات، فإن خصوبة الأرض، ووفرة المحاصيل، وصحة الشعب والقطعان، وسير الأحداث بشكل طبيعي، وكافة مظاهر الحياة، مرتبطة ارتباطا حميما بقوة الملك الحيوية الكامنة.

وفي مناطق أخرى من إفريقيا تجرى الأمور تماما على غرار ما كانت في مصر، وذلك فيما يتعلق بقتل الملك فعلا. هل إنه يحدد عند بعض الشعوب، بعدد السنوات التي من المفترض أن يصبح الملك بعدها عاجزا، من حيث حيويته، على مواصلة تولى الحكم، ويتم قتله فعلا. وتبلغ تلك المدة عشر سنوات لدى الميوم [MBOUM] في إفريقيا الوسطى، ويتم ذلك الحفل قبل موعد حصاد الدخن.

ولا تزال الشعوب التالية تمارس موت الملك الطقوس في إفريقيا السوداء: اليوروبا، والداجومباس، والتشامباس، والدنچوكون، والابنجانا، والصونغاي، واليوادي، وهوسا الجويرير وكاتسينا، ودوارا، والشلوك (انظر بومان، ص ٣٢٨).

وكان ذلك التقليد متبعا أيضا في مَرَوَى القديمة، أى في النوبة واوغاندا - رواندا.

مفهوم نشأة الكون

تتقارب مفاهيم نشأة الكون الزنجية والإفريقية والمصرية حتى أنها تكمل بعضها في حالات كثيرة. ومن الأمور الملفتة للنظر أنه يتعين الرجوع إلى العالم الأسود لتفهم بعض المفاهيم المصرية، كما يؤكد ذلك ما جاء آنفا بخصوص الحتان وكذلك بخصوص الملكية. ويكفى الرجوع فيما يتعلق بالحالة

الأخيرة إلى فلسفة البانتو التي درسها الأب تيملز، إذ يوجد في هذه الدراسة مفهوم متكامل للحياة الزنجية، التي تشكل وفقا للأب تيملز أساس التصرفات اليومية للبانتو.

وقد نوه مختلف المؤلفين، المعتمدين حجة، بما فيه الكفاية بصلة القرابة بين العادات، والتقاليد، والأعراف، ونظم التفكير، حتى أنه لم يعد من الضروري الخوض هنا في التفاصيل. وربما لا تكفى حياة بأسرها لحصر كافة سمات القرابة القائمة بين مصر والعالم الأسود، نظرا لأن الأمر يتعلق بنفس الشيء.

ولكنكف هنا بالاستشهاد بهول ماسون - اورسل، الذي أكد على الطابع الزنجي للفلسفة المصرية، فقال:

«لقد تكيفت الحركة الفكرية النابعة من سقراط وأرسطو وأبقليدس وأرشيميدس مع العقلية الزنجية، حتى أن المتخصص في علم المصريات يلاحظ ذلك كخلفية لتفتنات الحضارة التي تبهو.

» .. ولما كنا مدفوعين إلى التفكير فيما يجب أن يكون تحصيل حاصل، حول المظهر الإفريقي للعقلية المصرية، فإننا نفسر ذلك بأكثر من سمة من سمات ثقافتها « (الفلسفة الشرقية، ص ٤٢).

ويشكل هذا التماثل بين الثقافة المصرية والثقافة الزنجية، أو بقدر أكبر من العمق، ذلك التماثل في البناء الذهني الذي لاحظته ماسون - أورسل، والذي يجعل من الفلسفة المصرية مجرد انعكاس للعقلية الزنجية، يشكل السمة الأساسية، خاصة عندما يضيف ماسون - أورسل أن هذه الملاحظة يجب أن تكون مسألة دراجة بسلم بها الجميع. والواقع أنها تتجلى بكل وضوح لكل من كانت نيته سليمة.

و الثقافة المصرية والثقافة الزنجية واضح بكل تأكيد وبشكل قاطع. وهذا التماثل الأساسي في الفكر والثقافة والجنس هو الذي يسمح لكل الزنوج بأن يربطوا اليوم ثقافتهم بمصر القديمة وبأن يقيموا ثقافة حديثة على هذا الأساس. إنه اتصال ديناميكي وحديث مع التاريخ المصري القديم، يتيح الإمكانيات للزنجي لاكتشاف، بقدر متزايد كل يوم، القرابة الحميمة بين كافة السود في القارة وبين وادي النيل الأم. وسيتوصل الزنجي عن طريق ذلك الاتصال الديناميكي إلى الاقتناع تماما بأن هذه المعابد، والأعمدة الرائعة، والأهرامات، والتماثيل، والنقوش على الجدران، والرياضيات، وذلك الطب، وكل تلك العلوم، من صنع أسلافه وأن من حقه ومن واجبه أن يتعرف على نفسه تماما من خلال كل تلك الإبداعات.

«ومن الآن، وفي إطار تلك البحوث الثمينة للغاية لاكتشاف الفكر، نبدأ في تبين أن جزءا كبيرا من القارة السوداء ليس خشنا و«همجيا» إلى هذا الحد، كما كان ذلك مفترضا، وأنه يعكس في

اتجاهات عديدة عبر الانعزال الهائل للصحارى والغابات، يعكس التأثيرات الآتية من النيل، عن طريق ليبيا والثوبة واثيوبيا». (ماسون - اووسل: فلسفة الشرق، ملزمة ملحقة بتاريخ الفلسفة بقلم أميل بريهييه، ص ٤٣).

وفيما يتعلق بتشابه الثامون والتاسوع عند الدوجون (ثمانية أو تسعة آلهة) مع الثامون والتاسوع فى مصر، يتعين أن ننقل هنا تقريبا صفحات كاملة من إله المياه لمارسيل جريبول. فى كلتا الحالتين هناك أربعة أزواج تولدت عن الإله الأصلي، وهى التى أوجدت الخليقة والحضارة، ولذا كان العدد ٨ أساس نظام الترتيم عند الدجون، وهكذا كان العدد ٨٠ يعادل عندهم العدد ١٠٠ والعدد ٨٠٠ يعادل السدد ١٠٠٠.

ومن هنا ندرك أن عبادة الأسلاف كانت فى كل من إفريقيا السوداء ومصر أساس مفهوم نشأة الكون. فبينما يتصاعد الأسلاف القدامى للغاية كالبخار لينتقلوا إلى المناطق الإلهية، فإن الأسلاف القرييين، الذين توفوا منذ أمد قريب، ليسوا سوى أنصاف آلهة للأسرة، لأن معالم ذكراهم لم تطمس بعد بحيث لا يعودون أسلاف هذه الأسرة أو تلك، ولكن أسلاف كل الشعب.

وعندما ندخل فى المرحلة التاريخية، حيث لا يسمح الحرص على تسجيل الأحداث أن تتناثر وتصبح غامضة، تغدو عملية التأليه محصورة إلى حد ما، وتستمر عبادة الأسلاف، إلا أنهم يصبحون شخصيات تاريخية بقدر أو آخر.

وبوسعنا أن نؤكد بالأخص على تشابه الإله - الشعبان عند الدجون والإله - الشعبان فى مجمع الأرباب عند المصريين. فكلامهما يرقص فى الظلمات. وقد كتب اميلينو بقول فعلا إن الإله - الشعبان يسمى «الذى يرقص فى الظلمات». وقد جاء ذلك فى إشارة إلى الشعبان فى عبارة منقوشة على تاهوت بمتحف مارسيليا، إلى جانب تصوير لمقبرة أوزيريس. (تمهيدات لدراسة الديانة المصرية، ص ٤١).

وفى مجمع الأرباب عند الدوجون، تحول السلف السابع إلى شعبان، وقد قتله القوم وتم دفن رأسه تحت وسادة الحداد. ويشرب السلف - الشعبان من هذا اللحد ليؤدى رقصة فى جوف الأرض، أى فى الظلمات، لكى يتجه نحو مقبرة أقدم المسنين ليلتئمهم:

«وعلى إيقاع منفاخ الحداد المزدوج الذى يوزج النار، وإيقاع الكتلة التى تفرغ السندان، تتمص النومو السابع شكل جنى ذى جذع بشرى يتخذ فى طرفه مظهر الزواحف. ثم ينتصب على ذيله، بحركات منتظمة لذراعيه الممدوتين أمامه، ومع اهتزازات إيقاعية للجسد، راح يؤدى الرقصة الأولى التى تفضى به تحت الارض إلى مقبرة الشيخ المسن.

«وعلى إيقاع ضربات الكور، تقدم السابع شمال الجسد، من ناحية الجمجمة، وابتلعه». (مارسيل جريبول، إله المياه، ص ١٦٢).

هل إنه بوسعنا أن نتوسع في تلك السمات الأخيرة التي تعود إلى الأكل الطقوسي للحم البشر، الذي تواجد أصلا هر أيضا في مصر. وهكذا يكون ذلك الصنيع تابعا من المهادئ الحيوية التي يعتمد عليها المجتمع الأسود، هذا إذا استبعدنا الضرورات الاقتصادية. فاستيعاب جوهر الآخر يعنى استيعاب قوته الحيوية، مما يزيد بذلك من الحصانة إزاء قوى الكون المدمرة.

كما أنه يمكننا أن نعتقد نفس المقارنة بين الإله - ابن آوى الزانى محرم فى محفل الأرباب عند الدوجون، والإله ابن آوى فى محفل الأرباب المصرى، حامى الحوض حيث كان يتعين على المتوفين أن يتطهروا. غير أن الاتجاه يميل الآن إلى تشبيه الإله - ابن آوى بالإله - الكلب.

وأخيرا فإن الموقع الذى تحتله صور البروج الفلكية فى مفهوم نشأة الكون عند الدوجون يستحق منا الاهتمام عندما نعرف أن الدوجون كانوا يعرفون نجم الشعرى اليمانية. فلا بد حينئذ أن يتبادر إلى الأذهان التقويم المصرى القائم على الشروق الاحتراقى لهذا النجم قبيل شروق الشمس.

التنظيم الاجتماعى

يتطابق تماما التنظيم الاجتماعى للحياة الإفريقية مع ذلك التنظيم فى مصر.

فى مصر، كان يوجد التقسيم الفئوى التالى :

- الفلاحون،

- العمال المتخصصون،

- الكهنة والمحاربون والمرظفون،

- الملك.

وفى بقتية أنحاء افريقيا هناك :

- الفلاحون،

- المهنيون أو العمال المتخصصون المنظمون فى طوائف،

- المحاربون والكهنة أو الدومى سرهنا بلغة الكوف،

- الملك.

النظام الأمومي

يعتمد التنظيم الاجتماعي في مصر على النظام الأمومي، شأنه في ذلك شأن بقية أفريقيا السوداء. وعلى النقيض من ذلك لم يتمكن أحد أبدا من إثبات وجود نظام أمومي في العصر الحجري القديم في حوض البحر الأبيض، انفرد به جنس أبيض. وكفيينا، لكي نقتنع بذلك، أن نذكر حجج مؤلف خصص ٤٣٧ صفحة لكي يحاول، بلا جدوى، «تبييض» أفريقيا السوداء:

«يتم توارث العرش في كانو وفقا للنظام الأمومي، الموروث عن العصر الحجري القديم في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى عهد هيمنة البول [PEULHI]. ويقال إن ملكة دوارا كانت لديها بقرة ركوب، مما يذكرنا بأعراف الجارامانت القدامى؛ وهكذا نصطدم مرة أخرى بأفريقيا البيضاء القديمة، ذات النظام الأمومي الذي تنسب إليه بشكل وثيق شعوب كردفان والنوبة، بما في ذلك التيدا والطوارق وأيضا ملوك السودان الغربي» (هومان، ص ٣١٣).

وسنلاحظ أن هذه التأكيدات التي لا يضاهاى خطورتها سوى افتقادها للصواب، لا تتبع إلا من واقعة يتعين علينا أن نقدر إلى أي حد كانت واهية: ذلك أن ملكة دوارا كانت تمتلك بقرة مخصصة للركوب ...

وسنلاحظ، بالمناسبة، أن هومان «تبييض» حتى ملوك السودان الغربي وفقا للطريقة النازبة الموهودة، ألا وهي تفسير كل حضارة إفريقية من خلال نشاط جنس أبيض أو إحدى سلالاته، حتى ولو اقتضى الأمر إصدار قرار بأنه يوجد بيض «سود» وبيض «لونهم أحمر داكن» .. الخ، على أن يتم تجميعهم تحت اسم الحاميين لحل المشكلة.

ولو لم يكن النظام الأمومي الموروث من العصر الحجري القديم في حوض البحر الأبيض المتوسط مجرد نظرية لا تمت للواقع بصلة، لظل قائما في مختلف العهود: الفارسية والإغريقية والرومانية والمسيحية، كما استمر حتى أيامنا هذه في إفريقيا السوداء. غير أننا نعلم أن ذلك لم يحدث.

وقد حدد كورش خلافته مقدما بأن عين ابنه البكر تميز الذي قتل شقيقه ليتجنب أي منافسة. وفي اليونان كانت الخلافة عن طريق الانتساب الأبوي في أحسن الحالات، وكذلك في روما.

والواقع أن النظام الملكي لم يتواجد أبدا في اليونان. ففيما عدا عهد الإسكندر، لم تتوحد البلاد أبدا. وملوك العصر البطولي الذين تحدث عنهم هوميروس ليسوا سوى ملوك مدن ورؤساء قرى، مثل أوليس ... بل إن الخلافات بين تلك القرى كانت تتخذ أحيانا منحنى طفوليا، بإلقاء الحجارة على سكان القرية المجاورة الذين يعبرون قريتهم. وفي أحسن العهود، حكم المدن الإغريقية، مثل أثينا، تجار مغامرون وطموحون، تهرأوا السلطة من طريق تدهير المكائد، والإسكندر الذي وعد البلاد لأول

مرة تحت هيمنتها السياسية كان أجنبيا من مقدونيا. ويمكننا أن نلاحظ أنه لم يحدث أبدا في التاريخ الإغريقي والروماني ... والفارسي أن تقلدت السلطة ملكة، علما بأن الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) يجب أن ننظر إليها على حدة كحالة معقدة. وعلى النقيض من ذلك كثيرا ما كانت هناك ملكات في إفريقيا السوداء، في تلك العهود القديمة، وعندما اكتسب العالم الهنود - أوروبي قدرًا كافيًا من القوة العسكرية للانطلاق في غزو بلاد قديمة عرّكته بالحضارة، فقبل بمقاومة عنيدة، لا تمهر، على يد ملكة كانت إرادة الكفاح التي تحلّت بها رمزا للكبرياء القومي لشعب كان قد أخضع الآخرين حتى ذلك الوقت لقوانينه: إنها كانديس، ملكة السودان المروي^(*) التي أثارَت إعجاب العهود القديمة بالمقاومة التي واجهت بها على رأس قواتها، جيوش قيصر - اغسطس، الرومانية. وقد فقدت عينا في المعركة، فزاد ذلك من شجاعتها؛ وتضاعف الإعجاب بها من فرط ازدائها للموت وبسالتها، حتى من جانب وطني متطرف مثل سترابون الذي قال عنها «لقد فاقت شجاعة هذه المرأة جنسها». وفي بداية الحضارة الغربية، اعتاد ملوك الفرنجة شيئا فشيئا أن يحددوا من خلفهم مقدما، مستبعدين تماما مفهوم النظام الأمومي. وهكذا تنتقل الحقوق السياسية في الغرب عن طريق الأب، ولا يعني ذلك أن البنات ليست أهلا للحصول عليها.

وعلى النقيض من ذلك لا يزال النظام الأمومي الزنجي حيا في أيامنا هذه كما كان في العهود القديمة. وفي المناطق التي لم يتعرض فيها هذا النظام لتأثير خارجي، لا تزال الحقوق السياسية تنتقل بالكامل عن طريق المرأة.

ويعود ذلك إلى فكرة أعم تعتبر أن التوارث لا يكون فعالا إلا إذا كان أصلا عن طريق الأم. وهناك سمة أخرى مميزة للنظام الأمومي الإفريقي، أخطئ فهمها حتى الآن، ألا وهي المهر الذي يقدمه الرجل للمرأة بينما تعارفت البلد ان الغربية على التقليد المناقض لذلك. وهذا العرف الذي لم تتفهمه أوروبا، يدفع إلى الاعتقاد بأن الرجل يشتري المرأة في إفريقيا السوداء، تماما كما قد يقول أحد الأثارة اليوم إن المرأة تشتري الرجل في أوروبا.

ففي إفريقيا، تحصل المرأة على ضمان في شكل مهر في ذلك التعاقد المتمثل في الزواج، وذلك نظرا لمركزها المتميز بفضل النظام الأمومي. وما يثبت أنها لم تشتري (وتبيع) أن هذا المهر لا يقدمها إلى الأهد بيت الزوجية إذا تبين أن الزوج مخطئ حقا. ففي هذه الحالة يمكن فسخ الزواج لغير صالحه في غضون ساعات قليلة. وعلى عكس ما يتردد، فإن الأعمال الأقل مشقة هي التي تختص بها النساء.

(*) يبدو أن اسم مروي ليس من مصدر إفريقي. ومن المرجح أن الأجنبي استخدموه ابتداء من عهد قهبيز للإشارة إلى عاصمة إثيوبيا (السردان). ويقول سترابون، نقلا عن ديودور الصقلي إن زوجة قهبيز أو أخته ماتت في إثيوبيا وولدت هناك عندما حاول هذا الغازي، بلا جدوى، أن يخضع البلاد بقرعة السلاح؛ وكان اسم هذه المرأة: مروي.



٤١- ملكة سوداء من السودان القديم

وهي من سلالة كانداس التي كثيرا ما استهارت الملكات السودانيات اسمها، تبينا بمقاومتها الباسلة التي جعلتها في مصاف بجان دارك في قوتسا (صورة نقلها لسيوس ونشرها لينورمان في كتابه تاريخ مصر).

ما هو أصل ذلك النظام الأمومي الزنجي؟

لا نعرف حاليا ذلك الأصل بشكل أكيد، ولكن هناك رأى شائع يرى أن النظام الأمومي مرتبط بالزراعة. فإذا كانت النساء قد اكتشفت الزراعة، كما هو معتقد أحيانا، وإذا كان صحيحا أنهن كنّ أول من فكر في انتقاء الأعشاب المغذية نظرا لأنهن كنّ يلازمين «البيت» بينما يتفرغ الزوج للأعمال التي تتضمن مخاطرة أكبر (القنص، الحرب .. الخ)، فإن ذلك يفسر في الوقت نفسه سمة أخرى مهمة، في الحياة الإفريقية لم يُنتبه اليها تقريبا، ألا وهي أن المرأة سيدة البيت بالمعنى الاقتصادي للكلمة. فكافة المأكولات توجد تحت تصرفها هي، ولا يستطيع أحد أن يسها، بما في ذلك الزوج، دون موافقتها. وكثيرا ما تكون في متناول يد الزوج الأغذية التي أعدتها زوجته، ولكنه لا يجرؤ على لمسها بدون إذن منها، فالدخل في المطبخ يعتبر سقطة بالنسبة للرجل في إفريقيا السوداء.. وهكذا تمارس إلى حد ما سيطرة اقتصادية على المجتمع الإفريقي، تكون أقوى مع اتباع هذا العرف على نطاق واسع.

ويتيح أيضا هذا الافتراض (أن المرأة هي أصل اكتشاف الزراعة) فهم استمرار حفاظ النساء حتى الآن على عادة زراعة الحديقة المحيطة بالكوخ بأنفسهن، باعتبارها مجالهن الخاص، حيث يتزودن بالخضروات.

وقد يعتقد البعض أن الزراعة ظهرت في كل مكان في إحدى مراحل الإنسانية ترجع إلى حوالي ثمانية آلاف سنة قبل المسيح. بيد أننا لا نجد آثارا للحياة الزراعية تعود إلى تلك الحقبة بشكل مؤكد إلا في الصحراء. وكان جنس «زنجوى» و«مكتنز الإليتين» (زنجي) كما يقترح ت. مونو يمارس تلك الزراعة. وقد انتشرت الزراعة مبكرا في المنطقة الممتدة بين المدارين، من الصحراء حتى الهند، وربما أيضا حتى بحيرة بايكال. أما السهوب الأوروبية الآسيوية غير الصالحة للزراعة والحياة الحضرية، فيبدو أنها كانت دائما مهدا للترحال. ولذا كانت مفاهيم الحياة عند الهنود - أوروبيين، الذين شكّلهم وسطهم الجغرافي، متعارضة تماما مع مفاهيم الزواج.

وقد تميزت نهاية الحقبة الإيجابية، كما تبين لنا بما جاء آنفا، بلفظ النظام الأمومي الزنجي الذي تأثر به الهنود - أوروبيين إلى حد ما. ولما كان النظام الأمومي الزنجي من السمات الأساسية للحضارة الزراعية الزنجية، فقد أصبح من العيب تقريبا أن ينظم التوارث في دولة أقامها البيض.

ويلجأ العديد من الأفارقة المسلمين إلى تعديل شجرة أنسابهم، بإضافة فروع لها حتى يكونوا من سلالة الأشراف. وكان ذلك هو الاتجاه الذي سلكه الأمراء السارا في غانا، عندما أصبحوا سارا كوله، وذلك في الفترة التي امتزجت فيها الأسرة الحاكمة في غانا بالدماء العربية مع دخول الإسلام.

ونحن نعلم عن طريق المؤرخين العرب في العصور الوسطى أن الأمراء السود في غانا كانوا يفرضون سلطانهم على البربر الطوارق في «وادوجوست» الذين كانوا يؤدون لهم الجزية. وسنلاحظ أن كلمة «وادوجوست» لها جرس من مصدر جرمانى، يذكرنا بأسماء مثل فيزيجوت وأستروجوت. وتتفق هذه الفكرة مع افتراض الأصل القاندالى (الجرمانى) للبربر.

وقد زار ابن بطوطة السودان في العصور الوسطى فاسترعى انتباهه النظام الأمومي الزنجي وقال في هذا الصدد إنه لم يجد مثيلا له إلا في الهند عند شعوب سوداء هي أيضا:

«ولا يُنسب أحدهم (أى الزوج) إلى أبيه، بل يُنسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه. وذلك شئ ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد الملبهار من الهنود» (صحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة، المطبعة الاميرية، بولاق، ١٩٣٤، الجزء الثانى، ص ٢٩٩).

ويجب ألا نخلط بين النظام الأمومي وحكم الفارسات الخرافيات - الأمازون - في إفريقيا وجورجون - وهو نظام أسطوري كانت تسيطر فيه النساء على الرجال، ويتميز بأساليب الخط من

شأنهم. فكان يتعين منعهم، في تربيتهم، دون أن يقوموا بكل ما قد ينمى شجاعتهم أو يستحث كرامتهم. وكان عليهم أن يعملوا كمرضعات محل النساء اللاتي كنّ يدافعن عن المجتمع ويستأصلن الشدى لكي يستخدمن القوس والسهم بمزيد من الكفاءة. ولو اتكل المرء على تلك الأسطورة لتعين عليه أن يفترض سيطرة شرسة من جانب الرجال، أي فترة كان يسود فيها نظام «أهوى» أعقبه تحرر الأمازونيّات ومرحلة من الانتقام على أيديهن. ولاهد أن يكون هذا التمرد والانتصار على الرجال جزئيا لأنه لم يتواجد إلا لدى الأمازون والجورجون في عهود موغلة في القدم. ولما كانت الأمازونيّات فارتات مقدمات فإن ذلك يدفع إلى الاعتقاد بأنهن منحدرات من السهوب الأوروبية الآسيوية خاصة وأن هذه المنطقة كانت مهدا للجياد .

والنظام الأمومي بمعنى الكلمة يتميز بالتعاون والازدهار المتناسق لكلا الجنسين، بل وحتى بتقدّر من رجحان كفة المرأة في المجتمع، يعود الى الظروف الاقتصادية الأصلية، وإلى تقبل الرجل له، بل ودفاعه عنه.

القراية بين السودان المرؤى ومصر أسبقية السودان المرؤى وقيام الأسرة السودانية المرؤية : بعانخي، وشاباكا، وسباتاكا

إذا أخذنا في عين الاعتبار أن أيوبيا (*) الراهنة ليست أثيوبيا الأولين، وأنها كانت تعنى أساسا حضارات مرؤى وناهااتا و سنار السودانية ، لتوجب علينا أن نعترض على كم من التعبيرات الحديثة المتعسفة التي تتمثل في إزاحة أثيوبيا القديمة تدريجيا نحو الشرق، إلى أديس ابابا. فالملوك الذين طردوا مقتصبى عرش مصر الليبيين، في عهد الأسرة الخامسة والعشرين في حوالى عام ٧٥٠ ق.م، كانوا بالفعل ملوكا سودانيين.

فقد اعتلى شاباكا عرش مصر في عام ٧١٢ ق.م، بعد أن طرد بوخوريس الغاصب. وقد استقبله

(*) كان التعت «أهوى» يحص شعوبا سردا. أساسا، ويشمل زوجا متحضرين في السودان المرؤى وكذلك الزنوج الهمج بالأحرى الذين كانوا مجاورين لهم ويأكلون الأخشاب والنعام والأسماك ولم تكن وجهه هؤلاء الزنوج مجرد «سراء» أو «صهايا» أو «مُلوّحه»، بل كان لونها أسود فاحسا مثل الإله أوزيريس، وخالصة من أى تهجين مع عنصر أبيض.

الشعب المصري بحماس باعتباره باعث التقاليد القديمة مما يشهد مرة أخرى لصالح تلك القرابة الأصلية بين المصريين والأثيوبيين الزوج. وقد اعتبر المصريون داتما أثيوبيا وأغوار إفريقيا أرضا مقدسة جاء منها الأسلاف. وبين لنا النص التالي لشيرويني كيف كان رد فعل الشعب المصري إزاء أسرة اثيوبية جاءت من بلاد كوش، أى السودان، وأمسكت بزمام السلطة فى البلاد.

«وعلى أى حال، فإنه لمن الجدير بالملاحظة أن سلطة ملك أثيوبيا كان معترفا بها فى مصر، لا كسلطة عدو تفرض قوانينها بقوة السلاح، بقدر ما كان ينظر اليها كنظام وصاية رحبت به البلاد التى عانت الأمرين طويلا وتعرضت للفوضى فى الداخل والضعف فى الخارج، ووجدت فى هذا العاهل، الممثل على أى حال لأنكارها ومعتقداتها، باعثا متحمسا لمؤسساتها، وحاميا قويا لاستقلالها. والواقع أن حكم شاباكا كان معترفا من أسعد العهود التى احتفظت مصر بذكراها. وأسرتة التى تم تبنيها فى أرض الفراعنة، تحتل الترتيب الخامس والعشرين فى سلسلة الأسر الحاكمة القومية التى تبوأت عرش البلاد». (شيرويني، النوبة، سلسلة «الكون»، باريس، ١٨٤٧، ص ١٠٨).

وهذه القرابة بين مصر والنوبة، وبين مصرام وكوش، وكلاهما من ابناء حام، تتكشف من خلال العديد من أحداث التاريخ NgD خ المصرى - النوبى.

وقد اضطر بودج [BUDGE] إلى الاعتراف، بعد شيرويني، بتلك القرابة: «لقد لاحظ بودج أن معبد تى-راكا فى سنا قد نُذر لروح الفرعون اوسارتا سون الثالث باعتباره أبأ إلهيا، قهر عن رأيه ألا وهو أن الملوك الأثيوبيين المحليين كانوا يعتبرون الغزاة المصريين الأوائل كأسلاف لهم.. ويلاحظ بودج أن المصريين كانوا حريصين على اقتناعهم الراسخ بأنهم مرتبطون ارتباطا وثيقا بشعب بلاد بونت، أى أثيوبيا الراهنة، مع مراعاة التسلسل الزمنى. وقد لاحظ فى نهاية الأمر أن أهالى بلاد بونت هذه كانوا قد تميزوا منذ زمن بعيد، فى عهد الملكة حتشيسوت، بتلك اللحية المجدولة التى يتزين بها وجه الألهة فى كل النقوش المصرية» (بدرال، ص ١٨ و ١٩).

ويستحق هذا النص تعليقا بسيطا. فالعنصر الأخير الممثل فى اللحية المجدولة لا يزال منتشرًا فى إفريقيا السوداء، كما أن اقتناع المصريين الراسخ لم يكن مقتصرًا على الصلات الوثيقة بين الشعبين، بل كان يتعلق بالقرابة الأصلية والبيولوجية، لكون سلفهم واحدا هم والزوج الذين كانوا يقطنون آنذاك بلاد بونت. وهذا السلف المشترك كان المصريون والنوبيون يعبدونه معا تحت اسم الإله آمون، إله كل إفريقيا السوداء حاليا، كما تبين لنا ذلك من قبل.

وحتى نهاية الأمبراطورية المصرية ظل ملوك النوبة (السودان حاليا) يحملون نفس لقب فرعون مصر، ألا وهو صقر النوبة (دهاهاى، ماف بالكوف). وآمون وأوزيريس يصوران بلون أسود فاحم، وإيزيس ربة سوداء، والمواطن القومى وحده، أى الأسود، هو الذى يمكنه أن يحظى بشرف خدمة

طقوس الإله مين، وما كان يمكن أن تكون كاهنة أمون في طيبة، الموقع المقدس الأعلى في مصر، إلا سودانية مَرَوِيَّة. وهذه الوقائع أساسية وقاطعة. وقد حاولت عبثا التخيلات البارعة أن تتوصل إلى تفسير لذلك يتفق مع فكرة الجنس المصرى الأبيض.

«كان هناك في كل من ممفيس وطيبة ومَرَوِي محراب للإله كروش تحت اسم خونسو، إله السموات بالنسبة للأثيوبيين وهرقل بالنسبة للمصريين» (پدرال، ص ٢٩).

خون، إله السموات عند الأثيوبيين، معناه قوس قزح بالوكوف. وكانت هناك أرض تسمى أرض خونس في أعالي النيل علما بأن معنى كلمة خون يمتد ليصبح «ميت من العالم الآخر لم يبلغ بعد المرتبة الإلهية». كما أن خون معناها الموت بلغة السيرير.

وهكذا يتبين أن النوبة لها قرابة وثيقة بكل من مصر وبقية إفريقيا السوداء، وأنها كانت على ما يبدو نقطة انطلاق لكل من الحضارتين. ولذا لا يدهشنا أن نجد اليوم العديد من السمات الحضارية المشتركة بين النوبة، التي استمرت مملكتها حتى الاحتلال الإنجليزي، وبقية إفريقيا السوداء. وعلى أثر انتهاء التاريخ المصرى - النوبى القديم، ارتفع شأن إمبراطورية غانا كالمشعلة بين منحني نهر النيجر ونهر السنغال، في فترة تقع بشكل غير محقق في القرن الثالث بعد الميلاد. ويتضح لنا إذن، من هذه الزاوية، أن التاريخ الإفريقى ظل متواصلا. فقد أعقبت الأسر الحاكمة النوبية أسر مصرية حتى احتلال الهندو -أوروبيين لمصر ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد. وظلت النوبة مركز الثقافة والحضارة الوحيد حتى القرن السادس تقريبا، ثم تسلمت غانا المشعل من القرن السادس حتى عام ١٢٤٠، تاريخ تدمير عاصمتها على يد سوندجاتا كيتا، فانطلقت أخيرا الإمبراطورية المادينجية (عاصمة مالى) التي قال عنها ديلاكوس: «غير أن هذه القرية الصغيرة في أعالي نهر النيجر ظلت طوال مئات من السنوات العاصمة الرئيسية لأكبر إمبراطورية عرفت في إفريقيا السوداء ولواحدة من أكبر الإمبراطوريات التي تواجدت في العالم». (ديلاكوس: سود إفريقيا، الناشر پابو، ١٩٢٢، باريس). ثم جاءت بعد ذلك إمبراطورية جاو، وإمبراطورية ياتنجا (أو موسي، والقائمة حتى الآن)، ومملكتنا دچولوف وكايور اللتان حطمهما فيدهرب [FAIDHERBE]، في ظل حكم نابوليون الثالث. وقد ابتغينا، من خلال التذكير بتلك الأحداث المتسلسلة زمنيا، أن نبين فقط أنه لم يحدث انقطاع في التاريخ الإفريقى. ومن الجلى أننا لو اتخذنا اتجاهها جغرافيا قاريا، ابتداء من النوبة ومصر، مثل النوبة - خليج بنين، أو النوبة - الكونغو، أو النوبة - الموزمبيق، لهدا لنا التاريخ الإفريقى متواصلا أيضا.

وتلك هى الزاوية السليمة التى يجب أن يُنظر من خلالها إلى التاريخ الإفريقى. وأيا كانت مهارة التفسيرات التى تقدم لمحاولة تحاشي ذلك، فستبوء كلها بفشل ذريع، لأن أى تفسيرات تتجاوز الحقائق لا يمكن أن تكون مشمرة.

وعلى نفس المنوال، فإن علم المصريات لن يركز على أرض صلبة إلا في اليوم الذي سيتم الاعتراف فيه رسمياً، وبلا تكلف، بأساسه الزنجي الإفريقي.

ويوسعنا أن نقرر بكل ارتياح، اعتماداً على الوقائع المذكورة آنفاً وتلك التي سنوردها فيما بعد، وبلاستناد إلى واقع التاريخ المصري الإفريقي، أنه طالما ظل علم المصريات يتجنب ذلك الأساس الزنجي، وطالما سيكتفى بمغازلته فقط لمجرد محاولة الظهور بمظهر النزاهة، وطالما ظل هذا العلم متمسكاً بذلك الموقف، فإن استقرار أسسه سيكون مثل الهرم المعتمد على قمته، وسيجد نفسه دائماً أمام طريق مسدود، بعد تلك التفسيرات المتحذلقة.

أوليس من الطبيعي إذن أن نجد في إفريقيا مجمع الأرباب المصري - النوبي بأكمله تقريباً؟ يحدثنا پدرال، نقلاً عن موريه بخصوص رواية قبطية، عن ملكين لم تحدد هويتهم، كان ثانيهما الملك شانجو، ياكوتا، أو خيفيوسو (حسب اللهجات المحلية). وهذا الأمير الذي كان يُعبد في كل ساحل العبيد (غينيا) تحت تسميات مختلفة، باعتباره إله الصواعق والدمار، كان ملك كوش، حسب روايات السود أنفسهم، ومن هناك جاء لقبه أوبا - كوسو. وكان شانجو أو أوبا - كوسو، مغرماً بالحرب والقتل، وقد قادته فتوحاته حتى الداومى. وكان الملكان يبرى (إله الظلمات) وأيدو - كويدو (إله قوس قزح) عبيدين له.

«ووفقاً لموريه، كان أوبا - كوسو هذا قد ولد في ابفه، وهو موقع يجهله المؤلف تماماً. ويحمل أوبا - كوسو لقب «الابن الأول للإله الأعظم»، وقد جاء إلى الوجود عن طريق العلاقة المحرمة بين أروجان إله الجنوب ويماديا، أم «الإعصار» ذاته، علماً بأنها هي نفسها أخت أجاندجو، إله الفضاء، وشانجو - أوبا - كوسو له أخوان هما: دادا، إله الطبيعة وأوجون، إله القناصين والحدادين. وقد تزوج ثلاث نساء: أوبا، وأوسون، وأوبا. ومن الجلى أن أروجان ويماديا يعبدان إلى الأذهان علاقة آمون وخام المحرمة وابنهما مَوت الذي يحمل مع ذلك لقب ملك كوش. كما أن أوسون تعبد إلى الأذهان آسون، زوجة توبوم - ست - تيفون، التي تزوجها بعد ذلك حورس، ابن مصرام - أوزيريس، ودادا يعبد إلى الأذهان ديدان، ابن كوش وفقاً لرواية، ورياما ابن كوش وفقاً لرواية أخرى، علماً بأن هناك جانباً غير محقق زادت الثروة غموضاً. وأخيراً فإن كوش كانت له، عند الأثيوبيين، ثلاث زوجات كُنَّ شقيقاته.

«تلخص شهادات موريه هذه ... جزءاً أساسياً من التقاليد المشتركة في البلدان المطلة على خليج بنين (توجو، داومى، نيجيريا) بين الإيوى، والجبون، والفون واليوروبا، علماً بأن المدينة المقدسة للأخيرين كانت ايله، ابفه ...» (پدرال، المرجع السابق، ص ٣٠ و ٣١).

وهذه الشهادات التي نقلها پدرال عن موريه ، اوردها الأقطاط أنفسهم. وتعود أهمية تلك الرواية إلى اختلاطها بكل بساطة مع تلك التي نجدها في إفريقيا الغربية في الوقت الراهن، عند أهالي داهومي وتوجو ونيجيريا .. الخ، حيث شانجو وأوراجون ... وهما من ألته نيجيريا وكل خليج بنين عموما. وإيفه التي نقل موريه اسمها عن النصوص القبطية دون أن يعلم أنها المدينة الكهنوتية لنيجيريا، تدلل على الارتباط الحميم بين التاريخ المصري وتاريخ إفريقيا السوداء. وأوروجان، إله الجنوب يذكرنا بالكلمة الأنتيلية المشتقة منها أوراجون (إعصار بالفرنسية)، والتي تعود، على ما يبدو، إلى أصل إفريقي، وانتقلت إلى جزر الأنتيل عن طريق القودو. وياكوتا، إله الدمار، يذكرنا بكلمة ياكوتا بالوكوف التي تعنى الدمار.

ويجدر بنا أن نذكر أن الملك الموسي يحمل حاليا لقب نابا، وهو نفس اللقب الذي كان يحمله ملك كان يحكم قسما من النوبة.

«وكان أقوى هؤلاء الملوك الأربعة الذين حكموها «ناب» من نافتا بالكردفان التي كانت عاصمتها قائمة باتجاه حوفرات، في الهاس التي كانت منذ هذا الزمن موقعا تستخرج منه كميات كبيرة من النحاس إلى جانب الذهب. وكان هذا الذهب والنحاس ينتقلان إلى النوبة حيث كان يحضر ملوك الغرب والشرق للحصول عليه. وكان «الناب» يحكم في الجنوب عددا كبيرا من الشعوب التي كانت تصنع له الأسلحة من الحديد وترسل له عبيدا» (پدرال، نفس المرجع، ص ٣٦).

وعندما تعرض الجيش لسوء المعاملة في عهد بسامتيك، انتقل ٢٠٠ الف من رجاله تحت قيادة كوادره من برزخ السويس إلى السودان النوبي حيث وضع نفسه تحت إمرة ملك النوبة.

وفقا لهيرودوت، أنزل ملك النوبة الجيش بأسره في أراض ليزرعهما، واستوعب الشعب النوبي نهائيا كافة أفراد هذا الجيش. وقد جرى ذلك في فترة كانت قد مضت فيها من قبل آلاف السنوات على الحضارة النوبية. ولذا تصيب المرء الدهشة عندما يحاول بعض المؤرخين استخدام تلك الواقعة لتفسير ظهور الحضارة النوبية. فعلى عكس ذلك، فإن كل العلماء الأوائل الذين درسوا النوبة، والذين يرجع إليهم فضل اكتشاف الآثار النوبية ومنهم كايو (CAILLAUD) يستخلصون من ذلك أسبتمية النوبة.

ويتضح من دراساتهم أن الحضارة المصرية تولدت من حضارة النوبة أي السودان. وكما لاحظ پدرال فقد استخلص كايو ذلك من واقع معين، وهو أن كافة أدوات العبادة (أي جوهر التقاليد المقدسة) نوبية^(*). وهكذا يقتض كايو أن جذور الحضارة المصرية كانت في النوبة (السودان) وأنها^(*) «قبل أن أبعد عن النوبة، سأسمح لنفسى بأن أسجل بعض الملاحظات الصالحة لإثبات أقدمية حضارتها على حضارة مصر. وهذه المسألة التي لم تبت فيها بعد الروايات التاريخية، تكتسب في رأبي قدرا كبيرا من الوضوح عندما يلمح المرء بعناية آثار إثيوبيا أو النوبة العليا ومنتجاتها الطبيعية. وأنا لا أعتقد أن آرائى مستهد كالة الشرك حله هذا الموضوع الذي طال الجدل حوله ...

بقية الهامش في الصفحة التالية

بقية هامش الصفحة السابقة

انحدرت تدريجيا مع وادى النيل. وبذلك يكون قد اكتشف من جديد، أو تحقق على الأرجح، من وجهة النظر الإجماعية للفلاسفة والكتاب القدامى الذين اعتبروا أسبقية النوبة أمرا مفروغا منه.

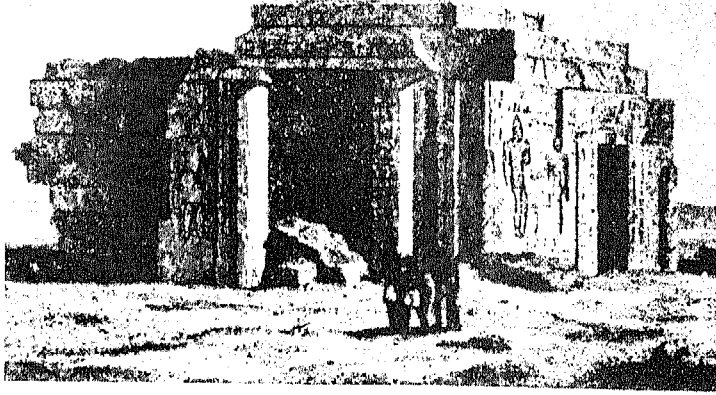
وقد أفادنا ديودور الصقلي أنهم كانوا يخرجون كل عام قمثال آمون ملك طيبة باتجاه النوبة (أى السودان) لبضعة أيام، ثم يعيدونه بعد ذلك للتدليل على أنه عاد من النوبة. ووفقا لنفس المؤلف، فقد نبعت الحضارة المصرية من حضارة النوبة التي كانت مَرَوَى مركزا لها. والواقع أن كايو اكتشف فى حوالي عام ١٨٢٠ أطلال مروى؛ ثمانين هرما وعدة معابد مكرسة لأمون رع .. الخ، وذلك اعتمادا على إشارات ديودور وهيرودوت إلى موقع تلك العاصمة السودانية(*) ... وبفهدنا هيرودوت من جهة أخرى (نقلا عما قاله له الكهنة المصريون أنفسهم) أن من بين الفراعنة الثلاثئة منذ عهد تعمرم حتى الأسرة الثامنة والعشرين، كان ثمانية عشر فرعون، لا الثلاثة فقط المحاصون «بالأسرة الأثيوبية»، من أصل سودانى.

والمصريون أنفسهم، وهم أدرى الناس بأصولهم، يعترفون بلا لف أو دوران أن أسلافهم جاؤا من النوبة وقلب إفريقيا. وبلاذ الامام، أى بلاد الأسلاف (ولنلاحظ أن أمام تعنى السلف بلغة اللوكوف) وهى مجموع بلاد الآلهة. وهناك وقائع أخرى، من بينها الأعاصير والأمطار الغزيرة التى ورد ذكرها فى هرم أوناس، تذكرنا بالمناطق المدارية، فى قلب إفريقيا، كما لاحظ ذلك اميلينو.

ويقتضى أسبقية النوبة هذه، مهد الحضارة والديانة، يقول هومبروس فى بيت شعر من الإلياذة إن جوبيتر ينزل كل عام مع موكب الآلهة ليحجج إلى اثيوبيا، لكى يحدد قواه.

لقد عثرت على عدد كبير من العادات القديمة التى ظلت قائمة فى النوبة ولم يتبق منها أى أثر فى مصر؛ وأنا أقر بأنه لا يمكن أن استخلص من ذلك أى استقراء يدفع إلى الاعتقاد بأن هذه العادات لم تنشأ أصلا فى هذا البلد. ولكن اذا توصلنا إلى إنبات أن الأدوات الأساسية المخصصة للعبادة عند قدماء المصريين كانت من إنتاج الفردت به اثيوبيا، فإننا سنميل إلى الاعتراف بأن هذه العبادة لم تنشأ أبدا فى مصر ... ويقال عن حق إن هجرات الشعوب الهائلة عن مسقط كانت تتم بالاتحاد مع مجرى الأنهار. ولو تبيننا ذلك التدرج الطبقي لما أمكننا أن نرفض استخلاص كون اثيوبيا كانت مسكونة قبل مصر. وهكذا تكون اثيوبيا هى التى كانت لها أولا قرانين وقرانين وكتابة. غير أن عناصر الحضارة هذه التى كانت لا تزال خشنة وناقصة، لم تتطور إلى حد كبير إلا فى مصر حيث ساعد على ذلك المناخ وطبيعة الأرض والموقع الجغرافى. فهنا اكتسب ازميل النحات رموز المعتقدات الهلانية لمواطنيه، أشكالا أكثر انتظاما، لكى يزين بها المعابد، تلك الصروح التى تشبه بكتلها المهيبة إصجابنا، والتى لا تزال منقطة طيبة لمتجرى حتى الآن على بقاياها الرائعة. وهكذا، كما كتب من قبل العديد من العلماء، ومن بينهم السيد جومار، فإن القرن المتعقبة فى مصر صنعت مرة أخرى باتجاه منبع النهر، بعد أن كانت قد انحدرت معه فى طفولتها. وكان هذا رأى فى الواقع فى عام ١٨١٦ عندما رأيت آثار النوبة السفلى، والمعترف اليوم بأنها لاحقة لأغلب آثار طيبة». (مردريك كايو ، رحلة إلى مَرَوَى ، ١٨٢٦، المجلد الثالث، ص ٢٧١ والصلحات التالية).

(*) كايو ، المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ١٦٥.



٤٢- أثر إفريقي قديم : معبد سودانى
 (صورة نشرها شيرويينى)

ومما له مغزاه أن أعمال التنقيب التى تمت حتى الآن، فى محيط أثيوبيا القدماء، لم تكشف عن وثائق جديدة بهذا الاسم إلا فى النوبة ذاتها، لا فى أثيوبيا الحالية. فهناك بالفعل أهرامات فى النوبة على غرار تلك التى تم اكتشافها فى مصر، ومنها هرما اسور ونورى. كما أن المعابد المقامة تحت الأرض وغيرها، توجد هناك، لا فى أثيوبيا، ومنها معابد سمنا وتيفونيوم وحتحور فى ايسامبول (انظر الصورة رقم ٤٢)، وكذلك الكتابة المسماة المرؤية التى لم يتم بعد فك رموزها، وهى قريبة من الكتابة المصرية. وهناك شئ مثير للانتباه، لم يتم التأكيد عليه، وهو أن الكتابة النوبية متطورة بقدر أكبر من اللغة المصرية، بينما لم تتخلص الأخيرة أبدا، حتى فى أطوارها الديموطيقية والهيراطيقية، من جوهرها الهيروغلىفى، علما بأن الكتابة النوبية تعتمد على الحروف الأبجدية، لا الرموز.

وبالطبع، يمكننا أن نتوقع، دون خوف من خيبة الأمل، محاولات لتشبيب الحضارة النوبية واجتهادات لتفسيرها من خلال الحضارة المصرية. وهذا ما اعتقد ريسنر أنه نجح فى التوصل اليه، فى دراسة لا تشمل إلا المرحلة التاريخية النوبية التى تعود إلى العهد الأشورى، أى فى الألف الأولى قبل الميلاد. وهو يفترض أن النوبة كانت تحكمها قبل ذلك أسرة ليبية، وأن الأسر النوبية التى أعقبتها لم تكن إلا امتدادا لها. ومرة أخرى يتولى جنس أبيض أسطورى مهمة إقامة حضارة والانسحاب بما يشبه المعجزة لكى يترك المجال للسود. وجميع تلك المحاولات العامة للذيل من كافة الحضارات الزنجية فى إفريقيا السوداء، ابتداء من مصر والنوبة وغانا وسونراى حتى مملكة بنين، ومرورا برواندا - اوروندى، على سبيل المثال لا الحصر، تتخذ فى نهاية الأمر الطابع الرتيب لتمثيلية هزلية غثة لم تعد

تدعو حتى الى الابتسام.

وما كان يوسع ريسنر أن يتجاهل أن الحضارة النوبية سابقة على عام ١٥٠٠ ق.م.، أي قبل ظهور اللبى الأبيض اليافى فى إفريقيا. ولذا، فإن المشكلة لا تتمثل فى محاولة البحث عن لبين فى التاريخ الحديث للنوبية، ولكن العثور عليهم فى مستهل تلك الحضارة، أى من حوالى ٥٠٠٠ سنة ق.م.، وبالطبع فقد حرص ريسنر على ألا يحاول الإقدام على تلك المهمة.

مهد الحضارات فى قلب البلاد الزنجية

وهناك حقيقة أخرى لا تقل غرابة وهى أن الهندو - أوروبيين لم يؤسسوا قط حضارة فى مهدهم الأول، أى فى السهوب الأوروبية الآسيوية. والحضارات التى تنسب اليهم نشأت بلا مجال للشك فى البلاد الزنجية، فى الشطر الجنوبي من نصف الكرة الأرضية الشمالى: فى مصر، والجزيرة العربية، وفينيقيا، وبلاد ما بين النهرين، وقيام، والهند.

وفى جميع تلك البلدان، كانت هناك أصلا حضارات زنجية عندما جاء إليها الهندو - أوروبيين فى السنوات الألف الثانية قبل الميلاد، وكانوا آنذاك رُحلا خشنين. ويتمثل التصرف هنا فى محاولة إثبات أن هذه الشعوب التى كانت لا تزال متوحشة، جلبت معها فى خضم الزعزعة التى أحدثتها، كافة عناصر التحضر وأدخلتها فى كل الأنحاء التى وصلت إليها. وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى: لماذا لم تظهر كل تلك الاستعدادات الخلاقة إلا مع الاتصال بالزنج، ولم تظهر أبدا فى مهدها الأول، أى السهوب الأوروبية - الآسيوية؟ لماذا لم تخلق هذه الشعوب حضارات فى مواطنها الأصلية قبل هجرتها؟ فلو أن العالم الحديث اختفى، لأمكننا بسهولة أن نتبين أن الحضارة الحديثة انتشرت منه فى كافة أرجاء المعمورة، وذلك بفضل بقايا تلك الحضارة المتواجدة فى أوروبا. ولكن لا يمكننا أن نجد شيئا مماثلا فى السهوب الأوروبية - الآسيوية. ولو رجعنا إلى أقدم المعهود الغابرة لوجدنا أن الوثائق تجبرنا على الانطلاق من البلدان الزنجية لتفسير كافة ظواهر الحضارة.

ومن الخطأ الزعم بأن الحضارة نشأت عن ذلك التهجين، فلدنا الأدلة التى تثبت أنها كانت قائمة فى البلدان السوداء قبل الاتصال التاريخى بالهندو - أوروبيين بزمن بعيد.

والشعوب الزنجية، المتجانسة عرقيا هى التى أوجدت كافة عناصر الحضارة بتواؤمها مع الظروف

الجغرافية المواتية في مهودها الأصلية. وعليه فقد أصبحت بلادها مراكز جذب حائل سكان البلاد المدعمة والمتخلفة المجاورون لها دخولها لتحسين ظروف معيشتهم. ولذا فإن التهجين الذي نشأ عن ذلك الاتصال ترتب على الحضارة التي أوجدتها الزنوج من قبل، وليس العكس، وهذه الأسباب نفسها هي التي تجعل أوروبا - وبالأخص باريس ولندن ... الخ - مراكز استقطاب تلتقي فيها يوميا وتنصهر معا أجناس العالم. غير أنه من الخطأ أن نفسر الحضارة الأوروبية في عام ١٩٥٤، على مدى ألفي سنة اعتمادا على أن أوروبا كانت آنذاك شبه مشبعة بعناصر مستعمرة قدمت كل منها إسهاما. فعلى العكس من ذلك، نرى أن العناصر الأجنبية، التي تجاوزتها الأحداث، تحتاج إلى بعض الوقت للتغلب على تأخرها ولا تقدم لفترة طويلة إسهاما مجزيا في الحضارة التقنية. وقد كان الأمر على هذا المنوال في العهود القديمة؛ فكل عناصر الحضارة المصرية كانت قد نشأت منذ البداية وظلت قائمة، ثم تفتتت على أقصى تقدير، باتصالها بالخارج. والغزوات المختلفة للأجناس البيضاء على مصر معروفة في العصور التاريخية بكل تأكيد: الهكسوس (السكروتيون)، والليبيون، والاشوريون، والفرس. ولم يأت أي من تلك العناصر بتطورات جديدة في الرياضيات، والفلك، والغزياء، والطب، والفلسفة، والفنون، والتنظيم السياسي...

ويسمح لنا كل ما جاء من قبل بأن نرفض أيضا التفسيرات اللاحقة، التي قررت، على أساس الوضع في العالم الحديث، أن المنطقة المعتدلة المناخ مواتية بشكل خاص لظهور الحضارات التي نشأت جميعها في تلك المنطقة. فالوثائق التاريخية تثبت، على العكس، أن الحضارات الأولى تواجدت خارج تلك المنطقة، في الوقت الذي كان مناخ العالم فيه قد استقر^(*).

اللغات

بقدر ما توجد صعوبة في إثبات علاقة القرابة بين اللغة المصرية القديمة واللغات الهندو-أوروبية والسامية، بقدر ما يسهل إثبات رابطة الوحدة الوثيقة بين اللغة المصرية القديمة واللغات الزنجية. «لقد خطرت في ذهن عالم شاب متبحر، وهو السيد ن. ريش، فكرة المقارنة بين بعض أصول

(*) «ظلت إفريقيا سرّاً خلفاً لأمد طويل ... ولكن ألم تكن أحد مهود الحضارة؟ إن مصر، وهي بلد إفريقيا، لا تزال تحتفظ حتى اليوم، بعد عدة آلاف من السنوات، بأروع آثار الماضي العريق. ففي الوقت الذي كانت أوروبا فيه وحشية صرفة، ولم تكن باريس ولندن سوى مستنقعات وروما واثينا بقاعا مهجورة، كانت إفريقيا تملك حضارة قلبية في وادي النيل. وكانت تعرف المدن العامرة بالسكان، والعمل الصبور للأجيال المتعاقبة في نفس تلك الأرض، والمنشآت العامة الكبيرة والعلوم والفنون، كما كانت قد أنتجت آلهة». جاك وولرس، إفريقيا السوداء، مطبوعات قاهار، ١٩٣٤ باريس، ص ١١٩.

الكلمات باللغة المصرية القديمة وأصول بعضها الآخر التي لا تزال تستخدمها الشعوب الزنجية في وسط إفريقيا أو النوبة؛ وقد أثبت بلا مشقة كبيرة أن هناك قائلًا تاما بينها». (اميلينو: تمهيدات في دراسة الديانة المصرية، الجزء الثاني، مطبوعات ليرو، باريس، ١٩١٦، ص ١٢٦).

ودعمت الأنسة هومبورجر، بعد ريش، صلة القرابة بين اللغة المصرية القديمة واللغات النجرو-إفريقية في الفصل الثاني عشر من كتابها: اللغات النجرو-إفريقية، (مطبوعات هابو). غير أن أطروحتها تتضمن فقط تأثيراً مصرياً على اللغات الزنجية التي قد تكون أصلاً مختلفة عرقياً ولغوياً عن اللغة المصرية.

ومع أن دراسات الأنسة هومبورجر لها أهميتها الكبيرة التي لا يزال يسدل عليها ستار الصمت حتى الآن، إلا أنه من الصعب أن نجاريها بخصوص تلك النقطة الأخيرة. فالتماثل شبه الكامل بين مصر وإفريقيا السوداء، من كافة وجهات النظر العرقية وغيرها لا يسمح بقبول ذلك الاستنتاج.

والمقارنة اللغوية بين المصرية القديمة والوكوف على وجه الخصوص، ستكون أكثر مدعاة للاقتناع لأنها م الواضح بحيث يصعب التمسك بوجود أساسين لغويين مختلفين.

وقد يتصور المرء مقدماً، أن مقارنة من هذا النوع مستحيلة بدعوى أن اللغة اللاتينية تحولت تماما في غضون ألفي سنة إلى لغات أخرى، منها الفرنسية، والاطالية، الخ، وأنه سيكون من الصعب أن نربط تلك اللغات اليوم بها، لولا أنه تتوفر لدينا شهادات سابقة مدونة.

وهذه الملاحظة لا تعوق طريقنا لسببين. أولاً، لأن تطور اللغات لا يتم بسرعة واحدة في كل المناطق، بل إنه مرتبط على ما يبدو بعوامل أخرى، منها استقرار النظام الاجتماعي، أو على العكس تعرضه للزعزعات. ويمكننا أن ندرك بسهولة أن لغة الناس في المجتمعات الراسخة تغيرت بقدر أقل عبر الزمان. وهذا ليس مجرد افتراض، فالجمل العشرون بلغة البربر التي ترجع إلى القرن الثاني عشر وتوجد في حوزتنا، تدل على أنها لغة ماثلة للغة البربر اليوم، بينما المقارنة بين الفرنسية في أواخر القرن العاشر، وفرنسية اليوم تكشف عن فروق عميقة. أما في إفريقيا السوداء، فإن الشهادات القليلة المتوفرة لدينا حول تلك اللغات السابقة، خلافاً للمروية التي لم يتم بعد فك رموزها، تتكون في ظل الوضع الراهن لمعارفنا من بعض الكلمات المتفرقة في كتابات مؤلفين عرب من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر. وهكذا وجدنا في مؤلف بن بطوطة المذكور أعلاه (ص ٣٠٠) أن «الغرّتي ثمر كالإجاص شديد الحلاوة، ويُذَقَّ عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع». وكلمة «الغرّتي» هذه استخدمت على الأرجح للفول السوداني عند دخوله مؤخرًا في إفريقيا السوداء. والكلمة المستخدمة حالياً (غرّته) لا تختلف إذن عن كلمة القرن الرابع عشر (غرّتي) إلا باللفظ الأخير (إي) الذي أصبح (ه)، وذلك بالنسبة لتلك الكلمة بلغة الوكوف التي استعارتها من السراكول، هذا إذا ما سلمنا بأن

تدوين ابن بطوطه لها صحيح.

كما يقول ابن بطوطه أيضا في نفس المرجع إن البيض من السنّة الذين يتبعون المذهب المالكي يسمونهم تورى. وكلمة تورى هذه اسم علم سودانى. وهكذا فإن التورى هم على الأرجح خلاسيون منحدرون إلى حد أو آخر، من تلك الأقلية العربية التي كانت تعيش في السودان في القرن الرابع عشر. وهناك كذلك فاربا حسين دى فالاتا - وقد كتب ابن بطوطه اسم حسين بشكل صحيح بالطبع لأنه أسم عربى. وفالاتا، دُونت فالاتن، وهو ما يبدو انعكاسا لنهاية الكلمة بلغة البربر. وفيما عدا ذلك لا يزال تركيب هذه الكلمة كما هو حتى يومنا هذا، وهى تنطق فالاتا. وكلمة فاربا تشير إلى وظيفة إدارية بلغة السيرير، وقد انتقلت حرفيا إلى لغة الوكوف. «وكان ملك غانا يلقب ماجا»، فهى كلمة قد تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، مثل لغة السراكوله، إذا افترضنا أنها كانت اللغة المستخدمة أصلا في هذه الإمبراطورية.

ماج تعنى كبيرا، شخصية كبيرة بلغة الوكوف، بينما تشير كلمة غانار الى موريتانيا، أى شمال غرب إمبراطورية غانا القديمة.

كيلا كانت تعنى القرع في القرن الرابع عشر، والكيلا تعنى حاليا وعاء من الخشب بلغة الوكوف. وهذه الأمثلة تبين أن اللغات الإفريقية ثابتة نسبيا.

ومن جهة أخرى فإن المقارنة بين اللغات الإفريقية واللغة المصرية القديمة لا تفضى بنا الى علاقات غامضة يمكن اعتبارها في أحسن الأحوال مجرد احتمالات، بل إلى تطابق في قواعد الصرف والنحو على نطاق واسع، بحيث لا يمكن أن يكون ذلك مجرد صدفة.

بيد أن الامتناع عن دراسة تلك الوقائع الملموسة ومحاولة تفسيرها، معناه اتخاذ موقف غير علمى، يشبه في ذلك موقف هؤلاء الفلاسفة الذين يرون أسلاك المصباح وهى تتوهج، ولكنهم يصرون مع ذلك على أنهم بصدد ظاهرة مستحيلة لأنها تخالف المبادئ المسلم بها حتى ذلك الوقت، وتتعارض مع أفكارهم حول الأشياء.

فاللغة المصرية القديمة تعبر عن الماضى ببدء الفعل بحرف النون مثل الوكوف، وهناك تصريف للأفعال يتم بإضافة حرفها حرفيا في الوكوف؛ وأغلب ضمائر هذا التصريف ماثلة لما يوجد في الوكوف؛ والضميران المضافان بالمصرية القديمة (إف) و(إس) نجدهما بالأخص حرفيا في الوكوف، وبنفس المعنى؛ كما أن حروف الإشارة واحدة في اللغتين، والمبنى للمجهول تعبر عنه نفس البداية (أو) في اللغتين؛ كما يكفى إحلال (اللام) في الوكوف محل (النون) في اللغة المصرية القديمة للانتقال من الكلمة المصرية الى الكلمة الوكوف بنفس المعنى في العبارات التالية:

الكلمات الوركوف

(لاد) = يطلب

(لاه) = يخفى، يحمى

(لت) = ضفيره، يضفر

(هل - بل) = منيع

(فولا) = مسلك محترم أو مستقيم

الكلمات المصرية

(ناد) = يطلب

(ناه) = يخفى، يحمى

(نت) = ضفيره، يضفر

(هن - بن) = منيع

(فون) = مؤكد، منتظم، أصيل

والصيغة (سجم - ت - إف) توجد في الوركوف والصيغة (سدجم - كا) توجد في لغة السيرير، والجمع باللغة المصرية الذي ينتهي بـ (أو) موجود حرفيا في السراكوله. فهناك إذن قدر ضخم من التطابقات، هذا عدا حصيلة الكلمات المشتركة، بحيث لا يمكن أن يكون الأمر محض مصادفات.

وقشلت خططي الدراسية في تقصى جوانب القراءة التي لا يمكن نقضها والمستخلصة من العديد من التماثلات النحوية بين اللغات الزنجية واللغة المصرية، ثم السماح لنفسى، على أساس تلك القراءة الجلية، بمعد مقارنات، قد تهدو أقل شرعية وتقتصر قيمتها على كونها افتراضات تصلح لبحوث تجرى في المستقبل.

وقد لجأت في هذه الدراسة الى كتاب النحو الكلاسيكى لجاردنير [GARDINER]. وجميع القواعد الأساسية للنحو المذكورة هنا، مأخوذة بنفس المعنى. ولكن بما أن هذا الكتاب مدون باللغة الانجليزية، ولكى أتحاشى ترجمة النص المقابل كلما استندت إلى جاردنير، فقد اضطررت الأمر إلى اللجوء إلى قواعد النحو المصرية للدكتور ديرون [D.DERON] الأقل شهرة والأبسط في العرض، كلما تعلق الأمر بقواعد النحو الواردة عند كل من جاردنير وديرون، وذلك بغية تيسير الشرح. وعليه، فإن جميع قواعد النحو الواردة فيما بعد موجودة حرفيا في كتاب جاردنير.

دراسة مقارنة بين قواعد النحو المصرية والوُكُوف

واللغة المصرية المقصودة هنا، هي اللغة الكلاسيكية التي «استخدمت منذ أيام الأسرة التاسعة حتى الأسرة الثالثة والعشرين، بين ٢٤٠٠ و ٧٥٠ ق.م.

والأمثلة المتعلقة بالنحو الوُكُوف أخذتها عن معرفتى بها بوصفها لغتى أنا.

تكوين الجمع

يتكون الجمع فى اللغة المصرية القديمة بإضافة (واو) فى نهاية الكلمة:

(باك) = خادم

(باكرو) = خدم

ولنلاحظ فى هذا الصدد أن (خادم) بالوُكُوف هى: (بيك نج)، التى قد تكون تحويراً لـ (بوك - نج) ومعناها المشاركة فى سكنى نفس الكوخ.

وتكوين الجمع بالوُكُوف معقد بدرجة أكبر. وسنكتفى هنا بذكر ما يمكن أن يكون قريباً من اللغة المصرية.

فتكوين الجمع بإضافة (واو) لا يزال مستخدماً فى لغة الوُكُوف فى شكل تركيب قديم، خاصة فى المجالات التى كان يتعين الاحتفاظ فيها بهذا الشكل، أى عندما تخص الصفة العددية اسماً موصوفاً.

(بن) = واحد (بنبوب)

(نيآر) = اثنان (نيرى بوب) (نيآرو بوب)

(نيآت) = ثلاثة (نيآتى بوب) (نيآتو بوب)

(نيينت) = أربعة (نيينتى بوب) (نيينتو بوب)

الخ ...

(تيمير) = مئة (تيميرى بوب) (تيميرو بوب)

ومن المهم ألا نخلط فى هذه الحالة (الباء) و(الواو) بالحروف المتحركة المصاحبة لأداة التعريف والإشارة، بينما يمكن أن نقول على حد سواء:

(بوب أب نيت) أو (بوب أوب نيت) = رأس انسان.

كما يمكن أن نقول:

(نآرو بوب) أو (نارى بوب) = رأسان.

واسم الموصوف بالوُكُوف الذى يبدأ به (ب) أو (مب) يتم جمعه بتحويل ال (ب) أو الـ (مب) الى (واو):

هونت) = باب	(فونت) = أبواب
(هوم) = حبل	(قوم) = حبال
(مبام) = حمار	(قام) أو (هام) = حمير
(مبورو) = رغيف	(فورو) أو (بورو) = أرغفة

وإذا أردنا الإشارة إلى سكان بلد ما بلغة الوُكُوف يكفى أن تسبق اسم هذا البلد أداة التصدير (واو):

(كادورا) ، اسم بلد (فاكادورا) = أهالي كادورا
وبوسعنا أن نلاحظ تماثل الأداة (واو) مع (با) التى تقوم بنفس المهمة بالنسبة لأسماء قبائل حوض نهر الكونغو:

(بالوبا) = اللوبا

وتوجد قاعدة الجمع بتصدير الكلمة بحرف (الواو) فى لغة الدولا [Dôla] أيضا وذلك بالنسبة للكلمات التى تبدأ بحرف الباء، كما هو الحال فى الوُكُوف، أو بحرف الكاف:

(بوسانا) = صانع الجبن، قارب	(فوسانا) = قوارب
(بمبون) = قبعة	(قمبون) = قبعات
(كين) = ديك	(قن) = ديك
(كالمجن) = يد	(قلمجن) = أيدي

ويتم الجمع بلغة الماندى به (لو) ، وهو مجرد تحويل لفظى للجمع المصرى بحرف (الواو)

(مُوهُو) = رجل (مروهو لو) = رجال

بيد أننا نجد فى لغة السراكوله (السونينكا) التماثل التام مع اللغة المصرية فى صيغة الجمع. ففيما عدا بعض الكلمات التى تنتهى (بالياء) ، يتكون الجمع بالسراكوله بإضافة (الواو) ، تماما كما هو الحال فى اللغة المصرية:

(كومبده) = كوخ	(كومبوهو) = أكواخ
(ياهاره) = امرأة	(ياهاروهو) = نسوة

ومن الملاحظ فى اللغة المصرية الحالية، أى القبطية التى تعتبر، وفقا لأميلينو، لغة المصريين

القدامى المدونة بالحروف الاغريقية، أن الجمع بحرف (الوار) يميل الى الزوال. وهكذا نجد أنه من المفهوم أن تكون هذه الصيغة متوارية بقدر أكبر، دون أن يكون هناك مجال لإنتكار وجودها، فى لغة تبدو أصلا أبعد عن اللغة المصرية الكلاسيكية. فالصفة المسندة لا تتغير بينما آخر الكلمة (رُ) فى جمع المؤنث يستبعد فى الكثير من الأحوال ويحل محله جمع تخطيضى يتمثل فى ثلاثة خطوط رأسية متوازية أو متتالية.

العلاقة بين أسماء الإشارة

توجد عدة فئات من أسماء الإشارة فى اللغة المصرية القديمة، من بينها فئتان رئيسيتان هما:
أ) فئة المذكر المفرد، وفيها تبدأ كل حالات الإشارة بحرف (پ).

ب) فئة الجمع التى تبدأ دائما بحرف (النون)

ولنقارن بين أدوات الإشارة المصرية والوُكوف التالية:

بالمصرية : (پوى)، (پف)، (پو)، (پا) = هذا، ذاك، ذلك .. الخ

بالوُكوف : (نى)، (به)، (بو)، (با) = هذا، ذاك، هذا القريب، هذا البعيد.

بالمصرية : (نن)، (نف)، (نو)، (نا) = هؤلاء، أولئك، هاتيك...

بالوُكوف : (نى)، (نيه)، (نو)، (نا) = هؤلاء، أولئك، هاتيك، هؤلاء (على مسافة قريبة،

أو على مسافة بعيدة).

وقد تطورت أدوات الإشارة هذه فى كل من اللغتين المصرية والوُكوف وأصبحت أدوات تعريف. وهكذا أصبحت (پا) و(نا) ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة أداتى تعريف للمفرد والجمع. ومن بين أدوات التعريف السبع بالوُكوف المستخدمة حاليا والتى تقوم فى الوقت نفسه بدورها كأداة إشارة، هناك بالذات (بيه) و(با) و(بو)، وجميعها صيغة محورة لـ (پا) التى تحكم أغلب الأسماء فى هذه اللغة.

كما أن (نا) بلغة السيرير أداة تعريف للمفرد، وهى تستخدم فى اللغة المصرية للجمع (ربما نتيجة لخلط).

(نديد) = شمس (نديدنا) = الشمس

وتؤدى (نى) و(نيه) و(نآ) نفس الوظيفة فى الوُكوف كأداة تعريف للجمع (نا) باللغة المصرية. وعندما يجد المرء أن :

(نا) = ال بلغة السيرير (نا) = ال (للجمع) باللغة المصرية.

(نآ) = ال (للجمع) بالوُكوف

(نيت نى) = الرجال (هنا)

(نيت نآ) = الرجال (هناك)

فإنه يميل إلى اعتبار (نأ) مجرد تحوير لفظي لمقابلة (نا) المؤدية لنفس الوظيفة في اللغة المصرية. وستدرك هنا أقدم أشكال، بل ومنشأ مجموعات الحروف الساكنة التي يتغير عددها حسب التاريخ الخاص بكل من اللغات الزنجية التي نعالجها. فقد ظل أصل هذه الحروف الساكنة التي تحكم لفظيا أسماء اللغة، بلا تفسير، مما دفع المتخصصون إلى البحث عن ذلك في العقلية الزنجية في حد ذاتها. وأخيرا فإن (نى) و(نينو) أداتان للجمع في اللغة المصرية، شأنهما في ذلك شأن (نون) بالوُكُوف.

بالمصرية: (نى) = خاص بـ (مع اسم مفرد)

(نيو) = خاص بـ (مع اسم جمع)

بالوُكُوف (نيو) = خاص بـ (اسم مفرد)

(نون) = خاص بـ (اسم جمع)

وتستخدم (يو) في الوُكُوف بدلا من (نى). وقد رأينا من قبل أن (يو) تبدو مجرد تحوير لـ يو المصرية.

(يو)، (يوب) = خاص بـ ، الذي هو خاص بـ

وهكذا، فإن (النون) تقوم بوظيفة معقدة للغاية في الوُكُوف، كما هو الحال في اللغة المصرية. وقد لاحظ ذلك الدكتور ديرون نفسه «لقد تم الوصول شيئا فشيئا إلى (النون) الثابتة، لكل من المذكر المفرد والجمع في آن واحد، كما لو كان قد حدث خلط بين هذا الشكل المضمحل للصفة وأداة التبعية».

ويبدو أن فكرة الخلط هذه، التي يجب أن توضع في عين الاعتبار أصلا بالنسبة للتطور الداخلى للغة المصرية، قد قامت أيضا بدور أكبر في الانتقال من هذه اللغة إلى الوُكُوف. وإلى جانب أدوات الجر، تستخدم اللغة المصرية البديل في أغلب الأحوال للتعبير عن الانتساب. وتقبل لغة الوُكُوف، التي تطورت إلى حد كبير، إلى تجاوز هذه المرحلة، ولكنها لاتزال تستخدم حتى الآن البديل شأنها في ذلك شأن السيرير وكل اللغات الزنجية تقريبا:

(لات دور) = (لات) أو (لاتير)، ابن دور

وفي اللغة المصرية، عندما يتعلق الأمر بمثل هذا البديل، يأتي الاسم المقدس في المقدمة عند التدوين، ولكن الترتيب يعود إلى أصله عند القراءة.

فعندما يقال (بيت الرب)، كانوا يكتبون (الرب بيت) تهجيلا لاسم الرب الذي يجب أن تكون له الأسبقية على كل شيء.

وعند السيرير، حيث يعتبر الملك شخصية شبه مقدسة، يحظى مقره بنفس تلك الأسبقية.

(نبيم كام) = (بيت فى)، بدلا من (فى بيت)

ويستخدم هذا التبديل في ترتيب الكلمات كلما تعلق الأمر بتحديد وضع شيء ما عند الملك، وتلك هي الحالة الوحيدة التي يتم فيها اللجوء إلى هذا التبديل في لغة السيرير.

الضمائر الملحقه

وهنا نصل الى الضمائر الملحقه الشهيرة التي ساهمت جزئيا في اعتبار اللغة المصرية إحدى اللغات السامية.

وجميع تلك الضمائر، باستثناء ضمير واحد أو ضميرين، موجودة في لغة الوكوف، كما يتضح من الجدول التالي، حيث هناك خمسة ضمائر موجودة في لغة الوكوف بلا أي تغيير:

بالوكوف	بالمصرية
(مآ) = ها أنا (مع أحد أفعال القول)	(مآ) = ها أنا
(مآلجي) = ها أنا ذا، ها هو ذا منصرف الى ...	(مآك وي) = ها أنا ذا
(يو) = أنت	(تير) = أنت
(إف) = منه	(إف) = منه
(أوف) = منه	(أوف) = منه
(إس) = منه	(إس) = منه
مثال ذلك :	مثال ذلك :
سُمع منه = (دج - إف)	سُمع منه = (سجم - إف)
(دج) = سَمِعَ	(سدجم) = سَمِعَ
(إس) يماثل (إف)، وقد اختلف التدرج الوحيد الذي كان يفرق بين هذين الضميرين مع تغير طريقة التعبير عن المؤنث	(إس) = منها (مؤنث إف)
(نن) = نحن	(نن) = نحن، منا، لنا، نا
(نن) = الذي نحن	(تن) = أنتم، منكم، لكم، كم (مضافة للفعل)
(سونو) = نا	(سن) = هم (مع فعل لفاعل مفرد أو جمع)، منهم، هن، منهن...
(ين) = أنتم	
(سن) = تم (مضافة للفعل)	
(تن) = أنتم (بلغه السيرير)	
(سن) = هم .. الخ	
(دن) = هم (بلغه السيرير) .. الخ	

غير أن القرابة أقوى من ذلك، لأن هناك سلسلتين من الضمائر في اللغتين، عدا ضمائر التبعية أو المفعول. وسأقدم فيما يلي جدولين للمقارنة بين تلك الضمائر مع التنويه في كل مرة بتماثلهما الوظيفي.

والجدول الأول يهدف إلى عرض التماثلات التي جرت على الأرجح عند الانتقال من اللغة المصرية إلى الـكوف، وهو يتضمن إلى جانب الضمائر الملحقمة، بعض الضمائر المنفصلة، كما لاحظنا أعلاه. وعلى العكس فإن الضمائر الملحقمة باللغة المصرية في الجدول الثاني، تقابلها فقط ضمائر ملحقة بالـكوف.

بالـكوف

(نَا) = أنا
(نَجَا) = أنت
(إِف) | هو، ه
(أَوْف) |
(إِس) = مؤنث لـ إِف
(نَا) = هو
(نِن) = نحن (فى الشعر)
(نَانُو) = نحن
(نِجِن) = أنتم
(نَانُو) = هم

بالمصرية

(آ) أو (إِى) = أنا (مع فعل قول)
(إِك) = أنت
(إِف) | هو، ه
(أَوْف) |
(إِس) = مؤنث (إِف)
(نِن) = نحن
(رِن) = أنتم
(سِن) = هم

وتلحق هذه الضمائر بالأفعال فى كلتا اللغتين.

والضميران الملحقان (إِف) و(أَوْف)، يعبران بالأخص عن صيغة قديمة تعطينا فكرة عن المعنى الخاص الذى يجب أن تقابله هذه الضمائر الملحقمة فى تصريف الأفعال باللغة المصرية.

بالـكوف

(كِف) = أمسك بعنف، أنتزع كالطيور الجارحة
(كِف إِف) = لها المعانى الثلاثة الآتية حسب
المضمون:
أنتزع
أمسك شخص ما بـ (شئ)
فليُمسك

بالمصرية

(كِف) = أمسك بعنف
(كِف إِف) = الترجمة العامة (هو ينتزع) غير
صحيحة فى الواقع، ويجب أن
ترجم فى صيغة المبني للمجهول
(وفقاً للدكتور ديرون، ص ٣٥)،
وهو ما يعنى فى حالة فعل (كِف)،
كما جاء فى قاموس بول بييريه،
أمسك هو به، أنتزعه هو، أنتزع،
أمسك به

(فاك) = تجاهل شخصاً عمداً، أو بدافع الاشمئزاز أو لسبب آخر	(فاك) = خار عزمه، تفرز
(فاك - إف) = متجاهل من جانبه، من المجهول .. الخ	(فاك - إف) = متجاهل من جانبه
(ماما) = تسرع، جرى حتى تقطعت أنفاسه	(ماما) = جرى
(مام - إف) = تسرعوا .. الخ	(مام - إف) = جراه
(مى) = أعطى	(مى) = أعطى
(مى = إف) = أعطى من جانبه .. الخ	(مى - إف) = أعطى من جانبه
(پت) = رقص، (فت) = رقص	(پت) = حرك أقدامه
(فت - إف) = رقصه (هو)، فلنرقص .. الخ	(پت - إف) = فلنرقص

وجميع الأفعال المصرية الواردة هنا مقتبسة من قاموس بييريه المذكور آنفاً. ويبدو أن الصيغة المكونة من الفعل + إف تمثل الفعل باللغة المصرية عندما لا يكون تصريفه مع أى ضمير، أى أن هذه الصيغة كانت تقوم بدور المصدر. وهكذا يمكننا أن ندرك أن الطابع العمومى لهذه الصيغة مكناها من البقاء فى لغة الوكوف. ولو أننا أضفنا (أوف) بدلا من (إف) لأصبح تصريف الفعل فى الماضى باللغة المصرية، وربما كانت درجة معينة فى الماضى، لأن التصريف المصحوب بالضمائر المضافة لا يعبر فى كل من المصرية والوكوف إلا عن شكل معين من الماضى، ألا وهو الماضى المباشر، أما الإضافة (أوف) فتشير إلى الماضى البعيد.

(سدجم - أوف) = سَمِعَ، سَمِعَ .. الخ
غير أننا يجب أن نلاحظ أن النهاية (أوف) بالوكوف مرادفة لـ (إف)، ولكن النهاية الأولى تتميز عن الثانية بفارق يتعلق بالضمير.

(فاب) = أخذ

(فاب - إف) = فلنأخذ

(فاب - أوف) = فلنقم

وعليه فإن العناصر المكونة للماضى متحدة بالضرورة فى لغة الوكوف، ولكنها لا تعبر عن الفكرة عندما تكون منفصلة عن بعضها.

وستتطرق لذلك مرة أخرى، فيما بعد، بخصوص الماضى باللغة المصرية. ويتعين أن نبدى الآن ملاحظة لا تخفى أهميتها على أحد، ألا وهى أن مؤنث الضمير المذكور المضاف (إف)، هو الضمير (إس) فى اللغة المصرية.

وبعبارة أخرى، فإنه كلما أمكن استخدام (إف) باللغة المصرية، يمكن إحلال (إس) محلها، فيظل المعنى واحداً، على أن يكون الفاعل هو وحده الذي تغير جنسه، من مذكر إلى مؤنث.

ولكن كما رأينا منذ قليل، يوجد إلى جانب الضمير (إف) الملحق بالفعل في الـوكوف، ضمير آخر يبدو أنه لا داعي له - لأنه مماثل تماما للضمير (إف) من حيث معناه - وهو ليس سوى (إس) الذي صادفناه من قبل. فمآذا يمكن أن يكون هذا الضمير إن لم يكن راسباً للمؤنث المصري؟ ويستحيل نقض هذا الرأي بعد كل التحقيقات التي أجريت منذ قليل، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن نفس هذا الضمير بالمصرية، بلا أي تحوير، يقوم بنفس الدور كضمير للغائب، وبنفس المعنى ولنفس الجنس تقريباً، لأن ضمير الغائب بالـوكوف، شأنه شأن الضمائر الأخرى في هذه اللغة، يصلح للجنسين المذكر والمؤنث مادام قد تم التعبير عنهما بشكل متميز. ويوسعنا أن ندرك أن تطابق (إف) مع (إس) تحقق في الـوكوف منذ أن أصبح الجنس لا تعبر عنه نهاية الكلمة في لغة كانت جديدة التكوين، ولكن يربط فكرة المذكر أو المؤنث باسم الشخص المذكور الذي يراد تحديده جنسه.

ولنكرر هنا الأمثلة الواردة منذ قليل مع استكمالها بالضمير المؤنث:

بالـوكوف (كف)	بالمصرية (كف)
= أمسك، يُمسك	(كف - إف) = أمسك (هو)
(مأم)	(كف - إس) = أمسكت
ركب حتى تقطعت الانفاس	(مأم - إف) = ركبتُ (فعل متعدي)
هام	(مأم - إس) = ركبتُه
	(هام)
	(هام - إف) = صاحب الجلالة
	(هام - إس) = انحنى، انحنى
	تعبيراً عن الاحترام (بيبريه)
كما هو معروف فإن هاتين الكلمتين لا يمكن	هذه الكلمة كان يجب أن تعنى منطقياً

صاحبة الجلالة، حسب التفسير الرسمي، ولكن الأمر يشوبه عدم التيقن من ذلك.

أن يكون لهما سوى معنى واحد في الوكوف. ومعنى مصدر كلمة (هام) = عَرَفَ. وعليه فهما يعنيان المعروف، وهذا المعنى وحده قد يقصد به صاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة. وإذا طبقنا على فرد، يكون المقصود بذلك أنه من البلد، أو معروف، أو من أسرة محترمة، والمعنى المضاد هو أنه مجهول، من الخارج، ولا يعرف عنه شيء. ومن المؤكد أن الكلمة المصرية أقرب الى الكلمة الوكوف، ولا علاقة لها اشتقاقيا بصاحب الجلالة. وترجمة (هام إف) إلى «صاحب الجلالة» يقصد منها الوصل إلى معادل رسمي، لا مجرد الاشتقاق.

وندرک هنا الأصل التاريخي للعديد من تلك الترادفات والتطابقات في المعاني في لغاتنا اللاتني تشكل في الوقت نفسه مصدرا نفيسا لوثائق تاريخية.

وهكذا نكتشف في لغاتنا آثار مؤنث يأتي في نهاية الكلمة. ويدرك كل متخصص الأهمية الفلسفية لذلك.

وبوسعنا أن نواصل تحليل رواسب المؤنث هذه، وبالأخص المؤنث (بالتاء)، من خلال تركيب الكلمات. فقد نحقق في الكثير من الأحوال تركيب واقعي بين جذر الكلمة المصرية و(تاء) التأنيث عند الانتقال إلى الوكوف، إذ تحولت (التاء) إلى جزء لا يتجزأ من الجذر ذاته. وينطبق ذلك مثلا على تَحَوَّل (نوفرت) = جميلة (بالمصرية) الى (رافت) = جميل (بالوكوف). ومن العسير التشكيك في ذلك إزاء تطابق التعبير في اللغتين، مثل:

بالمصرية : (خيت نبيت نوفر) = كل أشياء جميلة

بالوكوف : (خيت يپ رافت) = كل أشياء جميلة.

ولنلاحظ، للتأكد من التطابق، أن كلمة (نپ) بالمصرية تكون مبنية عندما تعقب اسما موصوفا ليس مصحوبا بنعت.

بالمصرية : (خيت نپ) = كل الأشياء

بالوكوف : (خيت يپ) = كل الأشياء

حتى أن المرء يكاد يظن أحيانا أنه يتكلم نفس اللغة.

تصريف الافعال

لم نتناول حتى الآن سوى الضمائر المتصلة بالافعال. فلنصّرّف إذا فعل (كف) (باللغتين) لكى ندرك مدى التطابق:

بالوكروف	بالمصرية
(كف - نا)	(كف - إي) أو (كف آ)
(كف - نجيا)	(كف - إيك)
(كف - إف)	(كف - إف)
(كف - إس)	(كف - إس)
(كف - نا)	
(كف - نين) (فى الشعر)	كف - نين
(كف - نانوي)	
(كف - نجن)	كف - تين
(كف - نانيو)	كف - سين

نحن إذن بصدد نفس النوع من التصريف المعتمد على الحروف المتصلة بالفعل. والضمائر المستخدمة متماثلة تقريبا فى اللغتين، كما أن المعنى الذى يعطيه هذا النوع من التصريف واحد. ويتعلق الأمر بدرجة من الماضى عن طريق موضع الضمير المضاف بالنسبة لمصدر الفعل. والواقع أنه من المعتاد فى اللغة المصرية أن يترجم هذا النوع من التصريف بصيغة الحاضر، علما بأن هذه الترجمة خاطئة. وقد كتب الدكتور ديرون يقول بخصوص تصريف فعل سَمِعَ على هذا النوال: «إذا كان المعنى العام كذلك حقا، فإن ترجمته حرفيا تكون: سَمِعَ منى، منك، منه .. الخ» (ص ٣٥).

وبناء عليه، فإن العمود الأول سيعطينا باللغة المصرية، مع فعل (كف): أَمْسِكْ به منى، منك، .. الخ، وفى هذه الحالة لا يكون تصريف الفعل فى صيغة الحاضر، بل فى صيغة الماضى المباشر والمتقضى.

وذلك هو بالضبط المعنى الذى تعطيه الضمائر المتصلة فى العمود الثانى بالوكروف.

وهكذا يكون التطابق بين اللغتين المصرية والوكروف، فيما يتعلق بتصريف الأفعال المتصلة بالضمائر، من ثلاث نواحٍ: فنوع التصريف، والضمائر المستخدمة، والمعنى المقصود، هى نفسها فى اللغتين، مما يسمح لنا بأن نؤكد أن التطابق تام بينهما.

الضمائر المنفصلة

تستخدم الضمائر المتصلة على نطاق واسع في اللغة المصرية، ولكن هناك أيضا ضمائر منفصلة تشير في كل الأحوال إلى الفاعل وتسبق الفعل؛ وهي تعبر دائما عن قدر من التفخيم. والضمائر المنفصلة في لغة الـوكوف تتميز هي أيضا بنفس تلك السمات.

بالـوكوف	بالمصرية
(نك) = يكون، أكون؛ (نك - نا) = أكون انا	(إينوك)، (انوك) = أكون (انا)
(مآ) = أنا منصرف إلى	
(ما) = فلأ (انا)	
(يأنجى) = أنت منصرف إلى	(أنتك) = أنت
(نجا) = فلأ (أنت)	
(مينج، مأنجى) = هو منصرف إلى ...	(أنتف) = هو
(نا) = فلأ (هو)	
(إن) = نحن (باللغتين السيرير والليبو)	(إن)
(أن) = نحن (بالـوكوف)	= نحن
(أنو)	(إنو)
= نفس المعنى، بصيغة التفضيل	
(نأنو)	
(نولجى) = نحن منصرفون إلى	
(نجن) = فلأ (أنتم)	(نوتن) = أنتم
(ينأنجى) = انتم منصرفون إلى	
(نينجى) = هم منصرفون إلى ...	(نوتسن) = هم، هن
(نوم) = هم، هي	
(نانو) = فلأ (هم)...	

سمات أخرى مشتركة في تصريف الأفعال

تتميز اللغة المصرية بين صيغتين للفعل: المنجز وغير المنجز. وينطبق نفس الأمر على لغة الـوكوف، حيث يعبر التصريف المذكور أعلاه المتصل به الضمير، عن صيغة الفعل المنجز، ويعبر التصريف مع ضمير منفصل يسبق الفعل، عن الفعل الذى لم يتم إنجازه بعد: (مأنجى)، (يأنجى)، (مينجى)،

(نوني)، (ينالجي)، (ننجي).

ويقال لنا، إنه في حالة صيغة غير المنجز باللغة المصرية، يستمر تكرار الجذور والحروف الساكنة في آخر الفعل، على عكس ما يتم في حالة الفعل المنجز.

وبوسعنا أن نلاحظ تقارب ذلك مع مضاعفة الجذر في لغة الـوُكُوف الذي يتفق مع تكثيف فعل يجرى إنجازه.

ولكن، نظرا للقرابة الجلية بين اللغتين الـوُكُوف والمصرية، ونظرا للطريقة التي تعبر بها لغة الـوُكُوف عن صيغتي المنجز وغير المنجز، فإنه من الصعب أن نتصور أن اللغة المصرية تترجمهما بطريقة مختلفة إلى هذا الحد: ولذا فمن الأفضل التحقق من أن هذا التفسير لا يقوم على خطأ.

التعبير عن زمن الفعل

لا يقتصر الأمر هنا أيضا على مجرد قرابة بين اللغتين المصرية والـوُكُوف، بل هناك ما يكاد يكون تطابقا تاما بينهما.

تعبر اللغة المصرية عن زمن الفعل عن طريق حرف يضاف إلى مصدر الفعل. ولا ينحصر الأمر في كون الحال على نفس الترار في لغة الـوُكُوف، بل إن الحروف المضافة تتطابق تقريبا.

الماضي :

حرف (النون) المضاف إلى الفعل يشير إلى الماضي باللغة المصرية.

وقد عرفنا من قبل أن الأمر على هذا المنوال تماما بالـوُكُوف حيث يكون الحرف المضاف للفعل هو (أو)

بالمصرية: (مآ) = رأى (مصدر الفعل)

(مآ - ن - إي) = رأيت

(إي) = أنا

بالـوُكُوف: (دي) = رأى (مصدر الفعل)

(دي - أون - تا) = رأيت(*)

(تا) = أنا

(*) المقطع (دان)، (دون) المعبر عن تكرار الفعل في الماضي يتكون من : (دا) (مساعد إيجابي المعنى) + (أون) [إضافة للتعبير عن الماضي] = (دان) أو (دأون) وكثيرا ما تكون هناك حالة وسطى بإدخال (أو) صوتية بين الحرفين المتحركين. والاستثناء الوحيد المعروف هو (دينأ) أو (دانأ) = أنا (معبرة عن الإرادة) وتتضمن فعلا في المستقبل بالرغم من أن (دي) يقصد بها فعل سابق. غير أن (دي) ليست فعلا ذا معنى متميز ودقيق، بل بالأحرى فعل مساعد يبرر عن النية على الفعل.

وقد رأينا من قبل أن (أو) فى الـوُكُوفِ موجودة كذلك فى الماضى باللغة المصرية.
 بالمصرية : (كف - ن - إف) = أمسك (فى الماضى البعيد) وأمسك (فى الماضى القريب).

بالـوُكُوفِ : (كف - أون - إف) = نفس المعنى.

وعندما تستخدم (أون) بعد مصدر لفعل ينتهى بحرف متحرك، تلجأ لغة الـوُكُوفِ إلى استخدام (أو) «منغمة» بين المقطعين :

(قَاب) = أخذ؛ (فَابو) = قام؛ (فَابو «و» أون - نا) = كنت قد قُمتُ و(الواو) هنا شبه حرف متحرك.

المستقبل

يضاف المقطع (إن) الى مصدر الفعل «للإشارة إلى نتيجة ستحدث فى المستقبل» باللغة المصرية (د. ديرون، ص ٥٨).

وفى لغة الـوُكُوفِ يزدى إضافة الحرف المتحرك (إ) للفعل إلى معناه فى المستقبل: ويلغى هنا الحرف الصامت (ن) فى نهاية الفعل.

(بيج) = يحب

= الذهاب للبحث عن الحب؛ مستقبل ممتد

(بيج - إ)

= يحب مع الوقت، مستقبل زمنى (إذا جاز التعبير)

وهكذا تكون النهاية (ن) فى المقطع المصرى (إن) قد سقطت فى الـوُكُوفِ للتعبير عن المستقبل أو عن «نتيجة مستقبلية».

وفى لغة السيرير تقوم الأداة (إك) بنفس الدور تماما.

ونجد فى الواقع مستقبلا يعبر عنه الجزء (إ) (أو بدقة أكبر إ ممدودة) فى اللغة المصرية. وتلك هى الحالة بالنسبة للنعوت الفعلية فى صيغتها المستقبلية.

بالـوُكُوفِ

بالمصرية

(بيج) = يحب

(مير) = يحب

الذى = الذى

(مير - إ) = الذى سنجبه

(كونيو بيج - إ) = الذى سنجبه

والمقطعان (هر) و(كا) المستخدمان في النصوص الدينية وحدها، يضيفان على الفعل نوعا من النتائج المستقبلية.

ويوجد في الـوكوف مساعد للمستقبل، وهو (هال) الذي لا يختلف عن الجزء (هر) في القيام بنفس الدور إلا من حيث حركة اللسان نحو سقف الحلق. (دالجا هالا دف نالجان) = ستضطر الى فعل كذا...، عليك أن تفعل كذا...

غير أن التشابه أوقع مع لغة السيرير. فهناك المساعد (هل) الذي يقوم بنفس الدور في لغة الـوكوف.

ومن جهة أخرى، يتم تصريف المستقبل بإضافة (كا) إلى مصدر الفعل :
 بالمصرية : (هى - كا - سن ماسن تر) = سوف يسعدون عندما سيرونك
 بالسيرير : تصريف الفعل في المستقبل :

(مى نا هود كا) = أنا الذى سأصبح مزودا

(أو نا ماك كا) = أنت الذى ستصبح راشدا

(تن نا ماجن كا) = هو الذى سيصبح قويا

(إن أو نا ساديك كا) = نحن الذين سنصبح مغلقين

(نون أو نا سوهود - كا) = أنتم الذين ستصبحون شريرين

(دن أو نا ياد كا) = إنهم هم الذين سيصبحون كرماء

وفيما يتعلق بـ (هل) = فلنأخذ الأمثلة التالية :

بالمصرية : (أورد هر اييف غيرس) = وقلبه يصبح مثقلا بسبب ذلك ...

بالسيرير : (هل آم أو رت) = أنا فى سبيلى الى الرحيل

= يجب أن أرحل

= أنا مضطر الى الرحيل

= سأرحل

بالـوكوف : (داما هالا دم) = يجب أن أرحل

= أنا مضطر إلى الرحيل

= سأرحل

طرق التعبير عن المبنى للمجهول

« يبدو أن صيغة المبنى للمجهول قد تعبر عن الفعل المتعدى عندما تستخدم مع ضمير : (سدِّم -

إف) يمكن أن تعنى هو يَسْمَعُ، هو مَسْمُوعٌ». (د.ديرون، ص ٦١)

هكذا يفيدنا د. ديرون بأن الإضافة (إف) تضافى على الأفعال المصرية صيغة المبني للمجهول. وقد سبق أن أوضحنا أن نفس الأمر ينطبق على لغة الوركوف.

«ولكن عندما يكون الفاعل معروفا ولا تكون هناك بالتالي حاجة إلى ضمير مضاف، أو عندما يكون الفعل غير شخصي، يتميز هذا المبني للمجهول بإضافة المقطع (أو)». (د.ديرون، ص ٦١).

بالوركوف	بالمصرية
(دج) = سَمَع	(سِدْجِم) = سَمِع
(دج - أو) = سَمِع، مسموع	(سِدْجِم أو) = سَمِع
(ليك) = أكل	
(ليك - أو) = مأكول، مقضوم، يُؤكل ...	

والمقطع (تو)، كان في الأصل ضميرا متصلا، ولكنه التصق في نهاية الأمر مع مصدر الفعل ليصبح مبنيا للمجهول. وهكذا نجد باللغة المصرية أن :
(دجديه - تو نف رو بن) = قيلت له هذه الكلمة.

ونفس المضاف (تو) موجود في لغة الوركوف، ويقوم بدور يصعب تعريفه، وإن كان مرتبطا بفكرة تكرار المبني للمجهول.

وهو يُستخدم كلما كان المطلوب الإشارة إلى تكرار فعل من جانب فاعل يتصرف بشكل سلبي تحت وطأة عاطفة أو يبدأ في فقد السيطرة على ملكاته: هَوَس، أعراض جنون .. الخ، ومن هنا شئ من التحقير

(فاه) = تكلم (فاه - تو) = ثرثر، هذى، ناجى نفسه

إسم المفعول

المتعدى المؤنث مفرد أو جمع ينتهي في اللغة المصرية بـ (إيت).
ونفس هذه النهاية تعطى للفعل بالوركوف معنى المفعول به : مستخرج من، وارد من، مستخلص من :

بالمصرية : (جم - إيت م سنش) = موجود في مُدرج بردي
بالوركوف : (داج) = قَطَعَ، مقطوع
(داج - إيت) = قطعة، ماتم قطعه من ...
(داج - إيت أو جرمى) = سليل النبلاء، منحدر من النبلاء

«هناك نعت مأخوذ عن الفعل، قريب من المفعول به وقائم على عدم الإنجاز وينتهي بـ (تى) التى قد تختصر إلى (ت). وهذه النهاية تلحق بشكل مباشر بمصدر الفعل وتقبل الضمائر المتصلة المقابلة التى تتخذ هى نفسها فى المفرد النهاية (ي). وهذا النعت ينطبق على صيغتى المتعدى والمستقبل». (د. ديرون، ص ٦٤).

(سِدِّجِم - تى - فى) = الذى سيسمع

(سِدِّجِم - تى - سى) = التى ستسمع

ولقد سبق أن رأينا أن الـ(ي) أو الـ(إ) تضافى على الفعل معنى المستقبل. وينطبق نفس الأمر على (سى) التى يبدو أنها ليست سوى راسب لنهاية الفعل المصرية المكونة من الضمير المتصل المفرد والمؤنث (س) و(ي).

وهكذا تكون نهاية الفعل بالوُكُوف مجرد راسب للمؤنث المفرد المصرى :

(بَاه) = (يكون) طيبا

(بَاه - إ) = (الذى) سيكون طيبا

(بَاه - سى) = (الذى يبدأ فى أن يكون طيبا)

(الذى) فى سبيله الى أن يصبح طيبا.

وهناك فئة من النعوت الفعلية التى لا يمكن ترجمتها إلا الى جملة موصولة، ومن هنا يأتى الاسم الموصول للفعل الذى أعطى لتلك النعوت. وفى ذلك أيضا تطابق نحوى بين اللغتين:

بالمصرية : (مير) = يحب

(مير - أو) = محبوب

(مير - أو - إن) = شخص كان محبها

بالوُكُوف : (بيج) = يحب

(بيج - أو) = محبوب، جدير بأن يُحِب

(بيج - أو (ث) - أون) = كان محبها

وهناك مصدر قديم للفعل لم يعد يستخدم إلا للتفخيم فى المرحلة الكلاسيكية؛ وهو ينهى جميع الأفعال بحرف (التاء). ولكن عندما يكون الفعل منتهيا بـ (إ)، فإن هذه النهاية إما تُشدّد قبل التاء، أو تزول لتحل محلها (أو).

وستتناول فيما بعد مسألة صيغة المصدر المنتهية بـ (أو).

ولننوه هنا «بالأهمية الكبرى التى تولى لاسم المفعول المبني للمجهول، إذ أن هناك ميلا الى اعتباره مصدر أغلب الصيغ الفعلية ... كما أن هناك ميلا إلى اعتبار اسم المفعول المبني للمجهول

أصل الصيغتين (سِدِّمُ إِف) و(سِدِّمُ نِف)». (د. ديرون، ص ٦٧).
بيد أنه بوسعنا أن نلاحظ بما سبق أن هناك تطابقا شبه كامل مع لغة الوكوف في مجال اسم المفعول
المبنى للمجهول.

وهناك صيغ شبيهة باسم المفعول بالنسبة لضمير المتكلم والغائب المفرد، ظلت قائمة في لغة الوكوف
واتخذت طابعا عاما. وقد اختلطت الصيغة الخاصة بالغائب مع (أو) الخاصة بالمبنى للمجهول. بينما
يبدو أن الصيغة الخاصة بالمتكلم أعطت :

بالمصرية : (سِدِّجِم - كُو - إِ) = أنا وقد سَمِعْتُ

بالوكوف : (ثَلْبِيْتِي - كُو - نَا) = أنا وقد استدرت، استدرت

وباختصار، يمكننا وضع جدول مقارنة لبعض الأدوات التي تناولناها من قبل لكي تتجلى لنا مدى
القرب بين اللغتين المصرية والوكوف.

بالمصرية	بالوكوف
(أو) = متصلة للتعبير عن المجهول	(أو) : متصلة للتعبير عن المجهول
(تو) = متصلة للتعبير عن المجهول	(تو) : متصلة للتعبير عن المجهول، تتخذ الى حد ما شكل الضمير
(إِ) = متصلة للتعبير عن المستقبل	(إِ) : متصلة للتعبير عن المستقبل
(إِن) = متصلة تعبر عن الماضي	(إِن) : متصلة تعبر عن الماضي
(كُو) (إِ) : شبه اسم مفعول	(كُو) : ما يعادل شبه اسم مفعول
(إِف)	(إِف)
(أَوْف) أدوات للمبنى للمجهول	(أَوْف) أدوات للمبنى للمجهول
(نِف) الى جانب معان أخرى لها	(نِف) الى جانب معان أخرى لها
(إِس)	(إِس)
(بو) : أداة نفى	(بو) : أداة نفى (انظر أدناه)
(نِن) : (انظر أدناه)	(نِن) : عدم، الخ ...
(إِيْت) : أداة ذات معنى غير محدد	(إِيْت) : متصلة تدل على راسب الفعل

الأفعال المساعدة وأدوات النفي

في كل من اللغتين المصرية والوكوف، فإن الأدوات المساعدة «أفعال تضاءلت الى حد ما، وانحى
معناها الحقيقي، ولم تعد قائمة إلا كأدوات مساعدة في بناء الجملة. وبعض هذه الأدوات يؤكد على

الجانب السردى». (د.ديرون، ص ٧٢).

ومن بين الأفعال المساعدة المصرية الخمسة التى ذكرها د. ديرون، هناك أربعة منها لها مقابلها الأكد في الـكوف : والحالة الخامسة أقل وضوحا.

الفعل المساعد الأول

بـالـكـوف		بـالمـصرىة
بلغ		(إبر) : حدث، غدا
(نبيير) : حدث، غدا، بلغ		

« و(إبر) التى نصادفها على نطاق أوسع والتى كانت تعنى أصلا شيئا مثل حدث، غدا، أضحى، تدهورت حتى أصبح معناها: إنه، ها قد، هناك، ذلك أن، وعليه». (د. ديرون، ص ٧٢).

الفعل المساعد الثانى

بـالـكـوف		بـالمـصرىة
(نى) أو (نك) = تواجد ، وجد نفسه		(أونن) = توجد، تواجد

وكثيرا ما نصادف الفعل المساعد الثانى (أونن) هو أيضا. ومعناه الحقيقى، تواجد، فى صيغة فعل مستقل. وقد يخفف تدريجيا ليكون معناه وجد نفسه ثم مجرد «ها قد، وعليه، مع لمحة متوارية تشير إلى المستقبل» (المرجع السابق، ص ٧٣ و٧٤).

(أو نيف هور سودجيم) = سيجد نفسه يسمع
= وعليه سيسمع

ويستخدم الفعل المساعد بالكوف بمعنى مقارب ويمكن أن يكون معناه أن يكون منصرفا الى :

يجد نفسه يسمع		(نى دى دج)
يكون منصرفا الى السماع		(نك دى دج)

وعلى غرار (أونن)، فإن نك أو نى يستخدمان أساسا للسرد (الحواديت)

بـالمـصرىة : (إيون نديس دجدي رتيف) = كان ياما كان برجوازى (يدعى) دجدي

بـالـكـوف : (نكون - نانى) = كان ياما كان ...

الفعل المساعد الثالث

بـالـكـوف		بـالمـصرىة
(تهار) = قام، انتصب، راح يه		(إيهى) = انتصب، قام، راح يه

«يتخفف تدريجياً المعنى الحقيقي لـ (إيهى)، وهو قام، انتصب، عندما يستخدم كفعل مساعد ويصبح راح ي... (نفس المرجع، ص ٧٤) (إيهيين سد چيموف) = وقف هنا وسمع.
والفعل الوركوف الذى يبدو مطابقاً لـ (إيهى) وهو (تهاو) الذى يعنى قام كما رأينا منذ قليل، انتصب، وقف على قدميه، وبناء على ذلك: راح يفعل كذا، وانشغل فى:
(تهاو تيلف) = ينشغل به

الفعل المساعد الرابع

بالمركوف		بالمصرية
(دى) = يعبر عن إرادة التأكيد على عمل سيتم فعلاً الأقدام عليه.		(دى) = أعطى، سمع، عمل

وقد تحول الفعل المساعد (ردى) إلى (دى) باستبعاد الراء المدغومة، وهو يعنى أعطى، سمع، عمل. وهذا الفعل المساعد موجود حرفياً فى الوركوف ويعبر عن نية العمل : (دى) أو (دا) عن طريق الاستيعاب الارتدادى انطلاقاً من (دى - نا) أو (دا - نا)، وبالتالي (دا)، وهو الفعل المساعد المستخدم عادة بالمركوف والسراكله، وهو فعل مساعد حقيقى يعطى طابع التأكيد على العمل المزمع القيام به، سواء تعلق ذلك بأمر يصدر من أجل إنجاز عمل، أو تعلق بقراؤ حاسم أخذ فعلاً للقيام بعمل.

ولا يمكن تصور استخدام (دى) أو (دا) إلا بخصوص شئ سيتم عمله أو فعل.

بالمصرية : (دى - نى رنك إرت) = جعلك تفعل، سمحتُ لك به

بالمركوف : (دى - نا دِف نالجمام)		= سأقوم فعلاً بعمل هذا الشئ
(دا - نا دِف نالجمام)		

الفعل المساعد الخامس

الفعل المساعد (پاو) باللغة المصرية يؤكد عملاً تم من قبل. وكلمة (داو) تعنى بالمركوف العام الماضى.

وهذا التقارب ليس سوى مجرد اقتراح، ولا مجال هنا لتصور التقاء أكيد.

أدوات النفى

ويتعلق ذلك بالأداتين نِن وِو المذكورتين فى الجدول المقارن بين الأدوات.

و(نن) «يمكن أن تترجم حرفيا بجملة نافية يكون فيها فعل (نفي) هو نفسه الفاعل،

مثل: «... هو شيء لا وجود له». (نفس المصدر، ص ٧٨)

ولا يوجد تعريف خير من ذلك للكلمة الماثلة (نن) بالوكوف.

(نن) = العدم، اللاشيء، اللاموجود، ما لا يمكن أن يكون إيجابيا.

(ليجاري تى جين) = العمل تطوعا.

(نداه دسول أج نن لا) ؟ = هل هو عدم، هل هو غير موجود، كل ما هو ليس مرثيا بالنسبة لنا؟

فلنقارن هذين المثليين بالوكوف مع الجملة المصرية التالية:

(نن أو نن ياهوى فى) = ونهايته ستكون شيئا لا وجود له.

و(بو) أداة نفي بالمصرية معناها لا (قاموس پيبريه).

ونفس هذه الأداة تقوم بنفس الدور فى الوكوف والسيرير

بالوكوف: (بُول) = لا.

(بُول دن) = لا تذهب (أمر ناه).

بالسيرير: (با) = لا.

(با - إت) لا تذهب (أمر ناه).

والأداة (تر) التى تعنى: أحقا؟ بالمصرية تأتى بعد ضمير استفهامى؛ ومن الممكن أن تلحق

بالضمير الاستفهامى (پوتى) لتعطى الاستفهام (پوتر).

والضمير الاستفهامى المقابل لـ [WHICH] بالانجليزية و [LEQUEL] بالفرنسية هو (اوم ..ته)

بالسيرير و(اوم ... تى) بالوكوف.

(بور) = ملك؛ (بو (ب) إ) = الملك.

(ب) أوم (أر) تى = أى ملك هو؟ أو (ب أوم تى) وهى الصيغة المدغمة.

مميزات الموصوف

فى اللغة المصرية كما فى لغة الوكوف، يمكن أن يكون الموصوف فى آن واحد فعلا ونعتا. فلا

يوجد مصدر، بالمعنى المفهوم فى اللغات السامية والهندو-أوروبية.

ولذا لا يمكن أن نقول مثلا بالمصرية أو الوكوف جميل فقط، لأن النعت يشمل الفعل ضمنيا؛

بالمصرية: (نوفرت) = (تكون) جميلة.

بالوكوف: (رافت) = (يكون) جميلا.

وهكذا فإن اللغتين المصرية والوكوف وكذلك اللغات الزنجية عموماً تمنح النعت البسيط في اللغات الهندو - أوروبية والسامية، مهمة وظيفية تتضمن في آن واحد، في شكل تركيبى إذا جاز القول، كلاً من النعت والفعل والموصوف (فاعلاً أو مفعولاً). وبفضل قواعد النحو الخاصة بلغاتنا لا يوجد أى ليس أبداً حول الوظيفة التي تؤديها الكلمة في النص. فهي تقوم أمام الفعل بدور الموصوف.

بالمصرية : (نوفرت إيتى) = الجميلة مقبلة.

وقد تحول هذا التعبير في نهاية الأمر إلى اسم امرأة: الملكة نفرتيتى.

بالوكوف : رافت ديك = الجميلة مقبلة.

تكوين الاسم بتكرار الجذر

تتضمن عبقرية كل من اللغتين الوكوف والمصرية تكوين الأسماء بتكرار الجذر. ففي الوكوف مثلاً هناك : دوج = قَطع؛ دوج دوج = قَطع.

بالمصرية	بالوكوف
نفتف = رغبة جامحة	نفتف = رغبة جامحة، الولد حتى الارتجاج
ينين = جعل الماء يندفع من منبع	يليل = نبع، اندفاع الماء من منبع
	يل = منبع
	ينين = حفرة
ههب = الطواف في البلد مع القنص	ههب = السير بحزم هنا وهناك
ههم = ابتهاج ، صيحات دينية	ههم = معرفة تنجيمية، تنجيم، دينى، علم، تبحر
	في العلم
هاتتا = يتعجل	هاتاراتا: يتسرع
ههب = ماء يتعوج بشدة ، فيضان	ههب = ماء يتموج بشدة، ماء يفيض
زروس = يبنى	كوسكوس = يعكف على إنجاز شئ بمشقة
رهه = (؟) المؤلف غير متأكد من المعنى (بييريه)	رههله = تلميح واضح

هل يمكن إعادة صياغة قواعد اللغة المصرية القديمة على أساس لغة الوُكُوف ؟

أعتقد أنني توصلت الى تحديد السمة الأساسية المميزة لأغلب اللغات الزنجية، إذ يبدو أن كافة القواعد الحالية لتكوين الكلمات والتعبيرات التي تطرأ على تركيبها حسب وضعها في الجملة ناشئة بالذات (*) عن مقتضيات صوتية «متناغمة»، بل وموسيقية. ومن هنا نبعت كافة الصيغ «الاسمية» التي ينتج عنها الأساس الصوتي لكل طرق التعبير عن اسم الإشارة والملكية والوصل والجمع .. الخ. ومع أن علم النحو والصرف تابع عن المنطق، إلا أنني أقصد بتلك القواعد العلاقات القائمة بين كافة الكلمات والمجزئيات التي تنصدرها أو تلحق بها؛ وهكذا فإن الماضي المباشر والبعيد تعبر عنهما بكل بساطة أسبقية الفعل على الضمير المضاف : (لك نا) = أكلتُ كما أن الدلالة على التبعية أو الملكية يمكن أن يعبر عن كل منهما مجرد وضعهما بالنسبة للكلمة، ليس إلا.

وتنطبق كافة تلك الملاحظات المتعلقة بقواعد النحو الوُكُوف على اللغة المصرية القديمة. ولكن هل تتوفر في اللغة المصرية القديمة تلك الثنائية بين تكوين الكلمات وتناغمها، وبين النحو والمنطق، التي يؤكددها واقع اللغات الأفرريقية؟ إذا كان الأمر كذلك فإن التماثل يكون كاملاً بين اللغة المصرية واللغات الزنجية. وعليه فإن دراسة تلك اللغات تتيح لنا إمكانية التعرف على قواعد اللغة المصرية وتحديددها. ولا مجال للشك في أن قواعد النحو موجودة في اللغة المصرية القديمة كركيزة للمنطق أو كنتاج له؛ وقد سبق أن تعرفنا منذ قليل على الدور المتميز الذي تؤديه تلك القواعد في التعبير عن الأفكار. فالمضمون في اللغة المصرية القديمة يتبع هو وحده تحديد دور كل كلمة بلا أي لبس. وعليه ، لا يبقى لنا إلا التعرف في مجال «الصوتية» على قواعد مشابهة لتلك التي تحكم اللغات الزنجية الأخرى.

وأعتقد أنني توصلت إلى ذلك. فتكوين الأسماء بالوُكُوف يتم عن طريق تغيير الحرف الأول. فالفعل أو النعت الذي يبدأ بـ (إ) أو (إ! ممدودة) يتحول في الـوُكُوف إلى اسم إذا أضيف إليه حرف الكاف في بدايته.

(*) وبالأخص الأجزاء المتغيرة من الخطاب.

(إيانو) | حَمَلٌ عَلَى الرَّأْسِ ؛ (كينو) = عمود
(إيبينو)

(أنيان) = حاسد، حَسَدًا ؛ (كانيان) = الحَسَدُ

وفيما يتعلق بالمثل الأول نجد في مقابل ذلك باللغة المصرية :

(إينى) = حَمَلٌ عَلَى الرَّأْسِ (تعريفى للسيتان ، ديرون ، ص ٦٣ - ٨٧)

(كينو) = عمود (قاموس بيبيريده)

وهناك أيضا بالولوف :

(باه) = طيب ، طيبة ، عادة ، تقليد ؛ الختان « باه » عندنا .

(مياه) = طيبة

وباللغة المصرية :

(باه) = ما تم إقراره من قبل ، عُرف ، ختان ، وفرة ...

(مياه) = عُرف ، تمثال (رمز للسلف المتوفى وسط الأحياء)

وهذه الحروف الساكنة التى تنصدر الكلمة فى لغة الـوُكُوف لها قيمة صوتية تخضع تبدلاتها

لقوانين محددة.

فهل يمكننا الاستدلال على أن الأمر كذلك فى اللغة المصرية ؟ تلك هى القضية . ولذا يبدو أن القيام ببحوث جديدة حول نوع القواعد التى تحكم اللغة المصرية سيكون مشمرا إذا ما تم إجراؤها فى هذا الاتجاه، حتى وإن كانت الثنائية بين التناغم والنحو تقوم أصلا بدور ليس أساسيا الى هذا الحد لأن مجال التناغم محدود بقدر أكبر.

تطور الحروف الساكنة

لقد استخلصت قاعدة عامة توضح أن الأفعال السيرير المنتهية بـ (آند) أو (إيند) تقابلها أفعال

وُكُوف تنتهى بـ (آل) .

بالسيرير : سينة (موكيند)
ساق ، تلا | سالوم (موكاند)

بالوُكُوف (موكال) = ساق ، تلا

(سوتيل) أو (سوتال) = أنهى

وهكذا سقطت (الدال) التى ينتهى بها الفعل وأصبحت (لام) ، فأعطتنا الكلمة بالوُكُوف. والمطلوب الآن أن نثبت أن الانتقال من الكلمات المصرية إلى الكلمات الوُكُوف يتم بآلية مماثلة. وهناك بالفعل مثال واضح وأكيد، حيث تحولت (النون) المصرية إلى (لام) بالوُكُوف. وهذا الأمر نجده فى اللغات الهندو-أوروبية، وبالطبع ما كان يمكن أن نتجاسر ونستخلص أى استنتاج من ذلك لولا أن مجموع الوقائع التى تم تبينها خلال تلك الدراسة كان معترفا به مقدما. ولكن، بالنظر إلى كل ما جاء

من قبل فإنه قد يكون من المسموح به أن نستدل من ذلك أن (النون) المصرية كانت تلفظ على أطراف الأسنان. وهذا ما تؤكد على ما يبدو الأمثلة التالية:

بالرؤف	بالمصرية
(لت) = ضفيرة	(نبت) = صغيرة
(ليتو) = ضَفَّر بنفسه	(نبتو) = ضَفَّر ،جدل
(بليل) = تَدَقَّق الماء من منبع	(بِنين) = دَقَّق الماء منبع

والدراسة المقارنة بين مفردات اللغتين المصرية والرؤف تكشف عن العديد من التطابقات بين الحروف الساكنة المصرية والرؤف، غير أنني أفضل أن أكتفى بمسألة تحوّل (النون) الى (لام) لكونها تتميز بصعوبة دحضها المصدر المنتهى بـ (أو) يلتقى الفعل بالمصرية والرؤف في صيغتين: إما أن يكون جذره (نر) أو أن ينتهي هذا الجذر بـ (أو).

بيد أن يبيّره يعطى بصفة عامة معنى واحدا للصيغتين في قاموسه المصرى وذلك بالرغم من الفارق بينهما.

ولما كنا قد نوهنا آنفا بأن مصدر الفعل الذى ينتهى بـ (أو) فى الرؤف يشير الى تصريف الفعل مع ضمير الفاعل، فإنه من المناسب أن ننظر فيما إذا كان الأمر على هذا المنوال فى اللغة المصرية؛ مما سيعنى عدم جدوى المسلمات الألمانية. فهذه المدرسة التى فرضها زيتة [SETHE] لكى يثبت على الأقل أن اللغة المصرية كانت لغة سامية (مما يستبعد مؤقتنا الواقع الزنجي لمصر ويرضى الغربيين تماما)، تقرر كحقيقة مُنزلة أنه لا توجد حروف متحركة فى اللغة المصرية وأن ما نصادفه من حروف متحركة [a, i, u, k...] يجب اعتبارها حروفا ساكنة، تماما كما لو قلنا إن الشمس ليست، شمسًا، بل إنها فى الواقع قمرًا، أو لو قلنا بنفس الثقة العلمية إن النهار فى الواقع هو الليل ... وقد تطورت هذه النظرية ووصلت إلى أوج نضوجها وازدهارها فى شكل النظرية «الحامية - السامية» لكونها تلبى حاجة معنوية فى الغرب.

بالرؤف	بالمصرية
(دام) = امتدح كذا، مدح ، مديح	(سام) = مَدَح، مديح
(دامو) = امتدح نفسه	(سامو)
(كيپ) = قرص	(كيب) = خَبَأ ، تخفى
(كيپو) = قرص نفسه	(كيبو)

(سِر) = صرخ بقوة
(سِرُو) = صاح بكل قواه . وفي هذه الحالة، يضع
المرء في أفريقيا يده أمام فمه، لكي
يحمى نفسه من الأرواح التي يمكن أن
تتسرب إلى جسده عن هذا الطريق.
وينطبق ذلك على الثناؤب لأن عدم اتخاذ
هذا الإجراء قد يدفع أحد الأرواح إلى صنع
الشخص، مما يتسبب في «التواء» الفم
(كآن) = مجد
(كانو) = تفاخر؛ وهو فعل لا يمكن تصوره
بدون كلمات إيقاعية مصحوبة
بالرقص كلما كان ذلك متاحا
(يان) = ساعد على الحمل
(يانو) = حمل
(دان) = أسقط ، هزم
(دانو) = وقع
(چن) = خرج
(چنو) = المكان الذي يتم الخروج أو الانسحاب
منه.
(سِن) = رأى
(سنتو) =
(سنو) = تفحص المكان بناظره

(كِسْر) | تستخدم من أجل صوت
مرتفع بل والصراخ أيضا
(كِسْرُو) | رجل يضع يده أمام فمه

(كانو) = تصايح؛ يتم التحديد
بشخص يستعرض نفسه
بحركة إيقاعية

(سن) | رفع ، نقل
(سنو)

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن (السين)
في بداية الفعل باللغة المصرية لها

معنى سببي

(كسام) | سقط
(كسامو)

(كسن) | دخل ، توغل
(كسنو)

(سَنُو) = دورة ، محيط

(سنتو) = زار ، راقب

وهذه الملاحظات حول مصدر الفعل المنتهي بـ (أو) ، وما جاء من قبل حول صيغة المستقبل
المنتهية بـ (إ) ، لا يسمحان باعتبار هذين الحرفين المتحركين حروفا ساكنة ضعيفة، كما يُزعم، بل
كإضافتين تقومان بدور محدد تماما.

الحروف المُلزِنة (*)

لما كانت اللغات الزنجبية - ومنها لغة الـكُوف بالأخص - لغات مُلزِنة، فإنه يتعين أن نشير إلى أن تلك السمة مشتركة بينها وبين اللغة المصرية القديمة. ولذا نذكر بهذا الصدد الكلمات المصرية التالية التي لا يمكن التعبير عنها بالفرنسية إلا باستخدام عدة كلمات :

(ديدو) = التي تم إعطاؤها

(دجديدي) = الذي قيل له

(دجديت) = ما جرى قوله

(هيرو) = الذين عاشوا

ولنقارن ذلك بالـكُوف:

(أب) = استعار

(أباتا لاتاليتي)

(لُو)

(أبوديكوغو)

من النوع الذي لا يمكن إعارته

شيئا ...

راح يستعير للمرة الثالثة لشخص

الإعراب

إذا كان هناك مجال يتجلى فيه التشابه بين اللغتين المصرية والـكُوف، فهو مجال الإعراب : « في الجمل الفعلية، يكون ترتيب الكلمات كما يلي: الفعل، الفاعل أو الضمير المشير إلى الفاعل، المفعول به، المفعول المتعدى إليه بحرف، المفعول المسبوق بجملة أو عبارة ظرفية » (د. ديرون، ص ٨٦).

وهذا الترتيب يماثل ترتيب الجملة الـكُوف ، ويعود في رأبي الى التصريف الذي يتم عن طريق إضافة لاحقة:

(يوت)	(نا)	(نالجمام)	(ديف)	(هاراب)	(سان جام)
أحضر	تُ (أنا)	الشيء الفلاني	الى فلان	في المكان	الفلاني
(الفاعل)	(الفاعل)	(مفعول به)	(مفعول متعدى اليه)	(مفعول فيه)	

ومن المهم أن نعيد الى الأذهان أن التعبير عن الماضي لا يتم عن طريق تعديل الشكل الأصلي للفعل ولكن من خلال أسبقية وضع الفعل بالنسبة للفاعل.

(سيمي)	(سيش)	(سيشيتا)	(ين نى نابف)	(ام نيوت ين)
ذكر	الكاتب	هذا السر	لرئيسه	في تلك المدينة
(الفاعل)	(الفاعل)	(مفعول به)	(مفعول متعدى اليه)	(مفعول فيه)

(*) ويُقصد بها الحروف التي يلتصق اللسان عند نطقها بستف الحلق.

النوع الثاني من الإعراب

(هايك) (سيش) (دجيدف) (ساخيرك)
أرسلت (ت) (أنت) الكاتب لكي يقول ما هو قصدك
وها هي ترجمة تلك الجملة بالولوف :

(يونى) (نجبا) (بينداكات - بى) (مو) (قاه) (سا) (سوهلا)
أرسلت (ت) الكاتب هو يقول ك مقصد

وهكذا يتبين لنا أن اللغتين المصرية والولوف تستغنيان أو يمكنهما الاستغناء عن الاسم الموصول
حيثما يكون ضروريا في اللغات الهندو - أوروبية حتى يكون المعنى مفهوما، وذلك فيما عدا اللغة
البريتانية. غير أن هذا الاستثناء يؤكد في نهاية المطاف كل ما نعرفه عن تاريخ بريتانيا والأحجار
الضخمة المنصوبة (الميجاليت) وتأثير الفينيقيين - وهم شعب زنجوى - في هذه المنطقة في العصر
الإيجي.

النوع الثالث من الإعراب

يتم تغيير ترتيب كلمات الجملة باللغة المصرية «عندما يكون الفاعل ضميرا مستقلا، يتضمن
دائما استخدامه قدرا من التفخيم، ولكن بالأخص عندما يسبق الفعل ضمير المتكلم أو المخاطب أو
الغائب» (د. ديرون، ص ٨٨)

وتنطبق هذه القاعدة بحذافيرها على الولوف، وهي تغنينا عن التكرار. فلننتقل إذن إلى أمثلة
لذلك لكي نتقنع:

بالولوف	بالمصرية
(مان) (چن - نا)	(اينوك) (پيره - نى)
أنا خرجت	أنا خرجت

كما أن ترتيب الكلمات يؤدي الى نفس التغييرات النحوية في اللغتين.

فالحير يسبق المبتدأ في كلتا اللغتين ولكنه يأتي بعده في الجمل الوصفية:

بالولوف	بالمصرية
(رافت) (بير)	(نوفر) (إيبى)
جميل قلبى (حرفيا : جوفى)	جميل قلبى
(نا) (رافت)	(نوفر) (اوقى)
جميل أنا (أكون)	جميل أنا (أكون)
(مان - چى) = ها انا ذا	(ماك) (وى) = ها انا ذا

ماك (وى) (مباحيك) = أنا ذا أمامك	مان چى نى تى سا كانام = ها أنا ذا أمامك
اكتشفتُ (أنته) كان يعرف ذلك	هامون - نا ييج ناكو
	كنت أعرف (أنه) على علم

التعبير عن المؤنث

كما لاحظنا ذلك من قبل ، كان المؤنث بالمصرية عن طريق إضافة حرف التأنيث فى آخر الكلمة فى طريقه الى الزوال بعد قيام الدولة الجديدة؛ فلم يعد العديد من الكلمات يحمل أى علامة تشير الى الجنس. وهكذا تم اللجوء الى كلمتى «رجل» و«امرأة» لتحديد المذكر أو المؤنث. وقد تواصلت تلك الطريقة فى الإشارة الى الجنس بأن عمت فيما بعد فى اللغات الزنجية المنحدرة عن اللغة المصرية.

وقد سبق أن أشرنا الى أن أدوات التأنيث التى كانت تحدد الجنس فى اللغة المصرية ظلت قائمة فى لغة الولوف. وقد فاتنا أن نقول إن أدوات التأنيث هذه كانت لا تلحق فقط بالأفعال فى كل من اللغتين المصرية والولوف، بل وأيضا بمقاطع أخرى، ومنها أدوات الجر .. الخ. ففىما يتعلق بـ (إس) و(إف) ، لدينا بالوكوف:

(ك - إس دور) = من الذى (أو التى) ضُرِبَ (أو ضُرِيت) ؟ - و (ك) مشتقة من (كان) = مَن.

(ك - إف دور) = نادوة الاستخدام

وامتدادا لذلك النهج، وتعميما له نجد:

(ف - إس ديم)	إلى أين نذهب ؟ - و (ف) مشتقة من (فان) = أين
(ف - إف ديم)	

(ل - إس فاه)	ماذا قيل ؟ - و (ل) مشتقة من (لان) = ماذا
(ل - إف فاه)	

وكذلك بالنسبة لتكوين الأسماء :

(مبيئد) = كتب (وهذا المصدر المحلى يثبت أن الكتابة لم تفد الى افريقيا مع العرب أو

الاستعمار الحديث).

(مبيئد - إف) = ما كتبه الله أو أملته الطبيعة = الخليقة = الشكل الذى خُلِق.

ويوسعنا أن نتكهن ، من شكل تلك الكلمة الولوف أن المعبود الذى ترجع اليه أصلا هذه الخليقة

لاهد أن يكون مذكرا وذلك بمقتضى الإضافة (إف المتفقة مع حالات التذكير باللغة المصرية.

وانطلاقا من نفس هذا المصدر لدينا الصورة التالية :

(مبيئد - أ - ف - أون) وهى تعنى نفس الشئ ولكن مع التأكيد بدرجة أكبر على الماضى.

ونلاحظ هنا تجاوز اللاحقة (إف) والإضافة (أون) التي تشير الى الماضي

وهناك أيضا:

(قاه) :تكلم

(قاه - ت - إف) = الذى لا يذكر اسمه من باب التطير.

(سدجم- ت -إف) = ساحر ، آكل البشر.

وأداة النفي يثها هنا حرف التاء (*).

وكما سبق أن قلنا فإن هذه الصيغ، التي يتفق كل اثنين منها مع أشكال من الحشو، كانت تتميز أصلا بجنسها، كما هو الحال فى اللغة المصرية.

وهكذا نجد أن كافة العناصر الدالة على المذكر أو المؤنث فى اللغة المصرية موجودة فى لغة الولوج، فيما عدا ما يتعلق بالمخاطب المفرد المؤنث الذى تلاشى.

وهناك بالأخص تمييز الجنس باستخدام كلمة الذكر أو الأنثى، فهو لا يشكل اختلافا بين اللغتين، بل إنه على العكس سمة قرابة أخرى بينهما. وهكذا جانب التوفيق من أرادوا أن يستتجوا من ذلك اختلافا فى أصل اللغتين.

ملاحظات حول بعض الكلمات المصرية القديمة المتميزة

تعنى كلمة (كبير) بالمصرية، مكان إقامة إيا كان، وفقا لأميلينو (مهيئات لدراسة الديانة المصرية) أو جناحا لأوزيريس أو قمره فى مركب شمس.

وتعنى كلمة (كبير) بلغة الولوج، مسكنا، منزلا ، بيتا.

ومن المعروف أن (كبير) تعنى كذلك مسكنا باللغة البريطانية، ولكننا نعلم أيضا مدى النفوذ الفينيقى (الزنجوى) على هذه المنطقة فى العصر الإيجى.

وتعنى (بير) بالمصرية سيجا (سياج ذو اربعة أضلاع فى أغلب الأحوال) «مجدول، أى أنه يقام بتشابهك أعشاب أو فروع أشجار»، يحيط بالمنزل، ويحدد بذلك نطاقه. ولذا كثيرا ما تترجم كلمة (بير) الى منزل، دون أن يكون ذلك غير دقيق الى حد كبير.

وبلغة الولوج تعنى (بير) ما يتم صنعه بالأعشاب المجدولة، على أن يكون جيدا سراء من حيث نوع الأعشاب أو الحطب، من أجل إقامة سور حول مسكن ملك أو شخصيات عالية المقام، أو تشييد ما يمكن أن يسمى «حوائط» غرفهم الخاصة. وهناك نوعان من ال (بير) : ما يتم صنعه عن طريق تشابهك البوص ويشكل بذلك مربعات أو مستطيلات أو معينات، حسب زواياها تتداخل الأعشاب؛ وفى

(*) للمقارنة مع الصيغة المصرية سدجم- ت - إف (فى صفحة ١٩٥)

هذه الحالة لا يحتاج الأمر الى لحاء النخيل أو السعف لتثبيت الاعشاب. وهناك السياج المكون من بوص مثبت بطريقة فنية بواسطة سعف النخيل، وهو يسمى (ندون) بالولوف. والنبات المفضل لإقامة ال (بير) نوع من البوص الرفيع (السمار) المجفف (هات) والمنتزوع منه غلاله الورقي. ولونه أصفر، لامع في ضوء الشمس ولكنه يفقد لمعانه مع هبوب الرياح وهطول الأمطار. وهناك سياج أكثر خشونة، يقام من سيقان الدُّخْن، يسمى (ساكت).

ولذا فإن التعبير المصري «بير يا» الذي يترجم عادة الى «البيت الكبير»، أى منزل فرعون، يعنى حرفيا بالولوف: سياجا رحبا، علما بأن المقصود بالسياج ما جاء منذ قليل حول كلمة (بير). وعلى العكس، فإن البيت الكبير بمعنى منزل فرعون أو أى رئيس آخر، لم يعد يتم التعبير عنه بهذه الطريقة، إذ يقال (كير جو ماك) وهو تعبير مكون من كلمتين سبق أن صادفناهما. فكلمة (كير) هى أول ماورد فى بداية هذا القسم، ومعناها واحد باللغتين المصرية والولوف، و(ماك) معناها كبير، راشد، متمرس، باللغة المصرية (قاموس بييريه ، ص ٢٠٢).

ومن المعروف أن :

(بير - إيا) و (بير - وى - إيا) = الدار المزدوجة، ومنها جاءت كلمة فرعون.

وبالولوف ، فإن (پ) (مفرد) = ف (جمع) ، ومثال ذلك (بير مى) و (فير يى)

(بير) - (يو) - (إيا) = السياج ، المساكن الرحبة.
(فير)

كما أن الملك المعظم والامبراطور، يحملان لقب (فارى) بالولوف. ومثال ذلك:
(بور فارى) = الملك المعظم.

ولا يوجد أى استخدام آخر لكلمة (فارى) بالولوف. ولا يمكن استخدامها للإشارة الى شكل آخر من أشكال العظمة المعنوية أو الجسدية. ولذا يفرض علينا ذلك الرجوع الى مصطلح (فرعون) الذى كان ينطق بالمصرية (فارى) ، نظرا لأن فرعون ليس إلا التحوير الإغريقى لتلك الكلمة^(*). و(فارى) اسم شخص بالولوف.

ولنتقل الى الكلمة المصرية ذات الأهمية بعيدة المدى لأنها عنصر مشترك فى كافة البحوث ، دون أن يتم التوصل حتى الآن الى التعرف على هوية العلامة الهيروغليفية المستخدمة فى كتابتها. إنها كلمة (مَن) التى تكتب بالهيروغليفية على الوجه التالى: م ن

وقد تمت حتى الآن محاولات للتعرف على هذه العلامة الهيروغليفية عن طريق رسمها فقط، لا معناها؛ ولذا فقد تم تشبيهها تباعا «بلعبة الطاولة أو رقعة الضامة» (د.ديرون، ص١٨) ويتاج من الزهور (ك. ديروش - نوبلكور) ، والسيجة.

ولكن، هل يمكن أن نستخلص من فحص لغة زنجية، وبالأخص الولوف، معلومات دقيقة تتيح لنا

(*) يبدو إذن أنه كانت هناك صيغة للجمع باللغة المصرية عن طريق تغيير الحروف الساكنة الأصلية، كما هو الحال فى اللغات الزنجية.

إمكانية التعرف على تلك العلامة الهيروغليفية؟

نعم. ويكفي هنا أن نضع الوقائع التالية في عين الاعتبار لكي نفتتح بذلك:
إننا نجد في قاموس بييريه أن معنى هذه الكلمة بالمصرية (مَنْ) - (ت) = ضِرْع، ثدى، علما بأن
التاء هنا للتأنيث.

(من - تى) = الضرعان ، الثديان

و(تى) تميز المثنى الذى اختلف من اللغة المصرية ولا يجده بالتالى فى اللغات الزنجية التى جاءت
بعدها. وينطبق نفس الأمر على تاء التأنيث.

والكلمة التى يعرف بها الثديان أو الضرعان لا تترك أى مجال للشك فى المعنى الأصلي لكلمة
(مَنْ).

كما أننا نجد فى قاموس بييريه أن (مَنْ) = بقرة حلب، وهى تكتب بنفس العلامة التى لن
نكرها حتى لا نثقل النص. وهكذا يمكننا أن نفهم أن الماشية يمكن أن تسمى بالمصرية (مَنْ - مَنْ)
- (ت) (د.ديرون، ص ٢٧). وهذا التكرار أو التشديد على مصدر الكلمة تم استخدامه لكتابة: بقرة
حلوب. ولذا فلا عجب فى أن تكون كلمة ماشية مؤنثة وتنتهى بتاء التأنيث.

وأخيرا، إذا كانت كلمة (مَنْ) تعنى ضرعا أو ثديا، فبوسعنا أن نفهم أنه فى ظل مجتمع أمومي
يستخدم لغة يكون فيها اسم الموصوف فعلا، فإن هذه الكلمة إذا تقدمتها (س) سببية، فإنها يمكن أن
تكتسب معنى: «إحلال ملك محل أبيه، تثبيت، تعزيز، إدامة، تأسيس». (قاموس بييريه، ص
٤٩١).

ولا يجوز أن تتسبب كلمة أب هنا فى أى بلبلة، لأن تولى الرجال السلطة لا ينفى انتقال الحقوق
السياسية عن طريق الأم؛ فالأمير يخلف إذن أباه، على أساس توفر شروط الخلافة عن طريق الأم،
اللهم إلا فى حالة اغتصاب العرش بالقوة أو باللجوء الى خديعة.

وهذا التوسع فى معنى كلمة (مَنْ) يؤكد الطابع الأمومي للمجتمع المصرى، والمجتمع الزنجي بوجه
عام.

وهكذا فإننا لا نتفهم الصلة المنطقية التى تتيح لنا الارتقاء بفكرة الثدى الى فكرة التعاقب على
العرش، إلا بالاستناد الى المفهوم الاجتماعى لدى المصريين.

ويقدم لنا بييريه أيضا (ص ٥٠٢): (من)، (سن) = جزءا من البقرة. والواقع أن المؤلف عاجز
عن أن يحدد لنا ما إذا كان الأمر يتعلق ببقرة أو ثور.

وبعد أن أوردنا هنا مختلف المعانى التى تتخذها كلمة (من)، هل هناك مرادف لها بلذة الولوف؟
توجد كلمة (مَنْ) فى لغة الولوف بنفس المعنى. (مَنْ) = النسل عن طريق الثدى، النهدي؛ الذين

وضموا من نفس الشدى، النسب عن طريق الأم، الضرع، الشدى بالمعنى العام للكلمة (الحضن).

وهناك صورة أخرى لنفس الكلمة بالولوف وهي (قن) = ثدى ، ضرع ، حلمة.

وهكذا نجد أن لغة الولوف تؤكد تماما معنى هذه الكلمة باللغة المصرية.

وبناء على ذلك، ماذا يمكننا أن نقول بخصوص التعرف على هوية هذه العلامة؟

يحق لنا أولا أن نفترض أن المصريين ما كانوا يكتبون بشكل يناقض التفكير السليم؛ ولما كانت كتابتهم تعتمد على تثبيت الأفكار عن طريق الصورة، كان لابد وأن تمثل حدا أدنى من التوافق المباشر أو غير المباشر، والتقريب أو البعيد، بين الفكرة المراد التعبير عنها والواقع المصور، لكي تكون الفكرة مفهومة.

ومع افتراض أن هذا الشرط الأولي أمر لا غنى عنه، فهل هو متوفر على أى صعيد كان من خلال مختلف التفسيرات الرسمية، حتى لو تقصينا أبسط جوانب المجتمع المصرى فى أدق تفاصيلها؟ لا بالطبع، إذ أننا لا نستطيع أن نؤكد وجود أى علاقة اجتماعية أو منطقية بين لعبة الطاولة وورقة الضامة، والتاج مصنوع من الزهور، والسيجة... والضرع، والشدى، والتواصل، والتوارث. ولذا، يتعين أن نبحث عن مصدر آخر.

ويستدعى الأمر بالضرورة أن يتضمن الجزء الراقى المستعار علاقة مع فكرة الشدى المشتركة فى كافة معانى كلمة (مَن)، والتي يجب أن نعتبرها المعنى الأول لها.

ولذا يدعنا ذلك الى الاعتقاد بأن العلامة الهيروغليفية (مَن) التى نحن بصدها تصور ضرع بقرة يمكن أن تتغير تفاصيلها فى الكتابة لاعتبارات متعلقة بالتبسيط. فعدد التتومات فى هذه العلامة يتراوح بين العدد البسيط وضعفه، أى بين ٤ و ٨، بغية التأكيد على الفكرة أو لأى سبب مشابه؛ غير أن هذا العدد يكون أحيانا ٧، ولذا يهمننا أن نتأكد من صحته وتكراره باستمرار. ولعل العدد الأصلي الحقيقى قد تعرض لتلذذات حسب أهواء الكتبة.

وهذا التفسير الذى ما كان يمكن التوصل اليه إلا بفضل تأكيد معنى الكلمة بالمصرية القديمة عن طريق الوكوف، يتميز بتوافقه مع كل ما نعرفه عنها. وهو يتيح بالأخص إمكانية تصوير البقرة المحلوب بخاصيتها الأساسية. وهذا أمر يتفق تماما مع الواقع والمنطق.

ريبو، ليبو

لم تظهر هاتان الكلمتان فى اللغة المصرية (وفى التاريخ) إلا مع التدفق المفاجئ لشعوب البحر فى ظل الأسرة التاسعة عشرة، عندما وقعت الغزوات الهندو-أوربية الأولى فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد. وكانت هذه الجحافل البربرية التى راحت تجتاح - كل افرقيا تسمى: (ريبو) - (ليبو).

والبلد القفر الذي ردهم المصريون اليه، غرب مصر، كان يسمى (ريبو)، وكلمة (ليبو) ليست سوى صورة أخرى لريبو، عن طريق تعديل أحد الحرفين الانسيابين للانتقال من كلمة إلى أخرى. وهكذا كان المصريون يسيرون بكلمة (ريبو)، الى ما أصبح بعد ذلك ليبيا. وجاءت كلمة ليبي من (ليبو).

ولا جدوى من محاولة العثور على أصل هاتين الكلمتين في اللغات الهندو-أوروبية والسامية. ولنبحث مرة أخرى في إمكانية الاستفادة من لغة زنجية مثل الرلوف، للتوصل الى استنتاج منطقي.

يتعين أن نلاحظ أولاً أن الشاغل الرئيسي للبحاقل المشار اليها كان القنص. ونجد من جهة أخرى في قاموس بيبريه:

(ريبو) = ليبي

وجذر هذه الكلمة موجود في الرلوف ويعنى هو أيضا:

(ر) = قنص، قنص، قنص، صاد.

(ريبو) = مكان يتم فيه القنص، بلاد القنص؛ وذلك على غرار ما يجرى نحويا:

(دانج) = دراسة، دَرَس

(دانج - و) = مكان تتم فيه الدراسة، مدرسة ...

وبفضل هذا التوضيح الذي توفره لنا لغة الرلوف، تكون لدينا أسباب قوية تدفعنا الى الاعتقاد

بأن مصدر كلمة ليبي هو بلاشك (ليبو) - (ريبو) التي تعنى أصلا قنصا.

وقد استخدم هيرودوت هذه الكلمة في مؤلفه *التواريخ* للإشارة الى كافة الشعوب الهندو-أوروبية

الهمجية التي كانت تعيش على الشواطئ الشمالية لأفريقيا بعد أن قضى على محالفهم في عهد

فرعون مصر مرنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة).

وأصبحت كلمة ليبي تشير أكثر فأكثر في أذهان الاغريق الى افريقيا باستثناء مصر.

ويجدر هنا أن نذكر أن سكان شبه جزيرة الرأس الاخضر المنحدرين من السيرير لا يزالون يحملون

اسم (ليبو)، مما يدفع الى الاعتقاد بأن الأمر يتعلق باسم نوع يشير الى كل الشعوب القناصة في

المنطقة.

كيسى [xai]

نجد في قاموس بيبريه (ص ٤٠٦ - ٤٠٧) أن :

(كيسى) = أداة، ماعون، معدات

(كسِي) = حلية

بيد أن (كسِي) (التي كان يوسعى أن أكتبها (كسِي) حسب مصطلحات بييريه في التدوين)
 لاحقة بلغة الولوف تُكسب اسم الموصوف معنى مكان أو أداة:

(ليجِي) = عمل

(ليجِي - و - كاي) = مكان العمل، موقع، أداة عمل، حسب المضمون

(ليجِي - أو - كِيْ يِي) = الموقع

(ليجِي - أو - كِيْ جِي) = الأداة، الماعون المستخدم في العمل

(داج) = قطع

(داج - أو - كِيْ يِي) = المكان الذي يتم فيه القطع

(داج - أو - كِيْ يِي) = الأداة التي تستخدم في القطع

(توج - أو - كِيْ يِي) = المكان الذي يتم فيه الظهي

(توج أو كِيْ جِي) = أداة المطبخ

كما نجد أيضا في اموس بييريه :

(كِي) = حلية

وفي الولوف :

(تاك) = حَمَل

(تاك - كِي) = حلية

بيد أننا قد نتساءل ما إذا كان الأمر يتعلق في تلك الحالة الأخيرة باللاحقة (كِي) أو (إِي) التي
 تشير إلى ميزة أو عيب جسدي أو معنوي أو الى كينونة:

(رافت) = جميل

(رافت - إِي) = جمال

ملحوظة : آخر الكلمة (كِي) له معنى أقوى من (أو) الذي يشير هو أيضا الى اسم مكان أو
 أداة. ولذا يتم دعم الأخير بإضافة الأول اليه:

(دب) = طعن، أصاب بشدة بسكين مدبب.

(دب) = كل أداة مدببة تستخدم في الطعن أو في التحقق من حصانة البشرة المكتسبة على أثر

تجرع مشروب خاص مكون من مسحوق وجذور وقشور .. الخ.

سأه

(سأه) = بلد، قرية، نبيل، وجيه (من الأعيان) باللغة المصرية.
(سأه سأه) = مجلس كبار السن في القرية، مجلس القدامى، وظيفة إدارية تواجدت منذ بداية الدولة المصرية حتى نهايتها؛ وكانت تلك المجالس أقدم الديمقراطيات الريفية التي عرفتها البشرية، ولقنتها مصر لليونان في العصر الإيجي وتولدت عنها مختلف الدول - المدن في اليونان.
(سأهو) = القدامى، الأسلاف.

وهناك تطابق تام في ذلك مع السيرير:

(سأه) = بلد.

(سأه سأه) = رئيس قرية، وهي وظيفة إدارية لاتزال قائمة حتى الآن.
(سار) = اسم علم مميز عند السيرير؛ ويبدو أن التوكولور استعاروه وهم يدفعون السيرير نحو الجنوب ويحتلون وادي نهر السنغال؛ وهناك بعض التجمعات من أصل سيرير تحمل اسم (سار) ولاتزال تعيش في منطقة السنغال، البلد الحالي للتوكولور.

(سأهو) = اسم علم زيجي يبدو أنه مأخوذ عن (سأهو).

(ساتيه) = قرية (بالسيرير)

ولكننا نعلم أيضا أن :

(ساتي) = مسكن، منزل باللغة المصرية (ديرون، ص ٨١).

كا

نجد في قاموس بييريه (ص ٦٧، ٦٦، ٦٥) :

(كا) ويمثلها ذراعان مرفوعتان للدلالة على الفكرة العامة عن الارتفاع، السمو، التخرج = جوهر الانسان، الخالد، الذي يعيش في السماء بعد المرور على محكمة العالم الآخر، الزوج، الذكر، الثور، كبير، مرتفع، طويل، ارتفاع، سمو، الهمرانج (بصحة علامات التعريف المناسبة).

كا (و) كا(و) = مرتفع، علو، تل، مبنى مرتفع

كا(و) كا(و) = شعب من أعالي النيل

ونظرا لما لدينا من معرفة بالولوف، فإنه يحق لنا أن نفترض أن (الوار) أغفلت في نسخ الكلمتين المصريتين الأوليين.

فنحن نجد في الواقع حرف (الوار) المتحرك بشكل متطابق تقريبا في الوكوف:

(كار) أو (كاو) = مرتفع، ارتفاع، علو، مناطق السنغال الداخلية، وإن كانت مناطق سهلة.

(كو) أو (كوكو) = ارتفاع، علو، سكان مناطق مرتفعة.

والكلمة الأخيرة التي تعنى سكان مناطق مرتفعة، تستخدم مع ذلك فى الوقت الراهن للإشارة إلى سكان السهل الداخلى فى السنغال: كايور، باؤول .. الخ. ويعود هذا التناقض الظاهرى الى الذكريات الجغرافية لشعب هاجر من منطقة جبلية، مثل وادى النيل الأعلى. ولنذكر فى نهاية الأمر أن كلمة كاؤ هي اسم قبيلة تقيم حاليا فى أعالي النيل.

خِتْ

بالمصرية:

(خِتْ) = غصن، شئ، خشب.

(خِثْب) = كل أشياء، كل أنواع الأشياء.

بالولوف : (هِتْ) = شئ، نوع، خُلف عن طريق الأم، شجرة النسب من فرع الأم، ومنها فكرة التفرع وبالتالي فرع أو غصن. وهكذا يتم الالتقاء مع المعنى المصرى. وإذا قال أحد عن شخص ما إنه (هِتْ) ي، فمعنى ذلك أنه قريبى، أنه مرتبط بهى بصلة غير وثيقة، غير مباشرة، بعيدة ولكنها قائمة على أى حال، وأنه من جنسى.

(هِتْ) = قَشَط - الخشب أساسا.

(هِتْ يِب) = كل الأشياء

تِفْ

بالمصرية :

(تِف) = بصق

(تِفَنوت) = الربة التى لفظها رع

بالولوف :

(تِف) أو (تيف) = البصق

(تيفليت)

(تيفلى) = البصاق

ويتأكد من الشكلين الأخيرين (تيفليت) و(تيفلى)، اللذين يعبران نفس الشئ، أن التاء فى (تفنوت) المصرية قبيل الى التلاشى فى الولوف، بينما تصيح (النون) المصرية (لام) بالولوف، كما هو الحال بالنسبة لـ :

(نِيت) = لت = ضَقَّر، شبك

(نه) = (لذ) = حتى

.. الخ

وهكذا تم الانتقال من المصرية الى الولوف بالأشكال المتتابعة التالية:
 تفنوت .. تفلوت .. تغليت .. تيفلت .. تيفلى .

سا

بالمصرية :

(سا) = ربة العلم، الذكا، التشقيف

بالوكروف :

(سا) = علم، ثقّف، تعلم القراءة، علم نسا.

تِسْتِسْ

بالمصرية :

(تِسْتِسْ) = اوزيريس وهو فى هيئة هامدة(بيبريه، ص ٦٨٢).

ومن المعروف أن هيئة اوزيريس هذه، قام أخوه ست بتقطيع أوصالها ونشرها

بالوكروف :

(تاس) = بعثر، تبعثر، فك نظام شئ

(تاستاس) = مُفكك

توم

بالمصرية :

(توم) = إله (بيبريه، ص ٦٧٢)

والواقع أن المقصود بذلك الشمس عند الغروب والتي يعتبرها المصريون ربا «لم يعد له وجود».

(أتوم) = ربح «الذى لم يعد له وجود»

بالوكروف :

(تول) = لاحقة تضاف للفعل وتضفى عليه معنى «لم يعد»، الكف عن فعل أو عن حالة:

(دوتدا) = يعيش

(دوتدا - تول) = لم يعد حيا

ساتى

بالمصرية :

(ساتى) = أطلق سهاماً، نبال، أسوي، آسيا (بييريه، ص ٥٥٨).

ومن المحتمل أن تكون ترجمة (ساتى) نبال خاطئة وأن السهام التي تظهر في العلامة الهيروغليفية للكلمة ليست سوى دلالة على عصاهات اللصوص المتمثلة في الاسيويين الذين كان المصريون يتحفظونهم بالعديد من النعوت والصفات ومنها الميوثيين .. الخ.

بالولوف :

(ساتى) : لص : وهو ما يتفق مع مدى تقييم المصريين للأسويين الذين كانوا يطلقون على

بلادهم: أرض (الساتى)

وفيما يتعلق بفعل أطلق، فهو بالولوف:

(سانى) = أطلق.

سنتا

بالمصرية، حسب ما جاء في قاموس بييريه (ص ٥٠٢):

(سِن) = شمّ الأرض، سجد، ومنها:

(سِن - تا) = سجد

بالولوف:

(سنتا) = شكر بكل تواضع

سيرير

بالمصرية:

(سيرير) = الذى يرسم حدود المعابد

بالولوف :

(سيرير) = جنس زنجوى قديم، يعيش حالياً في السنغال.

تاب

بالمصرية:

(تاب) = تسمية معيار وزن بقرة (بيبريه، ص ٦٨٦)
قد يكون هناك خطأ في ذلك. فقد يتعلق الأمر -على الأرجح- بالتقدير العادي لقيمة بهيمة،
أو بالتمييز بين كونها أو عدم كونها عشارا، وذلك لأن:
باللوف :
(تيب) = فعل متميز يشير إلى التزاوج، وكان معناه أصلا: قفز فوق.

راصيتو

بالمصرية:

(راميتو) = الإنسان أو الكائن المثالي

باللوف

(راميتو) = طائر مقدس يقال عنه إنه مزود بروح بشرية، وهو الطائر الوحيد الذي تعترف له
التقاليد بهذه الصفة.
(رامو) = بلوغ النعيم، الوصول إلى الجنة.

يوما

بالمصرية:

(يوما) = بحر، ويبدو أن الترجمة الشائعة لتلك الكلمة ناجمة عن خلط لأن :

(يوما) = أم، بالتوكولور والبول.

وكان المصريون يعتبرون النيل أهم ويسمونه أيضا (يوما). وبالطبع فإن النيل يفترض توفر
المياه، مما قد يكون سببا في هذا الخلط. (ويطلق المصريون المحدثون كلمة البحر على النيل في
حديثهم بالعامية).

تاه

بالمصرية:

(تاه) = الوحل، سكان المستنقعات، صياد

(تاهو) = الغوص في الوحل

(تاهوا) = الوحل، حثالة البشر (بيبريه، ص ٦٦٤)

بالولوف :

(تاه) = اتَّسَخَ، تلوث، وتستخدم هذه الكلمة أساسا بمعناها الحقيقي، للتعبير عن فكرة الاتساخ بمادة لزجة مثل الوحل. وتعنى بالمعنى المجازى، وصمة .. الخ
وقد يوحى الينا معنى هذه الكلمات برأى المصريين فى الحياة فى المستنقعات؛ وهو ما يجعل من المستبعد أن تكون حضارتهم قد قامت أصلا فى منطقة الدلتا العامرة آنذاك بالمستنقعات، علما بأنه لا توجد أصلا أى وقائع ذات بال تؤيد ذلك الافتراض.

كيم

بالمصرية :

(كيم) = أسود، اسودّ، وبال-الى خشب ثمين لونه داكن، الأبنوس
(كام) = حجر كريم داكن اللون
(كيم - ت) = مصر (بييريه، ص ٦١٨)
(هم) = أسود، حرارة

بالولوف :

(هم) = فُحِّمَ، وتستخدم هذه الكلمة لكل ما يصبح فاحم اللون لتجاوز حدود النضج.
بيد أن الانتقال من كلمة (كيم) المصرية إلى كلمة (هم) بالولوف لا يحتاج إلا إلى إحلال الحرف الاحتكاكى الخلقى (هـ) محل الحرف الانفلاقى (ك)، وهو ما يتفق مع القاعدة العامة لتطور الصوتيات التى تتحول بمقتضاها الحروف الانفلاقية إلى حروف احتكاكية نتيجة للميل إلى بذل أدنى قدر من المجهود. ولذا فمن الطبيعى أن تتحول (كيم) فى لغة الولوف المتفرعة من اللغة المصرية الى (هم).

وهكذا يتبين لنا أن (كيم - ت)، وهو اسم مصر، يعنى: السودان، علما بأن التاء فى نهاية الكلمة هى أداة التانيث باللغة المصرية القديمة، وهى السودان بمعنى أنها بلاد الزنوج، وهم ذرية حام، سلف السود كما جاء فى التوراة. وحام أبو كل من مصراييم، وهو اسم آخر لمصر لا يزال ساريا حتى الآن لدى كافة الشرقيين (خلافا لإيجيبت الشائعة فى الغرب)؛ وكوش سلف الأثيوبيين كما جاء فى التوراة؛ وفوط، سلف الزنوج، حسب التوراة أيضا، الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية قبل غزو القبائل المنتحمة إلى الجنس الأبيض فى الألف الثانية قبل الميلاد وامتزجوا مع بنى عاد الزنوج، فاندرج منهم من أطلق عليهم فيما بعد الفرع السامى الثانى، أى العرب؛ وكتعان، سلف الفينيقيين، وفقا للتوراة، وهم عائلة أخرى من الزنوج، أبناء عم المصريين، شأنهم فى ذلك شأن أهالى بلاد بونت، الذين

امتزجوا في نفس تلك الحقبة مع قسم آخر من القبائل الهندو-أوروبية، وقد نشأ عن هؤلاء الفرع السامي الأول، أي اليهود.

وعليه فإن (كِم - ت) لا تعنى الأرض السوداء بالمعنى الأصلي للعبارة، لأن الأمر لا يتعلق بلون الأرض ولكنه يشير إلى البلد عن طريق لون الجنس الذي عاش عليها بلا انقطاع، وذلك بنفس المعنى الذي يستخدم اليوم عندما يقال: إفريقيًا السوداء، وإفريقيًا البيضاء. وهناك تفسير مستنبط من التقاليد الزنجية يؤكد ذلك:

فلا تزال هناك رواسب أحد التقاليد التي تعتبر أن الأبيض شخص لم تتم عملية إنضاجه بعد، بينما الأسود تم إنضاجه بقدر زائد عن اللازم، لأن الخالق سها عليه وقف الإنضاج في الوت المناسب، فأصبح الزنجي بذلك (هم).

وبوسعنا أن نجد في ذلك الأصل التاريخي لكلمة (حام)، سلف الزنوج، حسب التوراة. وقد استعار اليهود حتما هذه العبارة التي تشير إلى سلف المصريين من المصريين أنفسهم، عندما كانوا أسرى في مصر؛ ولا يمكن أن يكون عكس ذلك صحيحا.

وهكذا يمكن أن نتفهم أن هذه الكلمة تعنى حتى الآن بلغة اليهود: أسود، وحرارة.

ولننظر فيما يمكن أن نصل إليه من تفسير بالرجوع إلى كلمة (هم) بالوكوف.

فمن المعروف أن المصريين كانوا مشهورين بكونهم الكيميائيين الوحيديين في العهد القديمة. ولم يعرف هذا العلم في أوروبا إلا في القرن الثالث بعد الميلاد. ومن هنا جاء اسم علم الكيمياء، المشتق من اسم مصر نفسها ولكن المصريين ابتكروا كافة العلوم، فلماذا أطلق اسم مصر على هذا العلم وحده؟

ويتهدى لنا السبب جليا عندما نعرف أن الكيمياء نشأت وتطورت حتى القرون الوسطى على يد ممارسي التجارب الكيميائية القدامى الذين كانوا يحاولون التوصل إلى حجر الفلاسفة، عن طريق عمليات تقطير وتعريض للحرارة طوال أيام بل وشهور. أوليس من الطبيعي أن تطلق على عمليات الإنضاج لمدة طويلة للغاية كلمة (هم) أو (كِم)، أي التعريض للحرارة إلى حد تجاوز الإنضاج؟

فياله من أمر مثير بالنسبة لفرد من الوكوف عندما يكتشف أن أقدم وأعرق جذور ثقافة البشرية كانت جزءا من تقاليدها!

ولنا أن نتساءل بالطبع كيف أن (حام) و(حاميين)، اللتين تعنيان حسب علم الاشتقاق: فحم، قد انقلبت بعملية سحرية على يد إخصائين إلى الإشارة إلى أجناس بيضاء - خيالية - ليتخذ من ذلك أصحاب اليد الطولى ذريعة لتبرير أبسط مظاهر ثقافة عالم السود وإسنادها إلى أجناس بيضاء. إنها محاولة مريحة للغاية وساذجة، لا تصمد أمام الفحص الموضوعي للوقائع التاريخية، لينتزعوا منا المكسب المعنوي للحضارة المصرية وتسجيله لحساب التامهو (الببيض)، كما لجأ إلى ذلك شامبليون -

فيحياك. وقشل كافة تلك المحاولات، بالرغم من الجهود الضخمة للتوصل إلى حلول مقبولة (لصالح الربوب) لهو من الأدلة التي تؤكد استحالة منازعة الزيجي في دوره كأول مرشد للبشرية في طريق الحضارة، وهو ما اعتبره كافة الفلاسفة والمؤرخون القدامى أمراً مفروغاً منه.

دجادجنوت

بالمصرية :

(دجادجنوت) = أحد الآلهة، ويقول عنه اميلينو: «في الفصل الخامس والعشرين (من كتاب الموتى) يتم الابتهاال على الوجه التالي إلى أحد الآلهة الدجادجنو الجالسين بجوار اوزيريس، وهو الواحد والأربعون في الترتيب ويسمى الرأس المقدس ويتخذ شكل الشعبان: «يا أيها الرأس المقدس الخارج من خلوته، أنا لم أعمل أبداً على التسرع فيما أملك، ولم أضم إلى أبداً ما كان يخص الإله» (تمهيدات لدراسة الديانة المصرية القديمة، ص ١٧ و ١٨).

وتتكون (دجادجنوت) من (دجدج) و(نوت).

وإذا جمعنا بين المقطع الأول (دجا) من الكلمة الأولى والحرف الساكن الأول من الكلمة الثانية المكونة أصلاً من مقطع واحد، لحصلنا على كلمة (دجان)، ومعناها الشعبان بالكوف. وهكذا تكون المقاطع غير البارزة في الكلمة المصرية قد أسقطت وفقاً لقاعدة شهيرة، بينما انضمت لبعضها العناصر البارزة لتتكون منها الكلمة الكوف.

وبما يؤكد تلك الملاحظة ما نعرفه عن دور الشعبان في الميثولوجيا الزيجية. فالشعبان هو الإله -السلف عند الدجون، الذي قُتل ودُقنت رأسه تحت سندان الحداد. ولذا يتعين أن يخرج الشعبان من عزلته وأن يتقدم عبر الظلمات وهو يرقص على إيقاع الضربات فوق السندان.

بيد أننا نعلم أن الإله - الشعبان يسمى في كتاب الموتى «الراقص في الظلمات».

والفعل الكوف المستخدم للإشارة إلى عملية الارتداء، سواء تعلق الأمر برجل أو امرأة هو فعل (ثودو) الذي يعنى حرفياً ارتداء متزر، وبخص النساء وحدهن. بيد أن ما نعلمه عن العادات المصرية يلغى ذلك التناقض الظاهري. فقد كان المصريون، رجالاً ونساءً، يرتدون المتزر، وذلك على غرار ما كان يفعل العديد من الأفارقة حتى عهد قريب.

ولنورد هنا بعض الكلمات المصرية التي تستحق التعمق في دراستها :

(پتاح) = الإله المصري، المتسبب في تحويل المادة.

(تاه) = تسبب في ، بالكوف

وقد لا تكون (پ) أو (پا) إلا أداة التعريف... بالمصرية.

(هپ) = النبيل باللغة المصرية

(هپ) = مغمور فى الماء، مُثَّل للغاية، تشبع بالماء، بالولوف
(هور) = اسم نوع يدخل فى تكوين أسماء أغلب الكواكب باللغة المصرية. وهو يستخدم فى الإشارة إلى حورس (وهى تسمية لاتينية)، باعتباره كوكبا يشرق.
(هور) = نجيم، بالسبيرير.

(سوتن) = تترجم هذه الكلمة فى أحوال كثيرة إلى حفيد باللغة المصرية، وفقا لبييريه.
(ست) = إله المنطقة الجنوبية التى كان يسكنها أحفاد حام.
(ست) = حفيد بلغة الوكوف.

ويرى پدرال أن اسم «السودان» قد يكون مصدره (سوتن). وبناء على هذا الاحتمال يكون السودان مرادفا لولد الأحفاد ومشتقا من (سوتن).

وعبارتا (ست بيتى) و (نى - ست - بيتى) وهما تسجيلان بالهيريوغليفية يتصدران الأطر المزخرفة التى تحمل أسماء كافة فراعنة الأسر الاثيوبية، تعنيان حرفيا بلغة الوكوف: «حفيدا من الخارج بالنسبة للعبارة الأولى»، و«يكون حفيدا من الخارج بالنسبة للعبارة الثانية». ولذا يبدو أنه من الخطأ اعتبار الحروف الهيريوغليفية المستخدمة فى كتابة هذه العبارة: البوص، رمز الصعيد؛ والنحلة، رمز الوجه البحرى. وقد لا تكون تلك الحروف الهيريوغليفية سوى تسجيل لفكرة مرتبطة بتقليد مشترك قديم للغاية يربط بين مصر والسودان المروى، مسقط رأس الملوك المسمين «أثيوبيين»، وولد الحفيد الملكى لكوش، وهو لقب آخر من ألقاب الملك النوبى.

وهذه القرابة التى تجمع بين اللغتين المصرية والوكوف، بل ويوسعنا أن نقول هذا التماثل شبه التام بين اللغة المصرية واللغات الزنجية بوجه عام، هو فى الواقع أمر فريد من نوعه.

وبقدر ما تمثل اللغة المصرية وحدة لغوية طبيعية مع اللغات الزنجية يستحيل تجاهلها، بقدر ما تشكل اللغة المصرية من جهة، واللغات المسماة سامية وهندو-أوروبية من جهة أخرى، عالمين مختلفين نسبيا، إذا ما استثنينا بعض الاستعارات السامية من اللغة المصرية.

وقد باعت بالفشل المحاولات اللغوية التى بذلت للتقريب بين لغتى المصريين والبربر. وإذا كانت الكلمات البربرية مكونة من ثلاثة مقاطع وإذا كانت لغة البربر تتجاهل الحروف المتحركة مثل اللغة العربية، فإن ذلك لا ينطبق على اللغة المصرية.

وقد يكون من المفيد أن نذكر فى ختام هذه الدراسة رأى ادوار ناغيل حول طريقة تدوين مدرسة برلين للغة المصرية.

«لقد لاحظنا فى مختلف الأجرميات التى لخصنا نتائجها أن جميعها لم يكن سوى تحليل لأشكال اللغة، وأنه بالرغم من الجهود التى بذلها بروخ [BRUGSCH] لتقديم عمل متناسق فى إطار هندو - أوروبى أو سامى، إلا أنه لم يتوصل إلى ذلك، خاصة وأن تركيبية قواعد النحو والصرف التى تحكم

هذه اللغات لا يمكن تطبيقتها إطلافاً على اللغة المصرية التي لا تتوفر فيها صيغ خاصة تميز بين مختلف فئات الكلمات». (تطور اللغة المصرية واللغات السامية، باريس، مطبوعات بول جوتتر، ١٩٢٠، ص ٥٤).

«ومن الفروق الرئيسية بين اللغة المصرية من جهة، واللغات الهندو-أوروبية والسامية، من جهة أخرى، أن التمييز بين المصدر والكلمات والعبارات المشتقة منه، يكاد لا يمكن التعرف عليه، كما هو الحال في المجموعات اللغوية الأخرى. فالمصدر الصرف الذي يتواجد، إذا جاز القول، تحت السطح في العائلات اللغوية الأخرى ولا يتم الكشف عنه إلا من خلال تطوراته، يظل دائماً مماثلاً للكلمة المستخدمة في اللغة المصرية، بلا أي تبديل تقريباً. فالكلمة المصرية الحقيقية ليست في حد ذاتها جزءاً من سياق التكلم، ولكنها تستطيع أن تكون اسماً أو فعلاً أو نعتاً أو ظرفاً .. الخ، وذلك في حدود الفكرة التي تمثلها» (نافيل، نفس المرجع، ص ٥٦، نقلاً عن رينوف).

ويستشهد المؤلف برينوف [RENOUF] فيما يتعلق بطريقة تدوين المدرسة الألمانية التي تغفل الحروف المتحركة في اللغة المصرية:

«إن الادعاء بأن الأصوات المتحركة a, i, u، وغيرها غير ممثلة في الحروف الهيروغليفية، ليس حقيقة مفروغا منها، بل خطأ نَجَمَ عن الجهل، شاركتُ فيه شخصياً منذ ثلاثين سنة قبل أن أتفهم الوقائع». (نفس المصدر، ص ٥٧).

ويستطرد رينوف قائلاً:

«إنه (يقصد مقاله عن «النطقيات المصرية»، ١٨٩٩) يفسر فوراً كيف أنه يستحيل لمن يجاوز مفاهيم الهاوى في مجال علم الصوتيات، أن يقبل نظام التدوين الجديد الذي تبنته برلين». «وقد حال الموت دون رينوف وإنجاز المهمة التي كان قد أخذها على عاتقه، ألا وهي تنفيذ النظريات التي كان يعتبرها غريبة على اللغة المصرية ولا تقوم على أساس من الوقائع». (نافيل، نفس المصدر، ص ٥٨).

«فاللغة المصرية سامية إذن. هذا ما تفيدنا به أجروميتا إرمان وزيتته، ولكن إذا ما قلنا في هذا المجهود في مجموعته، مع إعجابنا بالقدر الضخم من العمل الذي تطلبه والألمعية التي تبنت فيه في أغلب الأحوال، إلا أن ما يثير الدهشة أن هذا الابتكار المصمم بحذق وذا المظهر الجميل للغاية، مصطنع تماماً. إنها ليست أجرومية بمعنى الكلمة، بل أجرومية سامية مفصلة في أشكال مصرية، وأنا لا أفكر، ولو للحظة واحدة، في إنكار كل العلم الذي تتضمنه تلك المجلدات، ولكن ليسمح لي زملائي العلماء في برلين بأن أكرر هنا ما سبق أن قلته في مواضع أخرى، وهو أن ما قاموا به هو نتاج مختبر للغة اللغوية. إنها لغة مصرية تم تركيبها بمناهج سامية. وهذا واضح بالأخص في كتاب زيتته. فهو ينطلق من الفكرة القائلة بأن اللغة المصرية لغة سامية، وبالتالي يتعين بالضرورة أن نجد فيها بعض الصيغ

التي تتميز بها تلك اللغات. وإذا كانت هذه الصيغ لا تتفق مع ما كان متوقعا فإن الاختلاف ليس إلا ظاهريا، ومن المؤكد أنها كانت متفقة في الماضي. وهكذا فإن التأكيد بأن اللغة المصرية لغة سامية ليس نتاجا لما توصلت اليه دراسة هذه اللغة، بل نقطة الانطلاق والأساس الذي يتعين أن يعاد تركيب اللغة المصرية القديمة عليه. ولدينا هنا مثال للمنهج الذي نجده في العديد من الأعمال الخاصة بما وراء نهر الراين، خاصة في مجال التاريخ. فالواقعة التي يمكن أن تقدم تفسيراً تؤدي إلى فكرة عامة. وسرعان ما يعتبر ذلك التفسير أو الفكرة العامة حقيقة واقعة لا مجال للمجادلة فيها. وهكذا تنقلب الأوضاع، إذ لا مجال لتغيير التفسير أو الفكرة العامة وفقا للوقائع، بل يجب أن نكيف الوقائع بحيث تتفق مع الفكرة المقررة مسبقا. وسيتعين تشذيب النصوص وتهذيبها بحيث تتفق تماما معها « (نفس المصدر، ص ٦٦ و٦٧).

«ومن الواضح أنه ليس من الصعب أن يعاد تركيب كل الكلمات بهذه الطريقة لتصحيح مصادر من ثلاثة مقاطع، إذ يكفي أن نسمى ما لا يمكن أن يكون جرسها إلا حرفا متحركا، حرفا ساكنا، أو أن نفترض أنه تم حذفه». (نفس المصدر، ص ٦٨).

«وعلى الرغم من كل المزاعم المضادة، لم يتم التوصل حتى الآن إلى اكتشاف أى أثر للحروف المتحركة سواء في اللغة المصرية القديمة أو الحديثة». بهذه الجملة تبدأ أجرومية زيته، التي قال لنا عنها ارمان إنها أرست ركائز العلم على أرض صلبة وأثبتت بطريقة نهائية أن المصادر مكونة من ثلاثة مقاطع، مما يؤكد بالتالي الطابع السامي للغة. ولو طلبنا الآن من السيد زيته علام يعتمد في ذلك التأكيد القاطع إلى هذا الحد، لقال لنا إن كل مقطع يجب أن يبدأ بحرف ساكن كما هو الحال في اللغات السامية، وأنه لا توجد في اللغة المصرية مقاطع تبدأ بحرف متحرك، وإن كل كلمة قبطية تبدأ بحرف متحرك فقدت حرفها الساكن الأصلي. إننا نواجه دائما هذه الطريقة في التفكير التي ننكر تماما قيمتها في البرهنة. لا توجد حروف متحركة في اللغة المصرية، وعليه فإنها تكون لغة سامية، وما يثبت في الواقع أنه لا توجد بها حروف متحركة، هو أن اللغة المصرية بصفتها لغة سامية، يجب ألا تكون بها حروف متحركة». (نفس المصدر، ص ٨٠).

«وهنا أيضا نجد إحدى الوسائل الدارجة في الأسلوب الألماني، خاصة في مجال الدراسات التاريخية. وردود الفعل هذه ضرورية لاستكمال النظرية. فالأمر لا يتطلب هنا وثائق أو مؤلفين، بل مجرد حروف يقال إنها اختلفت في القبطية وإن كان يتعين الاعتراف بوجودها، لأن النظام الذي تم

وضعه لا يمكن أن يستغنى عنها « (نفس المصدر، ص ٨١) (*).
وقد قدم لنا نائيل الجدول التالي الذي استكملناه بعمود بالوُكُوف:

الوُكُوف	التدوين الجارى	تدوين المدرسة الالمانية
كوسو (تل فى نجيها)	كوسى	إك أوسى
وات (حَلَب)	ايرث (حليب)	إيفروت
مِن (الثدى)	مينيت (الثدى)	اينودج
سيريه	اوزيريس	فيسيريث

(نقلا عن نائيل، ص ٧٦)

وهذه الأمثلة القليلة تبين لنا أن التعرف على الكلمات المصرية يصبح عسيرا بعد تعرضها لمثل تلك المعالجة، كما أن المقارنة الممكنة بين العمودين الثانى والثالث تصبح مستحيلة بين العمودين الأول والأخير.

وفيما يتعلق بتدوين الحروف المتحركة، بوسعنا أن نلاحظ أن وسيلة التعرف المصرية التى تُمكن من التمييز بين كلمتين تنطقان تقريبا بنفس الطريقة - وإن كان معنى كل منهما مختلف - كان لا يهد وأن تكون معتمدة أساسا على النغمة، إذا ما استندنا فى ذلك إلى الوُكُوف.
فالكلمتان الـ (هاج) = الذهاب والعودة، و(هاج) = أداة لاستقاء الماء، لا تختلفان إلا عن طريق تنغيم الحرف المتحرك فى الكلمة الأخيرة. ولو تم تدوين الكلمتين بالهيوغليفيه لما أمكن التمييز بينهما إلا بفضل وسائل تحديد مناسبة ذات طابع تنغيمي.

ولكن فيما يتعلق بالعبرية والمصرية فما أيسر التعرف على تشكيل الكلمة، أى التعرف على الحروف المتحركة التى تمكنا من قراءة الكلمة التى لم تكتب سوى حروفها الصامتة: فهناك قواعد محددة لذلك. وعلى هذا الأساس يقال إن هذه اللغات لا تستخدم الحروف المتحركة، إذ يمكن الاستغناء عن هذا المجهود الإضافى فى التدوين نظرا لتوفر وسيلة منتظمة للتعرف على الحرف المتحرك الصحيح المصاحب لكل حرف ساكن.

ولا يوجد شئ من هذا النوع فى اللغة المصرية القديمة. والعالم الذى يتسلى بإلغاء الحروف المتحركة لكى يثبت أنه بصدد لغة سامية، لا تتوفر لديه أى قاعدة للعشور عليها، كما هو الحال فى اللغات السامية. وفى حدود هيكل الكلمة المصرية على أساس الحروف الساكنة، لا توجد أى وسيلة

(*). ندد نائيل أيضا بمحاولة الإبهام بأن اللغة المصرية لغة سامية، إذ يكفى أن يطلع المرء على كتاب نحو قبطى للتأكد من ذلك. ولو رجعنا بهذه المناسبة الى أجرومية ستيندورف لوجدنا أنها تقول: القبطية لغة سامية. فهما أن اللغة المصرية سامية فإن اللغة القبطية تكون هى أيضا سامية.

لتشكيلها اللهم إلا إذا اعتمدنا على لغة مشتقة من اللغة المصرية ولا تزال مستخدمة، مثل اللغات الزنجية واللغة القبطية.

ولو كان شامليون قد افترض أن اللغة المصرية سامية وأنها لا تدون أهدا الحروف المتحركة، وصمم على التمسك بذلك الافتراض، لما تمكن أهدا من قراءة الكتابة الهيروغليفية. فعندما عكف شامليون على حل رموز اسمى بطليموس وكيلوباترا، كان لا بد له من التعرف على هيروغليفيات مقابلة للحروف المتحركة الإغريقية أ، إ، أ... التى تمثلها على التوالى ما يشبه «القلب المقلوب»، و«ريشة» و«نسر»، ثم تعرف بعد ذلك على ال (أو) الممدودة عن طريق «فرخ السمان» وعلى (إهد) عن طريق «الذراع المطوية». وليس هناك ما يدعو أهدا لأن نكرر أن هذه العلامات تتفق فعلا مع حروف متحركة فى النص الإغريقى. وهكذا تم فك رموز نص حجر رشيد المسجل بملغتين. (حجر رشيد، المتحف البريطانى، لندن، ١٩٥٠).

ولذا لم يكن فى إمكانهم أن يستبيحوا لأنفسهم تحويل الحروف المتحركة إلى حروف ساكنة أو حروف ساكنة ضعيفة إلا بعد أن تعرف عليها شامليون، وذلك بقرار أصدره العلم الألمانى الرسمى. وقد يتبادر إلى الأذهان أن ما نشره ناغيل منذ عام ١٩٢٠ قد تم تجاوزه الآن، وأنه تم تحقيق تقدم ملموس منذ ذلك الوقت، ولكن ذلك لم يحدث، فعلم الآثار المصرية كان قد أوشك أن يكون قد مضى عليه قرن من الزمن، بفارق عامين تقريبا، وعليه فإن هذه المدة لم تكن فترة تَعَثَّرَ، بل فترة تَمَكَّنَ؛ وبوسعنا أن نقول إن الأعمال الكلاسيكية التى يتم الاعتماد عليها حتى الآن تعود إلى ذلك التاريخ، وعليه، إذا كانت أعمال ناغيل قد أصبحت قديمة، فإن أعمال معاصره - وبالأخص المنتمين منهم إلى المدرسة الألمانية - أصبحت هى أيضا قديمة. ومع ذلك فإن أعمال هؤلاء لا تزال راتجة على أوسع نطاق؛ وقد استشهد ناغيل فى ذلك بجاردنر، وهو من أكبر مناصرى المدرسة الألمانية. فقد ترك لنا أجرومية لا تزال أساس التعليم الرسمى. ولا يوجد بالكاد سوى رد فعل مائع يعلن أن اللغة المصرية لغة إفريقية. واصطلاح «إفريقى» فى مجال علم الآثار المصرية معروف بمضمونه الرئائى: ففى مواجهة المصاعب العديدة التى تنشأ، يتم اللجوء إلى حيلة جديدة لا تنطلى على أحد، لأن صفة «إفريقى» يقصد بها هنا «غير زنجى».

الفصل الخامس حجج مضادة لفكرة الأصل الزنجي لمصر

هل هو انتكاس ثقافي؟

إذا كان الزوج هم الذين أقاموا الحضارة المصرية، فكيف يمكن تفسير انتكاستهم الراهنة؟

هذا السؤال لا معنى له، لأن بوسعنا أن نقول نفس الشيء سواء فيما يخص كلاً من الفلاحين والأقباط الذين يعتبرون السلالة المباشرة للمصريين، وهم يواجهون نفس حالة الانتكاس شأنهم شأن الزوج الآخرين، إن لم يكن بدرجة أكبر بالمقارنة مع ماضيهم.

غير أن هذه الملاحظة لا تعطينا من تفسير عملية التحول التي طرأت على الحضارة التقنية والعلمية - الدينية في مصر عبر تكييفها مع الظروف الجديدة في إفريقيا.

لقد نمت الدول مبكراً حول الوادي الأم، دون أن نتمكن حتى الآن من تحديد تاريخ ظهورها بدقة.

فقد تغلغل الزوج ببطء في قلب القارة، عبر الزمن، عن طريق حركات هجرة متتالية، وانتشروا في كافة الاتجاهات، وهم يبعدون الأقرام من طريقهم. وقد أسسوا دولاً نمت وأقامت علاقات مع الوادي الأم إلى أن قضى الأجانب على تلك الدول. فهناك من الجنوب إلى الشمال: النوبة ومصر؛ ومن الشمال إلى الجنوب: النوبة وزمبابوي؛ ومن الشرق إلى الغرب: النوبة، وغانا، وإيله - إيفه؛ ومن الشرق إلى الجنوب الغربي: النوبة، وتشاد، والكونغو؛ ومن الغرب إلى الشرق: النوبة وأثيوبيا.

ولانزال نجد حتى الآن كمّاً ضخماً من الآثار المقامة بالحجارة في اثيوبيا والنوبة، ومنها المسلات والمعابد والأهرامات.

وتوجد المعابد والأهرامات في السودان المرّوي وحده: وقد تم التأكيد على الدور الأساسي الذي قام به هذا البلد في انتشار الحضارة في إفريقيا السوداء، حتى أنه لا يوجد ما يدعو إلى التعرض لذلك من جديد.

ويشير اسم أثيوبيا، في تصورات العقول الحديثة، إلى أديس أبابا، مما يستدعي أن ننوه هنا بأنه لم يتم العثور في هذه المنطقة إلا على مسلة واحدة وقاعدتي تمثالين. فحضارة أكسوم اصطلاح لفظي أكثر مما هو حقيقة واقعة تشهد على قيامها آثار تاريخية.

فالمعابد والأهرامات متواجدة بكميات وفيرة في السودان المرّوي، في سنار.

وهكذا يتم تزييف أسماء المواقع، لكي تنسب الحضارة الزنجية - المصرية - الإفريقية إلى أصل

شرقى إلى حد ما، وأسيوى، ولكن على استحياء، وذلك عن طريق باب المنذب. والواقع أنه يتعين أن تنصدى لتلك المصطلحات.

فالحاميون، الشرقيون والأثيوبيون، بل والأفارقة يوفرون لعلم التاريخ الحديث تعبيرات مخففة تتيح التحدث عن الحضارة الزنجية السودانية المصرية مع تجنب النطق ولو مرة واحدة بكلمة «زنجية» أو «سوداء».

ففى زمبابوى - التى يمكن أن تكون امتدادا لبلاد الأحباش المردة الذين تحدث عنهم هيرودوت - توجد أطلال منشآت ومدن بنيت بالحجارة وعليها صور صقر «فى دائرة مركزها بحيرة فيكتوريا، يتراوح نصف قطرها بين مئة أو مئتى ميل»، كما كتب د.ب. پدرال (آثار افريقيا السوداء، ص ١٦٦). وبعبارة أخرى تنتشر هذه الأطلال فى دائرة قطرها حوالى ٨٠٠ كيلو متر، أى ما يعادل تقريبا قطر فرنسا.

ويتحدث پدرال أيضا عن مدينة قوقبا (ص ٦١)، فى منطقة غانا، والتى جاء فى كتاب طريق السودان لمؤلفه عبد الرحمن بن أمير السعدى أنها «كانت قائمة منذ زمن الفراعنة». ويرى ديسپلاتى [DESPLAGNES]، الذى أجرى عمليات تنقيب فى هذه المنطقة، أنه عشر فيها على مخلفات تلك المدينة. ويتحدث نفس المؤلف عن موقع كومبى، الذى عشر فيه بونيل دى ميزيير [BONNEL DE MESIERE]، من خلال حفرياته، على مقابر كبيرة الحجم «توايبت من الصخر الرسوبى المنضد ومحارف للتعدين وبقايا أبراج ومبانٍ مختلفة».

«ويوسع المرء أن يميز بكل وضوح حتى الآن أثر تخطيط طريق توجد على جانبه بيوت ترتفع جدرانها مترا فوق الأرض أو مترا ونصفاً. وقد تداعت الأسقف. وعلى مسافة من ذلك موقع ساحة حيث توحى الجدران بأنها كانت تحمل طوابق. وتكون المبانى مصانة أحيانا الى حد يجعل سكنها ممكنا من جديد بمجهود بسيط. ويوسع المرء أن يرى بوضوح تتابعها نظرا لوجود قطع الحجارة المشذبة. وهناك حولها بقايا موقع مسور، جدرانه منخفضة على أى حال، وخارجه مقابر، وفى كل مكان بقايا أوانٍ فخارية وخرز وحتات نحاس أحمر. وعلى مسافة من هناك، فوق هضبة تربتها صلبة حمراء اللون، توجد آثار محرف للتعدين.

«والمبانى الأخرى معقدة. ويشمل أحدها خمس غرف مهيأة على عمق أربعة امتار، وبها دهاليز للاتصال. وأعمال البناء ممتازة ويبلغ سمك الجدران ٣٠ سنتيمترا». (پدرال، نفس المرجع، ص ٦٢) وفى منطقة بحيرة ديبو، توجد أيضا أهرامات عن لهم أن يسموها «ركاما» كما كان متوقعا. وتلك أساليب معهودة ترمى الى الانتقاص من القيم الافريقية؛ ويوسعنا أن نجد نقيض هذه الأساليب فى بلاد ما بين النهرين، حيث يُستخلص من ركام من الصلصال - وهو حقا ركام - أكمل معبد يستطيع العقل الإنسانى أن يتصوره، مع أن عمليات إعادة البناء هذه ليست بصفة عامة سوى محض نظريات لا تمت للواقع بصلة.

وعلى العكس من ذلك، اليكم ما يقوله پدرال عن أهرامات السودان:

«إنها كتل متراسة من الصلصال والحجارة، في شكل أهرامات ممتورة قمتها من الأجر والطوب الأحمر، وجميعها مقامة في نفس الدورة الزمنية ومن أجل نفس الغرض ... ويبلغ ارتفاعها ما بين ١٥ و ١٨ مترا ومساحة قاعدتها ٢٠٠ متر مربع ... وقد قام ديسپلاني باستكشاف أحد تلك الركامات في موقع الوليدى، عند التقاء نهري عيسى بر وبارا عيسى. واكتشف في وسطه غرفة جنازية متجهة من الشرق إلى الغرب يبلغ أقصى طولها ٦ أمتار وأقصى عرضها ٢,٥ متر. وهناك صفوف من جذوع الأشجار تكوّن بطانة سمكها حوالي ثلاثة أمتار، والسقف مكون من عروق خشبية متراسة فوق بعضها، ويتضمن فتحة تؤدي إلى الجزء العلوي عن طريق بئر قطرها ٨٠,٠ مترا، مملوءة بأوانٍ محتوية على عظام حيوانات. وقد وجد ديسپلاني في الغرفة ذاتها مرقدًا من الرمل حوله جرة كبيرة والعديد من الأواني الفخارية وهيكليْن عظيميْن مبعثرين، وحلبا، وأسلحة، ونصال سيوف وسكاكين، وأسنة رماح ومزارق، وحبّات فلادات من الخرز، ولألي، وتماثيل صغيرة من الطين تمثل حيوانات، وأخيرا أختام، وإبر مصنوعة من العظم. وكان الخرز مصنوعا من عجينة زجاجية زرقاء مكسوة إما بزخرفة على شكل عيون أو بشرائط بيضاء متخذة شكلا حلزونيا أو مرصعة بالمينا. تذكرنا بالزجاج المصري في الدولة الوسطى (تل العمارنة). وتدل الفخاريات على صناعة خزفية متقدمة للغاية بالمقارنة مع صناعة السكان الحاليين. فالأواني ذات السطح المزخرف ينقط أنيقة التكوين لم يعد لها وجود في المنتجات الحديثة. وكان شغل المعادن متقدما هو أيضا، كما يتبين ذلك من المجوهرات المصنوعة من المعدن النفيس، والدقيقة الزخارف أحيانا» (پدرال، نفس المرجع ص ٥٩ و ٦٠).

ولا يمكن أن نصف هنا كل ثروات حضارة ايله - ايفه : فقد كانت من الشراء الى درجة أن فروينيبوس حاول عبثا أن يبحث لها - كما هي القاعدة - عن أصل أبيض. (ميشرلوجيا) الاتلنتيد، الناشر پاير، ١٩٤٩).

لقد نشأت الحضارة في وادي النيل عن تأقلم الإنسان مع هذا الوسط المتميز. ووفقا لشهادات الأقدمين والمصريين أنفسهم، فقد كان أصلها في النوبة، وانحدرت نحو البحر مع مجرى النيل. ومما يؤكد هذا الواقع بالذات أن العناصر الأساسية للحضارة المصرية لا توجد، لا في الوجه البحري، ولا آسيا، ولا أوروبا، ولكن في النوبة، في قلب القارة الافريقية، حيث نجد بالأخص الحيوانات والنباتات التي استخدمت في ابتكار الكتابة الهيروغليفية.

وأدت الظاهرة الطبيعية المتمثلة في الفيضان السنوي لنهر النيل إلى تطور التنظيم الاجتماعي، إذ أنها تطلبت القيام بأعمال جماعية مثل إقامة السدود. كما أن الهندسة والحساب، أي الرياضيات،

جاءت نتيجة لفيضان النهر، إذ كان يتعين حل النزاعات حول حدود الحقول. وهكذا نشأت الهندسة، وهي أصلا قياس أبعاد الأراضي.

وكانت من عادات المصريين تحديد مدى ارتفاع الفيضان «بمقياس النيل» وكانوا يستخلصون من ذلك الحجم السنوي للمحاصيل وذلك بالحسابات الرياضية.

كما أن التقويم وعلم الفلك هما أيضا نتاج لتلك الحياة المستقرة والزراعية.

وقد تولدت عن التكيف مع الوسط الطبيعي بعض الإجراءات الصحية مثل تحنيط الجثث (لتجنب وباء الطاعون في الدلتا)، والصوم، والحمية، الخ .. وظهر الطب شيئا فشيئا. وتطلب تطور الحياة الاجتماعية والتبادلات ابتكار الكتابة واستخدامها.

كما نشأت عن الحياة المستقرة الملكية الفردية وقواعد أخلاقية راقية تلخصها الأسئلة التي توجهنا إلى المتوفى أمام محكمة أوزيريس. وتتناقض هذه الأخلاقيات مع قيم الغزو والسلب والنهب عند الرُّحل الأورو - آسيويين^(*).

وقد تحولت قأس العصر الحجري الزنجوى القديم الى محراث، بإطالة ذراع الفأس. وكان الناس يجرونها في البداية ثم بعد ذلك استخدمت الحيوانات في جرها ولم تظراً على هذا المحراث التحسينات الأخرى مثل العجلة (في أوروبا، في العصور الوسطى)، إلا في أزمئة متأخرة للغاية.

وعندما تغلغل زنج النيل أكثر فأكثر في قلب القارة، نتيجة لتزايد أعداد سكان الوادي والتقلبات الاجتماعية، واجهوا ظروفا طبيعية وجغرافية مختلفة. فلم تعد بعض الممارسات والآلات والتقنيات والعلوم، التي كان لا غنى عنها على ضفاف النيل، ذات أهمية حيوية عند مصب نهر النيجر وضفاف نهر تشاد وشواطئ المحيط الأطلسي وضفاف نهري الكونغو والزامبيز.

(*) اليكم النص الشهير في كتاب المرتضى الذي يقدم فيه المترفي الحساب عما فعله في الحياة الدنيا للمحكمة التي يرأسها الإله أوزيريس. وسيتبين لنا بوضوح أنها على عرار عقيدة يوم الحساب في الأديان الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام:

ولم ارتكب خطيئة ضد البشر .. ولم أفعل شيئا يكرهه الآلهة. ولم أكدر أحدا أمام رئيسه، ولم أترك أحدا جائعا. ولم أدفع أحدا إلى البكاء، ولم أقتل. ولم أمر بالقتل. ولم أتسبب في آلام لأحد. ولم أقلل من العزاء في المعابد، ولم أكل من خبز الآلهة. ولم أسرق قرايبن المرتضى، طربى لهم ... ولم أظف مكيال الحسوب، ولم أقصص مقياس الطرل أو أظف الميزان أو أسرك مؤشره. ولم أنتزع اللين من فم الطفل. ولم أحرم الماشية من مرعها .. ولم أحتجز ماء الفيضان في مرسمه، ولم أقم حاجزا أمام الماء الجاري .. ولم أتسبب في خسائر في القطمان الموقفة على المعابد ... المجد لك يارب ... إننى قادم اليك بلا خطيئة وبلا شرور ... لقد نقلت ما يرضى الآلهة ... فاعطيت الحبز للجوعان، والماء للعطشان، والملابس للمارى، ومعبرا لمن ليس لديه قارب. لقد قدمت القرايبن للآلهة وهداياها جنازية للمرتضى، طربى لهم. أنفذنى واحفظنى. إيك لن تتهمنى أمام الإله الأعظم. أنا إنسان فمه نقى وبداه طاهرتان، ومن يروته يقولون، مرحبا بك» (انظر الصورة رقم ٥٢).

وهكذا يمكننا أن ندرك أن بعض عناصر الحضارة الزنجرية فى وادى النيل تلاشت داخل القارة، بينما ظلت عناصر أخرى أساسية قائمة حتى الآن.

وساهم غياب نبات البردى فى بعض المناطق المذكورة أعلاه فى ندرة الكتابة فى قلب القارة وإن لم تكن غائبة تماما فى إفريقيا السوداء كما يزعمون ذلك جهارا. فى ديوريل، مركز دائرة بوال فى السنغال، فى حى ندونكا، توجد شجرة مغطاة بالكتابات الهيروغليفية من الجذع حتى الفروع. وكانت مكونة، بقدر ما أتذكر من رموز لأيدٍ وقوائم حيوانات - لم تكن نفس الرموز المستخدمة فى مصر - ومنها قوائم جمال ورموز تشير إلى أقدام وأدوات أخرى ... وكان يجب نقل تلك البصمات ودراستها. وفى الفترة التى كنت أراها فيها لم يكن لدى لا السن ولا التكوين الضرورى لكى أهتم بها. ومن الممكن أن نكوّن فكرة عن العهد القديم أو الحديث لتلك الرموز المحقورة على قشور تلك الأشجار، بتحليل سمك طبقات تلك القشور وطبيعة الرموز والأشياء التى تحملها، وانتقال تلك الرموز بطول الجذع نتيجة لنمو القشور. ويتعين أن نشير الى أن تلك الأشجار مقدسة ونادرا ما ينتزع لحاؤها لصنع الجبال. كما يجب أن نقول أيضا إنها ليست نادرة فى البلد.

ولما كان باطن الأرض فى إفريقيا لا يزال بكرا إلى حد كبير، فمن المتوقع أن تتوفر لنا الحفريات المنتظمة فى المستقبل، وثائق مكتوبة لا تحوم حولها أى شكوك، وذلك رغم المناخ والأمطار الغريزة التى لا تساعد على الحفاظ على مثل هذه الوثائق.

ولنذكر أن هناك كتابات هيروغليفية أصلية فى الكامرون، والتى تسمى النديويما [NDYOUJA] ومن المهم إن نعرف ما إذا كانت أقدم مما يقال عنها. وهى من نفس طراز الكتابة الهيروغليفية المصرية بالضبط.

وأخيرا، توجد فى سيرا ليون كتابة أخرى خلاف كتابة البامون (الكامرون)، وهى كتابة الشاى المعتمدة على المقاطع اللفظية وكتابة الباساس المختزلة وفقا للدكتور جيفرى.

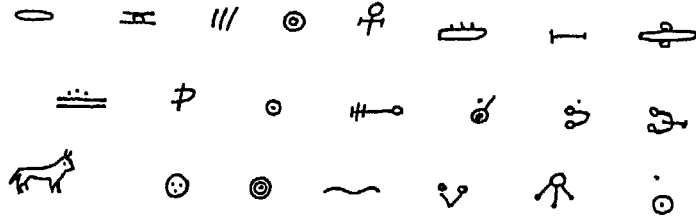
وكتابة النسيبيدي [NSIBIDI] تعتمد على حروف أبجدية (بومان ووسترمان: شعوب وحضارات إفريقيا وملحق بها: اللغات والتعليم، الناشر پاير، ١٩٤٨، ص ٤٤٤).

فبوسعنا أن نقول إذن إن إفريقيا السوداء لم تفقد حضارتها أبدا حتى القرن الخامس عشر، كما يؤكد ذلك النص التالى لفروينبوس:

«لقد أبدى البحارة الأوروبيون الأوائل فى نهاية العصور الوسطى ملاحظات هامة للغاية فى هذا المجال. فعندما وصلوا إلى خليج غينيا ورسوا فى فايدا، أبدى القباطنة دهشهم عندما وجدوا شوارع حسنة التخطيط يحف بها على الجانبين، على امتداد عدة فراسخ، صفان من الأشجار؛ وقد عبروا

٤٦٦٦
 ٨٦٦
 ٨٥٥
 ٥٥٥٥
 ٦٤٤
 ٩٤٦٤

٤٦ - كعابة باسا (نقلا عن وسترمان)



٤٧ - رموز مشتركة بين الكتابتين البابون والمصرية

mot moum	sens	1907 1°	1911 2°	1916 3°	1919 4°	valeur phonet.
pwô	bras					pwô p
mi	visage					mi m
na	cuire					na n

٤٨ - التواريخ المسجلة في هذا الجدول لا تمت للواقع بصلصة، وتحديدًا بدقة دليل على عدم صحتها. وهي وليدة الرغبة المحمومة في تحديث كل ما هو أفريقي حتى لا يستدعى الأمر ربطها بالتاريخ المصري القديم. لقد احتاج الأمر إلى أكثر من ألف عام للانتقال من الهيروغليفية إلى مرحلة الكتابة الهيراطيقية، أي الانتقال من الحانة الأولى إلى الحانة الثانية.

خلال عدة أيام ريفاً به حقول رائعة، يسكنه أناس يرتدون ملابس ذات ألوان زاهية، نسجوا أقمشتها بأنفسهم! وفي جنوب هذه المنطقة، فى مملكة الكونغو وجدوا جموعاً غفيرة تتدثر «بالحرير» و«المخمل»، ودولاً كبيرة منظمة جيداً فى كافة التفاصيل، وملوكاً أقرباء وصناعات مزدهرة. إنهم متحضرون حتى النخاع! وكانت ظروف السواحل الشرقية، فى موزمبيق مثلاً مماثلة لذلك تماماً.

«وتقدم شهادات البحارة من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر الدليل الأكيد على أن إفريقيا الزنجية الممتدة حتى جنوب المنطقة الصحراوية، كانت فى أوج تألقها، بروعة حضاراتها المتناسقة والجيدة التنظيم. وقد قضى الغزاة الأوروبيون على ذلك الازدهار شيئاً فشيئاً مع زحفهم، إذ كانت بلاد أمريكا الجديدة فى حاجة إلى عبيد وكانت إفريقيا توفر لهم ذلك بالآلاف فى شحنات مكتظة بالعبيد! غير أن النخاسة لم تكن مسألة مريحة للضمير، وكان لابد من إيجاد تبرير لها، ولذا صوروا الزنجى على أنه نصف حيوان وسلعة تباع وتشتري. وابتكروا لذلك فكرة الوثنية كرمز للديانة الإفريقية، التى أصبحت علامة مسجلة أوروبية! أما أنا فلم أر أبداً فى أى من أنحاء إفريقيا الزنجية، أهالى يعبدون أصناماً.

«وفكرة " الزنجى البربرى " ابتكار أوروبى سيطر فى أوروبا كرد فعل حتى بداية هذا القرن». (فروينبوس، تاريخ الحضارة الإفريقية، ترجمة باك وإرمون، الناشر جاليمار، باريس، ١٩٣٨، الطبعة الخامسة، ص ١٤ و ١٥).

وتنطق أقوال الرحالة البرتغاليين فى القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، والتى أوردها فروينبوس، مع ما كتبه المؤلفون العرب من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر. وقد وصف لنا رحالة عربى زار امبراطورية مالى فى تلك الحقبة، التنظيم الاجتماعى للدول الزنجية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، الذى أشار اليه فروينبوس، كما وصف الأبهة الملكية التى سادت فى تلك الحقبة، وهذا الرحالة هو ابن بطوطة الذى حدثنا عن الجلسات العامة التى كان يعقدها الملك المانديجى سليمان مَنَسَا، علماً بأن ابن بطوطة زار السودان فى ١٣٥٢ - ١٣٥٣، أثناء حرب المئة عام فى أوروبا.

ذكر جلوس سلطان مالى سليمان مَنَسَا، بقبته

«وله (أى السلطان) قبة مرتفعة بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات. وأنها من جهة (المَشُور) طيقان ثلاث من الخشب، مغطاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاث مغطاة بصفائح الذهب، أو هى فضة مذهب، وعليها ستور ملف، فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رُفِعَت الستور فَعَلِمَ أنه يجلس. فإذا جلس أُخْرِجَ من شُبَّك أحد الطيقان (شراية) حرير، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم. فإذا رأى الناس المنديل ضُربَ الأبطال والأهواق. ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، فى أيدى

بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدُرُق. فيقف أصحاب الرماح منهم مَيمنة وميسرة. ويجلس أصحاب القسي كذلك، ثم يؤتى بفرسين مُسرجين مُلجَمين ومعهما كُباشان، يذكرون أنهما ينتفعان من العين. وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبیده مسرعين، فيدعون نائبه قنجا موسى. وتأتي (الفرارية)، وهم الأمراء. ويأتي الخطيب والفقهاء، فيقعدون أمام (السلحدارية) يَمَنَّة ويسرة في (المشور). ويقف دُوغا الترجمان على باب (المشور)، وعليه الثياب الفاخرة، وعلى رأسه عمامة ذات حَواشٍ، لهم في تعميمها صنعة بدیعة، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب، وفي رجليه الحُفَّ والمهاميز. ولا يلبس أحد ذلك اليوم حُفًا غيره، ويكون في يده رمحان صغيران، أحدهما من ذهب والآخر من فضة، وسنّاهما من الحديد.

«ويجلس الأجناد والفتيان وغيرهم في خارج (المشور)، في شارع هنالك متسع فيه أشجار. وكل (قراري) بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأبطال والأبواق، وأبواقهم من أنياب الفيلة، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع، ولها صوت عجيب. وكل قراري له كنانة قد علقها بين كتفيه، وقوسه بيده، وهو راكب فرسه، وأصحابه بين مُشاة وركبان. ويكون بداخل (المشور) تحت الطيقتان رجل واقف: فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دُوغا، ويكلم دُوغا ذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان».

ذكر جلوس السلطان في المشور

«ويجلس أيضا في بعض الأيام (بالمشور). وهنالك مصطبة تحت شجرة، لها ثلاث درجات يسمونها (البني)، تفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها، ويرفع (الشطر) وهو شبه قبة من الحرير، وعليه طائر من ذهب على قدر البازي. ويخرج السلطان من باب في ركن القصر، وقوسه بيده، وكنانته بين كتفيه. وعلى رأسه (شاشية) ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رقائق، طولها أزيد من شبر. وأكثر لباسه جبّة حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمى المُطُنُقس. ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة. وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشي مشيا رويدا، ويكثر التأنى. وربما وقف ينظر إلى الناس. ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر. وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار. ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب و (الفرارية)، فيدخلون ويجلسون. ويؤتى بالفرسين والكباشين معهما. ويقف دُوغا على الباب، وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار.

«والسودان (أى السود) أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشداهم تذلا له ويحلفون باسمه» (ابن بطوطة، تحفة الأنظار، في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الاميرية ببولاق، ١٩٣٤، الجزء الثاني، ص ٣٠٣ الى ٣٠٥).

وقد أفادنا ابن بطوطة بعد ذلك أن قنجا موسى سلف سليمان منسا أعطى أبا إسحاق الساحلي الذي بنى له جامعا في جاوا، أربعة آلاف مثقال أى ما يعادل تقريبا ١٨٠ كيلو جرام من الذهب، مما يدل

على مدى ثروة هذا البلد في العهد السابق على الاستعمار.

وهناك نص آخر لابن بطوطة يعرى تماما أسطورة سيادة الفوضى في إفريقيا السوداء قبل الاحتلال الأوروبي، وأنه (أى الاحتلال الأوروبي) هو الذى جلب معه السلام والحرية والأمن .. الخ.

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان

«فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه. وسلطانهم وهو ملك زنجى لا يسامح أحدا فى شئ منه. ومنها شمول الأمن فى بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقا ولا غاصبا^(*). ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه». (المرجع السابق، ص ٣١٢).

وقد أخبرنا ابن بطوطة من قبل أنه عندما قرر أن يزور مدينة مالى، اكترى دليلا من مسوفة ليرشده فى الطريق لأنه ليس مضطرا إلى السفر فى قافلة نظرا للأمن السائد فى الطريق.

ولكن كيف كان السود يتصرفون مع البيض أو مع الأجناس التى كانوا يعتبرونها من البيض؟ هذا ما يفيدنا به أيضا ابن بطوطة فى النص الذى يصف لنا فيه استقبال القافلة التى أوصلته الى إيالاتن حيث كان فاربا حسين يتولى منصب نائب ملك مالى :

«ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رَحَب، وتكفل السودان بحفظها. وتوجهوا إلى القرى، وهو جالس على بساط فى سَتِيف، وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي، وكبراء مسوفة من ورائه. ووقف التجار بين يديه، وهو يكلمهم بترجمان على قريبهم منه احتقارا لهم. فعند ذلك ندمت على قديمى بلادهم، لسوء أديهم واحتقارهم للبيض». (نفس المرجع، ص ٢٩٨).

وقد كتب ديلافوس الذى يعتبر مالى من أكبر الأباطوريات التى ظهرت فى العالم، كتب يقول بهذا الخصوص:

«غير أن جاؤ كانت قد استعادت استقلالها فى الحقبه الواقعة بين موت قنجا موسى وتولى سليمان مانسا، وبعد ذلك بحوالى قرن، بدأت الأباطورية المادينجية فى الأقول تحت ضربات سونجوى، مع احتفاظها بما يكفى من القوة والمكانة لكى يتعامل سلطانها مع ملك البرتغال تعامل الند مع الند، بينما كان الأخير فى أوج مجده» (ديلافوس، سود إفريقيا، الناشر بايرو، ١٩٢٢، ص ٦٢).

وهكذا يتبين لنا أن أباطرة إفريقيا لم يكونوا مجرد ملوك صغار، بل كانوا يتعاملون على قدم الـ

(*) تؤكد شهادة ابن بطوطة هذه ما أفادنا به القداسى (هيرودوت، ودبودور... الخ) حول فضائل الأحباش.

المساواة مع أقوى معاصريهم في الغرب. بل إنه بوسعنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، استنادا الى الوثائق المتوفرة لدينا، فنؤكد أن الإمبراطوريات السودانية الجديدة سبقت بعدة قرون قيام امبراطوريات مماثلة في أوروبا. فقد قامت امبراطورية غانا على أقل تقدير بعد حوالي ٣٠٠ سنة من مولد المسيح وظلت قائمة حتى عام ١٢٤٠؛ علما بأن شارلمان، مؤسس أول امبراطورية غربية بعد غزوات البربر تم تنويجه في عام ٨٠٠.

وكانت عظمة غانا تعادل عظمة امبراطورية مالي في كافة النواحي بل وتفوقها في رقيها. فهكذا كان حال دول إفريقيا عندما بدأ اتصالها مع الغرب في الأزمنة الحديثة.

وبوسعنا أن نبدي هنا ملاحظة هامة للغاية: ففي هذه الحقبة، حيث كانت لا توجد في العصور الوسطى الغربية سوى ملكيات مطلقة، كانت الملكيات في إفريقيا السوداء دستورية، فكان هناك مجلس شعب يعاون الملك أعضاؤه المختارون من مختلف الفئات الاجتماعية. وهذا الطراز من التنظيم السياسي كان ينطبق أيضا على غانا، ومالي، وجاو، وياتنجا، وكايور... الخ. ولم يكن ذلك سوى نهاية لتطور طويل المدى ظهرت بداياته في النوبة ومصر؛ وتلك هي الوسيلة الوحيدة لتفهم تواصل تلك السلسلة.

فأيا كانت الزاوية التي ننظر من خلالها إلى تاريخ إفريقيا، فإننا نجد أنفسنا أمام السودان المروري ومصر.

وعندما تم الاتصال مرة أخرى بين أوروبا وإفريقيا السوداء، عن طريق المحيط الأطلسي، كان تفوق أوروبا يعود الى بحريتها التي تقطع مسافات طويلة، والأسلحة النارية، وذلك بفضل تواصل التقدم التقني في شمال حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد أتاح لها ذلك السيطرة على القارة وتزييف شخصية الزنجي. ولا نزال حتى الآن في ذلك الوضع. وقد ترتب عليه كل ذلك التزوير اللاحق للتاريخ المتعلق بأصل الحضارة المصرية.

وعلاوة على الوحدة السياسية، كانت الوحدة الثقافية تندعم في إفريقيا السوداء في ظل مختلف الإمبراطوريات. فبعض اللغات، التي أصبحت لغات رسمية لأن الامبراطور كان يستخدمها، كان يتم التعامل بها كلغات إدارية وبدأت تسود على اللغات الأخرى التي مالت إلى التحول الى لهجات إقليمية، على غرار تحول البريتون والباسك والاوزيتان في فرنسا إلى لهجات محلية، عن طريق تطور مماثل.

واعتمادا على الكلمات القليلة الواردة في رواية ابن بطوطة (المذكورة أعلاه) يخيل لنا أنه كانت هناك، في كافة أنحاء المنطقة السودانية لغة قريبة للغاية من الوكوف، قد تكون السراكوله، وذلك في الحقبة التي قام فيها المؤلف برحلة، بل وفي الحقبات السابقة عليها في عهد غانا. فعندما نجد تعبيرات

مثل قاربا؛ وكيل = قرع ؛ وغيرتى = فول سودانى؛ وكى - ماجان التى تعنى الملك؛ وين - بى، يتكون لدينا انطباع بأننا نجد أماننا القواعد الصوتية للوكوف (بنت - بى) = عصا ، ونميل إلى الاعتقاد بأن لغة الوكوف الراهنة، حتى وإن لم تكن لغة الحديث آنذاك، إلا أنها منحدره منها.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن تعبير توتدى - دارو الذى سيتم فحصه فى صفحة ٢٦٥ والصفحات التالية، والذى يشير إلى مدينة فى منطقة غانا، لن يكون حدثا يثير الدهشة؛ ولكن ذلك سيعنى أن مهد الوكوف انتقل نحو الشرق، اللهم إلا إذا كانت هذه اللغة قد انتشرت على نطاق أوسع مما تصورت.

وقد قضى الاستعمار على تلك العلاقات الثقافية وغيرها، فأعاد إلى السطح اللهجات الإقليمية وشجع على نمو تنوع اللغات. وكان من الممكن التوصل إلى نتائج مماثلة بعد عدة قرون من الاحتلال الألمانى الذى كان سيشجع على نمو اللهجات المحلية المذكورة أعلاه، على حساب اللغة الفرنسية التى كانت قد أصبحت من قبل لغة قومية.

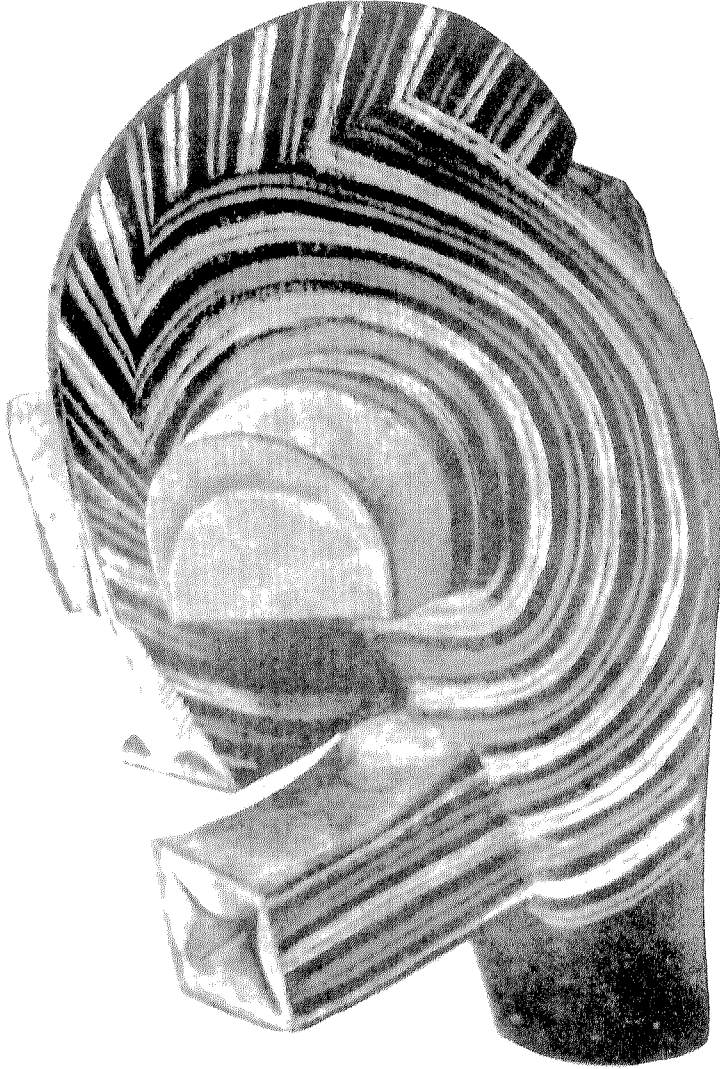
وهكذا نرى أنه قد حدثت انتكاسة فى إفريقيا السوداء، خاصة على الصعيد الشعبى، غير أنها ناجمة عن الاستعمار. ويوسعنا، بكل تأكيد، أن نعزو إليه تقهقر بعض القبائل التى تم الحط من شأنها تدريجيا، ودفعها داخل الغابات. ولذا فإن التعلل اليوم بأوضاع الشعوب التى أصبحت بدائية نوعا ما، للدعاء بأن إفريقيا السوداء لم تعرف الحضارة أبدا فى ماضيها، وأن عقلية الزنجى بدائية وغير رشيدة، لا تستجيب للتحضر، لهدوء باطل بشكل مزدوج.

فهذا الارتداد فى حد ذاته يمكن أن يفسر لنا احتفاظ تلك الشعوب بتقاليد تنم، فى ظل دولة بدائية نسبيا، عن مستوى من التنظيم الاجتماعى ومفهوم للعالم لا يتفقان مع المستوى الراهن لشقاقتهم.

ويوسعنا أن نذكر فى الواقع ظاهرة مماثلة فى أوروبا، ألا وهو ارتداد السكان البيض الذين يعيشون اليوم فى أودية تعزلها الثلوج فى سويسرا، مثل وادى لوتشتال. فهؤلاء السكان البيض من المتوحشين اليوم بالمعنى البرشمان أو الهيرنتو للكلمة؛ فهم يصنعون أقنعة مكشرة ومعذبة تنم عن خوف كونى، لا مثيل له إلا عند الإسكيمو. وتوجد مجموعة جميلة من هذه الأقنعة فى متحف جنيف (الصورة رقم ٤٩). وعلى عكس ذلك، سنلاحظ أن صفاء الفن الزنجى يعكس اعتدال المناخ الطبيعى ويكشف أيضا عن استثناس، روحى على الأقل، لقوى الكون. فلم تكن تلك القوى بالنسبة لهم ظواهر لا يمكن تفسيرها تثير الهلع فى النفوس، بل جزءا لا يتجزأ من نظام عام لتفسير الوجود، كان له قيمة فلسفية بالنظر إلى ذلك العهد. كان الزنجى قد سيطر على الطبيعة، جزئيا بواسطة التقنية، وبالكامل ذهنيا، ولذا لم تكن تخيفه. وكان لا بد وأن يعكس فنه راحته النفسية. وهكذا لن يكون الفن التعبيري الزنجى (دان فى كوت ديشوار والكونغو - الصورة رقم ٥٠) معبرا عن القلق والعذاب، بل سيبدو كضرب من التكوينات التشكيلية.



٤٩ - قناع سويسري مُكشّر



٥٠ - فناع تكعيبي كونغولي
تكوين تشكيلي حقا، للمقارنة مع الصورة رقم ٤٩

المشاكل التي يثيرها الشعر الناعم والتقاطيع «المنتظمة»

يتعين أن نقول هنا إن كلا من الشعر الناعم والتقاطيع المنتظمة ليس حكرا على الجنس الأبيض. فهناك جنسان أسودان متميزان في الوقت الراهن: أحدهما بشرته سوداء، وشعره أكرت، والثاني بشرته سوداء هو أيضا، بل وحالكة السواد بشكل استثنائي في الكثير من الأحوال، وشعره ناعم، وأنفه معقوف، وشفاه رقيقة، وزاوية أوداجه حادة. ولدينا نموذج أصلى لهذا الجنس في الهند، متمثل في الدراثيديين. كما أننا نعرف أيضا أن بعض النوبيين ينتمون إلى نفس هذا الجنس كما أشار إلى ذلك الجغرافي العربي المعروف الإدريسي، ونقله لنا پدرال:

«النوبيون أجمل السود وشفاه نساتهم رقيقة وشعرهن ليس مجعداً». (پدرال ، المرجع السابق، ص٧).

ولذا فإن إجراء بحوث انثروبولوجية والتوصل إلى نوع دراثيدي ثم استخلاص من ذلك غياب النوع الزنجي، غير صحيح ومناقض للعلم. وذلك هو موقف الدكتور ماسولار، استنادا إلى دراسات الأنثى ستوسيجر، حول الجماجم المنتمة إلى حضارة البداري. وما يجعل ذلك التناقض صارخا أن تلك الجماجم تتميز بطول الفكين و بروز الأسنان، وهى صفات لا توجد إلا لدى الزنوج أو الزنجويين - وأقصد بزنجوى كل عنصر منحلر من الزنوج.

«لا تختلف الجماجم البدارية إلا قليلا عن الجماجم الأخرى المنتمة إلى عصر ما قبل الأسرات، الأحداث منها : فكل ما فى الأمر أنها طويلة الفكين وبارزة الأسنان بقدر طفيف. وهى تشبه بقدر أكبر، بعد الجماجم البدارية، الجماجم الهندية البدائية - الدراثيدية والثيداء - وهناك بعض الجوانب الزنجوية فيها، ترجع إلى اختلاط بالدم الزنجي، منذ عهد قديم للغاية بالتأكيد». (د. ماسولار، المرجع السابق، ص ٣٩٤).

ولم يتم التوصل إلى «تبييض» الجنس المصرى إلا عن طريق تعارضات مختلفة من هذا النوع، علما بأن الجنس المصرى كان لا يزال زنجيا حتى فى عهد ما قبل التاريخ، كما يشير إلى ذلك هذا النص، وعلى نقيض المزاعم التى لا تستند إلى أى أساس علمى، والتي تريد أن يكون المصريون أولا بيضا تهجنوا فيما بعد مع الزنوج.

ويتم الاستناد عادة إلى شعور بعض المومياءات الناعمة، وهى المومياءات المختارة بعناية، والوحيدة التى تصادفها على أى حال فى المتاحف، للتأكيد على أنها تمثل نموذجا للجنس الأبيض، على الرغم من استطالة الفكين و بروز الأسنان. وتعرض تلك المومياءات جهازا لمحاولة إثبات أن المصريين كانوا من البيض. وسمك الشعر الذى يتم الاعتماد عليه، لا يسمح بقبول فكرة الجنس الأبيض. فعندما توجد مثل هذه الشعور على رأس مومياء، فإنها لا تقربنا فى الواقع، لا من النوع

الدراقيدي، بينما يقضى تماما على فكرة الأصل الأبيض كل من استطالة الفكين، ويزود الأسنان، وسواد البشرة، الذي لا يرجع إلى القطران أو غيره من المستحضرات. واختيار هذه المومياوات بدقة، دون الإشارة إلى ذلك، يلغى تماما فكرة اعتبارها نموذجاً. فقد قال لنا هيرودوت بكل وضوح، بعد أن رأى المصريين يعينى رأسه إن شعرهم أكرت؛ ولذا يحق لنا طبعاً أن نتساءل لماذا لا تعرض علينا المومياوات التي تتميز بتلك السمات. فمع أن عدد هذه المومياوات لا يهد أن يكون أكبر إلا أننا لا نجد لها أثراً في الوقت الراهن، وعندما يتم العثور على إحداها فإنهم يحاولون إقناعنا بأنها تمثل شخصاً أجنبياً.

وهذه الرقائق خطيرة للغاية.

وهناك ملاحظة تؤكد ما أفادنا به هيرودوت بخصوص شعر المصريين الأكرت؛ وهي لجوء النساء المصريات إلى استخدام الشعر المستعار الذي نجد حتى الآن مثيله تماماً في إفريقيا السوداء في شكل ديبيره ودجمبي. ولنا أن نتساءل بالطبع ما الذي يمكن أن يدفع امرأة بيضاء ذات شعر طبيعي مسترسل وجميل إلى إخفائه بشعر مستعار غليظ على غرار المصريات؟ فعلى العكس، يجب أن نستخلص من ذلك أن مشكلة الشعر كانت دائماً من الهموم التي تشغل بال المرأة السوداء.

وعلى أي حال، فإننا نرى أنه لا يمكن الاعتماد على نعومة الشعر لكي نستخلص من ذلك أننا بصدده جنس أبيض، لأنه يوجد شعر ناعم مختلف عن الشعر الأوروبي بقدر اختلافه عن الشعر الأكرت.

هل هو جنس أسود مُسَخَّر؟

تحاول بعض المؤلفات الترويج لفكرة تعايش جنس أسود مُسَخَّر طوال العصور القديمة مع جنس أبيض، مما أدى تدريجياً إلى تغيير سمات ذلك الجنس الأخير.

ويعتبر الاتصال بين الجنسين منذ ما قبل التاريخ حقيقة واقعة، دون أن نقرر مع ذلك مدى حجم ذلك الاتصال في مختلف المناطق التي جرى فيها. غير أن الدراسة الموضوعية للوثائق المتوفرة لدينا عن تلك العهود القديمة تجبرنا على قلب العلاقات التي أرادوا أن يقيموها مبدئياً بين الجنسين انطلاقاً من عيلام حتى مصر. وتكشف لنا حفريات ديولافوا عن أن الأسر الأولى في عيلام كانت زنجية. وتبين لنا مجموعة التماثيل العمرية جنساً أبيض أسيراً في مصر، إلى جانب جنس أسود يتجول في الطبيعة بحرية. ولم يتحرر تماماً العالم الأبيض من العالم الأسود الذي كان مسيطراً عليه آنذاك، إلا في العهد الإيجي الذي كان بداية لظهور شمال البحر الأبيض المتوسط على مسرح التاريخ.

لون المصريين الأسمر المائل للاحمرار !

من المحتمل إلى حد كبير، أن يكون تغلغل هذا الجنس المهزوم والأسير المثل في مجموعة التماثيل العامرية، قد ساهم مبكرا، منذ ما قبل التاريخ، في جعل لون بشرة المصريين أفتح. ومعنى ذلك بعبارة أخرى، أنه من المرجح أن يكون عنصرا أبيض، أقل تعدادا قد تطعم بالأساس الزنجي الأصلي، وذلك نتيجة للإغراء المستمر الذي مارسه الوادى على الرعاة الآريين والساميين الخشنيين. ولكن الأمر المؤكد تماما هو غلبة العنصر الزنجي منذ بداية التاريخ المصرى القديم حتى نهايته. فحتى التهجن المكثف فى العصر المتأخر لم ينجح فى زعزعة السمات الزنجية للجنس المصرى. وقد نما ذلك التهجن بين الزنجى المصرى والأبيض السامى أو الآرى عبر التاريخ المصرى وانتشر عن طريق التيارات التجارية. وجسد ذلك فى العهد الإيجى، اختطاف الفينيقيين لإيو 1101. والواقع أن الفينيقيين، وهم شعب زنجوى، وأبناء عمومة المصريين على نحو ما، عملوا لحساب المصريين كبحارة طوال تلك الحقبة. ومن بين ضروب التجارة التى مارسوها بين مصر المتحضرة وأوروبا البربرية آنذاك، تجارة النساء البيضاء. فايو، التى تم اختطافها فى اليونان وبيعها لفرعون مصر الذى دفع لذلك ثمنا غاليا بسبب ندرة لون بشرتها، ليست إلا رمزا لتلك التجارة التى يصعب إنكار مدى انتشارها أو التقليل من شأنها.

وهكذا يمكن تفسير لون المصريين الأسمر المائل إلى الاحمرار، بينما ظلت شفاهم غليظة - بل ومتدلية أحيانا - وظلت «أفواههم عريضة إلى حد ما» و«أنوفهم لحيمة» كما يقول ماسبيرو.

وهكذا نرى أن المصريين ظلوا دائما من الزوج. واللون الخاص الذى يريدون أن يضيفوه عليهم يوجد لدى ملايين من الزوج المنتشرين فى كافة أرجاء إفريقيا السوداء اليوم.

وكثيرا ما يشيرون إلى رسوم المصطبات ويميزون بين النحاسى والراميتو، أى بين الزوج والمصريين، وهو ما يعادله التمييز بين أفراد من الكوف والبامبارا والموسى والتوكولور على لوحة جدارية واعتبار الآخرين من البيض أو من جنس مختلف عن الجنس الأسود الذى يمثله الكوف. وتعطى هذه الملاحظة فكرة سليمة للأفارقة عن قيمة التمييزات التى تذكر عادة على أساس التصاوير المصرية. بيد أنه يتعين تحديد تواريخها بدقة. فصور المصطبات كانت معروفة تماما قبل شامبوليون، ولوحظت آنذاك تدرجات ألوان الأنواع التى تمثلها. وكانوا يقررون أن الأمر يتعلق بجنس زنجي لأن مصر كانت تعتبر حتى ذلك الوقت، بلدا سكنه الزوج دائما. كما أن الفن المصرى نفسه كان معتبرا من الفنون الزنجية التى لا أهمية لها.

ولم تتغير هذه الآراء إلا فى اليوم الذى تبين لهم، وقد أدهشتهم الحقيقة، أن مصر كانت أم الحضارة بأسرها. وبدا لهم أنهم يرون بشكل أفضل لأنهم استطاعوا أن يميزوا فى تلك النقوش الجدارية

التي كانت تمثل بالإجماع زنجوا، تدرجات «جنس أبيض ذى بشرة حمراء» و«جنس أبيض ذى بشرة حمراء داكنة» و«جنس أبيض ذا بشرة سوداء».

ولكنهم لم يميزوا أبداً من بين المصريين «جنسا أبيض ذا بشرة بيضاء» ليس إلا.

فالحجة المتمثلة فى اللون «الأسمر المائل للاحمرار» تؤكد فى حد ذاتها الأصل الزنجي للجنس المصرى.

نقوش نُصِبَ فِيْهِ

كثيرا ما اعتمدوا على هذه النقوش التي كانت تحدد الحدود بين السودان المروى ومصر بعد الاضطرابات التي شهدتها عهد الأسرة الثانية عشرة لكى يؤكدوا أنها تتعلق بالتمييز بين جنسين مختلفين، وأن هذا النُصْبُ كان يحظر على السود دخول مصر.

وهذا الاستنتاج تزوير خطير لأن كلمة «أسود» لم يستخدمها المصريون أبداً للتمييز بينهم وبين السودانيين المرويين، فكلاهما ينتمى الى نفس الجنس. ولذا كانوا يشيرواى بعضهم البعض بأسماء قبائل أو مناطق ولم يستخدموا أبداً نعوتاً ترتبط باللون، كما لو كان الأمر يتعلق باتصالات بين جنس أسود وآخر أبيض.

ولو قضت اليوم كارثة ذرية على الحضارة الحديثة، تاركة المكتبات سليمة، فإن الناجين من الكارثة سيلاحظون فوراً عند اطلاعهم على أى كتاب أدبى أن سكان المناطق الواقعة جنوب الصحراء يشار إليهم بأنهم «سود» وأن تعبير «إفريقيا السوداء» سيكون بمثابة إشارة ثمينة لتحديد موقع إقامة الجنس الأسود. ونحن لا نجد شيئاً مماثلاً فى النصوص المصرية. وفى كل مرة يستخدم فيها المصريون التعت «أسود»: كم، يكون ذلك للإشارة لأنفسهم، ولبلدهم، بلاد السود كميته، لا الأرض السوداء كما يفترض أصحاب الخيالات البارعة.

ولا يوجد أى نص أصلى يشير جهاراً إلى كلمة «السود» كتعبير يستخدمه المصريون لتمييز أنفسهم عن الزنوج. ولا يوجد شئ من هذا القبيل إلا فى النصوص العديدة الواردة فى الأدب الحديث التي تشير عمداً إلى «السود». وفى كل مرة يحدثوننا عن هذا الحدث أو ذاك نقلاً عن المصريين حول «السود» يكون ذلك تزييفاً. وهم يترجمون كلمة نحاسى المذكورة أعلاه إلى «السود» لصالح أطروحاتهم. ومن الأمور الملفتة حقاً للأنظار أن نجد فى نفس المؤلف، وبنفس قلم المؤلف، أن كلمة كوشيين ذاتها تصبح غير متوافقة مع فكرة «السود»، بمجرد أن يكون ذلك إشارة إلى السكان الأوائل الذين أقاموا حضارتهم فى الجاهلية، أو إلى بلاد الشام قبل اليهود (فنيقيا) أو بلاد ما بين النهرين قبل الآشوريين (عصر الكلدانيين) أو الى عيلام والهند قبل الآريين. ويشكل ذلك أحد التناقضات

العديدة التي تكشف عن خوف المتخصصين من إظهار الوقائع التي يعثرون عليها، بحد أدنى من حسن الإدراك. ولا يمكننا أن نفهم موقفهم إلا من خلال منطقتهم التالي: نظرا لأن لدى فكرة مسبقة عن الزنجي (عن طريق التريية)، فإن تواجد وثائق تثبت موضوعيا أن هؤلاء الزوج (الكوشيون والكنعانيون والمصريون.. الخ) هم الذين خلقوا الحضارة، فلا يمكن أن يكون ذلك سوى خطأ لا بد من التوصل بكل تأكيد إلى عكسه، عن طريق البحث الدؤوب. وتتمثل الوسيلة الأكيدة التي لا غنى عنها للتوصل إلى الحقيقة التي تتضمنها تلك الوثائق، مع تجاوز المظاهر، في تفسير تعبيرات: كوشى وكنعانى .. الخ، على أنها لا يمكن أن يقصد بها أنهم من الجنس الأسود. ولذا فنقل إن الأمر يتعلق بأى جنس كان، ماعدا أن يكون جنسا أسود، أو أن يكون جنسا أسود ولكنه ليس مع ذلك جنسا أسود، بل أسمر .. الخ.

ويتم اللجوء إلى تزييف مماثل عندما يرد ما ذكره مؤلفون قدامى مثل هيرودوت، وديودور، والمسافرون القرطاجنيون الأوائل .. الخ. فهم يوحون إلينا في الكتب التي تذكر هؤلاء المؤلفين أنهم كانوا يميزون بين المصريين من ناحية، والزوج من ناحية أخرى. وينطبق ذلك على ديلافوس (وهو ليس الوحيد بالطبع) عندما قال في كتابه *زنج إفريقيا* (الناشر مايو، ١٩٢٢):

«هناك فقرة بهذا الخصوص لها دلالتها في مؤلف هيرودوت/التاريخ. فقد حدد لنا تقريبا المؤرخ الإغريقي في الكتاب الثانى من مؤلفه (الفقرتين ٢٩ و ٣٠) التخوم الشمالية التي توصل إليها الزوج في زمانه في وادى النيل، وهم أولئك الذين يسميهم «الأثيوبيين». فهذه الحدود مماثلة إلى حد كبير لتلك التي وصلوا إليها في أيامنا هذه. وهو يقول لنا إنه كان يوجد هناك سود «شمال فيلة»، أى أعلى الشلال الأول، بعضهم مستقر والبعض الآخر من الرحل، يعيشون جنبا إلى جنب المصريين». (ص ٢٠ و ٢١).

وعندما نرجع إلى هيرودوت، يتضح لنا التزييف الذى جاء فى نص ديلافوس المذكور أعلاه، فهو يريد أن يوحى إلينا أن السود والمصريين كانوا، حسب هيرودوت، متميزين بل ومتعارضين. للمقارنة مع ما ذكره هيرودوت فى الصفحة الأولى).

والكتاب الثانى من مؤلف هيرودوت الذى ذكره ديلافوس يفيدنا بأن لون بشرة المصريين كان أسود وأن شعرهم كان أكرت (الكتاب الثانى، الفقرة ١٠٤). وتتضح لنا هنا الوسيلة التي تم اللجوء إليها لجعل المؤلفين القدامى يقولون عكس ما دونوه، وذلك فى الحالات النادرة التي لا يسدل فيها بكل بساطة ستار الصمت على شهاداتهم المزعجة. وهكذا يتصورون أن بمقدورهم الحط من مصداقية هؤلاء المؤلفين القدامى. وهذه النصوص المبتورة والمزيفة خطيرة للغاية لأنها توهم غير المتخصص بأنه يصدد معلومات أفادتنا بها مصادر موثوق بها.

ووفقا للوثائق المصرية ذاتها، كان السودان المرّوي، منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد؛ بلدا مزدهرا يقيم علاقات تجارية مع مصر. وكان الذهب فيه وفيرا بشكل خاص. ومن المفترض أنه نقل لمصر في حوالي تلك الحقبة الرموز الهيروغليفية الاثني عشرة التي كانت على ما يبدو الجنين الأول للأبجدية.

وبعد عدة محاولات للغزو، أصبح السودانيون والمصريون حلفاء ينظمون معا حملات على شواطئ البحر الأحمر؛ حملة بيبى الأول، من الأسرة السادسة. وكان يحكم النوبة في ذلك الوقت ملك يدعى أوانا، وقد أصبح حاكما لصعيد مصر في عهد خليفة بيبى الأول. واستمر ذلك التحالف حتى الأسرة الثانية عشرة، عندما نجح سنوسرت الأول في فرض وصايته على النوبة.

«غير أنه تم التخلص من النير في عهد سنوسرت الثاني في ظل أوضاع جعلت مصر مهددة بالتعرض بدورها للغزو. وقد أقيمت متاريس وقلاع بين الشلالين الأول والثاني لوقف زحف النوبيين. واشتد قلق مصر إلى حد جعلها تستدعى قبائل بدوية بقيادة المدعو أبشاي الذي جاء من سوريا. وقد تخلص سنوسرت الثالث من هذا التهديد بشن أربع حملات، وتم نقل الحدود نحو أعالي النيل حيث شيدت قلاع أخرى وأقيم نصب جديد يحظر مرور السود». (د.پ.دى پدرال، المرجز العلمى لإنريشيا السودا، الناشر پاىو، ١٩٤٩، ص ٤٥).

وباستثناء عدم صحة كلمة «السود» التي تنتهى بها تلك الفقرة، والتي لا تقع مسئوليتها على المؤلف المعروف بنواياه الحسنة، فإنها تدلنا على طبيعة الأحداث التي يرجع إليها السبب في إقامة نصب فيلة. ويتبين لنا من خلال تلك الوقائع أن الحليف السودانى كان في مرحلة معينة على وشك فتح مصر التي نظمت لذلك دفاعاتها، وأقامت نصب فيلة. وعليه فإن هذا النصب لا يمكن أن يفسر بالمعنى الذى أرادوا إضفاءه عليه.

وابتداء من معركة داتكى حتى معركة جويلة، كانت علاقات كايور ودچولوف على غرار علاقات التضاد الدورية بين مصر والنوبة. فهل حال ذلك دون أن يكون الكايوريون والدچولوف - دچولوف من نفس الجنس الأسود؟

الفصل السادس

إعمار إفريقيا انطلاقاً من وادي النيل

إن الحجج التي تساق للدفاع عن الأطروحة التي تعتبر أن إعمار إفريقيا تم عن طريق المحيط الهندي، انطلاقاً من أوقيانوسيا، لا تستند على أي أساس. ولم تتوفر لدينا حتى الآن أي وقائع أثرية أو غيرها تسمح لنا بأن نعثر على مهد للزنج خارج إفريقيا. وقد تم الاعتماد على الأساطير التي جمعت من إفريقيا الغربية ومفادها أن الزنج قدموا من الشرق من ناحية المياه الكبرى. وارتأى ديلائوس، مقدما، أن «المياه الكبرى» التي ورد ذكرها في الأساطير هي المحيط الهندي، دون أن يكون هناك أي دليل آخر، وربما اعتبرها فرضية تكون منطلقاً للمزيد من الدراسة، خاصة وأنه كان من المعتقد آنذاك أن مهد الحضارة كان في آسيا، نتيجة لاكتشاف إنسان جاوه وإنسان بكين وما جاء في التوراة بخصوص آدم وحواء.

وقد تبلورت الأفكار حول ذلك، ونسى المتخصصون أن الأمر كان مجرد افتراض مبدئي، أصبح ينظر إليه على أنه نظرية أقيم عليها البرهان.

واعتماداً على ما نعرفه حول آثار جنوب إفريقيا حيث يبدو أن البشرية نشأت هناك، وعلى كل ما نعرفه عن الحضارة النوبية، أم الحضارة المصرية على الأرجح، وعلى كل ما نعرفه عن ما قبل التاريخ في وادي النيل، يكون من المشروع أن نفترض أن «المياه الكبرى» ليست إلا مياه النيل.

وأياً كانت الجهة التي نستجمع منها الأساطير التي تقص علينا أصل أي شعب في إفريقيا، نجد أن الاتجاه المشار إليه يعيدنا إلى وادي النيل باعتباره نقطة الانطلاق. وهكذا نجد أن شعوب إفريقيا الغربية التي لا تزال تتذكر حتى الآن أصولها، تقول إنها قدمت من الشرق وأن أسلافها وجدوا أقزاماً في البلاد^(*). ووفقاً لأساطير الدوجون والبيروبا، فقد قدموا هم أنفسهم من الشرق، وتقول أساطير الفانج إنهم جاءوا هم أيضاً من الشمال الشرقي. وحتى القرن الماضي، لم يكن الفانج قد وصلوا بعد إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقدم الباكوبا، حسب ما ورد في أساطيرهم من الشمال. وعندما يتعلق الأمر بمناطق تقع جنوب وادي النيل فإن أساطيرهم تفيدنا بأنهم جاءوا من الشمال. وينطبق ذلك على الباتوتسي في رواندا - أروندى.

(*) كلمة كورديونج التي تعنى القزم الذي يتم في الغابة (ويضع على رأسه إناء بحلب الحظ السعيد) تتضمن ذكرى مشاركة المعيشة مع الأقزام في منطقة الغابات، قبل استقرار الكورف في سهل كايرو - باؤل، حيث لا يوجد أقزام أو غابات.

وعندما وصل البحارة الأوتل إلى جنوب إفريقيا ورسوا عند الكاب منذ بضعة قرون، لم يكن الزولو المهاجرون من الشمال نحو الجنوب قد وصلوا بعد إلى الكاب.

ويتفق هذا الافتراض مع أساطير الزوج المستقرين في وادي النيل، إذ لا تشير أساطيرهم إلا إلى أصل محلي لهم. ولم يحدث طوال الأزمنة القديمة أن أرجع النوبيون والأثيوبيون أصولهم إلى جهة غير محلية، اللهم إلا إذا كانت تلك الجهة تقع جنوب موضعهم. وقد قدم لنا م. دافراك ملخصاً لأساطير القدامى هذه المتوافقة بالإجماع حول اتجاهات الهجرات، يتهمك لا ينتقص من جدواها:

«وهناك آخرون، من المتبحرين الحالمين أو من المتخصصين المهرة في علم وظائف الأعضاء، لم يلجأوا إلى التاريخ البدائي للأفارقة وتقاليده التي تبددت تقريباً، بل فضلوا البحث عنه في افتراضات مغامرة، وهكذا فإن رواياتهم المبنية على التخمينات تفيدنا بأن الزنجي، النجل البكر للخليقة، وابن الأرض والمصادفات، نشأ في جبال القمر المغطاة بالثلوج (إفريقيا الوسطى) حيث وجد فيما بعد مهده الإنسان الذي هبط من هناك إلى سنار وأنجب المصرى والعربى والاتلانطيد. وكان الجنس الزنجي أكثر عدداً لمدة طويلة فأخضع الجنس الأبيض وسيطر عليه، غير أن الجنس الأخير تكاثر تدريجياً وتخلص من نير أسياده وتحول بدوره من عبد إلى سيد، وحكم على الجنس الأول بأن يرسف من الآن فصاعداً في القيود الحديدية الجائرة التي كان قد حطمها. وقد اتقنت قرون، ولكن غضبة هذا الجنس الأبيض لم تهدأ بعد». إفريقيا القديمة، سلسلة الكون، الناشر ديدو، ١٨٤٢، ص ٢٦.

وتلخص هذه الأسطورة تاريخ البشرية في بضعة سطور^(١). ويتعين أن نستبقى من ذلك الأصل الجنوي لأهالي وادي النيل من نوبيين ومصريين كما أكد الأخيرون ذلك دائماً، وكذلك أسبقية الزنجي

(*) نقل البنا شروريه بطريقة شائعة، هو أيضاً، جانب تلك الأساطير المتعلقة بسيطرة السرد في العهد البدائية:

«بعد الجنس الأحمر، سيطر الجنس الأسود على العالم ... فقد اجتاحت السرد جنوباً أوروبا في مرحلة ما قبل التاريخ ... وقد انحلت ذكراهم تماماً من رواياتنا الشعبية، عبر أنهم تركوا بصمات من المحال إزالتها ... كانت للسرد في زمن سيادتهم مراكز دينية في صعيد مصر والهند. وكانت مدنهم الضخمة ترتفع فوق جبال إفريقيا والقرقاز وآسيا الوسطى. وكان تنظيمهم الاجتماعي يمثل في حكم ثيوقراطي مطلق ... وكانت لدى كهنتهم معارف عميقة، منها مبدأ الوحدة الإلهية للكون وعبادة الكواكب، الذي تغلغل عند الشعوب البيضاء تحت اسم الصابئية ... وكانت لديهم صناعة، ومنها بالأخص فن كذف كتل الحجارة الضخمة وصهر المعادن في أفران هائلة حيث كان يتم تشغيل أسرى الحرب ...

... واستيقظ الجنس الأبيض آنذاك على هجمات الجنس الأسود الذي راح يجتاح جنوب أوروبا. وكان الصراع غير متكافئ في بدايته. فلم يكن لدى البيض نصف المترشحين، والمنطلقين من غاياتهم ومساكنهم المقامة على أوتاد في البحيرات، أي مورد سوى أفراسهم وجرابهم وسهامهم ذات السنون الحجرية. وكانت لدى الرنوح أسلحة من الحديد ودروع من البرونز، وكل موارد حضارة ماهرة لها مدنها الصحية. وقد سُمق البيض في الصدام الأول، وتحول من أسر منهم بالجملة إلى عبيد للسرد الذين أجبروهم على قطع الأحجار ونقل الركاز إلى أفرانهم. بيد أن الأسرى الذين هربوا إلى أوطانهم جلبوا معهم عادات ولغون من قهروهم، وكذلك بتدريجات علمهم. وقد تعلموا من السرد شيئين أساسيين: صهر المعادن والكتابة المقدسة، الهيروغليفية ... وكانت اللغات مأمّن البيض، حيث كان يرسمهم الاختباء مثل الرحوش، والانتفاض منها في اللحظة المراتية». (كهار المللمين على الأسرار، ص ٦ إلى ١٣، باريس ١٩٠٨).

فى طريق الحضارة، وسيطرته القديمة، والانتقال الراهن للأوضاع. إنه أيضا الإنسان الذى هبط الى سنار، وهو بلا شك السهل الواقع بين النيلين الأبيض والأزرق، ونقطة انطلاق الحضارة السودانية المروية. بيد أنه من المعروف أنهم ينسبون نفس هذه التسمية إلى السهل الواقع ما بين النهرين: دجلة والفرات. فأى من تلك التسميتين صحيح وأصلى؟ يبدو أن التسمية الثانية منقولة عن الأولى. وسيؤدى تصحيح هذا الخطأ إلى قلب اتجاه التاريخ مرة أخرى. وهكذا يصبح من الطبيعي أن يكون إعمار مصر قد تم انطلاقا من سهل سنار، مما يجعل الأسطورة متطابقة مع التاريخ.

وعلاوة على الأساطير الراهنة للشعوب الإفريقية التى تذكر كلها تقريبا حوض النيل والعنصر القزم الذى كان يسكن أعماق البلاد قبل تشتت الزوج، فلنذكر فترتين من هيرودوت تؤكدان ذلك.

يتعلق الأمر بشباب من الناسامون، انطلقوا من سرت (برقة حاليا) وساروا باتجاه الغرب بمحاذاة شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم اتجهوا نحو الداخل بعد اجتياز الصحراء ووصلوا إلى شواطئ نهر حيث كان لا يقيم سوى أقزام سود.

«وهؤلاء الشبان الذين أرسلهم زملاؤهم مزودين بمخزون جيد من الماء والغذاء، مروا أولا ببلدان مأهولة ثم وصلوا بعد ذلك إلى بلد يزرع برحوش مفترسة؛ وواصلوا من هناك طريقهم إلى الغرب عبر الصحارى، وشاهدوا، بعد أن ساروا طويلا فى بلد كثيف الرمال، سهلا به أشجار. وعندما اقتربوا منه أكلوا من ثمار تلك الأشجار. وبينما كانوا يأكلون انقض عليهم رجال صغار الحجم يقل طول قامتهم عن المتوسط، وساقوهم قسرا. وكان هؤلاء الناسامونيون لا يعرفون شيئا عن لغتهم، كما أن هؤلاء الرجال الصغار الحجم كانوا لا يفهمون شيئا من لغة الناسامونيين. وقد ساروا بهم فى منطقة مستنقعات، ووصلوا بعد احتيازاها إلى مدينة جميع سكانها من السود، لهم نفس قامة من اقتادوهم إليهم. وكان هناك نهر كبير به تماسيح، يجرى من الشرق نحو الغرب، بمحاذاة المدينة». (هيرودوت ٢ - ٣٢).

ويبدو إذن أن داخل البلاد كان يسكن فى فترة معينة، أقزام فقط. والنهر المقصود قد يكون نهر النيجر، لأننا نعلم الآن، على عكس اعتقاد هيرودوت، بأن النيل فيما بعد الحبشة لا يتخذ منحنى لكى يتدفق من الشمال إلى الجنوب، بعد أن يجتاز إفريقيا من شمالها الغربى إلى جنوبها الشرقى.

وتتعلق الفقرة الثانية برحلة ساتاسب، ابن تياسيس، الذى كان على وشك أن يُصلب بناء على أمر قورش، فخفف الحكم الصادر ضده إلى سباحة فى مجاهل إفريقيا بناء على طلب والدته، أخت دارا. وقد عبر ساتاسب أعمدة هرقل (جبل طارق) وأقلع متجها إلى الجنوب. وهو لم يستكمل رحلته، ولكنه أبدى مع ذلك الملاحظات التالية حول أهالى الشواطئ الأطلسية لإفريقيا فى ذلك الزمن:

«وقد حكى أنه رأى فى أقصى الشواطئ التى طاف بها أناسا صغار القامة يرتدون ملابس من

خوص النخيل، تركوا مدنهم والتجأوا إلى الجبال بمجرد أن رأوا سفينته ترسو، وأنه عندما دخل مدنهم لم يتسبب في أي ضرر يلحق بهم واكتفى بأخذ مواش». (هيرودوت، ٤ - ٤٣).

فهناك إذن توافق بين الأساطير الزنجية الراهنة والوقائع التي نقلها إلينا هيرودوت منذ الفين وخمسمئة سنة^(*).

وبناء على ذلك يكون الأقسام أول من سكن داخل القارة، على الأقل لحقبة معينة، وكانوا يعمرونها وحدهم في غياب الزئوج الطوال القائمة. ويمكننا أن نفترض أن الأخيرين كانوا متناثرين حول وادي النيل وانتشروا في كافة الاتجاهات مع مرور الزمن، نتيجة للإعمار والاضطرابات الاجتماعية التي تتخلل تاريخ أي شعب.

وهذه الفكرة ليست فقط مجرد نظرية لم تتأكد أو فرضية عمل بسيطة، فمعلوماتنا عن اتنوجرافيا إفريقيا إفرقيا تسمح لنا بالانتقال من حالة الافتراض إلى الواقع التاريخي المحقق. فهناك أساس ثقافي مشترك بين كافة زئوج إفريقيا، وبالأخص أساس لغوي لهم جميعا يبرهن بصفة عامة على سلامة تلك الفكرة.

ولكن هناك بالأخص التشابه اللغوي بين الأسماء وتحليل الأسماء الطوطمية للعشائر التي يحملها

(*) لا نلدينا رواية رحلة هاننن المقتصة إلا بمعلومات قليلة حول الزئوج الذهب كانوا قد وصلوا إلى الشاطئ في القرن الخامس قبل الميلاد، عندما تراجع القرطاجيون نحو إفريقيا بعد أن بات يهددهم التقدم السريع للدول الهندو - أوروبية في شمال البحر الأبيض المتوسط، وأرادوا إقامة مستوطنات على امتداد الساحل. بيد أن بعض الروايات تقول إن جزءا من ذلك الساحل كان لا يزال غير مأهول. ووفقا لتفسير أوجست مير، البحار الذي يدعى أنه يعرف هذه السواحل تماما، فإن القسم الخالي الذي أشار إليه هاننن يتكون من شريط الساحل الممتد من سان لوى دى سنجال حتى داكار. وهو يؤيد أيضا رأى الذين يعتقدون أن ثيون أوشيا (مركبة الآلهة) التي تحدد الموقع الألفسى الذى بلغه هاننن، هو جبل الكامرون. واليكم جرما من رواية هاننن:

«أصدر القرطاجيون أمرا بأن يجتاز هاننن أعمدة هرقل بحرا، لكي يؤسس مدنا ليبية - فينيقية. وقد أفلح هاننن على رأس أسطول مكون من ستين سفينة بحرك كلا منها خمسون مجدانا وتقل ٣٠ ألف فرد، من الرجال والنساء والمؤن وغير ذلك من الأدوات الضرورية.

«وبعد أن أبحرنا وواصلنا رحلتنا فبحا وراء الأعمدة لمدة يومين، أسسنا مدينة سميت ثيساتيرين ... وأقمنا المدن التالية على شاطئ البحر : كاريكوم، وتيخوس، وغيت، واكرا، وميلتا، وارانبا ... وبعد أن أخذنا مترجمين من عند اللبكيين واصلنا رحلتنا لمدة يومين بمحاذاة شاطئ مهجور كان يمتد جنوبا ثم يهرح نحو الشرق لمدة يوم من الملاحة، وعثرنا في عمق خليج على جزيرة صغيرة محيط دائرتها خمس ستادات (الستاد مقياس طولى إغريقى يبلغ حوالى ١٨٠ مترا)، أطلقنا عليها تسمية سيرنيز، وأقمنا فيها مستوطنة» (رحلة هاننن، الثالث القرطاجنى، على امتداد سواحل ليبيا إلى ما بعد أعمدة هرقل، والتي أودعها بنفسه فى معهد ساتورنوس).

وهذا النص الخاص برحلة هاننن مأخوذة عن ملذكرة حول رحلة هاننن لأوجست مير، باريس ١٨٥٥، فمأهر مصير تلك المستوطنات؟ وما القول فى مدينة أكرا هذه، على خليج غينيا؟

كافة الأفرقة، إما بشكل جماعى أو بشكل فردى وفقا لمدى التشتت، وتحليل هذه الأسماء بارتباطها بالتحليل اللغوى المناسب، مما يسمح لنا بالانتقال من صعيد الاحتمال إلى صعيد التأكد.

ففى مصر ذاتها نجد الأسماء التالية المشتركة بينها وبين السنغال :

السنغال	مصر
أتو	أتوم
سيك	سيك - ميت
كيتى	كيتى
كابا ، كيبا ، كيبه	كابا
أنتا	أنتف
فارى = اسم علم، لقب للامبراطور	فارى = الفرعون
مري	مري
ميرى	ميرى
سيبي	سابا (كوش)
كاريه	كارا ، كاريه
بارا - بارى (بول)	با - را
راما	رمسيس؛ رياما
باكارى	باكارى

ويذكر پدرال فى الفصل العاشر من كتابه (أثار افريقيا السوداء) ، البوروم الذين نجدهم فى أعالى النيل وفى منطقة بينوية فى نيجيريا؛ والجبا - جان - جانج الذين نجدهم فى منطقة البحيرات الكبرى وساحل الذهب وثولتا العليا وكوت ديقوار؛ والجولا - جوليه - جولاي الذين نجدهم على نهري النيل والشارى؛ كما يتعين أن نضيف أن جيلاي اسم سنغالى من أصل سارا.

كارا كاريه - كريكاريه

ووفقا لما كتب پدرال، يشكل الكارا نواة تعيش على تخوم السودان وأعالى نهر أوبانجى. ويعيش الكاريه على مقربة من نهر لوجون؛ والكاراكاريه فى شمال شرق نيجيريا.

وكاريكاريه ليست سوى تكرار لكاريه، وهى كلمة مكونة أصلا من كا + را أو كا + ريه.

وهناك الكيبيسيجوى - كاپسيجوى فى منطقة البحيرات الكبرى وشمال الكامرون؛ والكييسى فى شمال شرق بحيرة نياسا ومناطق الغابات فى غينيا العليا؛ والكوندو فى الكونغو (بحيرة ليوبولد) وجنوب الكامرون ومصب نهر وودى؛ واللاككا عند النوير فى أعالى النيل وعند السارا فى لوجون

وشمال الكامرون؛ والمكا - مأكوا على نهر الزامبيز وفي الكامرون؛ والساحل في شمال شرق نياسا
 وضفاف نهر الأريمانجي؛ والسومبا - سؤمبوا في منطقة البحيرات الكبرى وشمال داهومي.

ويوسعنا أن نواصل هذه القائمة إلى ما لا نهاية، وأن نحدد بذلك موقع المهدي الأول لكل الشعوب
 الزنجية التي تعيش اليوم مشتتة في مختلف أنحاء القارة؛ إنه وادي النيل ابتداء من البحيرات
 الكبرى.

وهذا التماثل في أسماء الأعلام يقف في صف الهجرة الحديثة. ولذا يكون من الأفضل التعمق في
 دراسة أصل عدد من الشعوب مثل البيرويا، والسيرير، والتوكولور، والبول، والآوي، وإثبات أن
 وادي النيل كان بالفعل نقطة انطلاقهم.

وسنبدي قبل ذلك ملحوظة حول البا - فور الأسطوريين، والذين يقال عنهم تارة إنهم كانوا حمرا
 وطورا إنهم كانوا سودا. ولفظ با أداة تصدير مشتركة تسبق أسماء كل الشعوب في إفريقيا، ويمكن
 مقارنتها بال وا المصرية والقبطية والروكوف التي تعني: الذين من، هؤلاء من ... الخ. وفي اللغات
 التي تستخدم فيها تلك الأداة في الجمع، - لا كأداة تصدير ولكن كإضافة - تفسر لنا أصل الجمع في
 اللغة المصرية:

باك - ر = خدم (بالمصرية)

سومب - وا = السومبيون

زباب - وي

وعليه فإن با - فور هي أيضا مكونة على شرار :

با - بنده = البانديون

با - لوبا = اللوبيون

وهكذا يمكننا أن نتصور أن البا - فور هم الفور .

ومن الجدير بالملاحظة، دون أن نتجاسر ونستخلص من ذلك استنتاجا، أن بور بالوكوف تعني
 أصفر. وقد تشير با - فور لا إلى قبيلة من أناس حمر أو سود، يشكل السيرير سلالتهم، بل إلى
 قبيلة من الجنس الأصفر، وهو ما قد يفسر لنا ليس فقط السمات المنغولية التي نجدها في إفريقيا
 الغربية، بل وربما أيضا الصلات الثقافية بين إفريقيا وأمريكا التي تشهد عليها كلمات مشتركة مثل:

لوتو = قارب بالوكوف، وأيضا في لغات هنود أمريكا الشمالية (وكذلك بلغتي السارا
 والباجويمي).

تول = اسم مدينة في السنغال.

تولده = اسم بلد للإسكيمي،
 تولا = اسم مدينة فى المكسيك.
 اينيريت = الناس بلغة الاسكيمي (انظر جيسان : الاسكيمي من جرويلاند حتى الألسكا ، ص ٥) ،
 إى - نيت؛ آى - نيت = الناس بالوكوف.
 وفى القرن الماضى، وصف بورى دى سان فانسان الإسكيمي الذين كان سوادُ بعضهم يكاد يعادل
 أشد الأفارقة سوادا، وذلك رغم المسافة الشاسعة بين خطوط العرض:

«وعلى أى حال فإن الجنسين أكثر سمرة من بقية شعوب أوروبا وآسيا الوسطى، بل وأدكن من أى
 من الأمريكيين الآخرين، كما أنهم يزدادون سوادا كلما اتجهنا أكثر فأكثر نحو الشمال؛ مما يقدم دليلا
 آخر على أن شدة حرارة الشمس ليست السبب فى أن يكون الناس زنجيا فى بعض المناطق المدارية،
 كما هو معتقد عموما. ولا يندر أن نجد اسكيمي وجرويلانديين وسامويديين فى خط عرض ٧٠،
 لو أنهم داكن أكثر من الهوتنتوت الموجودين فى أقصى الطرف المقابل فى القارة القديمة، ويكاد لو أنهم
 يكون بنفس سواد الوكوف والكافر فى خط الاستواء». (تاريخ ووصف جزر المحيط، سلسلة
 «الكون»، باريس، الناشر ديدو، ١٨٣٩).

أصل اليوروى المصرى

يتعرض ج. اولوميد لوكاس، فى كتابه *ديانة اليوروى (لاجوس، ١٩٤٨)* للأصل المصرى لهذا
 الشعب بالعبارات التالية:

«العلاقات مع مصر القديمة؛ بينما توجد شكوك حول صحة الأصل الآسيوى لليوروى، ليس هناك
 أى للشك فى أن أنهم كانوا فى إفريقيا منذ حقبة قديمة للغاية. وهناك سلسلة من الوقائع الجلية تدفع
 إلى الاستنتاج بأنه لابد وأن يكونوا قد استقروا لمدة طويلة فى هذه البقعة من القارة المعروفة بمصر
 القديمة. ومن الممكن جمع الوقائع التى تؤدى إلى ذلك الاستنتاج فى المجالات التالية :

- أ - تشابه اللغة أو تماثلها.
- ب - تشابه المعتقدات الدينية أو تماثلها.
- ج - تشابه الأفكار والممارسات الدينية أو تماثلها.
- د - بقاء عادات وأسماء أشخاص ومواقع وأدوات .. الخ .»

ويعد أن ذكر لوكاس العديد من الأسماء المشتركة باللغتين المصرية واليوروى مثل :

ران = اسم

بو = اسم موقع

امون = خفى

ميرى = ماء
ها = بيت كبير
هور = أن يكون كبيراً
فاها كا = سمك فى اللون
نايرت = حبة

الخ ... انتقل إلى قائل المعتقدات الدينية وذكر لنا عدة وقائع مشيرة حقاً، فقال :

«هناك أدلة وافرة على العلاقات الوثيقة بين المصريين واليوروبا، يمكن تقديمها فى هذا المجال. فأغلب الآلهة كانوا معروفين جيداً فى فترة معينة لدى اليوروبا. ومن بين هؤلاء الآلهة اوزيريس، وايزيس، وحورس، وشو، وسوت، وتحت، وجبرو، وأمون، وأنو، وخونسو، وخنوم، وخوپرى وحتحور، وسوكاريس، ووع، وسب، والآلهة الأربعة الرئيسيين وغيرهم. ولا يزال أغلب الآلهة باقين بنفس أسمائهم أو خصائصهم، أو بكل من أسمائهم وخصائصهم». (الصورة رقم ٥٢).

ولا يزال الإله رع عند اليوروبا باسمه المصرى رارا. ويذكر لوكاس كلمة إى -را - و التى تشير إلى النجم الذى يصحب شروق الشمس، وهو مكون من الحرف المتحرك، كأداة تصدير تتميز بها لغة اليوروبا، باعتبارها لغة صوتية أساساً، كما يقول المؤلف (وفى رأينا أن شأنها فى ذلك شأن كافة اللغات الإفريقية) را، وهى كلمة مصرية معناها استيقظ .

ويرى المؤلف أن كلمة رارا التى تعنى: إطلاقاً، باليوروبا، تجعلنا نفترض أنهم كانوا يقسمون فيما مضى باسم هذا الإله.

كما أن اسم الإله القمرى خونسو نجده لدى اليوروبا تحت اسم اوسر = القمر. وهو يذكرنا بأن الحاء ليس لها وجود فى اليوروبا، وأنه إذا تواجد هذا الحرف الساكن فى كلمة أجنبية، فلا بد أن يخضع للمعالجة التالية قبل أن يُقبل فى اللغة؛ فإذا كانت الحاء مصحوبة بحرف ساكن، يتم إدخال حرف متحرك ليتكون مقطع وفقاً لقاعدة الحرف الساكن - الحرف المتحرك، الحرف الساكن - الحرف المتحرك فى اليوروبا. وإذا كانت الحاء مصحوبة بحرف متحرك فى كلمة ليست من مقطع واحد، فإن الحاء تستبعد، وهذا هو حال كلمة اوسر.

ويوجد اسم امرن فى اليوروبا بنفس معناه بالمصرية القديمة، أى خفى. والإله آمون من أوائل الآلهة المعروفين عند اليوروبا، وكلمتا مون، وميمون = قديس، مقدس، باليوروبا مشتقتان على الأرجح من اسم هذا الإله، وفقاً للوكاس. وبحرت أعطت تو باليوروبا.

وقد أجرى المؤلف بعد ذلك تحليلاً اشتقاقياً ثاقب القريحة بخصوص كلمة يوروىا. فهو يلاحظ أن الكلمة التى تعنى تواجداً، فى إفريقيا الغربية - مع تغيير بسيط فى الحرف المتحرك هى يد. ولذا

فإن تكرارها به = التي تجعلني موجودا، ومنها به = أمى، أى من هي أصل وجودى فى الدنيا. ويجب أن نلاحظ بهذه المناسبة أن يا به = أم، فى كل من الوكوف والسارا والباجيرمى .. الخ.

وكثيرا ما تدغم به فى به أو /يا؛ ويمى (باليوروا : خالتي) تستخدم للإله الأعظم.

ومن جهة أخرى، فإن الكلمة المصرية ربا هى اسم ولى عهد الآلهة، الذى كان يعرف به سب فى مصر فى العهد الإقطاعى (حسب المؤلف). وهو يرى أن ربا أعطت روبا بمقتضى قاعدتين فى لغة اليوروا؛ إدخال حرف متحرك بين حرفين ساكنين، وتحويل ب إلى ب. وإذا اعتبرنا أن يو ليست سوى تحويل له ل أدركنا أن به + ربا أعطتنا يوروا التى تعنى ربا الحى (*) ...

ويقدم المؤلف تحليلا شيقا أيضا للاسم الذى يشير إلى الحروف باليوروا. فهو يعتمد على أن الكلمة اليونانية/يجوريتوس تعتبر عادة اشتقاقا من الكلمة المصرية خى - جو - بتاح، أى معبد روح بتاح. وكانت جدران هذا المعبد مغطاة بنقوش تمثل الكباش وغيرها من الحيوانات. وعليه فإن اسم هذا المعبد كان من الممكن أن يستخدمه الشعب للإشارة إلى الحيوانات المثلثة فيه.

فكلمة / - جو - تر = حروف باليوروا، تستوجب المقارنة مع /يجوريتوس عند الإغريق.

ويبدو أن هذا المثل الأخير يثبت أن هجرة اليوروا تمت بعد اتصال مصر بالإغريق.

ونصادف أيضا فى لغة اليوروا الكلمات المصرية روتى = الناس، و كوييتى التى جاءت منها الكلمة الإغريقية قبضى.

وأخيرا، يذكر المؤلف فى مجال تناثر المعتقدات الدينية :

- فكرة الحياة الأخرى والحساب بعد الموت،

- تأليه الملك،

- الأهمية المولة للأسماء،

- رسوخ الإيمان بالحياة الآخرة،

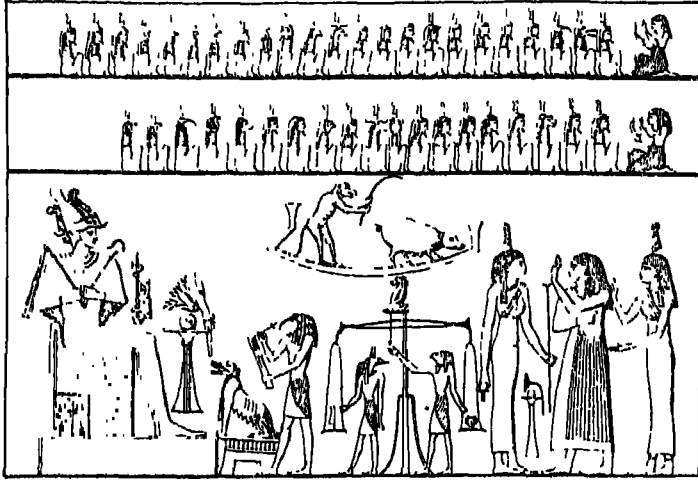
- الإيمان بوجود روح حارسة، ليست إلا مظهرا للكا.

ويلفت المؤلف أنظارنا هنا إلى أن كافة المفاهيم المتعلقة بالكائن فى مصر القديمة، مثل الكا، والآخو، والحو، والساهو، والبا مجدها عند اليوروا. ويجدر بنا أن نلاحظ فى هذا الصدد أن هذه المصطلحات موجودة حرفيا بلغتى البول والوكوف، كما سنرى فيما بعد.

(*) روم = الإنسان (باللغة المصرية)

يا - رام = جسم (بلغة الوكوف)

وإذا استرحينا الاشتقاق الذى أعطاه المؤلف لها، فكانت كلمة يا - رام تعنى أصلا، جسامها أو الإنسان الحى.



٥٢ - محاسبة المتوفى أمام محكمة أوليريس

الإله أنوريس يزن أعمال المتوفى على كفة الميزان بينما يسجل هذا الحساب الآلهة تجت على لوحة.

ويتوسع المؤلف بعد ذلك فى دراسة تلك المعتقدات ويواصل تبيان تماثلها فى التفاصيل مع المعتقدات المصرية، وذلك فى حدود ٤١٤ صفحة، وهو يختتم ذلك بالإشارة إلى وجود حروف هيروغليفية باليوروبا وتقديم بعض من رموزها.

وقمائل محفل الأرباب المصرية مع قرينه اليوروبا، يكفى فى حد ذاته لإثبات وجود اتصالات قديمة. ويفيدنا ما نعلم عن الشعب اليوروبا - بما فى ذلك أساطيرهم - أنهم استقروا فى موطنهم الحالى منذ زمن قريب نسبيا، بعد هجرة من الشرق إلى الغرب. ولذا يكون بوسعنا أن نعتبر، مع لوكاس، أن المهد المشترك الأول لليوروبا والمصريين، حقيقة تاريخية.

والصيغة ذات التحوير اللاتينى لاسم حورس، والتي يبدو أن كلمة اوريشا عند اليوروبا جاءت منه، تدفع إلى الاعتقاد بأن هجرتهم لم تتم فقط بعد اتصالهم بالإغريق بل وأيضا بعد اتصالهم بالرومان.

ولنذكر فى نهاية الأمر أن بدران يشير فى صفحة ١٠٧ من كتابه المذكور أننا إلى تل كوسو بالقرب من ايله - ايفه وإلى وجود تل باسم كوسو أيضا فى النوبة، على مقربة من مَرُوى القديمة، غرب النيل «فى قلب بلاد كوش (خريطة افريقيا لكورونيللى، ١٦٨٩)، وهذا الاسم يتكرر أيضا فى الحيشة».

أصل اللاؤبي

من أين جاء اللاؤبي؟ إنهم يشكلون في رأيي قسما تبتى من شعب الساو الأسطوري.
والواقع أن معلوماتنا عنهم جاءتنا من مخطوطات بورنو، وحفريات السيدين جريبول ولوبوف،
وهي تفيدنا بأن:

١- اسمهم : ساو/أوسو

٢- وأنهم كانوا عمالقة.

٣- وأنهم كانوا يقضون ليالي بطولها في الرقص

٤- أنهم تركوا عددا لا يحصى من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجر

٥ - وأن هذه التماثيل الصغيرة تصور نموذجاً عرقياً تتخذ مجتمه شكل الكمشري .

وهذه السمات الخمس نجدها بالضبط لدى اللاؤبي..

ويحمل اللاؤبي، شأنهم شأن الساو، اسما طوطميا واحدا متميزا، ألا وهو ساو الذي أعتبر خطأ أنه
اسم پول. والأداة المقدسة الوحيدة التي بقيت لديهم، وهي التي يستخدمونها في النحت، تسمى
ساو- تا .

وجميعهم - رجال ونساء - من العمالقة، ويبلغ طولهم، بكل يسر ١,٨٠ مترا وأكثر، عندما
يكونون أنقياء عرقيا (إذا جاز لنا أن نتحدث عن عرق). كما أن أطرافهم جميلة للغاية وأجسامهم
رياضية.

وجمجتهم كمثرية الشكل، تشبه في ذلك النموذج العرقى الذي تجسده التماثيل الساو الصغيرة.
ومهنة اللاؤبي الوحيدة هي نحت أدوات الطهي من الخشب لكل طوائف المجتمع الإفريقي الأخرى،
لا للبول وحدهم، ويستخدمون في ذلك جذوع الأشجار. وتسهم هذه الحقيقة، إلى جانب قاماتهم
الطويلة، في تحديد موطنهم الأصلي على مقربة من منطقة جبلية عامرة بالأشجار.
ومن أشغال المرأة اللاؤبي الأساسية صنع تماثيل صغيرة من الطين المجفف أو الحجر لأطفال الطوائف
الأخرى.

ويقضى اللاؤبي - وبالأخص نساؤهم - وقتهم في الرقص، ورقصتهم الرئيسية هي الكومبا لأؤبي
ايه جاس.

وقد تم اعتبار اللاؤبي خطأ أنهم طائفة من النحاتين من البول والتوكولور. وقد نجم هذا الخطأ
جزئيا من كونهم يتحدثون بالبول والتوكولور، مما دفع الى الاعتقاد بأنها لغتهم الأصلية. وهذا ليس

صحيحها، فمن الملاحظ أن اللاؤي يستخدمون دائما لفتين - على الأقل في السنغال. وهم يتحدثون بالوكونف بنفس اليسر كما يتحدثون بالبول، ولكن لكننتهم في التحدث بالوكونف لا تماثل لهجة شخص من البول أو التوكولور.

ويبدو أن اللاؤي شعب فقد ثقافته وأن عناصره المتناثرة تتأقلم حسب الظروف والأحوال، بتعلم لغات المناطق التي يقيم فيها.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن اسمهم الطوطمي سو. والأسماء الطوطمية الأخرى التي يحملها اللاؤي تعكس تهجنهم مع البول والتوكولور وغيرهما من الجماعات العرقية.

وعكس ذلك صحيح: وهذا ما يفسر لنا أن البول قد يحملون اسم سو الى جانب با وكا، وهما الاسمان الخاصان بهم، في رأينا (با + ريه = بارى).

وتؤكد عاداتهم المنحلة أنهم شعب فقد ثقافته وأنه لم يعد مرتبطا بأى تقاليد.

ومن المشاغل الرئيسية للاؤي أيضا سرقة الحمير لجمع المهر اللازم للزيجات العديدة التي يعقدونها، ولا يهم كثيرا مصدر الحمير التي يسلمونها لأسرة المرأة بمناسبة الزواج. وعلى أى حال فإن هذه الأسرة لا تراودها أى شكوك حول مصدرها. ويتمثل تكتيكها بمجرد حصولها على الحمير في التخلص منها في غضون ٤٨ ساعة ببيعها أو بمحاولة تغيير معالم تلك التي لم تباع - وإن لم تنجح في ذلك دائما - بتغيير لونها بالدخان. وإذا توصل ضحاياهم إلى التعرف على حميرهم رغم كل الاحتياطات «المشروعة» التي اتخذت، فإنهم يستردونها على الرغم من المقاومة الشفوية الشديدة التي يبديها اللاؤي، ولكن الزواج يظل بنفس القدر من المتانة التي تسمح بها عادات اللاؤي، ذلك أن الزوج أدي واجبه على أكمل وجه ولا يقع عليه أى لوم.

وعلى أى حال فإن المرأة اللاؤي تعلم أن النحت ليس سوى حجة يتم التلذع بها، وأن الثروة الاقتصادية الرئيسية هي قطيع الحمير. ولذا فإن بالها لا يهدأ إلا إذا تزوجت لصا موهوبا. وإذا لم يبرح الأخير في هذا المجال، فإن زوجته تعتب عليه هذا التقصير باستمرار، مما يحد من فترة الزواج.

ولكل هذه الأسباب مجتمعه، فإن التمييز المعتاد بين فئتي اللاؤي النحاتين وغير النحاتين لم تعد لها أهمية كبرى.

واللاؤي شرسو الطبع وإن كانوا لا يتعاركون إلا قليلا؛ والمشهد الكلاسيكي في هذه الحال يتمثل في توجه الخصمين، كل منهما نحو الآخر بخطوات تتيح فرصة كافية للجمهور لكي يعترض سبيلهما، بينما يجر كل منهما وراءه عصا طويلة تزن عدة كيلوجرامات، وهو يقسم ويسب بلء فيده. وبمجرد أن يتم الفصل بينهما، يعتبر كل خصم أنه قد أدى مهمته، ويكف عن الشجار، على أن يواصل السباب.

واللأوبى أكثر الناس إثارة للضحيج والتحرر من كل انضباط اجتماعى من بين كافة الأقارعة الذين أعرّفهم. وتقضى المرأة للأوبى وقتها فى إثارة المشاحنات وخداع زوجها. بيد أننا يجب أن نستثنى التوليد والنجالكاج، رذ أنهم أكثر تحررا من اللأوبى من أى انضباط اجتماعى.

ويقال إنه كان يتعين على رئيس ناحية فى باؤول أن يحاكم عددا من اللأوبى الذين تشاجروا، ولكن لما كان من عاداتهم التحدث جميعا فى وقت واحد فقد اضطر إلى ملء أفواههم بالماء حتى يتمكن من الاستماع إلى كل منهم بدوره، وعندما كان يستمع إلى شاهد، كان يسمح له بسكب الماء من فمه. غير أن قذف المياه من أفواه المقاطعين أشاع الفوضى فى الجلسة. ومع أن هذه الوسيلة محدودة الفاعلية، عندما يتعلق الأمر بطباع اللأوبى، إلا أن ذلك الرئيس لم يكف بعد ذلك عن اللجوء إليها.

ويحكى أن رئيس قرية سمح للأوبى أن يقيموا حيا لهم (الج لأوبى) فى قريته، ولكن بشرط أن يمتنعوا تماما عن الشجار. وقد أدرك اللأوبى بعد تجربة وجيزة أنهم عاجزون عن الوفاء بهذا الشرط، فقدموا هدايا لرئيس القرية بغية أن يرفع ذلك الحظر. ولما كان الأخير مصمما على موقفه، فقد ترك اللأوبى القرية لأنهم لا يطيقون الحياة بلا شجار.

وحتى لو كانت هذه النوادير حول اللأوبى مختلفة جملة وتفصيلا إلا أن ذلك لا يغير شيئا من الأمر؛ فهناك فعلا عقلية لأوبى، لولاها ما كان يمكن أن يتصور أحد تلك النوادير.

وهكذا يعيش اللأوبى مشتتين فى مختلف قرى السنغال وغيره. فليس لهم موطن ثابت، ومن الخطأ القول بأنهم مقيمون فى فورتا توررو أو فورتا دجالون وهما بلدا التوكولور والبول، فهم يكتونون جماعات متفرقة وسط المجموعات العرقية الكبيرة. ولا يستطيع لأوبى السنغال تحديد مهدهم، وتنظيمهم الاجتماعى مفكك تماما، ولا يقودهم رؤساء تقليديون. والشخص الذى يتمتع بينهم بأكبر تقدير يركب بغلا بينما تخصص الحمير للآخرين. وهكذا فإن منسرو وديام، وهو لأوبى كان واسع النفوذ، ما كان يمكن اعتباره حقا رئيسا تقليديا، كما أن نفوذه كان راجعا بالأخص إلى انضمامه إلى الطريقة المريديه وكان قطبها أحمدو بجا.

ويبدو أن اللأوبى اقتبسوا الختان من أهالى السنغال الآخرين.

وهم يقسمون بالساوتما، الأداة التى يستخدمونها فى تفريع جذوع الأشجار بعد قطعها بالبلمطة. كما يستخدمون هذه الأداة نفسها فى الختان.

وكثيرا ما يفرط اللأوبى فى استخدام عبارة سرما كوناريه دى : فليجعلنى الله أهرب أمام الساوتما، اذا كان يتعين على أن أفعل كذا. وكثيرا ما يحدث فى يمينه هذه بعد ذلك قورا.

ويسمح لنا كل ما جاء من قبل بأن نعتبر اللاوي فرعاً مشتتاً من الساب بعد تحلل ثقافتهم، بينما انصرفت أقسام أخرى منهم إلى غير ذلك من الجهات.

وقد اكتشف شامبوليون في وادي حلفا بالنوبة، لوحة تمثل ماندر^(*)، الإله النوبي وهو يقدم لأوسرتا سون، وهو فرعون من الأسرة السادسة عشرة، شعوب النوبة، ومن بينها قبيلتان تحملان اسمي أوسا و شوات. وهذان الاسمان يعيدان إلى الأذهان اسم شعب ساو الأسطوري الذي نعلم أنه كان يقيم حول بحيرة تشاد. ولا تزال لمجد حتى الآن شوات^(**) على ضفاف نهر لوجون (انظر بومان).

أصل البول

قد يعتقد المرء للوهلة الأولى أن البول قد نشأوا في منطقة افريقيا الغربية التي ظل المورد الساميون فيها على اتصال بالزنوج (ديلافوس: سود إفريقيا).

وإذا كان يتعين القبول بهذا الافتراض، فإن المهد الذي تم فيه ذلك يجب البحث عنه، رغم المظاهر، في موقع آخر.

وقد قدم البول على الأرجح من مصر، شأنهم شأن شعوب إفريقيا الغربية الأخرى. ويمكن دعم هذا الافتراض بحقيقة رئيسية، قد تكون أهم حقيقة يمكن إيرادها حتى الآن، وهي تتعلق بتماثل اسمي علكم طوطمين يتميز بهما البول، مع تصورين متميزين أيضا للمعتقدات الميتافيزيقية المصرية، ألا وهما الكا والبا.

فما هو الموقع الذي يحتله كل من الكا والبا في المعتقدات المصرية؟

« الكا الذي يتحد مع الزيت كائن إلهي يعيش في السماء ولا يظهر إلا بعد الموت. وقد أخطأنا في تعريفه، مع مسبيرو، على أنه صنو جسم الإنسان يعيش معه ويفترق عنه في لحظة الموت، ويعود إلى المومياة عن طريق الطقوس الأوزيرية. ويتضح من تعويذة روحنة الملك ما يلي: فبينما يظهر حورس الزيت ويخلصه من ماديته في حوض ابن آوى، فهو يظهر الكا في حوض آخر، حوض الصباح... وهكذا يكون كما زيت منفصلين أصلاً... ولم يعيشا أبداً معا على الأرض... وفي نصوص الدولة القديمة كان يستخدم تعبير «انتقال الشخص إلى الكا الخاص به» للقول إنه مات. وهناك نصوص أخرى توضح أنه يوجد كما أساسي في السماء.. وهذا الكا يتحكم في القوى الذهنية والمعنوية، وهو الذي يجعل في آن واحد لحم الإنسان صحيحاً، والاسم جميلاً، ويمنح الحياة الجسدية والروحية... »

(*) ماندر معناها بالولولف قديس يماوس طقوس الدين بحلالميرها.

(**) غير أن ديلافوس يعتبر أن الشوات عرب.

«والتحامد العنصرين الكا والزيت يكونان الكائن المتكامل الذي يبلغ حد الكمال. ويكتسب هذا الكائن صفات جديدة تجعله أحد سكان السماء. وهو يسمى البيا (الروح؟)، وآخ (النفس؟). والروح با المثلثة بالطائر با ذى الرأس البشرى، تعيش فى السماء .. ويمجرد أن ينضم الملك إلى الكا الخاص به، فإنه يصبح با ...» (موريه: النيل، ص ٢١٢).

وبصرف النظر عن مدى صحة تفسير موريه للكا والبيا المصريين، إلا أن أهم ما فى الأمر هو أن هذين المفهومين يقومان بدور لا يمكن إنكاره فى التصور المصرى للكائن. غير أن الكا والبيا، هما الإسمان الطوطميان النموذجيان الوحيدان عند الهول. ووفقا لما جاء منذ قليل حول اللاؤى، فإننا نعتقد أن الهول استعاروا منهم اسم سو الذى لا تتردد فى اعتباره متطابقا مع التعبير المصرى الثالث: زيت. وهناك اسم طوطمى آخر هول: بارى، وهو ليس إلا جمعا لـ با + را .

أما التعبير الرابع آخ فى نص موريه، فهو لا يتطابق فى حدود علمى مع اسم طوطمى، غير أنه ذو معنى أنتولوجى (مرتبط بعلم الكائن) واضح فى لغة الوكوف. فحتى الآن لا تزال كلمة آخ بالوكوف تعنى ما يتعين على المرء أن يعيده إلى الغير عند محاسبته عقب الوفاة، وذلك قبل أن يحظى بالنعيم الأبدى فى الآخرة. وهو يتوافق مع الجزء من شخصية الغير التى سلبها منه المرء بشكل مباشر أو غير مباشر.

زيت ، باللغة المصرية = الجثمان المطهر والمتخشب.

سيد ، باللغة المصرية = الوفاة الرمزية للملك المتقدم فى السن، وإعادة الشباب إليه بالطقوس.

سيت ، بالوكوف = نظيف

سيد ، بالوكوف = بارد، حالة الجثمان، وهى تعنى: التوقف عن الحياة، عندما تستخدم كفعل.

و الكا ، باللغة المصرية : هو باختصار جوهر الكائن الموجود فى السماء، ومن هنا جاء تصويره على شكل ذراعين مرفوعتين إلى السماء، وجاءت كذلك المعانى التالية: مرتفع، فوق، كبير، معيار ... ارتفاع. وقد سبق أن أوضحنا أن كا المصرية تُقرأ كار عند الوكوف وتعنى : مرتفع، فوق، عال .. الخ.

ويمثل البيا عند المصريين بطائر له رأس بشرى، يعيش فى السماء. غير أن هذه الكلمة تعنى أيضا باللغة المصرية طائرا هريا ذا عنق طويل. وبالوكوف با = نعمة.

وهكذا يتبين لنا أن تلك المفاهيم المتعلقة بالميتافيزيقيا المصرية قد تنوعت معانيها وفقا للشعوب التى نقلتها عنها. وبينما ظل المعنى المصرى لهذه التصورات قائما فى لغة الوكوف، إلا أن بعض هذه

المفاهيم تحول عند البول الى أسماء طوطمية ومنها *الكا* و*البا* ، اللتين تحولتا إلى اسمين طوطميين، أي عرقيين تقريبا.

ولذا يتعين أن نفترض أن البول كانوا من بين القبائل العديدة التي خرج منها فراعنة في مجرى التاريخ، وهو أيضا الوضع بالنسبة للقبائل السيرير من السار والسن ... الخ.

ومن المعروف أنه حتى الأسرة السادسة (التي قامت فيها الثورة «البروليتارية») كان الملك وحده يحظى بحق الوفاة الأوزيرية، وكان يتمتع تماما بالتالي *بالكا* و*البا* الخاصين به؛ كما أنه من المعروف أيضا أن عدة فراعنة حملوا هذا الاسم ومن بينهم الملك *كا* ، في عهد ما قبل الأسرات، الذي اكتشف اميلينو مقبرته في العراة المدفونة. ويتفق ذلك مع وجود فرع بول يسمى *كارا* .

والأسماء الأخرى التي يحملها البول، مثل *ديالو* ... الخ، هي أسماء علم تم اكتسابها فيما بعد عن طريق أوساط أخرى، أما لغة البول فهي تكوين وحدة طبيعية مع كافة اللغات السنغالية الأخرى، بشكل خاص، واللغات الزنجبية على وجه العموم.

وعلاقة لغة البول بلغتي اللوف والسيرير (التي تعرضنا لها في الجزء الخاص باللغات) لا تترك مجالاً للشك حول وحدة تلك اللغات الوثيقة.

وكان البول في الأصل زنجبا تهجنوا فيما بعد مع عنصر أبيض جاء من الخارج.

ويتعين أن نحدد تاريخ نشأة الفرع البول في الفترة التاريخية المصرية الممتدة من الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر المتأخر في الوجه البحري، حيث شهدت تلك الحقبة امتزاجا واسع النطاق مع الأجانب (انظر غطاء رأس حتحور في اللوحة الموجودة في اللوفر، والتي تمثل تلك الربة مع سبتى الأول).

أصل التوكولور

نزع التوكولور من حوض النيل في السودان، شأنهم في ذلك شأن السكان الآخرين الذين يتكون منهم الشعب الزنجبي.

وبما يؤكد ذلك أننا نجد حاليا في هذه المنطقة، عند النوير، بلا أي تغيير، الأسماء الطوطمية الخاصة بالتوكولور الذين يعيشون حاليا على ضفاف نهر السنغال، على مسافة تبعد آلاف الكيلومترات :

السنگال (فوتا تورو)

كَانَ
وَأَنَّ
سَى
لَى
كَأ (پول)

السودان

كَانَ
وَأَنَّ
سَى
لَيْه
كَأو

وتوجد فى نفس هذه المنطقة، فى الموقع المسمى تلال النوبة، قبيلتا النيورو والتورو.

كما توجد أيضا فى منطقة اوغاندا - رواندا قبيلة الكارا .

وهناك فى الوقت الراهن، فى الحبشة، قبيلة تسمى التكرورى، مما يدفع إلى الاعتقاد باحتمال أن يكون التوكولور فى السنغال جزءا من تلك القبيلة، وأن منطقة تكرور لم تعط اسمها للتوكولور، بل حصلت عليه عندما استقر هؤلاء فيها.

كما أن هناك أيضا موقعا يسمى نيورو (ماسينا) فى السودان الفرنسى (مالى حاليا) حيث أقام التوكولور قبل أن يصلوا إلى المنطقة التى سيصبح اسمها تكرور، فى شمال نهر السنغال، ونزلوا تدريجيا مع مجراه حيث أصبحت ضفافه تسمى على أثر ذلك فوتا - تورو.

غير أن القارئ قد يرى مع ذلك أن كل تلك الالتقاءات غير مقنعة بما فيه الكفاية. وإليه نسوق التقاء آخر :

من المعروف على وجه التأكيد أن التوكولور الذين كانوا قد أسلموا، تركوا ضفاف نهر السنغال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وتوغلوا فى أعماق البلاد واستقروا فى سيني سالوم لهداية الأهالى السيرير فى تلك المنطقة. وكان المرابط الأكبر التوكولور الذى حاول القيام بذلك، يسمى ما با دياخو ، وكان معاصرا للات ديور . وكانت المنطقة التى نجح التوكولور فى كسبها الى الدين الإسلامى قد سميت نيورو على يد أسلاف مايا : نيورو دى ريب .

وتقول روايات التوكولور أنفسهم الذين يعيشون اليوم على ضفاف نهر السنغال، إنهم أقاموا فى الماضى فى المنطقة المسماة نيورو فى السودان.

وهكذا يبدو السنغال والشواطئ المجاورة له كأحد نهايات المطاف للهجرات التى تعاقبت فيها الموجات العرقية وتراكمت، بعد أن تكسرت عند المحيط فانصهرت معا مع مرور الزمن، وانتشرت من جديد فى اتجاهات ثانوية.

وتوجد فى فوتا - تورو ، عناصر متخلفة من السيرير والوكوف. وتحمل هذه العناصر أسماء، منها سار، وديوب ، ونّ دباى .. الخ، وجميعها من طائفة التيوبولو، أى الصيادين.

أصل السيرير

جاء السيرير على الأرجح إلى السنغال من حوض نهر النيل : والطريق الذي سلكوه محدد المعالم بأحجار منتصبة بنفس خط العرض تقريبا من الحبشة حتى سيني سالوم (منطقة تقع بين نهر سالوم ورافده سني). ويؤكد هذا الافتراض مجموعة من الوقائع المستلخصة من تحليل مقال للدكتور مايس حول الأحجار المنصوبة في قرية تدعى توندى - دارو بالسودان الفرنسي (مالي حاليا)، والتي كان ديسپلاتج قد اكتشفها.

وقد حاول الدكتور مايس إرجاع أصل تلك الأحجار إلى القرطاجيين أو المصريين الذين يعتبرهم، حسب مفهومه، من البيض.

وهو يحلل اسم القرية على الوجه التالي :

توندى، جاءت (في رأيه) من الكلمة الصنهاجية التي تعنى حَجْرَة.

دارو، جاءت من الكلمة العربية دار، والواو في آخر الكلمة إضافة لمساندة المعنى.

وعليه فإن توندى - دارو معناها البيت الحجري.

وهذا التحليل لا يكون صالحا ومقبولا إلا لو كانت تلك الأحجار تمثل دارا، أو لو تم العثور بطريقة أو أخرى على ما يبدو أنه كان دارا. غير أن الدكتو مايس يعلم أن ذلك مستحيل، والنص الذي عرضه يضم مجموعة من الوقائع التي تستبعد تماما أي فكرة عن مسكن لِقَوْم؟

ولكن ماهو الوصف الذي قدمه لتلك الأحجار؟

«إنها نصب من قطعة حجرية واحدة منحوتة على شكل قضيب طرفه محدد بعناية والحزوز متفقة مع مجرى الطرف، كما أن البروزات المكورة ذات الثنيات الطويلة تشير إلى التخصيتين. وهناك أحجار أخرى أصغر حجما ليست منحوتة على شكل قضيب ومجردة من البروزات المكورة، يبدو أنها تمثل بالأحرى مع المثلث المرسوم على شكل عانة، عضو الأنثى». (د. مايس، الأحجار المنتصبة في توندى - دارو، النشرة الدراسية لإفريقيا الغربية الفرنسية، ١٩٢٤، ص ٣١).

وكيف يفسرها لنا ؟

« يمكننا أن نسلم، الى حد ما، بأن تلك الأحجار شاهد على موقع جبانة، حيث تمثل كل حجرة فردا ذكرا أو أنثى تم دفنه». (نفس المرجع).

ولو تم العثور على بقايا عظام تحت تلك الأحجار لكانت هذه الفكرة تستحق الاهتمام، ولكن الدكتور مايس يستطرد قائلا:

« وعدم العثور إلا على بعض شذرات من العظام ليست له إلا قيمة ضئيلة فى مواجهة هذا الافتراض. فمن الممكن أن يكون قد تم حرق الجثث ودفن الرماد والعظام القليلة التى لم تأت عليها النار». (نفس المرجع).

وهذا الاستدلال غير مقبول من أوله حتى آخره، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون الأمر متعلقاً بمقابر لأنه لم يتم العثور على أى هياكل عظمية؛ والعظام القليلة التى أراد الدكتور مايس أن يعثر عليها تؤكد أنه لو كانت هناك أصلاً هياكل عظمية، لما كان أثرها قد زال.

ماذا تمثل هذه الأحجار حقاً؟

إنها تتعلق بطقوس زراعية، وهى ترمز إلى الاتحاد الشعائرى بين السماء والأرض (بتصويرها للجنسين المنحوتين فى الحجر)، وذلك لكى تتولد النباتات التى يتغذى بها الإنسان، وبعبارة أخرى لكى تنمو البذور. فمن المعروف حسب المعتقدات القديمة أن المطر يشير إلى تخصيب الأرض (الربة الأم) بواسطة السماء (الإله الأب، رب السماوات بعد اكتشاف الزراعة، وفقاً لما أوضحه ميرسيا ايلباد، مؤرخ الأديان القديمة). وكان الزرع الذى ينبت نتيجة لذلك التزاوج، يعتبر نتاجاً إلهياً. ومن هنا جاءت فكرة الثالوث الكونى التى ستتطور من خلال عمليات تجسيد متتالية انطلاقاً من ثالوث أوزيريس، ايزيس، وحورس، إلى الأب والإبن والعذراء مريم، التى حل محلها بعد ذلك الروح القدس.

ولما كانت المتشابهات تنتج متشابهات، فقد نحتوا فى الحجارة عضوى التناسل لدعوة الآلهة إلى الالتحام لكى تنمو النباتات التى تؤمن الحياة للشعب. وهكذا، دفع حرص الإنسان على تأمين وجوده المادى إلى الإقدام على تلك الممارسات. وما كان يمكن أن تتخذ غريزة البقاء والمادية الموهلة فى القدم إلا ذلك الشكل المستعار والمتنع لميتافيزيقيا ستتطور بلا انقطاع لتصل إلى المثالية.

هذا هو فى رأينا مغزى تلك التجسيديات المنحوتة. ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن تلك الأحجار القضيبية لا تمت بصله إلى عبادة الشمس (شأنها شأن كافة الحجارة المرفوعة) بقدر ما لا تمت الشمس بصله للأمطار، ولذا فمن الخطأ اعتبارها عبادة شمسية، أى رعية مزعومة، وبالتالى حامية - سامية، بما يحمله ذلك الاصطلاح من لا معنى معهود. فهذه العبادة الشمسية التى تخص شعوباً راعية ومحاربة من صنع خيال محض، ولا تعتمد على أى واقع حقيقى.

وعلى العكس من ذلك، فإن الشعب الذى يمارس تلك العبادة يتعين أن يكون من الزراع أساساً، بما يبعدنا أوتوماتيكياً عن السهوب الأسبوية - الأوروبية والمناطق الشمالية، مهد الرعاة البدو، هذا عدا أننا لا نجد أحجاراً منصوبة فى تلك المناطق. وهى لا توجد إلا فى بلاد يقطنها زنوج أو زنجويون، أو فى بلاد ارتادها هؤلاء، فى النطاق الذى يسميه سبيسر^[1] [SPEISER] «الحضارة الكبرى ذات الآثار الحجرية الضخمة» والتى تمتد من إفريقيا إلى الهند وأستراليا وأمريكا الجنوبية وإسبانيا

وبريتانيا. ومن المعروف أن المنهير (الأحجار الضخمة المنتصبة) والدولين (الأحجار المسبوطة أفقياً فوق المنهير) تعود في بريتانيا إلى عهد حضارة زراعية كانت تستخدم النحاس. ومن المعروف من جهة أخرى أن اسبانيا وبريتانيا كانتا مراسى للفينيقيين، وهم شعب زنجوى، وذلك في طريقهم لجلب القصدير من مناجم إنجلترا. كما أن حضارة الأحجار الضخمة المنتصبة في بريتانيا تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، وهي الحقبة التي كان الفينيقيون يترددون فيها على تلك المناطق. وهذه الوثائق في مجموعها لا تترك مجالاً للشك في الأصل الجنوبي والزنجوى للأحجار الضخمة في بريتانيا.

ولما كان الطابع الزراعي للمجتمعات التي أقامت تلك الأحجار الضخمة قد تأكد بما فيه الكفاية، فلنبرز تناقضاً آخر فيما كتبه الدكتور مايس. فهو يفترض أن الجثث كانت تحرق، ولكن هذه الممارسة كانت تخص البدو الذين ما كانوا يستطيعون تكريس طقوس لمقابر ثابتة نتيجة لترحالهم المستمر. وقد احتفظوا بهذه العادة في كل مكان، حتى بعد أن أصبحوا مستقرين (الرومان، والآريا في الهند). فالجثث تحرق، لا تدفن الرماد ولكن لحمله.

والشعب المزارع الذي تعود إليه تلك الأحجار الضخمة في توندى - دارو لم يكن يحرق موتاه، ولا بد أن يكون من الممكن العثور على عظامهم، باتباع التوضيحات التي سنقدمها فيما بعد. غير أن الدكتور مايس يحدد بدقة فكرته عن الشعب الذي تعود إليه تلك الأحجار فيقول: «وبالنسبة لمن يدرك سيكولوجية الأسود، يمكننا أن نؤكد بشكل قاطع أن هذه المنشآت التي تتطلب كما هائلاً من الجهود، بلا أي فائدة مباشرة، وظاهرة، وبلا أي صلة مع الأداء المنتظم لوظيفة التغذية والتناسل، وهما الوحيدتان اللتان تهماان الأسود، لم ينفذها ممثلون للجنس الأسود». (المرجع السابق).

وهذه الفقرة تستلقت الانتباه بشكل خاص لما تتضمنه من تناقضات. والواقع أننا لا يمكن أن نتصور، وفقاً للمنطق الذي يقال إنه وُفِّ على الغرب البالغ والمتحضر والحديث، أن القلم الذي وصف بالتفصيل وبدقة تلك الأحجار المنتصبة المثلثة للجنسين، هو الذي كتب يقول بعد ذلك ببضعة سطور، إن الجهود الهائلة التي تطلبها ذلك لا تمت بصلة إلى «الأداء المنتظم لوظيفة التغذية والتناسل، وهما الوحيدتان اللتان تهماان الأسود».

كما أننا لا نتصور أن الذي حلل منذ قليل كلمة توندى - دارو، واعتقد أنه اكتشف أنها «بيت من الحجارة» هو نفسه الذي يقول لنا في نهاية نفس المقال، وبخصوص نفس هذه البيوت الحجرية إن «هذه المنشآت التي تتطلب كما هائلاً من الجهود، بلا أي فائدة مباشرة...» لماذا يتعثر الكاتب في تناقضاته؟ بالذات لكي يتمكن من أن يقول لنا في النهاية إنه يتعين أن نبحث عن أصل قرطاجنى أو مصرى لتلك الحجارة، أي بعبارة أخرى، لكي يرجع كل ذلك إلى أصول يعتقد أنها بيضاء، أو يتمسك بأن تكون بيضاء. وهذا هو الموقف النموذجي للغرب تجاهنا في الوقت الراهن.

وهو ما يؤكد لنا الضرورة المطلقة لقيامنا بإزالة الركام عن ماضيها.. وتلك مهمة لا يمكن أن يضطلع بها شعب لحساب شعب آخر وذلك بسبب الأهواء والنعرات القومية والنوازع العنصرية المسبقة، الناجمة عن التريبة المشوهة أصلا. فإذا تم العثور على أحجار فى إفريقيا - وتلك حالة الدكتور مايس - فلا بد من البحث عن أصل خارجي لها على أساس فكرة متحيزة، سواء تم التعبير عنها أو لم يتم، وذلك بمقتضى أنه «بالنسبة لمن يدرك سيكولوجية الأسود، يمكن التأكيد بشكل قاطع» أن هذه الأحجار المتراكمة لا يرجع مصدرها اليه.

من هو المسئول إذن عن تلك الأحجار المنتصبة؟

إن حكم المؤلف بهذا الخصوص يقطع بأن سكان منطقة توندى - دارو ليسوا المسئولين إذ «لا توجد أى رواية شفوية بهذا الخصوص عند السكان الحاليين لتوندى - دارو. وعند سؤال أكبرهم سنا أو أكثرهم علما فإنهم يجيبون بأن آباءهم وأجدادهم .. الخ عرفوا تلك الأحجار ولكنهم لا يعلمون شيئا عن الناس الذين نحتوها».

وهذا القول الأخير للمؤلف ليس تفسيرا بل إنه إقرار واقع، بوسعنا إذن أن نستخدمه.

ولكن من هو إذن المسئول الحقيقى عن تلك الأحجار؟

إنه على الأرجح الشعب الإفريقى الذى لا يزال يعيش فى نفس المنطقة، على مسافة قصيرة نسبيا من توندى - دارو ولا يزال يمارس حتى الآن شعائر الأحجار المنتصبة، والمقصود بذلك هم السيرير.

واليكم مجموع الأسباب التى تسمح بافتراض ذلك:

لا يزال السيرير يمارسون حتى الآن شعائر الأحجار المنتصبة فى سيني سالوم. ومن معانى هذه الشعائر، تلك التى ورد ذكرها آنفا. ولا يزال السيرير حتى الآن الوحيديين الذين يلتمسون الأمطار فى شمال السنغال. فهم مزارعون أساسا، يؤدون شعائر تقليدية من أجل الاستسقاء للاعتبارات الزراعية فقط (فى الباوول، حول شجرة الباوياپ الضخمة المسماة ندوميه أو نومه ديوب ، فى ديرريل ، على مقربة من حلبة سباق الخيل).

وهناك سبب آخر أقوى، يصعب تفنيده لمساندة هذا الافتراض، وهو ناجم عن تحليل اسم توندى - دارو ذاته.

توند = تل ، بلفتى الوكوف والسيرير

دارو = المعاشرة، بالمعنى الجنسى للكلمة .. فمن الممكن إذن أن يتعلق الأمر باقتران شعائري.

والياء المصاحبة لتوند تعبر عن المسند الجمع، ولذا فإن توندى - دارو = تلال الجماع (بالوگوف). ولا يمكن أن نجد اليوم فى لغة الوگوف عبارة أكمل وأدق من الناحية النحوية للتعبير عن هذه الفكرة : تلال الجماع ؛ وعلى أى حال فإن هذه العبارة مانعة وهى الوحيدة المناسبة. وهى تعبر عن ذلك الجماع الشعائرى الذى يتم فوق التلال.

ولكن لماذا فوق التلال؟

بالذات لأن تلك الشعائر كانت تقام دائما فى مواقع مرتفعة، مثل الجبال والتلال التى تعتبر مقدسة لأنها - على ما يبدو - البقعة التى تلتقى فيها السماء مع الأرض (*).

وفى هذه الحالة ولكى يكون البرهان الذى تقدمه صحيحا، وحتى لا يكون تحليلنا لاسم توندى - دارو ليس وليد صدفة أو توافقا مضللا فإنه يتعين على الأقل أن نعرش على تلال فى هذه المنطقة. وهذا هو الواقع إذ أنها موجودة فعلا فى توندى - دارو ذاتها :

« تقع توندى - دارو على حافة تلال من الصلصال الأحمر المغطى جزئيا بالرمال ». (د. مايس، المرجع السابق).

فالأمر يتعلق إذن بتطابق : فاسم القرية يلخص الجمع بين حقيقتين ملموستين تحيطان به، ألا وهما التلال والأحجار القضيبيية بمغزاهما الشعائرى.

وهناك حقيقة أخرى لا يمكن إغفالها وهى أن الجمع بين هاتين الكلمتين المعبرتين عن حقيقة واقعة تكتنف القرية، لم يتم باللغة الراهنة المستخدمة فى المنطقة. أوليس مما يدعو للعجب أن تكون هذه الواقعة مجرد صدفة جمعت بين الموقع واسمه المنتمى إلى وسط آخر خارج المنطقة.

ولذا يجب أن نقر - إلى أن يثبت العكس - بأن السيرير هم الذين مروا بتوندى - دارو، بل وأقاموا فيها.

ولو كان ذلك صحيحا، لتعين علينا أن نتمكن من التأكد منه بالبحث عن المقابر عن طريق تنقيب منتظم للأكمات المجاورة. والسيرير يدفنون موتاهم على الطريقة المصرية، علما بأنهم اضطروا إلى التخلّى عن التحنيط نتيجة لندرة الأنسجة، وبالأخص اختلاف الاعتبارات الصحية التى كانت قد أملت ذلك فى مصر. ويقام فوق القبر سقف مخروطى مغطى بالتربة بدلا من الهرم، ولما كانت الأحجار نادرة فى سهول هذه المنطقة، فقد استخدموا القش بدلا من الحجارة. وهكلما ينخسف السقف مع الوقت، وقد ينهار أيضا، ولكن يظل هناك بصفة عامة كتيب من التراب فى مكان المتبرة القديمة.

(*) نظرا للأوضاع الجغرافية فى مصر، حيث لا تهطل الامطار عموما، وتأتى المحصورة مع ماء النيل، نجد أن جنس هذين الزوجين الإلهيين معكوس، فالسما هو الربة، والأرض هى الإله الذكر.

وكان المتوفى يُكفّن ويُزَيّن حسب ثروة أهله، وكانوا يضعونه فى القبر مع الأدوات المنزلية ومقتنياته الخاصة التى كان يستخدمها فى حياته، لأن السيرير، يعتقدون، شأنهم شأن المصريين، أن الحياة تجرى بعد الموت، على غرار ما هى عليه فى عالمنا^(*).

وهكذا تتضح لنا مدى أهمية تحليل الوقائع المرتبطة بالتقاليد والعادات فى مجال التاريخ الإفريقى والتأكيدات النسبية التى توفرها دائما الاعتبارات اللغوية.

كما يتبين لنا أيضا ما يمكن استخلاصه من الدراسات الاتنوجرافية التى تتم بحصافة.

ويتضح لنا، من الأخطاء الكبيرة التى وقع فيها الدكتور مايس، وعقليته التى تدفعه إلى حرف القضايا قبل معالجتها - وهو شئ لا ينفرد به - يتضح لنا مدى ضرورة أن نعرف أنفسنا بشكل أفضل، وأن نُعرّف الآخرين بثقافتنا بدلا من الإصرار على التعرف عليها عن طريق المؤلفات الغربية. ويتعين علينا أن نستبقى كل الوقائع التى تمت إفادتنا بها بكل عناية وموضوعية. أما التأويلات أى محاولات فهم تلك الوقائع وتفسيرها وإيجاد الروابط والعلاقات السببية بينها، فيجب أن نعاملها بكل عناية وحذر.

ومع أن استدلالنا مفر إلا أنه يتضمن تناقضا كان يمكن أن يمر دون أن يفتن إليه أحد لولا إشارتنا إليه. ولكن الحرص على الموضوعية - مادامنا نبحث عن الحقيقة - يفرض علينا فى كل مرة أن نبرز الواقع كلما تطلب الأمر ذلك حتى لا يكون هناك أى مجال للشك. فالسيرير هم الذين يمارسون حتى الآن الشعائر التى تم العثور عليها فى توندى - دارو. ومع أن لغتهم قريبة للغاية للوكوف، وعلى الرغم من أن الأخيرة نعت منها، فيما يبدو لى، إلا أن حالها الراهن لم يعد الحال الذى جاءت منه كلمة توندى - دارو. فهذه العبارة وُولوف بالأساس وليست سيرير. وهذا هو الواقع الذى يستحق أن نلتفت النظر إليه. فحيث أننا لسنا إزاء ظاهرة جاءت مصادفة، فإن مهد لغة الولوف يجب أن ننقله نحو الشرق باتجاه مصب نهر النيجر، فى الموقع القديم لغانا، أو أن نعتبر أن نطاق انتشار الوكوف كان أكبر بكثير مما هو عليه اليوم، وكان يشمل ضفاف نهر السنغال ومصب نهر النيجر وبحيرة تشاد، وربما أكثر من ذلك. وهناك وقائع أخرى تقف فى صف أصل السيرير النيلى. فالمدينة المقدسة التى أقاموها بمجرد وصولهم إلى سيني سالوم، مدينة كاؤن، تحمل هى أيضا اسم مدينة مصرية تم العثور عليه فى المتون الهيروغليفية.

(*) الرمز الهيروغليفى الذى يعنى القبر باللغة المصرية يتخذ شكل هرم نرسى (مرتفع فوق قاعدة صغيرة) ويقرأ : مر. والمقبرة التى تتخذ نفس هذا الشكل عند السيرير تسمى مبانار. غير أن الملوك يدفنون عند الوكوف والسيرير، فى آبار خفية عميقة للغاية، لا لتعاضى انتقام رعاياهم الذين أساموا إلبهم فى حياتهم، ولكن لكى يتجنبوا لجزء أسرة متألسة إلى أعمال سحرية تقضى نهايتها على أسرة الملوك المترفين. وكان المصريون يتصرفون بنفس الطريقة ويدفنون ملوكهم فى آبار عميقة يجهل الناس موقعها. ولذا فإنه بوسعنا أن نتصور أنهم كانوا يلجأون إلى ذلك لنفس الاعتبارات.

وهكذا يتبين لنا كيف أن تفاصيل التقاليد الإفرريقية يمكن أن تلى خروما جديدا على التقاليد المصرية القديمة.

والإله السماوى عند السيرير الذى يتمثل صوته فى الرعد، يسمى روج، وكثيرا ما يضاف إليه سين، وهو نعت قومى نظرا لأن سين هو الاسم الطوطمى المتميز للسيرير. ويقربنا روج من اسم الإله المصرى را أوج، وكان هو أيضا إلها للسماء، بينما تذكرنا سين باسم بعض ملوك النوبة وبعض ملوك مصر، ومنهم اوسارتا - سن ، وپريب - سين. ومن المدهش حقا أن الملك النوبى طهرقا كان يعتبر اوسرتا - سن سلفه. كما أن پريب - سن هو الذى أعاد الاعتبار لشعار الصعيد عندما تولى العرش. وعليه فإن الفراعنة الذين كانوا يحملون اسم سن كانوا أساسا من الجنوب. وأخيرا فإن سهل سن - نآر أو سين - نآر يذكرنا بسهولة سن فى السنغال. ونجد حاليا فى إفريقيا الوسطى شعبا اسمه سيرى، دون أن يكون هوسعنا أن نطابق، من الوهلة الأولى، بينه وبين السيرير. ومن الأفضل أن نحاول أن نستخلص هنا المصدر المشترك لكل تلك الأسماء.

سيرى = إنسان بالسيرى - هول؛ وتحريفها = سراكوله.

سارا = شعوب تشاد.

سيرى = قبائل فى إفريقيا الوسطى.

سيرير = شعب من السنغال.

وعليه، فقد يكون المصدر المشترك لكل تلك الأسماء اسم نوع للإنسان، كما هو الحال بالنسبة للبانتر، إذ أن با - نتو = الناس.

ونجد الجذر نتو، الخاص بالبانتر فى الرُكوف، حيث نيت = إنسان.

وباللغة المصرية نيت = إنسان، فلان (پبيريه).

وبلغة البول؛ ندو = إنسان.

وهكذا، فإن هذه الطريقة فى الإشارة إلى شعب بعبارة معناها إنسان، عامة فى إفريقيا السوداء، نقلا عن مصر.

وفى جنوب النوير والدنكا، نجد بعد اللووكو (الذين يذكرون باللولو فى لسنغال) قبيلة من السيرى (هومان، ص ٢٩٠).

ووفقا لنفس المؤلف نجد الغالى فى جنوب تشاد، و جنوب الكوتوكو والشوا. ويذكرنا الاسم الأخير باسم قبيلة شوات النوبية (هومان، ص ٣١٩، ٣٢٠).

وقال اسم يتميز به السيرير.

وأخيرا، فإن سيرير تعنى، حسب پبيريه: الذى يعين حدود المعاهد، عند المصريين. وهذا المعنى

يتفق فعلا مع ورج السيرير الشديد، وهم من شعوب السنغال النادرة التي لم تعتنق حتى الآن أى ديانة أجنبية حديثة.

ووفقا لشامبوليون، كانت توجد فى مصر طائفة من الكهنة اسمها سن، علما بأن النبلاء ورجال الدين كانوا يحظون بنفس المركز الاجتماعى، ولذا، كثيرا ما كان هناك ملوك - كهنة. وكان العديد من فراعنة الأسر الأولى من العنصر السيرير، كما يتضح لنا من أسمائهم:

- الفرعون سار، من الأسرة الثالثة.

- الفرعون سار - تيتا، من الأسرة الثالثة.

(انظر بييريه : قاموس الآثار)

- الفرعون پريب - سن، من الأسرة الأولى (الفرعون الخامس)

- الفرعون اوسرتا - سن، من الأسرة السادسة عشرة.

وفى عهد الأسر الأولى (باستثناء الفرعون الأخير المذكور أعلاه)، كان الجنس الزنجى المصرى خالصا عمليا من أى تهجين، كما تثبت ذلك آثار تلك العهود، التى تصور لنا نماذج زنجية صرفة.

وكانت كافة عناصر الحضارة قد توفرت أصلا، بما فى ذلك الكتابة، والعلوم (الرياضيات .. الخ). ومنذ ذلك العهد ظلت الحضارة المصرية، حتى نهايتها، تعيش على مكتسبات تلك الأسر الأولى والحقب التى سبقتها.

ولم يطرأ تغيير على الشكل المصرى إلا فى وقت متأخر للغاية مع غزوات الهكسوس (السكروتيين) والإغريق والفرس والرومان والعرب والأتراك. ومع ذلك فقد احتفظ الشكل المصرى بقسماته الزنجية الأساسية (الفلاحون الحديثون؛ وبعض القبائل البول).

أصل الآنى

ويبدو أن الآنى هم أيضا من أصل مصرى إذا ما لاحظنا أن الاسم الأول المصاحب دائما لاسم الملك هو آمون، اسم الإله المصرى:

- كان آمون أزينيا، ملك آنى عاش فى القرن السادس عشر.

- وكان آمون تيفو، ملك آنى من القرن السابع عشر، ويقال إن أحد أبناء هذا الملك تمت تربيته إلى مرتبة الأشراف فى فرساي، على يد لويس الرابع عشر (*).

- آمون أجوى، ملك آنى من القرن التاسع عشر، وقع على معاهدة تحالف مع لويس - فيليب.

(*) ويقال إن الملك لم يعط قطبان السفينة إنه هو بل أعطاه عبدا.

(انظر: الموسوعة الشهرية لما وراء البحار، إبريل ١٩٥٢، المجلد الأول، الملتزمة العشرون، مطبوعات الاتحاد الفرنسي، ص ١١٣).

وبوسعنا المقارنة بين آتى واونى، اسم ملك إيفه، واونى، اسم أوزيريس، وآنو، اسم أحد الهروق الزنحية فى مصر، فى حقبة ما قبل الأسرات.

وفى كتاب الموتى توجد عدة فقرات يذكر فيها اسم أوزيريس مصحوبا بالنتع العرقى آتى :
النشيد التمهيدى لكتاب الموتى؛ الحساب .. الخ؛ نشيد لرح عندما تشرق الشمس.

وفى الفصل الخامس عشر نجد نشيداً لأوزيريس، نقلا عن بردى آتى (المتحف البريطانى، رقم ١٠٤٧ - الورقة رقم ١٩)، كما نجد فى نفس الفصل : أوزيريس آتى، كاتب الملك فى الحق.
كتاب الموتى، ترجمة واليس بودج، لندن، ١٨٩٨).

أصل الفانج واليامون

جاء فى مقال ليدروال نشر فى موسوعة فرنسا لما وراء البحار (ديسمبر ١٩٥١، ص ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩) أن الأب تريلز توصل بعد سلسلة من الدراسات إلى الاقتناع بأن الفانج و«كانوا على مقربة من أثيوبيا المسيحية خلال هجرتهم القديمة»؛ وهو شعب قلنا عنه من قبل إنه لم يكن قد بلغ بعد الشواطئ فى القرن الماضى، فى هجرته من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى.

وهناك دراسات مماثلة لـ د.و.جيفرى، تؤدى إلى التقريب بين اليامون والمصريين :

«قد لاحظ د.و.جيفرى فى مختلف مؤلفات علم المصريات، الرابطة بين النسر - الفرعون، والشعبان - الفرعون، ثم ما أورده ديودور الذى أفاد بأن كهنة أثيوبيا ومصر كانوا يحتفظون بصِلُ ملفوف تحت غطاء رأسهم، كما أنه لاحظ أمثلة مختلفة لأشكال حيوانية ذات رأسين، خاصة فى كتاب الموتى، بردى آتى، الورقة رقم ٧، فأعلن أنه مقتنع بأن الطقوس الملكية عند اليامون مشتقة من الطقوس المصرية المماثلة».

ويمكننا أن نقرب بين ما توصل إليه د.و.جيفرى وما جاء فى الأسطورة وهو أن داميل كايور كان لديه نسر يُطعم فقط بلحم عبيد. وقد بالقت الأسطورة على الأرجح فى وصف الواقعة بأن زعمت أنه كلما أطلق النسر صرخات الجوع نحو السماء، كان يُقتل عبد لبيعتات من أحشائه. وكان نسر ملك كايور (السنغال) يسمى جب.

وجب تعنى باللغة المصرية: الأرض، الإله المتمد.

أصل المور

المور عرب جاؤوا من اليمن مع الفتوحات الإسلامية (القرن السابع). ولديهم مخطوطات عديدة يحتفظون بها، وهي تسجل بعناية شجرة أنسابهم، وتاريخ هجرتهم من اليمن، مما يؤكد ذلك بما فيه الكفاية.

ويعتمد المور على تلك المخطوطات في كافة المناسبات، وهم يعرفون تماما أصولهم بكافة تفاصيلها، وشهادتهم بهذا الخصوص أساسية.

فلا جدوى من محاولة العثور على أصول أخرى أو أسبقية لتواجدهم في القارة الإفريقية، لا لسبب سوى محاولة جعلهم قسما من عنصر أبيض مفترض كان قد استوطن مصر في الأصل واختفى تدريجيا، من خلال عملية تهجين طويلة المدى.

الفصل السابع

إسهام أثيوبيا-النوبة ومصر فى الحضارة

وفقا للشهادة الإجماعية لكافة القدامى، أوجد الأثيوبيون أولا ثم المصريون من بعدهم كل عناصر الحضارة، وارتقوا بها إلى حد مدهش، بينما كانت الشعوب الأخرى، وبالأخص الشعوب الآسيوية الأوروبية، لا تزال مستغرقة فى البربرية. ويعود ذلك إلى الظروف المادية التى وفرتها الأوضاع الجغرافية منذ أقدم الأزمنة. فقد تطلبت تلك الظروف من الإنسان أن يخترع العلوم التى استكملتها الفنون والديانة، لكى يتأقلم معها. ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على فضل الحضارة المصرية على بقية العالم، وبالأخص العالم الإغريقى. وقد اقتبس الإغريق اختراعات المصريين وطوروها إلى حد ما فى بعض الأحوال، مع تجريدها فى الوقت نفسه من درعها الدينى «المثالى»، نظرا لمبولهم المادية. ويبدو أن قسوة الحياة فى السهول الآسيوية الأوروبية قد قامت من ناحية بدورها فى تنمية الفرائز المادية عند الشعوب التى كانت تعيش فيها، وصاغت من ناحية أخرى قيما معنوية مناقضة للقيم الأخلاقية المصرية الناتجة عن الحياة الجماعية المستقرة، السهلة نسبيا، والهادئة منذ أن نظمتها بعض القواعد الاجتماعية. فبقدر ما كان المصريون يستفزعون السرقة وحياة الترحُّل والحرب، بقدر ما كانت تلك الممارسات تعتبر من القيم الأخلاقية التى تحتل المقام الأول فى السهول الآسيوية الأوروبية، فالفردوس الجرمانى، الواهالا، لا تطلوهُ إلا أقدام المحارب الذى استشهد فى ساحة الرغى، بينما لا يحظى بالنعيم فى العالم الآخر عند المصريين، إلا المتوفى الذى يثبت أمام محكمة أوزيريس (الصورة رقم ٥٢) أنه لم يرتكب خطايا وكان رحيما بالفقراء، وهو ما يتعارض تماما مع عقلية الغزو والاحتلال المميزة بصفة عامة لشعوب الشمال التى كانت بلادهم التى غبنتها الطبيعة، تطردهم على نحو ما. وعلى العكس من ذلك كانت الحياة فى وادى النيل، ذلك الشريان الذى يؤمن حياة سهلة للغاية بينما تحف به الصحارى من الجبابين، كانت تدفع المصرى إلى الاعتقاد بأن نعيم الطبيعة تهبط إليه من السماء. ولذا فقد عهدا فى شكل كائن قدير، خالق لكل ما فى الوجود واهب للنعم. وعليه فقد تحولت ماديته الأولية - القائمة على مبدأ الهيمنة المستقلة عن المادية - إلى مادية انتقلت إلى السماء، أى مادية ميتافيزيقية، إذا حار لها العول.

وعلى النقيض من ذلك، لن تتجاوز آفاق الإغريق أبدا الإنسان المادى والمرئى، قاهر الطبيعة التى تناصبه العداة؛ وكل ما فى العالم يدور حوله، والهدف الأسمى عنده هو أن يصنع نسخة منه تكون طبق الأصل. ومن مفارقاته أن «السماء» التى لن يتواجد فيها أحد سواه بعمومه ونواقصه فى عالمنا، تحت درج الأكمة اللذين لا يتميزون عن الكائن البشرى العادى إلا بقوتهم الجسدية. ولنا عندما استعار الإغريق الإله المصرى، وهو إله حقيقى بكل ما للكلمة من معنى، له كافة صفات الكمال الأخلاقى، التى يولدها الاستقرار، فإنه لم يستوعبه ويحتفظ به إلا بإنزاله إلى مستوى الإنسان ورده إليه. ولنا فإن محفل الأرباب الذى تبناه الإغريق ليس إلا بشرية أخرى. وهذا التصور للصفات الإلهية على غرار صفات الإنسان، ليس فى تلك الحالة الخاصة، سوى مادية صارخة تميزت بها العقلية الإغريقية. والواقع أن المعجزة بمعنى الكلمة لا وجود لها عند الأغريق، لأننا لو أردنا التحدث عن عملية أقلمة التقيم المصرية فى اليونان، وهو ما تطرقنا إليه منذ قليل، لوجدنا أنه ليست هناك أى معجزة فى ذلك، بالمعنى «الفكرى» للكلمة، فأقصى ما يمكن أن نقول هو إن ذلك التوجه المادى الذى تميز به الغرب كان مواتيا لتطوير العلوم.

فعبقرية الإغريق الدنيوية الناجمة أساسا عن تأثير السهوب الآسيوية الأوروبية وضعف مزاجهم الدينى، ساهما، بمجرد استعارتهم للتقيم المصرية، فى إيجاد علوم دنيوية، يقوم بتدريسها على الملأ فلاسفة علمانيون هم أيضا، بدلا من أن تكون تلك العلوم وقفا على الكهنة الذين حرصوا تماما على كتمانها وعدم نشرها بين العامة لتضييع وسط الانقلابات الاجتماعية.

«كانت قوة الفكر، والهالة التى تحيط به، تمارس فى كل البقاع الأخرى سلطتها اللامرئية، إلى جانب قوة السلاح، ولكنها لم تكن عند الإغريق فى أيدي كهنة أو موظفين، بل فى أيدي الباحث والمفكر. وكان يوسع هذا الباحث أو المفكر أن يكون - كما هو الحال بكل وضوح بالنسبة لطاليس وفيثاغورس وامبكلوديس - مركزا حلقة تتراوح بين المجمع المدرسى أو الأكاديمية، وبين الحياة المشتركة لمجتمع منظم، وتقترب بدرجة أكبر نحو هذه أو تلك، وتحدد لنفسها أهدافا علمية وأخلاقية وسياسية، وتجمع بينها لتكون منها تراثا فلسفيا». (ارنست دستر: تاريخ الفلسفة، الناشر مايو، ١٩٥٢، ص ٤٨).

وكان التعليم العلمى والفلسفى يتم على أيدي أناس غير متبحرين فى الدبانة ولا يتميزون عن بقية أفراد الشعب إلا بمستواهم الفكرى أو مرتبتهم الاجتماعية بوصفهم من الأرستقراطيين. ولم تكن تحيط بهم هالة من القداسة. ويحكى لنا بلوتارخوس فى مؤلفه الإيزيس والأوزيريس، أنه وفقا لشهادة كافة العلماء والفلاسفة الإغريق اللذين تتلمذوا على أيدي المصريين، كان هؤلاء لا يحبون أن يمتحن علمهم؛ وقد صادف سولون، وطاليس، وأفلاطون، ولوكورجوس، وأكزودوس، وفيثاغورس، مصاعب جملة قبل أن يلتقنهم المصريون معارفهم. ويقول بلوتارخوس أيضا إن المصريين كانوا يفضلون

فيثاغورس، من بين كل طالبي العلم منهم، لواجه الروحاني. وبالمقابل، كان فيثاغورس من الإغريق الذين يوقرون المصريين للغاية. وقد تم استنتاج ذلك من فقرة أشار فيها بلوتارك الى المعنى الباطن لاسم آمون، وهو الخفى، اللامرئى ...

وكما لاحظ اميلينو، فإنه من الأمور التي تدعو للدهشة أنه لم يتم التنويه بقدر أكبر بإسهام المصريين فى الحضارة :

«ورأيت عندئذ، ورأيت بوضوح، أن أشهر المذاهب لى اليونان، وبالأخص مذهبي أفلاطون وأرسطو، كان مهدهما فى مصر. وتبين لى أيضا كيف أن عبقرية الإغريق الجميلة أكسبت الأنكار المصرية رونقا لا مثيل له خاصة عند أفلاطون؛ ولكننى أعتقد أن ما أحبهنا لدى الإغريق ما كان يجب أن نزيد به أو نستخف به ببساطة لدى المصريين، فعندما يتعاون معا مؤلفان فى أيامنا هذه، فإن أمجاد عملهما المشترك تعود إليهما، بلا تفرقة؛ وأنا لا أرى لماذا تستأثر اليونان القديمة وحدها بالأفكار التي اقتبستها من مصر». (اميلينو: تمهيدات لدراسة الديانة المصرية، المقدمة، ص ٨ و ٩).

ويوضح لنا اميلينو أنه إذا كانت بعض أفكار أفلاطون قد أصبحت غامضة فذلك لأنهم كفروا عن الرجوع إلى مصدرها المصرى، وهذا هو الحال مثلا بالنسبة لأفكار أفلاطون حول خالق الكون. ومن المعروف من جهة أخرى أن فيثاغورس، وطاليس، وسولون، وأرشميدس، وأراتوستين قصدوا مصر لتلقى العلم، ولا تقتصر قائمة طالبي العلم على هؤلاء وحدهم. لقد كانت مصر حقا الموطن الكلاسيكى الذى تردد عليه ثلثا العلماء والفلاسفة الإغريق لتلقى العلم. والواقع أن الاسكندرية كانت فى العصر الهلنستى المركز الفكرى للعالم حيث اجتمع كل العلماء الإغريق الذين يحدوثونا عنهم اليوم. ولسنا بحاجة إلى التأكيد بأن هؤلاء العلماء حصلوا على معارفهم، خارج اليونان، وفى مصر بالذات.

هل إن فن العمارة الإغريقي تعود أصوله إلى مصر. فنحن نشاهد منذ الأسرة الثانية عشرة أعمدة فى مقابر بنى حسن كانت النماذج الأولى للطراز الدورى.

والآثار الإغريقية والرومانية ليست سوى تصميمات مصغرة بالمقارنة مع الآثار المصرية : ومن المعروف أن كاتدرائية نوتردام فى باريس يمكن أن تدخل بأبراجها، وبكل يسر، فى قاعة الأعمدة بمعبد الكرنك، ومن باب أولى البارثينون الإغريقي (*).

(*) الوجه الجامد للشمال الإغريقي يعتمد عن الراقية اللاتينية المتأخرة، بالرغم من الصفات التشريحية للجسم، ويقترّب من صفاء الفن المصرى.

والحكايات الزنجية أصلا - أو الكوشية كما كتب يقول لينورمان - والتي تتمثل فى أحداث تدور بين الحيوانات، وصلت إلى اليونان عن طريق مبتكرها الزنجى المصرى إيزوب. وقد استوحى منها لافونتين حكاياته.

وفى كتابه *الحكايات العجيبة* الجديدة يقدم لنا أدمار بو فى «مناقشة قصيرة مع موميا» فكرة رمزية عن مدى اتساع المعارف العلمية والتقنية فى مصر القديمة.

وكان هيرودوت قد حصل من الكهنة المصريين على معلومات تكشف عن الجوهر الحسابى لهمم خوفو. وقد خصص العديد من علماء الرياضيات والفلك مؤلفات لدراسة هذا الهرم كشفت عن معلومات مدهشة أثارت - كما كان من الممكن أن نتوقع - موجة من المنازعات التى لم تعرض بشكل علمى مترابط. غير أنه بوسعنا أن نذكر هنا الأرقام، دون أن نقع فيما قد يعتبر افراطا فى «علم الأهرامات».

لاحظ علماء الفلك أن هناك إشارات للسنة الفلكية ولتقدير سعة انحراف اتجاه الشمس عند الاعتدالين الربيعى والخريفى محسوبا لفترة تمتد ستة آلاف سنة، بينما لا يعرفها علم الفلك الحديث إلا لفترة ٤٠٠ سنة (وفقا لريفرت : *الهرم الاكبر*، لندن، ١٩٣٢).

كما عثر علماء الرياضيات فيه على النسبة الصحيحة لمحيط الدائرة مع قطرها ومتوسط المسافة الصحيحة بين الشمس والأرض وقطر الأرض بين القطبين .. الخ.

ومن الممكن مدّ القائمة بذكر أرقام أكثر إثارة للإعجاب. فهل يمكن ان تكون كل تلك التوافقات بنت الصدفة؟ هذا ما لا يمكن تصوره، كما كتب ماتيليا غيكا يقول:

«قد تكون كل من تلك الخواص محض صدفة، ولكن تواجد مجموعة تلك المصادفات معا أمر لا يمكن تصوره، شأنه شأن الارتدادات المؤقتة للمبدأ الثانى للديناميكا الحرارية (تجمد الماء وهو فوق النار) التى تخيلها الفيزيائيون، أو معجزة القروود التى تستخدم الآلة الكاتبة، الأثيرة لدى السيد اميل بوريل». (*جماليات النسب فى الطبيعة والفنون*، الناشر جاليمار، باريس، ١٩٢٧، ص ٣٤٥).

ويستطرد نفس المؤلف قائلا (ص ٣٦٧ - ٣٦٨).

«بيد أن فرضية فيوليه لودوك التى تم استكمالها وضبطها بفضل أبحاث ديولافوا، وأ.مال، ولون، حول انتقال بعض الرسوم المصرية إلى العرب ثم الكلوسنيين عن طريق المدرسة الاغريقية النسطورية فى الاسكندرية، أقرب الى المعقول. فالهرم الاكبر يمكن أن يكون من الناحية الفلكية «المزولة الشمسية للسنة الكبرى»، كما قد يكون «البندول» الذى تترد ذبذباته المتسقة فى الفن الإغريقى، والعمارة القوطية، والنهضة الأولى، وفى كل فن يجد فى «التناسب الرائع» نبض الحياة ذاتها».

ويشير المؤلف أيضا الى رأى الأب موروه، الذى يرى أن الهرم الأكبر ليس «بداية للحضارة والعلوم المصرية التى تتحسس طريقها، بل تتويجا لشقافة بلغت ذروتها، وباتت على وشك الزوال، فأرادت أن تترك للحضارات التالية، شهادة مترفعة عن مدى تفوقها، وذلك، بالاقدام على تلك الخطوة التى تنم عن أوج الزهو». (ص ٣٤٥).

وهذه المعلومات الفلكية والرياضية، لم تتلاش تماما فى إفريقيا السوداء، بل تركت آثارا يعود إلى السيد مارسيل جريبول الفضل فى اكتشافها عند الدوجون، حتى وإن هذا ذلك أمرا يشير الدهشة الآن.

فقد تمت الإشارة عدة مرات إلى اقتباس الإغريق الآلة من مصر، واليكم الأدلة على ذلك :

«جاءت أسماء كل الألهة تقريبا إلى اليونان من مصر. ومن المؤكد تماما أنها وصلت إلينا عن طريق البرابرة، وأنا مقتنع بذلك من خلال بحوثى. ولذا أعتقد أننا أخذناها من المصريين أساسا». (هيروdot، ٢ - ٥٠).

والبرابرة هنا معناها الأجانب، دون أن تحمل هذه التسمية أى معنى ينم عن التقليل من شأنهم.

فالأصل المصرى للحضارة والاستعارات الإغريقية الواسعة النطاق من هذه الحضارة حقيقة تاريخية جلية، ولذا يحق لنا أن نتساءل مع اميلينو، لماذا يتم إبراز الدور الذى قامت به اليونان، بالرغم من تلك الحقائق، مع اسدال ستار الصمت على دور مصر.

ولا يمكننا أن ندرك منطق ذلك الموقف إلا بالرجوع الى أصل القضية.

فهما أن مصر كانت بلد شعب زنجى وكانت الحضارة التى تطورت فيها تعود الى زنج، فإن كل أطروحة ترمى إلى اثبات العكس لن يكون لها مستقبل؛ وأصحاب تلك الأطروحات يدركون ذلك. ولذا فإن تجريد مصر بكل بساطة من كافة ما خلقت له لصالح شعب من أصل أبيض حقا، يكون تصرفا أكثر أمانا تمليه الحكمة.

ويكشف هذا الاسناد الزائف لقيم مصر إلى اليونان البيضاء، - مع تبيض مصر أيضا - عن تناقض يثبت فى حد ذاته أن حضارة مصر من أصل زنجى.

وكما نرى، فإن الرجل الملون أبعد من أن يكون عاجزا عن التوصل الى التقنية، على عكس ما يعتقد اندريه سيجفريد، بل إنه كان أول من أوجدها، فى شخص الزنجى، فى حقبة كانت لا تزال فيها كافة الأجناس البيضاء مستفرقة فى البربرية، وتكاد لا تكون خليقة بالحضارة.

وعندما نقول إن أسلاف الزنوج الذين يعيشون أساسا الآن فى إفريقيا السوداء، كانوا أول من اخترع الرياضيات، والفلك، والتقويم، والعلوم بوجه عام، والفنون، والديانة، والزراعة، والتنظيم

الاجتماعى، والطب، والكتابة، والتقنيات، والعمارة، وإنهم أول من شيدوا صروحاً من ستة ملايين طن من الحجارة (الهرم الأكبر)، كمعماريين ومهندسين، وليس كعمال فقط، وإنهم بنوا معبد الكرنك الهائل، بقاعة أعمده الشهيرة التى يمكن أن تستوعب كاتدرائية نوتردام بأبراجها، وإنهم أول من نحت التماثيل الهائلة (تمثالاً ممنون الخ)، عندما نقول كل ذلك فإننا لا نذكر سوى الحقيقة المجردة والمتواضعة، التى لا يمكن أن ينكرها أحد الآن أو أن يدحضها بحجج جديدة حقا بأن تطلق عليها تلك التسمية.

وعليه، يجب أن يكون الزنجى قادراً على استعادة قدرته على مواصلة ماضيه التاريخى القومى، وأن يستخلص منه الزخم المعنوى لكى يسترد مكانته فى العالم الحديث دون السقوط فى تطرفات فاذية عكسية، ذلك لأن الحضارة التى ينتسب إليها كان من الممكن أن يخلقها أى جنس آخر، لو أنه تواجد فى مهد موات وفريد إلى هذا الحد.

إفادة حول المصطلحات الأثرية المستخدمة في هذا المؤلف

على الرغم من أنه قد تم شرح عدد كبير من تلك المصطلحات في النص، إلا أننا نجمعها هنا معا لتيسير القراءة. وهذه الملاحظات المختصرة مأخوذة عن مختلف المصادر ومنها بالاختص:

1. Palmer & Lloyd: *Archaeology A to Z* [Frederick Warne & Co. Ltd., London & New York, 1968].
2. Bray & Trump : *A Dictionary of Archaeology*. [Penguin, London, 1970].
3. Charles Winick : *Dictionary of Anthropology* [Philosophical Library, New York, 1956].
4. Leakey & Goodall : *Unveiling Man's Origins* [Schenkman Publishing Co., Cambridge, Mass., 1969].
5. Michael H. Day : *Guide to Fossil Man* [World Publishing Co., Cleveland & New York, 1968].

AMRATIEN (الحضارة العمرية) : وهي «حضارة مصرية من عصر ما قبل الاسرات تميزت بادواتها المصنوعة من العظام والحجر المتصوب بعناية» (انظر : وينيك).

AURIGNACIEN (الحضارة الأورينياسية) : وهي «حضارة متطورة للغاية من العصر الحجري القديم الأعلى ينسب اسمها إلى مغارة أورينياك (فرنسا) حيث تم العثور على أدوات مُصنعة (...). وقد ساهم كل من إنسان كرو - مانبون، وإنسان كومب - كاپيل، وإنسان جريمالدى في الحضارة الأورينيسية». (انظر : بالمر ولويد).

BADARIEN (الحضارة البدارية) : حضارة مصرية أولى في صعيد مصر مشهورة بصناعة الأواني

الفخارية، وهي سابقة على العصر العمرى والعصور اللاحقة له.

CULTURE NATOUFIENNE (الحضارة الناطوفية) : الحضارة الرئيسية فى العصر الحجري الأوسط
بفلسطين (انظر: الأجناس البشرية الحية، كنفيف، نيويورك ١٩٦٥).

DATAGE ABSOLU (الترتيب الزمنى المطلق) : «لا تستخدم عادة سوى طريقة واحدة مباشرة
للتحديد الزمنى المطلق. فالنتروجين الموجود فى الأجواء العليا يتعرض لقذائف النيوترونات الناتجة
عن الإشعاع الكونى. ويؤدى ذلك الى تكوين جرعة معروفة من الكربون المشع الذى يندمج مع
أنهدريد الكربون، الذى تمتصه النباتات وأنسجة الحيوانات. وعندما تدفن العظام تحت الأرض يتناقص
الكربون المشع (ك ١٤) بمعدل معروف. وقياس محتويات المواد العضوية المدفونة من الكربون ١٤
يمكن ترجمته حسابيا لتحديد العمر النسبى للعينة. ولا يمكن الرجوع إلى أكثر من الحد النظرى
المتراوح بين ٦٠ و ٧٠ الف سنة نظرا لأن كمية الكربون ١٤ المتبقية تكون ضئيلة للغاية بحيث
يستحيل قياسها.

«وهناك طريقة أخرى لقياس الإشعاعات (البوتاسيون / الأرجون) تعتمد على احتواء
البوتاسيوم الطبيعى على نظير مشع يتناقص بمعدل ثابت وينتج غاز الأرجون المتواجد فى بللورات
بعض المركبات البوتاسية. وحساب محتوى عينة من هذه المركبات من الأرجون فى طبقة من العظام
المطمورة، هو الذى يحدد بشكل غير مباشر عمر تلك المركبات...» (انظر : داي، ص ١٢).

GUERZEEN (حضارة جرزة) : «الحضارة المصرية فيما قبل الأسرات التى تطورت انطلاقا من
الحضارة العمرية فى عام ٣٦٠٠ ق.م. ويرجع اسمها إلى جرزة، بمنطقة الفيوم، وتشلها بشكل جيد
مدافن نقادة بصعيد مصر» (انظر : براى وترومب).

HOMME D'ASELAR (إنسان أسيلار) : اكتشفه تيودور مونو فى الصحراء.

HOMME DE CHANCELADE (إنسان شانسيلاد) : نموذج للجنس الأصفر، هياكله شبيهة بهياكل
الاسكيمو الحديثين.

HOMME DE COMBE - CAPELLE (إنسان كومب - كاپيل) : هيكل عظمى أورينياسى تم اكتشافه
فى دوردونى (فرنسا) فى عام ١٩١٠، وموجود فى متحف برلين (انظر : داي).

HOMME DE CRO - MAGNON (إنسان كرو - مانيون) : من العصر الحجري القديم الأعلى كان
يعيش فى أوروبا فى الحقبة الأورينياسية - المجدلية. وقد جرى وصفه على الوجه التالى: «ضخم
وقوى، جبهته عريضة ومرتفعة، وذقنه يذل على الخزم». وقد جاء على الأرجح فى آسيا. ويرجع

اسمها إلى المغارة الموجودة، في قرية ايزى (فرنسا) (انظر : بالمر ولويد).

MAGDALENIEN (المغارة المجدلية) : حضارة من العصر الحجري القديم الأعلى بدأت في أوروبا الغربية قبل التقويم الميلادي بـ ١٥ ألف سنة. ويرجع اسمها إلى مغارة المجدلية (في دوردوني، على مقربة من فيزير في فرنسا) حيث تم اكتشاف هياكل بشرية.

MERINDE (مريندة) : موقع على حدود الصحراء الليبية. ويسمىها جوردون تشايلد «مؤذجا لحضارة العصر الحجري الجديد».

MÉSOLITHIQUE (العصر الحجري الأوسط) الذي يقع بين العصرين الحجري القديم والحديث.

NEGROIDES DE GRIMALDI (زنجويو جريمالدي) : جنس بشري فيما قبل التاريخ تم اكتشاف بعض جثثه في مغارة جريمالدي (بايطاليا) على مقربة من منتون (في فرنسا). وجثث هذه المغارة موجودة في طبقات أدنى من طبقات إنسان كرو - مانيون، أي أنهم زنجويون كانوا ساهقين على إنسان كرو - مانيون. ويقول فيرنو إن الزنجويين كانوا ضخام الأجسام وكانت جمجتهم مرتفعة للغاية. وقد تم العثور على هياكلهم في أوروبا الغربية والوسطى ولكنهم من أصل إفريقي على الأرجح. وقد اشتهروا بتماثيلهم الصغيرة ذات الأرداف العريضة. (انظر ر. فيرنو : مغارات جريمالدي، المجلد الأول، الجزء الأول، من «انثروبولوجيا»، موناكو، ١٩٠٦-١٩١٢، مجلدان).

NÉOLITHIQUE (العصر الحجري الحديث) : «حلت الزراعة محل جنى الثمار، وقل شأن القنص والصيد. وكان إنسان العصر الحجري الحديث أول من عمد إلى البذر والحصاد، وتربية الحيوان والفزل والنسج، وصنع الأواني الفخارية...» (انظر : بالمر ولويد).

PALÉOLITHIQUE (العصر الحجري القديم) : «في بداية دراسة ما قبل التاريخ، تم تقسيم الحقبة الحجرية إلى العصرين الحجري القديم والحديث. وقد اتضح فيما بعد أن العصر الحجري القديم امتد حقبة طويلة للغاية، فتم تقسيمه إلى العصر الحجري القديم الأدنى، والعصر الحجري القديم الأوسط والعصر الحجري القديم الأعلى. وكل من تلك الأقسام تتفق تقريبا مع التقسيمات الزمنية المسلم بها، وهي الهليستوسين الأدنى والهليستوسين الأوسط والهليستوسين الأعلى.

PÉRIODES GLACIÉRES (العصور الجليدية) : كانت العصور الجليدية الأربعة للحقبة البليستوسينية كما يلي : الجُونز (GRUNZ) (منذ أكثر من ٧٩٠ ألف سنة وامتدت ٢٥٠ ألف سنة)، والمِيندل (MINDEL) (منذ ٤٨٠ ألف سنة وامتدت ٥٠ ألف سنة)، والرِيس (RISS) (منذ ٢٤٠ ألف سنة وامتدت ٦٥ ألف سنة)، والْوُرم (WURM) (منذ ١١٥ ألف سنة وامتدت ٩٠ ألف سنة) (انظر :

بالمر ولويد).

PLÉISTOCENE (بداية العصر الجليدي الرابع): «تم تحديد البليستوسين فيما مضى بنصف مليون سنة، ولكنه يحدد اليوم بثلاثة ملايين سنة» (انظر : ليكى وجودول).

QUATERNAIRE (الحقبة الجيولوجية الرابعة، التي تلت الحقبة الثالثة) وهي التي نجتازها حاليا؛ وهي مقسمة إلى حقتين: البليستوسين والهولوسين، والحقبة الأخيرة تشمل السنوات العشر آلاف الأخيرة (انظر : بالمر ولويد).

SINATROPE : «اسم نوع أطلق فيما مضى على رتبة من البشرات والقرود ترجع إلى الحقبة البليستوسينية المتوسطة، تم العثور عليها على مقربة من بكين» (انظر : داي).

TASIEN (الحضارة التاسية) : «ويرجع اسمها إلى ديراتاسا في صعيد مصر وكانت مأوى لمزارعين أوائل. وهي تعتبر حاليا، وفي أحسن الاحوال، صورة مقارنة للحضارة الهدارية». (براى وترومپ).

ZINJANTROPE : ويسمى أيضا «الانسان كَسَّار البندق»، نظرا لحجم أسنانه الكبير، وقد اكتشفت جمجمته السيدة ليكى فى يوليو ١٩٥٩ فى اولدوفاى (تانزانيا). وهي تقدر أنه يعود إلى أكثر من مليون ونصف مليون سنة.

موجز سير

- تقدم فيما يلي للقارى غير المتخصص موجزاً لسير عدد من المؤلفين.
- AMELINEAU : الأب اميل اميلينو (١٨٥٠ - ١٩١٥) عالم أثرى فرنسى وأستاذ تاريخ الأديان بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا فى باريس. أجرى حفريات فى العراة المدفونة، وإليه ينسب اكتشاف مقبرة أوزيريس.
- ARAMBOURG : كاميل ارامبورج (١٨٨٥ - ١٩٦٩)، عالم فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية القديمة وفى أصل الجنس البشرى، أستاذ فى المتحف القومى للتاريخ الطبيعى فى باريس.
- BACHOFEN : جوهان چاكوب باشوفن (١٨١٥ - ١٨٨٧)، قانونى و «فيلسوف تاريخ» سويسرى.
- BAUMAN : هرمان بومان (١٩٠٢ -)، عالم ألمانى فى أصل الجنس البشرى.
- BORY DE SAINT VICENT : چان - باتيست - مارسلان، بارون بورى دى سان فانسان (١٧٧٨ - ١٨٤٦) عالم طبيعيات، وأحد المساهمين فى تأليف القاموس الكلاسيكى للتاريخ الطبيعى (باريس ١٨٢٢ - ١٨٣١).
- BOULE : مارسيلان بول (١٨٦١ - ١٩٤٢)، عالم فرنسى، مدير معهد أشكال الحياة البشرية، وأستاذ بالمتحف القومى للتاريخ الطبيعى.
- BREASTED : جيمس هنرى بريستد (١٨٦٥ - ١٩٣٥)، عالم أمريكى فى الآثار المصرية، استاذ علم المصريات بجامعة شيكاغو ابتداء من عام ١٨٩٥، ومدير المعهد الشرقى ابتداء من عام ١٩١٩، كاتب غزير الانتاج.
- BREUIL : الأب هنرى بروى (١٨٧٧ - ١٩٦١)، عالم آثار فرنسى متخصص فى علم أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية القديمة. «درس كل المغارات المهمة فى أوروبا وانتقل إلى الصحراء لاكتشاف مغارات أخرى. وقد استكشف صخور قرن إفريقيا المزخرفة ...» (انظر : ل.أ.ماير): سبعة الآثار، الناشر اثينوم، نيويورك، ١٩٧١، ص ٣٧).
- BRION : مارسيل بريون (١٨٩٥ -)، ناقد فنى وروائى فرنسى، ألف كتباً حول الآثار،

- والتصوير الألماني، والفن الرومانسي .. الخ. عضو الاكاديمية الفرنسية (١٩٦٤).
- BRUGSCH :كارل هنريخ بروش (١٨٢٧ - ١٨٩٤)، عالم ألماني في الآثار المصرية. مدير مدرسة الآثار الأميرية بالقاهرة (١٨٧٠ - ١٨٧٩)، أستاذ بجامعة جوتنجن (١٨٦٨)، له عدة مؤلفات من بينها القاموس الجغرافي لمصر القديمة (لايبزيغ، ١٨٧٩ - ١٨٨٠).
- BUDGE : سير ارنست ألفريد واليس بودج (١٨٥٧ - ١٩٣٤)، عالم بريطاني، تخصص في جمع الأثرية لحساب المتحف البريطاني، موظف بالمتاحف.
- CAILLIAUD :فردريك كايو (١٧٨٨ - ١٨٦٩)، متخصص في علم المعادن ورحالة فرنسي زار مصر للمرة الأولى في عام ١٨١٥ حيث كُلف باكتشاف مناجم الزمرد التي وصفها المؤرخون العرب. زار البلاد من جديد في ١٨١٩، واستكشف أعالي النيل في ١٨٢١، حيث اكتشف أطلال مروي.
- CAPART : جان كاهار (١٨٧٧ - ١٩٤٧)، عالم آثار بلجيكي متخصص في الفن المصري. مدير المتحف الملكي في بروكسل، مستشار متحف بروكلين.
- CHAMPOLLION : جان فرانسوا شامبوليون، الملقب بالصغير (١٧٩٠ - ١٨٢١)، سمي «مؤسس علم الآثار المصرية» لأنه كان أول من فك رموز الكتابة الهيروغليفية. عالم لغوي موهوب، نضج مبكرا، وأصبح متمكنا من ست لغات شرقية إلى جانب الإغريقية واللاتينية وهو في السادسة عشرة من عمره. قام بالتدريس أولا في جرينوبل، ثم عين أستاذا بجامعة باريس في عام ١٨٣١.
- CHAMPOLLION -FIGEAC : چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك (١٧٧٨ - ١٨٦٧)، لغوي فرنسي اهتم بالآثار المصرية، وأشرف على تربية أخيه الأصغر الشهير. أستاذ في اللغة اليونانية وأمين مكتبة جرينوبل، تم تعيينه فيما بعد مديرا لإدارة المخطوطات بالمكتبة الوطنية في باريس.
- CHERUBINI : سلفادور شيروبيني (١٧٩٧ - ١٨٦٩)، فنان إيطالي، ابن المؤلف الموسيقى لويجي شيروبيني. صاحب شامبوليون في مصر في عام ١٨٢٨. حصل على الجنسية الفرنسية وعين مفتشا للفنون الجميلة.
- CHILDE : ف. جوردون تشايلد (١٨٩٢ - ١٩٥٧)، متخصص بريطاني في حقبات ما قبل التاريخ، أستاذ آثار ما قبل التاريخ في جامعة ايدنبرج، ومدير معهد الآثار بجامعة لندن (١٩٤٦ - ١٩٥٦). ومن بين مؤلفاته: الإنسان يصنع نفسه (١٩٥١)، وماذا حدث في التاريخ (١٩٥٤).
- CONTENAU : جورج كونتنو (١٨٧٧ - ١٩٦٤)، مستشرق فرنسي، متخصص في الدراسات الفارسية والبابلية، موظف بمتحف اللوفر.
- DELAFOSSÉ : موريس ديلافوس (١٨٧٠ - ١٩٢٦)، اخصائي فرنسي في الشؤون الإفريقية،

- صاحب مؤلف عن السود فى إفريقيا ومؤلفات أخرى تتعلق بإفريقيا الغربية «الفرنسية».
- DESPLAGNES : لويس ديسپلاي (١٨٧٨ - ١٩١٤)، عالم آثار فرنسى.
- DIEULAFUY : مارسيل اوجوست ديولافوا (١٨٤٤ - ١٩٢٠)، عالم آثار فرنسى أجرى حفريات فى سوزا.
- DIODORE DE SICILE : ديودور الصقلى، مؤرخ إغريقى (١٠٠ سنة ق.م.) من جزيرة صقلية أصلا، عاش فى الاسكندرية وروما.
- FRAZER : سير جيمس جورج فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١)، عالم انثروبولوجيا اسكتلندى. مؤرخ للديانات البدائية والميثولوجيا، مؤلف كتاب الغصن الذهبى.
- FROBENIUS : ليو فروبينوس (١٨٧٣ - ١٩٣٧)، عالم ألمانى فى الأجناس البشرية قام باثنتى عشرة رحلة إلى إفريقيا بين ١٩٠٤ و ١٩٣٥.
- FURON : ريمون فورون (١٨٩٠ -) عالم جيولوجيا فرنسى، الرئيس السابق للمعهد الجغرافى القومى، وأستاذ بجامعة باريس. ألف العديد من الكتب حول جيولوجيا إفريقيا، وعلم الكائنات المتحجرة، وإيران، ومشكلة المياه ... الخ.
- GOBINEAU : جوزيف - ارتور، كونت جوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢)، كاتب ودبلوماسى فرنسى، تأثر النازى بأفروحاته العنصرية.
- GRIAULE : مارسيل جريول، (١٨٩٨ - ١٩٥٦)، عالم اتنولوجيا فرنسى كرس أغلب أبحاثه حول الدوجون.
- HADDOON : الفريد كورت هادون (١٨٥٥ - ١٩٤٠)، عالم اتنولوجيا بريطانى أستاذ علم الحيوان فى دبلن (١٨٨٠). عين فى عام ١٨٩٥ أستاذاً محاضراً للاتنولوجيا الطبيعية فى كامبردج. «وحياة هادون، تشكل إلى حد كبير تاريخ الاتنولوجيا الحديثة» (انظر أ.هـ. كيجين، هادون، قنص الرؤوس، مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٤٢).
- HAMY : ارنست تيودور هامى (١٨٤٢ - ١٩٠٨)، عالم اتنولوجيا فرنسى أستاذ فى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى، باريس. كتب عن العصر الحجري فى مصر وعن الأجناس البشرية المصورة على الآثار. عضو معهد فرنسا (المكون من خمس أكاديميات).
- HARTMAN : ادوارد فون هارتمان (١٨٤٢ - ١٩٠٦)، فيلسوف وعالم ألمانى.
- HERODOTE : (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م.)، مؤرخ إغريقى، سُمى «أبو التاريخ»
- HOEFER : فرديناند هوفر (١٨١١ - ١٨٧٨)، عالم فرنسى ومؤلف العديد من الكتب المتعلقة

ببلاد الكلدانيين، وأشور، وميديا، وبابل، وبلاد ما بين النهرين، وفينيقيا. كما ألف كتباً حول جنوب القارة الإفريقية، والكيمياء، وعلم النباتات، والرياضيات.

HOUSSAYE : فردريك - أرسين هوساي (١٨٦٠ - ١٩٢٠)، عالم فرنسي متخصص في العلوم الطبيعية.

IBN BATOUTA : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطه (١٣٠٤ - ١٣٧٧)، كاتب ورحالة عربي ولد في طنجة. زار امبراطورية مالي القديمة في عام ١٣٥٢. «وتظل روايته الأفضل من نوعها» وفقاً لما قال هازيل دافيدسون (انظر : الماضي الإفريقي، ص ٨٠).

IBN KHALDOUN : أبو زياد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)، مؤرخ وفيلسوف عربي، صاحب المقدمة (مقدمة ابن خلدون) الشهيرة التي جعلته عن حق رائد علم الاجتماع.

LARREY : دومينيك - جان، بارون لاري (١٧٦٦ - ١٨٤٢)، جراح عسكري فرنسي، جاء إلى مصر، في صحبة نابوليون، ورافقه في كافة حملاته ومعاركه.

LEAKEY : لويس سيمور بازيت ليكي (١٩٠٣ - ١٩٧٢)، عالم آثار بريطاني ولد في كايبتة (كينيا)، ابن مبشر الإنجليزي. محافظ متحف كورينثون التذكاري في نيروبي (١٩٤٥ - ١٩٦١). اشتهر بحفرياته الهامة واكتشف انسان زنيا تروب (كسار البندق) في كينيا (اولدوفاي)، عضو الاكاديمية البريطانية، وحاصل على «الوسام الملكي» للجمعية الجغرافية الملكية.

LENORMAND : فرانسوا لينورمان (١٨٣٧ - ١٩٣٣)، عالم آثار فرنسي، عضو أكاديمية المسجلات والآداب، أستاذ بالمكتبة القومية، ومؤسس جريدة الآثار [La Gazette Archéologique].

LEPSIUS : كارل ريشار ليسيوس (١٨١٠ - ١٨٨٤)، عالم الماني في الآثار المصرية، محافظ المقتنيات المصرية في برلين ابتداء من عام ١٨٦٥.

LEVY - BRUHL : لوسيان ليثي - برول (١٨٥٧ - ١٩٣٩)، عالم اجتماع فرنسي، نشر مؤلفات حول العقلية والروح البدائيتين.

LINNÉ : كارل فون ليثي (١٧٠٧ - ١٧٧٨)، عالم طبيعيات (نبات، حيوان، معادن) سويدي الجنسية.

LLOYD : ستون لويد (١٩٠٢ -)، عالم آثار بريطاني. قام بحفريات في مصر (١٩٢٩ - ١٩٣٠) والعراق (١٩٣٠ - ١٩٣٧) وتركيا (١٩٣٠ - ١٩٣٧). مدير المعهد البريطاني في أنقرة (١٩٤٩ - ١٩٦١)، وأستاذ آثار غرب آسيا بجامعة لندن (١٩٦٢ - ١٩٦٩). وأستاذ شرف بعد ذلك.

- MAES : جوزيف ميس. انتنولوجى بلجيكي، نشر عدة دراسات حول الجماعات العرقية فى الكونغو البلجيكي، وحول السيرير.
- MANETHO DE SEBENNYTOS : مانيتو السمنودى (٣٠٠ سنة ق.م.) كاهن مصرى، كتب حوليات باليونانية عن فراعنة مصر منذ الحقب الأولى حتى الإسكندر الأكبر.
- MASPERO : سير جاستون - كاميل شارل ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦)، عالم آثار فرنسى. مدير مصلحة الآثار فى مصر (١٨٨١ - ١٨٨٦) و (١٨٩٩ - ١٩١٤). استاذ علم الآثار المصرية فى باريس ابتداء من عام ١٨٦٩، كاتب غزير الإنتاج، منحه الملك ادوارد السابع لقب فارس، عضو الاكاديمية الفرنسية (١٨٨٣).
- MONOD : تيودور مونو (١٩٠٢ -)، جيولوجى فرنسى. المدير السابق لمعهد فرنسا لإفريقيا السوداء. كان من أوائل مستكشفى الصحراء.
- MORET : الكسندر موريه (١٨٦٨ - ١٩٣٨). عالم فرنسى فى الآثار المصرية، تلميذ ماسبيرو. مدير المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (١٨٩٩ - ١٩٣٨). استاذ بكولوجى دى فرانس (١٩٢٣) وعضو الأكاديمية الفرنسية (١٩٢٧).
- NAVILLE : هنرى - ادوار نافيل (١٨٤٤ - ١٩٢٦)، عالم آثار سويسرى، تلميذ ليبسيوس. قام بحفريات فى مصر (١٨٨٣ - ١٩١٣).
- PEDRALS : دنى - پيبر دى پدرال (١٩١١ -)، عالم آثار فرنسى.
- PETRIE : سير ويليام ماتيو فلندرز پترى (١٨٥٣ - ١٩٤٢)، عالم المجلزى فى الآثار المصرية، مؤلف غزير الانتاج، بدأ أعماله فى مصر فى عام ١٨٨٠. مدير المدرسة البريطانية للآثار فى مصر، ثم فى فلسطين. استاذ علم الآثار المصرية فى جامعة لندن.
- QUATREFAGES DE BRÉAU : جان - لوى أرمان دى كاترفاج دى بريو (١٨١٠ - ١٨٩٢)، عالم طبيعيات فرنسى. أستاذ بالمتحف القومى للتاريخ الطبيعى (باريس) عضو معهد فرنسا.
- QUIBBELL : چيمس ادوارد كيبل (١٨٦٨ - ١٩٣٥)، عالم آثار بريطانى، اشتهر بحفرياته فى صقارة. عمل بمصلحة الآثار المصرية ومتحف القاهرة. مساعد پيترى (١٨٩٤) ومكتشف لوحة نعرمر.
- REISNER : جورج اندرو ريسنير (١٨٦٨ - ١٩٤٢): عالم امريكى فى الآثار المصرية، لقب «بأفضل المنقبين». أصبح ابتداء من عام ١٩١٠ محافظ الآثار المصرية فى متحف بوسطن للفنون الجميلة. استاذ المصولوجيا بجامعة هارفرد (١٩١٤)، ومدير «معسكر هارفرد» الخاص بالأهرامات.
- SCHURÉ : ادوار شوريه (١٨٤١ - ١٩٢٩)، طالب حقوق، ترك دراسته وأصبح مؤرخا وناقدا موسيقيا. وكتابه [LES GRANDS INITIÉS] يتناول النظريات الباطنية عند مؤسسى مختلف الديانات.

SELIGMAN : شارل جبريل سليجمان (١٨٧٣ - ١٩٤٠)، عالم انثروبولوجيا بريطاني شارك في رحلة هادون في مضيق توريس وغينيا الجديدة (١٨٩٨). وقد كلفته الحكومة السودانية بإجراء دراسة حول الاجناس البشرية.

SERGI : جوزيه سيرجي (١٨٤١ - ١٩٣٦)، عالم انثروبولوجيا ايطالي.

SIEGFRIED : اندريه سيغفريد (١٨٧٥ - ١٩٥٩)، اقتصادي وأستاذ فرنسي. صاحب مؤلفات عن البلاد الأجنبية، بما في ذلك الولايات المتحدة. وقد زعم في محاضرة ألقاها في عام ١٩٥٢ حول الإفريقي أن «الأسود قد يكون تابعاً جيداً، ولكنه سيكون مديراً سيئاً».

SMITH : سير جرافتون ايليو سميث (١٨٧١ - ١٩٣٧)، اخصائي تشريح بريطاني. أستاذ علم التشريح بمدرسة الطب في القاهرة (١٩٠٠ - ١٩٠٩)، تخصص في التحنيط.

TEMPELS : الأب بلاسيد تمبلز (١٩٠٦ -). مبشر بلجيكي في الكونغو (البلجيكي سابقاً). نُشر مؤلفه الشهير *الفلسفة البانتو في انفرس في ١٩٤٦*.

VALLOIS : هنري - فكتور فالو (١٨٨٩ - ١٩٧٩)، عالم انثروبولوجيا فرنسي. مدير معهد الحجريات البشرية (متحف الإنسان) بباريس.

VENDRYES : جوزيف فيندريز (١٨٧٥ -)، أستاذ فرنسي في اللغويات أكد على أهمية هذا الفرع الدراسي «كنتمهيد للتاريخ». ومن مؤلفاته : *دراسات كلتية*.

VOLNEY : الكونت كونستانتان - فرانسوا دي شاسبوف فولني (١٧٥٧ - ١٨٢٠)، مثقف فرنسي، ممثل عامة الشعب وعضو الجمعية الوطنية التأسيسية (١٧٩٠)، والاكاديمية الفرنسية، وجمعية أصدقاء السود. ويعتبر كتابه *رحلة في مصر وسوريا*، «من روائع أدب الرحلات». وقد كتب أشهر مؤلفاته *الأطلال أو تأملات في ثورات الامبراطوريات في عام ١٧٩١*. أودع السجن في عهد الإرهاب، ثم عين أستاذاً للتاريخ في مدرسة المعلمين (باريس) في ١٧٩٢. وقد زار الولايات المتحدة في عام ١٧٩٥ حيث استقبله جورج واشنطن بحفاوة شديدة. وعاد الى فرنسا في عام ١٧٩٨ حيث اتهمه چون ادامز بأنه عميل سري يعمل من أجل استعادة مقاطعة لويزيانا. وقد نشر جدول مناخ وترية *الولايات المتحدة (١٨٠٣)*، ومنحه نابوليون لقب كونت بعد ذلك بخمس سنوات. وفي عام ١٨١٤ عينه لويس الثامن عشر عضواً في المجلس التشريعي الأعلى (المكون من ١٢ عضو).

WOOLLEY : سير ليونارد وولي (١٨٨٠ - ١٩٦٠)، عالم آثار بريطاني قام بحفريات في مصر والعراق وسوريا. وقد أسره الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى، كتب مجلداً حول الشرق القديم في إطار *تاريخ العالم*، الصادر عن اليونسكو.

قائمة بالصور والأشكال

ص

- ١ - المواقع الأثرية المصرية والنوبية ١٩
- ٢ - نموذج جميل للحامى الشرقى ٢٧
- ٣- تمثال لونه «إحمر داكن» أو «قاتم» ٣٨
- ٤- العاهل تيرا نتر ٤٨
- ٥- نعمرم أو مينا ٤٩
- ٦- تمثال الإله أوزيريس ٥٠
- ٧- خفرع ٥١
- ٨- امنحوتب الأول ٥٢
- ٩- توت عنخ آمون ٥٣
- ١٠- توت عنخ آمون ٥٤
- ١١- تحتتمس الثالث ٥٥
- ١٢- رأس رمسيس الثانى ٥٦
- ١٣- الفرعون السودانى طهرقا ٥٧
- ١٤- رأس أميرة شابة ٥٨
- ١٥- أميرة مصرية ٥٩
- ١٦- تمثال لقصاب ٦٠
- ١٧- تمثال لظاه ٦١
- ١٨- موظف مصرى ٦٢
- ١٩- مصرى ٦٣
- ٢٠- تمثال من الخشب لفتاة مصرية ٦٤
- ٢١- تمثال رجل مصرى ٦٥
- ٢٢- كاهنة مصرية ٦٦
- ٢٣- رؤوس مصرية من الدولة الوسطى (١) ٦٧
- ٢٤- رسم لجناييجل ٦٨
- ٢٥- تمثال نصفى للأمباطور الرومانى تراجان ٦٩

- ٢٦- تمثال لسورا بيبس (زيوس)..... ٧٠
 ٢٧- رأس برونزي من بنين ٧١
 ٢٨- قناع بونجوى ٧٢
 ٢٩- قناع بونجوى ٧٣
 ٣٠- تمثال صغير من الجولا ٧٤
 ٣١- فن من ايده ٧٥
 ٣٢- فن من ايده ٧٦
 ٣٣- أسرى من الجنوب (معبد أبو سمبل) ٨٢٠
 ٣٤- تمثال نوك من الأجر (نيجيريا) ٨٣٠
 ٣٥- فلاحون سود أسرى (مقبرة حور محب) ٨٤٠
 ٣٦- نماذج لأسرى من اجناس بيضاء ٨٨٠
 ٣٧- لوحة نعرمر ١٠٤٠
 ٣٨ (أ)- لوحة نعرمر (صورة لوجه اللوحة) ١٠٧٠
 ٣٨ (ب)- لوحة نعرمر (صورة لظهر اللوحة) ١٠٨٠
 ٣٩- برج بابل، نموذج لعمليات إعادة البناء ١٢٤٠
 ٤٠- آلات موسيقية وترية ١٥٦٠
 ٤١- ملكة سوداء فى السودان القديم ١٦٦٠
 ٤٢- أثر إفريقي قديم؛ معبد سودانى ١٧٤٠
 ٤٣ إلى ٤٨- كتابات المرقية ٢٣٢- ٢٣٣
 ٤٩- قناع سويسرى مكشّر ٢٣٩٠
 ٥٠- قناع تكهيسى كونغولى ٢٤٠
 ٥١- هجرات الشعوب الزنجية الإفريقية ٢٤٩٠
 ٥٢- محاسبة المتوفى أمام محكمة أوزيريس ٢٥٧٠

فهرست

ص

٧	مقدمة الطبعة الشعبية الصادرة فى عام ١٩٧٩
٩	مقدمة طبعة ١٩٥٤
١٧	الفصل الأول : المصريون : ما أصلهم ؟
١٧	- شهادات الكتاب والفلاسفة القدامى والتوراه وقيمة تلك الشهادات
٢٨	الفصل الثانى : منشأ خرافة الزنجى
٣٦	الفصل الثالث : التزوير الحديث للتاريخ
١١٠	- هل كانت نشأة الحضارة المصرية فى الدلتا ممكنة؟
١٢٢	- هل يمكن أن تكون الحضارة المصرية من أصل أسبوى؟
١٣١	- فينيقيا
١٤٩	- مشكلة الجنس المصرى كما رآها وعالجها الانتروبولوجيون
١٥٥	الفصل الرابع : الحجج المؤيدة للأصل الزنجى للجنس المصرى والحضارة المصرية
	- الطوطمية، الحتان، الملكية، مفهوم نشأة الكون، التنظيم الاجتماعى،
١٥٥	النظام الأوموى
	- القرابة بين السودان المروى ومصر، أسبقية السودان المروى،
١٦٨	وقيام الأسرة السودانية المروية : بعانخى، وشاباكا وسابتكا
١٧٥	- مهد الحضارات فى قلب الهلال الزنجية
١٧٦	- اللغات
١٨٠	- دراسة مقارنة بين قواعد النحو المصرية والولوف
٢٠١	- هل يمكن إعادة صياغة قواعد اللغة المصرية القديمة على أساس لغة الوكوف؟
٢٠٨	- ملاحظات حول بعض الكلمات المصرية القديمة المتميزة
٢٢٧	الفصل الخامس : حجج مضادة لفكرة الأصل الزنجى لمصر
٢٢٧	- هل هو انتكاس ثقافى ؟
٢٤١	- المشاكل التى يثيرها الشعر الناعم والتقاطيع «المنتظمة»
٢٤٢	- هل هو جنس أسود مُسَخَّر؟
٢٤٣	- لون المصريين الأسمر المائل للاحمرار !
٢٤٤	- نقوش نصب فيله

- ٢٤٧ الفصل السادس : إعمار إفريقيا انطلاقاً من وادي النيل
٢٥٢ - كاراكاريه - كاريكاربه
٢٥٤ - أصل البيوروي المصري
٢٥٨ - أصل اللأوي
٢٦١ - أصل البول
٢٦٣ - أصل التوكولود
٢٦٥ - أصل السيرير
٢٧٢ - أصل الأني
٢٧٣ - أصل الفانج والهامون
٢٧٤ - أصل المود
٢٧٥ الفصل السابع : إسهام أثيوبيا - النوبة ومصر في الحضارة

ملاحق

- ٢٨١ افادة حول المصطلحات الأثرية المستخدمة في هذا المؤلف
٢٨٥ موجز سير
٢٩١ قائمة بالصور والأشكال



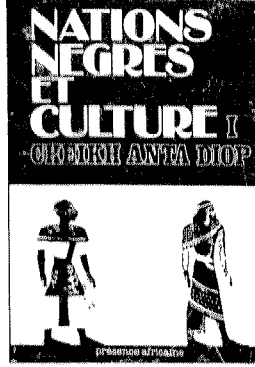
الاصول الزنجية للحضارة المصرية

رقم الابداع	٩٥/٣٧٧٤
رقم دولى	٩٧٧ - ٥٢٢٢ - ١٣ - ٣

مطابع روز اليوسف الجديدة



هذا الكتاب



كان أسلاف البشر الأوائل يقطنون القارة الأفريقية ، وكان لون بشرتهم أسود . وعندما عمروا وادى النيل ، أسسوا فيه الحضارة المصرية النوبية القديمة .

عندما طرح المؤرخ السنغالي الأفكار الثورية التي يتضمنها هذا الكتاب سنة ١٩٥٤ ، تلقاها المجتمع العلمي الدولى باستنكار بل واستهتار ، إذ كان تاريخ مصر وأفريقيا - وقتذاك - ما يزال يُكتب بأقلام بيضاء تنظر إلى « القارة السوداء » باعتبارها نموذجاً للتخلف الحضارى ، وإلى صناع الحضارة المصرية القديمة باعتبارهم من « البيض » : فهل يُعقل أن يأتى أناس سود يمثل هذه الحضارة ؟

والآن ، وقد مرت على صدور هذا الكتاب أربعون سنة أصبح خلالها العديد من أفكاره الثورية من المسلمات العلمية [مع أن البعض ما يزال يثير حولها جدلاً ساخناً] . تقدم دار العالم الثالث رسالة « شيخ أنتا ديوب » إلى جمهور القراء المصريين ، وهو المعنى الأول بها ، حتى يشرع - هو الآخر - فى إعادة النظر فى جذوره الأفريقية وفى انتمائه إلى هذه القارة .



دار العالم الثالث

٢٢ (أ) شارع حسين حجازى ، القاهرة
تليفون ٣٥٥٥٥٠٢ / ٣٩٢٢٨٨٠ فاكس ٣٥٥٠٨٧١

كتاب العالم الثالث

تصميم الغلاف: محيى الدين البليد